جامعة القاهرة

اليوبيل الذهبى

لمعهد البحوث والدراسات الأفريقية

١٩٤٧ ـ ١٩٩٧

الموسوعة الأفريقية



المجلد الثانى

تاريخ أفريقيا

مايو ١٩٩٧


منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

جامعة القاهرة
اليوبيل الذهبى
لمعهد البحوث والدراسات الأفريقية
(١٩٤٧ ـ ١٩٩٧)

الموسوعة الأفريقية

لمحات من تاريخ القارة الأفريقية

تقديم

أ.د. رجب محمد عبد الحليم

إعداد

أ.د. شوقى عطاالله الجمل
أ.د. رجب محمد عبد الحليم
أ.د. نوال عبد العزيز راضى
أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أ.د. السيد على احمد فليفل
أ.د. فوزى درويش
د. حسين سيد مراد
امال مصطفى كمال

المجلد الثانى

مايو ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا المجلد الذى يسعد قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة أن يقدمه للباحثين والطلاب والمهتمين بتاريخ إفريقيا بمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبى للمعهد (٤٧ ـ ١٩٩٧). إنما هو ثمرة جهد ثلة من أساتذة قسم التاريخ المتخصصين فى هذا النوع من الدراسات التاريخية.

ولاشك أن هذا العمل يغطى تاريخ القارة الافريقية فى مختلف عصورها بدءا من التاريخ القديم، ومرورا بالتاريخ الاسلامى والوسيط، وانتهاء بالتاريخ الحديث والمعاصر حتى حصول دول القارة الافريقية التى كانت ترزخ تحت نير الاستعمار الأوربى على استقلالها.

ولاندعى أننا غطينا كل موضوعات التاريخ الافريقى عبر هذه المساحة الزمنية الطويلة، لأن هذا الأمر يحتاج الى مجلدات، وإنما كان همنا أن نعطى للقارئ الكريم فكرة موجزة عن المعالم التاريخية الأساسية للقارة الافريقية، ولذلك كان من المهم أن ينتهى كل عصر من هذه العصور التاريخية بثبت واف بأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية حتى يرجع إليها من يريد مزيدا عما أعطاه هؤلاء الباحثون الذين نقدم لهم كل الشكر جزاء ما أنجزوا وما قدموا وفاء لقسمهم ومعهدهم وقارتهم التى ينتمى الجميع اليها، والتى يقوم هذا المعهد العريق بجهود علمية متواصلة لدراستها من كافة جوانبها التاريخية والجغرافية واللغوية والأنثروبولوجية والسياسية والموارد الطبيعية.

ولذا كان من الواجب علينا أن نقدم الشكر خالصا للاستاذ الدكتور السعيد

إبراهيم البدوى عميد المعهد الذى أتاح الفرصة لهذا العمل ولغيره من الأعمال كى يخرج الى النور، بقيادته الواعية السليمة، وبروحه الانسانية الودودة، وبجهوده العلمية الخلاقة، التى حولت المعهد الى خلية عمل علمى دءوب وجاد كما نقدم الشكر الجزيل لكل من ساهم فى هذا العمل العلمى الجليل وهو عمل قسمناه الى ثلاثة فصول: يتناول الفصل الأول تاريخ القارة القديمة، ويتحدث الفصل الثانى عن تاريخ الدول العربية والإسلامية فى القارة فى العصر الإسلامى والوسيط، ويتناول الفصل الثالث تاريخ معظم دول القارة فى العصر الحديث والمعاصر حتى حصول القارة على الاستقلال فى عام ١٩٦٠م.

ونرجو أن يحقق هذا العمل مايهدف إليه من إلقاء ضوء على تاريخ افريقيا عبر هذه العصور، ويفتح المجال أمام الباحثين لمزيد من الدراسة والبحث.

والله الموفق، عليه نتوكل وبه نستعين،،،،

أ. د. رجب محمد عبد الحليم

رئيس قسم التاريخ

الفصل الأول

تاريخ افريقيا القديم

أ- تاريخ مصر وافريقيا الشمالية القديم *

ان التقسيم الحضارى لحياة الانسان يقوم على أساس تطور فكره الاقتصادى وقدرته الصناعية وأيضا تطور تفكيره المعنوي، ويمكن تقسيم تاريخ الانسان من ناحية تطوره الحضارى على اساس هذا المفهوم كالتالي: -

١ - عصور ماقبل التاريخ او العصور الحجرية وتنقسم الى: -

أ - مرحلة جمع الطعام:

وهى التى بدأت منذ ظهور الانسان واستمرت الى حوالى عام ٧٥٠٠ ق.م فى بعض المواقع، وهى الفترة التى عاش فيها الانسان متنقلا فى سبيل البحث عن طعامه ولم يصل طوال هذه الفترة لمرحلة الاستقرار الكامل وتعرف هذه المرحلة بالعصر الحجرى القديم (الباليوليتى Paleolithic) واصطلح على تقسيمها الى عصر حجرى قديم أسفل وأوسط وأعلي.

ب - مرحلة انتاج الطعام

وهى مرحلة التحول الاول الكبير فى حياة الانسان من جامع للطعام الى منتج له أى بداية التوصل للزراعة وذلك جوالى عام ٧٥٠٠ ق.م وفى مرحلة

---

* أمال مصطفى كمال.

أخرى من هذا العصر عرف الانسان بناء القرى والاستقرار المادى والمعنوى وتعرف هذه المرحلة بالعصر الحجرى الحديث النيوليتىNeolithic

٢ ـ العصور التاريخية او مرحلة المدنية Civilization

والتى تميزت بتوصل الانسان للكتابة وبناء المدن وتنظيم مجتمعه من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وذلك حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م.

وينقسم تاريخ أفريقيا الشمالية القديم الي:

ـ تاريخ مصر القديم وحضارتها

ـ تاريخ بلاد المغرب القديم وحضارتها

اولا: تاريخ مصر القديم وحضارتها

١ ـ العصور الحجرية:

ان النتاج الحضارى للعصور الحجرية هو أصدق مثل على تفاعل الانسان مع البيئة وتسخيره كافة الامكانيات المحيطة به واكتسابه العديد من الخبرات، وتنقسم العصور الحجرية فى تاريخ مصر القديم الي:

أ ـ العصر الحجرى القديم:

فى هذا العصر بدأ الانسان حياته الاولى جامعا للطعام وذلك منذ حوالى نصف مليون سنة على الاقل، واتصل الانسان خلال هذه المرحلة بمختلف مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية وواجه الصعوبات البيئية المختلفة واعتمد

اقتصاده وحياته على الصيد والجمع والالتقاط وقد تطلب هذا النمط من الحياة صنع أدوات حجرية، فالحجر كان المادة التى تتوفر فى البيئة بسهولة، وعاونته تلك الادوات على تنفيذ رغباته وتحقيق أغراضه السلمية والدفاعية، وعلى ذلك فالحجر يعتبر أقدم مادة أستخدمها الانسان وصنع منها أدواته الاولى الى جانب العظم والخشب والعاج، وينقسم العصر الحجرى القديم الى:

١ ـ العصر الحجرى القديم الاسفل:

هذه المرحلة تمثل الجهد الانسانى الاول فى مجال صنع حضارته ويعتبر الفأس اليدوى هو الاثر المميز لتلك المرحلة، وتتوفر آثار هذا العصر فى مصر على الهضاب المطلة على نهر النيل وكذلك فى بعض المناطق الصحراوية، وقد عثر على الفؤوس اليدوية فى أبيدوس والفيوم وقنا، كما أدى الكشف عن طبقات المحاجر فى شمال القاهرة فى موقع العباسية الى التعرف على بعض آثار هذا العصر.

٢ ـ العصر الحجرى القديم الاوسط:

يمكننا أن نلمس فى هذا العصر معالم قدرة صناعية فنية جديدة فى صناعة الادوات الحجرية وهى صناعة الشظايا وهى الصناعة المميزة لحضارة هذا العصر ونتجت عن عمليات تشذيب الحجر والتخلص من بعض الشظايا لصنع شظايا دقيقة تكون أكثر صلاحية لاحتياجات الانسان المختلفة، ومن أهم مميزات هذه المرحلة الحضارية خروج الانسان عن دائرته واتساع نطاق اتصالاته الخارجية وتأثيره بمجهوداته الحضارية فى المناطق التى يتصل بها، فهناك شواهد لاتصالات حضارية تدل على الصناعات الحجرية فى مصر فى منطقة واحة الخارجة وبين الصناعات الحجرية فى المغرب فى منطقة بئر العاتر جنوب تونس حيث الحضارة المسماه بالعاترية.

٣ ـ العصر الحجرى القديم الاعلي: ـ

وتعتبر هذه المرحلة من العصر الحجرى القديم أهم مرحلة فى مجال التطور الحضارى لهذا العصر لانها تمثل خلاصة التجارب التى واجهت الانسان فى الماضى والاداة المميزة لهذا العصر هى الاسلحة الحجرية النصلية المعروفة باسم الادوات الميكرولثية Microlithic وتتمثل تلك المرحلة فى مصر فى الحضارة السبيلية نسبة الى بلدة السبيل بجوار كوم أمبو، وفى هذه المرحلة ازدادت قدرات الانسان الفكرية فرسم النقوش على جدران الكهوف ونقش رسومات حيوانية على الصخر معبر ا عن أفكاره، وتطورت طريقة التعبير تلك الى أن وصلت لمرحلة التعبير بالكتابة فى بداية العصور الحديثة.

ب ـ العصر الحجرى الحديث: ـ

تعتبر هذه المرحلة من أخطر المراحل الانسانية لانها تمثل نقلة حاسمة فى حياة الانسان وهى النقلة من الجمع والإلتقاط والتجول وعدم الاستقرار الى تعلم الزراعة والانتاج والاستقرار المادى والفكرى لأول مرة فى حياة الانسان، وهذه النقلة لم تحدث مبكرة فى أى منطقة كما حدث فى مصر بسبب الصفة الفريدة للبيئة المصرية حول وادى النيل وهى الهضاب المطلة عليه والتى تسمح للقاطن عليها بتتبع هذا المجرى الآتى من الجنوب والذى يحمل بذور الخصب والنماء وما يتبعه ذلك من حياة نباتية غنية. ولاشك أيضا أن عامل انتظام البيئة فى مصر كان مساعدا فى التوصل للزراعة والاستقرار، ومن ظواهر ذلك انتظام فيضان النيل والغرين الذى يحمله كل عام، وقد استغرقت هذه المرحلة حوالى الالف عام حتى تمكن الانسان من الانتقال الفعلى لمرحلة الزراعة والاستقرار، ويمكن تتبع آثار الانسان فى ذلك العصر فى مصر فى عدة مواقع فى مصر الوسطى والسفلى منها: حضارة الفيوم وتمثل حضارة هذا المجتمع بداية نشأة القرى

واستقرار الانسان بصورة نهائية فى مصر منذ منتصف الالف السادس ق. م وأستقر الانسان فى هذه المنطقة حول بحيرة قارون ثم الموقع الثانى فى قرية مرمدة بنى سلامة على الضفة الغربية لفرع رشيد بغرب الدلتا، الموقع الثالث، حلوان العمرى وتقع شمال ضاحية حلوان، أما فى مصر العليا فتمثل حضارة هذا العصر قرية ديرتاسا على الضفة الشرقية للنيل جنوب شرق أسيوط وتمثلت فى هذه المجتمعات ظاهرة بناء القرى والمنازل والمقابر ومخازن للمحاصيل، ومعرفة العجلة الفخارية اليدوية واستخدام النار ووجود بعض الادوات الحجرية المتطورة وبقايا عظمية لحيوانات.

٢ ـ العصور التاريخية:ـ

أ ـ العصر الفرعوني

سمى هذا العصر بعصر الاسرات وسبقه عصر عرف بعصر ماقبل الاسرات كانت مصر مقسمة فيه الى عدة امارات صغيرة مستقلة اتحدت تدريجيا حتى كونت مملكتان احداهما فى الوجه القبلى والأخرى فى الوجه البحرى أو مصر العليا ومصر السفلى وسميت مصر فى ذلك الوقت بأرض القطرين وفى عام ٣٤٠٠ ق.م اتحد القطران تحت سلطة الملك مينا وكان أول من حكم ارض مصر جميعا وأسس الاسرة المصرية الاولى وبدأ عصر الاسرات الذى قسمه المورخ المصر مانيتو Manetho الى ثلاثين أسرة، وكان حكم الاسرات فى مصر نتيجة مباشرة لرقى وتقدم تدريجى فى حضارة الزمن السابق، وانقسم هذا العصر الى ثلاثة مراحل أو دول هى، الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة وتخللت تلك المراحل فترات من الازدهار والاضمحلال وغزوات خارجية وانتصارات للمصريين

الدولة القديمة: ـ

حكم ملوكها من عام ٢٩٨٠ الى عام ٢٤٧٥ ق.م فى الاسرات من الثالثة حتى السادسة واتخذوا من منف عاصمة لدولتهم، وفى عهد هذه الدولة تقدمت البلاد تقدما سريعا وزاد عمرانها وقوى نفوذها وامتاز عهدها أيضا بارتقاء الآداب والعلوم، وامتد النفوذ المصرى حتى بلغ شبه جزيرة سيناء بحثا عن معادنها وبلغت تجارة المصريين شواطيء فينيقيا وجزر البحر الابيض المتوسط شمالا، ثم توغلت أساطيل الفراعنة جنوبا حتى ساحل بلاد الصومال أو بونتPunt جنوب البحر الاحمر، وبسط الملوك نفوذهم جنوبا فى بلاد النوبة وأمنوا طريق التجارة بتشييد الحصون تارة وشن الغارات والحروب تارة أخري. ومع تولى الاسرة السادسة الحكم سعى حكام الاقاليم للاستقلال كل بولايته حتى ضعفت السلطة المركزية بالبلاد وتمكنوا من اسقاط البيت الحاكم الفرعونى وضعفت أهمية منف العاصمة من الناحية الادارية وحكم ملوك الاسرتين السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة من اهناسيا وسمى هذا العصر بعصر الاضمحلال الاول.

الدولة الوسطي: ـ

بدأت البلاد تستعيد قوتها وازدهارها عل عهد الاسرة الحادية عشر والتى أسس ملوكها الدولة الوسطى وكانت أسرة طيبية (من طيبة فى مصر العليا) حكمت حوالى عام ٢١٦٠ ق.م واستمر الصراع بين حكام الاقاليم لكن ملوك الاسرة الثانية عشرة الذين حكموا من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٨ ق.م انقذوا البلاد من هذ ا الخطر مما دفع مصر فى طريق التطور والتقدم وتقدمت فنون الأدب من شعر ونثر وفنون الحفر والعمارة وزادت خيرات البلاد واعتنت الحكومة بأمور النيل والفيضان وأقامت الرى جهة الفيوم وتطلع الملوك لشبه جزيرة سيناء

للاستكشاف والتنقيب عن المعادن وشيدوا هناك القلاع والمعابد وخزانات المياه ووصل نفوذ مصر حتى سوريا وازدهرت العلاقات التجارية بين مصر وأهالى جزر البحر المتوسط ومع ساحل الصومال وفى النوبة أمتد نفوذ المصريين حتى الشلال الاول والثانى واستثمروا مناجم ذهب النوبة وفى أواخر عهد الدولة الوسطى غزا الهكسوس مصر وحكموها لمدة قرن تقريبا حتى هزمهم أحمس وتتبعهم حتى سوريا، ونتيجة لغزو الهكسوس أختفى أمراء الاقاليم بعد أن أنهكتهم المنازعات الشخصية ولم يبق منهم إلا القليل الذين انضموا تحت لواء ملوك طيبه الذ ين أسسوا الاسرة الثامنة عشرة على يد أحمس عام ١٥٨٠ق.م والتى بدأ بعدها ماعرف بالدولة الحديثة.

الدولة الحديثة: -

فى عهد هذه الاسرة (الثامنة عشرة) اصبحت مصرا امبراطورية من أكبر امبراطوريات العالم امتدت حدودها من سوريا وأعالى الفرات شمالا الى الشلال الرابع فى النيل جنوبا وأصبحت طيبة العاصمة مركزا للتمدن العالمى وحكم ملوك هذه الاسرة نحو مائتين وثلاثين عاما من عام ١٥٨٠ الى عام ١٢٥٠ق.م ازدهرت خلالها التجارة المصرية مع الشرق وشواطىء البحر الأبيض المتوسط، وسقطت الاسرة الثامنه عشرة بسبب منازعات داخلية وخارجية وبسبب ثورة دينية قادها الملك اخناتون وأخذ النفوذ المصرى يضعف تدريجيا على آسيا الصغرى تحت ضغط الحيثيين الذين زحفوا حتى حدود مصر الشمالية الشرقية.

وانتهى الدور الاول من تاريخ الامبراطورية المصرية بسقوط الاسرة الثامنة عشرة فى عام ١٢٥٠ ق. م وأثناء حكم الاسرة التاسعة عشرة من عام ١٢٥٠

الى عـام ١٢٠٥ ق.م أخذت مـصـر تسـترجع مـافـقدته من ممتلكات فى آسـيـا الصغرى على يد سيتى ورمسيس الثانى لكن الاحوال فى مصر اضطربت مرة أخرى بسبب هـجوم عناصـر ليبيـة على غربى الدلتـا وعمت الفـوضى وسـقطت الاسرة التاسعة عشرة ثم ظهر رمسيس الثالث وأسس الاسرة العشرين التى حكمت من عام ١٢٠٠ الى عام ١٠٩٠ق.م وحاول الحفاظ على كيان الامبراطورية المصرية لكن بوفـاته أسـدل السـتـار على الدور الثـانى من عـهـد الامـبـراطورية المصرية وفقـدت مصـر ممتلكاتها فى النوبة وتولى عـرش مصـر ملوك ضـعـاف حتى تولى الحكم أسرة ليبيـة نجـحت فى اغتـصـاب العـرش وأسـست الاسـرة الثـانيـة والعـشرين على يد شـشنق الاول وتقـدمت البـلاد فى عـهـده الى حـد مـا وحاول استرجاع فلسطين، لكن قادة الجيش زاد نفوذهم وساءت أحوال البلاد الى أن ظهـرت بلاد النوبة على مـسـرح الاحداث وظهـرت مملكة نوبية قـوية عند الشـلال الرابع اتخذت من نباتا عـاصـمة لها وغزا ملوكها مصـر وحكموها من سنه٧٢٢ الى ٦٦٣ ق.م مـتمـثلة فى الاسرة الخامسـة والعشرين النوبيـة وأثناء حكمها تعرضت مصر لغزو الآشوريين فيما بين ٦٧٠ و٦٦٢ ق.م وقضى عليهم أميـر مـصـرى من صـا الحـجـر غربى الدلتـا هو بسـمـاتيك الاول عـام ٦٦٣ ق.م وأسس الاسرة السادسة والعشرين الصاوية وتراجع النوبيون لعاصـمتهم نبـاتا وبدأ بسـمـاتيك عـهـد الاصـلاح بالبـلاد بعـد مـا أصـابهـا من الحكم النوبى والغـزو الآشـورى لكن أحـوال البـلاد الداخليـة عرضـتـهـا فى ذلك الوقت لمطامـع الفـرس فـغـزاهـا قـمـبـيـز الملك الفـارسى فى ٥٢٥ ق.م وذلك فى عـهـد الاسـرة السـابعـة والعـشرين وأصـبـحت مـصـر ولاية فى الامـبـراطورية الفـارسـيـة، وحـاول بعض الحكام الذين لم يعمروا طويلا تأسيس عـدة أسر (من الثـامنة والعشرين حتى الثلاثين من عام ٥٥٥ الى عام ٣٣٢ ق.م) حتى دخل الاسكندر الاكبر المقدونى مـصـر بعد أن أنهى حـروبه فى الشـرق ضـد الفـرس وتنازل له ملكهم دارا عن

الممتلكات الفارسيةج غربى الفرات، وبدأت مصر بذلك عهدا جديدا هو العصر الهلينستى Hellenistic period وعرفت تلك المرحلة من تاريخ مصر بالعصر البطلمي.

ب ـ العصر البطلمى : ـ

بعد وفاة الاسكندر فى عام ٣٢٣ ق.م قسمت الامبراطورية الواسعة التى خلفها وراءه بين قادته وكانت مصر من نصيب أحد قواد الاسكندر السبعة وهو بطليموس وظل الحكام من بعده فى هذا العصر يحملون نفس الاسم بطليموس وسمى عصرهم فى مصر بالعصر البطلمى (أصبحت مصر فى ذلك الوقت جزءا من العالم الهلينستى الذى شمل تلك البقاع التى تألفت منها امبراطورية الاسكندر التى ازدهرت فيها حضارة جديدة اصطلح على تسميتها بالحضارة الهلينستية وتعنى الحضارة الهلينية (الاغريقية) القديمة ممتزجة بعناصر الحضارة الشرقية.

وقد اتبع البطالمة فى مصر نفس سياسة الاسكندر فاهتموا بتشييد المدن التى أخذت صفة المدن الاغريقية وأطلق عليها اسم متروبوليس Metropolis أى أمهات المدن (بمعنى المراكز أو العواصم) ولكنها لم تتمتع بالحكم الذاتى فلم يكن لها مجلس للشورى ولاجمعية شعبية أما المدن الاغريقية الخالصة فكانت مثل مدينة بطليموس Ptolemaeus التى أسسها بطليموس الاول قرب أخميم على الشاطيء الغربى للنيل بمحافظة سوهاج.

وقد اعتبر البطالمة فى مصر ملوكا وفراعنة وآلهة فى نظر رعاياهم المصريين الذين أحسوا أنهم يعاملون فى ظل البطالمة معاملة الادنياء المغلوبين على أمرهم نتيجة عدم المساواة بينهم وبين الاغريق من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية وقد

اختلطت الطبقات العليا من المصريين بالاغريق واصطبغت بالصبغة الهلينية بينما احتفظ الفلاحون بتقاليدهم وأساليب حياتهم القديمة ولغتهم الوطنية، وأهم طبقة كانت المستوطنون الاغريق الذين كانوا يعيشون فى المدن الاغريقية المتمتعة بالحكم الذاتى ولو أن ذلك كان من الناحية النظرية فقط لان تلك المدن كانت تخضع للسيطرة الملكية وكانت لها قوانينها الخاصة وأهمها تحريم الزواج من المصريين أما الاغريق وغيرهم من الاجانب خارج تلك المدن فكانوا يعيشون فى جاليات لها بعض النظم. ومن ناحية القضاء والتشريع كانت مراسيم الملك وأوامره تلغى قوانين المدن الاغريقية وقوانين وقرارات هذه الجاليات وظل القانون المصرى القديم معمولا به بين المصريين ووجدت محاكم اغريقية متنقلة للفصل فى قضايا الاغريق خارج المدن الاغريقية ومحاكم وطنية للمصريين ومحاكم مختلطة تفصل فى القضايا المدنية التى كانت تنشب بين الاغريق والمصريين.

أما النشاط الاقتصادى فكان قائما على الزراعة فالملك هو صاحب أجود وأخصب الاراضى وتسمى الارض الملكية وكانت تؤجر لفلاحين يعرفون باسم المزارعين الملكيين وكانت هناك أيضا الضياع الكبرى التى منحت لكبار الموظفين والمقربين للملك وأيضا أراضى تعرف باسم «أرض الامتلاك الخاص» وكانت تمنح لاصحابها بموجب عقود ايجار طويلة الاجل أو عقود وراثية وقد تنوعت المحاصيل الزراعية بفضل ادخال أنواع جديدة الى جانب المحاصيل القديمة، وادخال نظم جديدة فى الرى أدت الى زيادة واضحة فى مساحة الاراضى المزروعة. والى جانب الزراعة وضع البطالمة نظاما نقديا بعد أن كان أساس المعاملة فى مصر هو نظام المقايضة فسك بطليموس الاول عملة ذهبية وفضية وبرونزية وانشئت المصارف فى انحاء البلاد، لكن المقايضة لم تختف تماما فظلت ايجارات الارض الملكية وبعض المرتبات تدفع عينا، وكان هناك نظام الاحتكار الحكومي، ومن الاحتكارات الحكومية كانت الاعمال المصرفية واحتكار انتاج

الزيت والمنسوجات أما من ناحية التجارة فقد بذل البطالمة جهدهم لتنشيطها لأنه برغم ثراء مصر الزراعى كانت البلاد فقيرة فى كثير من المنتجات وكان عليها أن تبحث عما ينقصها فى الخارج فاستورد البطالمة الاخشاب والمعادن والنبيذ وزيت الزيتون والسمك المملح ومختلف أنواع الفاكهة والجبن والخيول، وكانت مصر تورد أثمن منتجاتها وهو القمح وكذلك البردى والكتان والزجاج حتى غدت مصر مركزا لتجارة عابرة نشيطة فمن الصومال وشرق أفريقا وبلاد العرب والهند كان يأتى الذهب والاحجار الكريمة والعاج والتوابل والاصباغ واللؤلؤ وبعض أنواع الاخشاب النادرة والقطن والحرير، وكانت تلك السلع تنقل برا من موانى البحر الاحمر عبر الطرق الصحراوية الى قفط على النيل محملة على الجمال، وأحيانا كانت تلك السلع تصنع وتستهلك محليا أو تصدر مصنعة. كذلك ازدهرت فى عصر البطالمة الحياة العلمية والفكرية فتطورت العلوم والفنون والآداب واصبحت مدينه الاسكندرية العاصمة مركزا للعلم والعلماء فكانت بها اكبر وأعظم مكتبة علمية فى العالم القديم. لكن اهتمام الملوك البطالمة بالمصالح الشخصية وبالجانب الاقتصادى على حساب الجوانب الاخرى عرض أزدهار المملكة للانهيار خاصة منذ عهد بطليموس الرابع الذى انصرف للملذات والترف وأهمل شئون الجيش والاسطول فشجع ذلك انتيوخوس الاكبر Antiochus ملك سوريا بتهديد أملاك مصر هناك لكنها استعادت نفوذها بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق.م، لكن الاحوال ساءت فى مصر فتوالت ثورات المصريين ضد البطالمة فى طيبة فى مصر العليا ودبت الخلافات والمنازعات داخل البيت البطلمي، وهدد مصر خطر خارجى مصدره قوة جديدة ظهرت فى عالم البحر المتوسط وهى روما التى رحبت بمطامع انتيوخوس ملك سوريا وفيليب ملك مقدونيا فى مصر، لكن فى النهاية أدمجت سوريا ومقدونيا فى الاملاك الامبراطورية، أما الاسرة البطلمية فقد أنجبت فى آخر أيامها شخصية ذائعة الصيت هى الملكة البطلمية كليوباترا السابعة التى وقفت فى الحرب بين القائدين

الرومانيين أوكتافيوس وانطونيوس مع الاخير وكانت معركة أكتيوم Actium الفاصلة عام ٣١ ق. م على ساحل اليونان الغربي وانهزمت فيها كليوباترا وحليفها الروماني وانتهت بذلك دولة البطالمة فى مصر بعد انتصار أوكتافيوس ليبدأ بذلك عصر جديد فى مصر هو العصر الروماني.

جـ ـ العصر الروماني : ـ

أصبحت مصر نتيجة لمعركة أكتيوم ولاية رومانية عام ٣٠ ق.م وضمها أوكتافيوس المنتصر لممتلكات الشعب الروماني، وبمقتضى التسوية التى تمت فى عام ٢٧ ق.م لتقسيم ممتلكات روما التى أصبحت امبراطورية كبرى على رأسها أوكتافيوس الذى منحه الشعب ومجلس الشيوخ الرومانى لقب أغسطس وصار أول امبراطور، بمقتضى هذا التقسيم بين الامبراطور ومجلس الشيوخ أصبحت مصر من نصيب الامبراطور وبينما كان اغسطس يعتبر نفسة المواطن الاول فى روما كان فى مصر وريثا للبطالمة وفى نظر المصريين فرعونا وسيد الارضيين وعين نائبا عنه فى حكم البلاد يسمى والى مصر Praefectus Aegypti وكانت أولى المهام التى واجهت روما فى مصر هى اقرار النظام واقامة حكومة قوية بعد أن اشتعلت نيران الثورة والحروب الاهلية فى مصر على آخر عهد البطالمة، وقد خصص أغسطس لمصر قوات حربية هائلة وجعل معسكرها الرئيسى فى الاسكندرية، وبعض كتائب منها كانت ترابط فى مواضع مختلفة من مصر العليا. وقد تركزت السلطة العليا فى يد الوالى الذى كان فى نفس الوقت قائدا أعلى للجيش ورئيسا للادارة المدنية ومديرا للشئون المالية وشئون القضاء والعدالة. وقسمت مصر الى ثلاث مناطق كبرى على رأس كل منها مدير يسمى Epistrategos والمناطق الثلاث هى : طيبة ومصر الوسطى والدلتا وكانت اختصاصات هؤلاء المديرين ادارية فقط، وقد ميز الرومان كما

فعل البطالة بين الرومان وغيرهم من الاجناس وبين المصريين الذين كانوا يعتبرونهم مستسلمينDediticu أى أدنى مرتبة من غيرهم ولاحقوق سياسية محدده لهم وخاضعين لضريبة الرأس وكانت أعلى طبقات المجتمع هى طبقة من الرومان عرفت باسم «طبقةالجيمنازيوم» وكانت تتألف من المواطنين الموسرين الذين تلقوا تعليمهم فى معهد التربية «الجيمنازيوم» والتحقوا بمنطقة تدريب الشباب وكان هؤلاء وحدهم هم اللائقين لتولى المناصب البلدية بالمدن مثل مدير الجيمنازيوم ومدير منظمة الشباب والكاهن الاعلى وأمين السجلات ومراقب السوق العامة ومراقب التموين، كما أدخل الرومان فى مصر نظام التعداد المنتظم الذى يجرى مرة كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم «السجل أو الاحصاء السكني» ويشمل احصاء العقارات والانفس. كما أنشأ الرومان الى جانب دور المحفوظات المركزية بالاسكندرية دورا اخرى احفظ السجلات الرسمية فى المدن وهى دار المحفوظات العامة ودار السجل العقاري، أما بالنسبة لنظام الارض فقد ظلت الارض الجيده تؤلف الارض العامه الرومانية والتى احتفظت باسمها القديم «الارض الملكية» كما وجدت الضياع الكبرى التى عين عليها الامبراطور وكيلا أو ناظر الضياع.

وقد اتبع الرومان نظاما جبائيا صارماً أدى الى اندلاع نيران الثورة فى طيبة ضد جباة الضرائب ولكن بعد أن أخمد الرومان تلك الثورة أعيد الامن الى نصابه، كما أمنت الحكومة الرومانية الحدود من خطر الغزوات التى كان يشنها سكان الجنوب، وراجت التجارة الخارجية رواجا كبيرا وخاصة بعد تطهير البحر المتوسط من القراصنة وأدى اكتشاف الرياح الموسمية الذى يرجج أنه تم فى أوائل العصر الامبراطورى الى نشاط التجارة مع الهند والشرق نشاطا ملحوظا.

ولكن رغم ازدهار مصر فى بداية عصر الامبراطورية الرومانية الا أن

انتهاج الرومان نفس سياسة البطالمة بمعاملة مصر على أنها مجرد ضيعة تستغل لصالح الحكام، بالاضافة الى ان روما كانت مالكا غائبا فكان معظم القمح المحصل كايجارات من مزارعى الارض الملكية أو كضرائب من ملاك الاراضى يرسل الى روما مع الضرائب النقدية العديدة لينتفع بها الشعب الرومانى وتخسره مصر تماما، وكان نظام جباية الضرائب أصدق مثل على سياسة الاستغلال والابتزاز ويبدو أن الازمات التى تعرضت لها الحكومة الرومانية فى مصر فى القرن الثانى الميلادى كانت مؤقته فقد تعاقب على عرش الامبراطورية فى هذا القرن أباطرة أكفاء ومستنيرون مثل هادريان الذى اشتهر بعطفه على سكان الولايات وارتفع بفضل هؤلاء الاباطرة مستوى الكفاية والعدالة واهتم الرومان بالثقافة الاغريقية كما فرضت اللغة اللاتينية لتدرس فى المدارس الى جانب الاغريقية.

وفى ذلك القرن كان الحدث الاكبر وهو دخول المسيحية مصر وانتشارها وقد تعرض معتنقو هذه الديانة للاضطهاد، وتجدر الاشارة الى أن الحكومة الرومانية لم تضطهد المسيحيين بسبب عقيدتهم الدينية، لانها كانت متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية، لكن المسيحيين كانوا فى نظر الحكومة مواطنين أشرار وعنصرا خطرا لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية ولايقدسون الأباطرة ولا يشتركون فى عبادة روما المؤلهة والروح الحارسة للامبراطور، واتهموا بسبب تفرغهم للعبادة وما يوحى به ذلك من أنهم جماعة سرية بجرائم أخلاقية وسلوكية. وكانت الاسكندرية فى العصر الرومانى وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية بعد روما مركزا للتقريب بين أسمى الافكار فى الوثنية والأفكار الوليدة فى المسيحية واشتهرت كنيستها فى العالم المسيحى كله.

لكن مظاهر الانهيـار أخـذت تزداد على مـر الايام أثناء القـرن الثـالث الميـلادى فـأشتـعلت نيران الحروب الاهلية وظهرت حروب خـارجية وأنتشر وباء الطاعون وأشتـدت الأزمة الاقـتصـادية فى كافـة أنحـاء الامبراطورية فـاجـدبت مسـاحـات شاسعة من الاراضى وأنخفضت قيمة العملة.

وفى عـام ٢٨٤م نادى الجيش الرومـانى فى الشـرق بقـائد الحـرس الخـاص ديوقليس (Diocles) والذى سمى من بعد دقلديانوس امبراطورا والقيت على عاتقه مهمة انقاذ الامبراطورية من براثن الانحلال وتعتبر اصلاحاته إحدى نقط التحول الهامة فى التاريخ والتى شملت الادارة والجيش والاقتصاد، والواقع أن أهم هدف سعى اليه دقلديانوس من وراء اصلاحـاته توحيـد النظام الادارى و تبسيطه، وتحقيقـا لهذا الهدف أتخذ خطوة أخرى وهى اعتبار اللاتينية لغة رسمية فى مصر التى كانت تحتل فيها اللغة الاغريقية تلك المكانة حتى ذلك الوقت. ولاشك أن أشهر ماعرف به عصر دقلديانوس هو اضطهاده للمسيحيين وعرف عصره بعصر الشهداء حتى أن الكنيسة القبطية فى مصر كانت تؤرخ الاحداث بعصره. كذلك عرفت الامبراطورية فى عهده ثنائية الحكم وهو ما كان معروفا فى العهد الاخير من الجمهورية الرومانية، حيث وجد أن الامبراطورية على درجة من الاتساع تعوق قدرته على التحكم فى شئونها فقسمها فى ٢٨٦م بينه وبين شريكه ماكسيميانوس (Maximianus) وتولى هو حكم ولاياتهـا الشرقية وماكسيميانوس الغربية وأناب عنه فى حكم الولايات الشرقية حاكم الشرق المسمى(Comes Orientis) أو كـونت الشـرق وتخـضع له ادارة الحكومة فى مصر وقد انفصلت مصر عن الادارة الشرقية فى عام ٣٨٣م.

د ـ مصر البيزنطية: ـ

بعـد وفـاه دقلديانوس اندلع الصـراع حـول العـرش الى أن ظهـر نجم

قسطنطينوس (Constantinus) الاول فى سماء الاحداث فى عام ٣٠٦م وتولى عرش الامبراطورية شريكا مع ليكينيوس (Licinius) (٣١٣ ــ ٣٢٤م) على أن يتولى هو أمر الامبراطورية الغربية وليكينيوس الشرقية وقد أقر فى عام ٣١٣م وفقا لشروط اتفاقية ميلان مبدأ التسامح الديني، وعندما انفرد قسطنطينوس بعرش الامبراطورية بعد أن تخلص من شريكه فى ٣٢٤م أعلن فى هذا العام المسيحية الديانة الرسمية فى الامبراطورية ثم الديانة الوحيدة فى جميع أرجائها ثم أسس مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية مكان روما وأقامها فوق مستوطنة بيزنطة (Byzantium) المستعمرة الاغريقية القديمة عند مدخل مضيقى البسفور والدردنيل والتى ستصبح عاصمة للامبراطورية البيزنطية فى الشرق، وبعد وفاة قسطنطينوس قسمت الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة وكانت افريقيا من نصيب كونستانس (Constans) ثم أنفرد بالعرش الابن الاخر وهو قسطنطيوس (٣٥٣ ــ ٣٦٠م) وفى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس تعرضت الامبراطورية الغربية لهجمات القبائل الجرمانية على ولاياتها فسقطت على يد تلك القبائل فى ٤٧٦م بينما استمرت الامبراطورية الشرقية تمثلها بيزنطة وظلت مصر جزءامن تلك الامبراطورية، وقد شهد القرن الخامس حدوث النزاع الكنسى بين الكنيسة المصرية والكاثوليكية، وأصبحت الحضارة الهلينية (الاغريقية) الغربية تتهددها الاخطار فى الاسكندرية وباقى أنحاء مصر بسبب التيارات المضادة لهذه الحضارة والتى أحدثتها حركة الرهبنة وحركات المقاومة الوطنية التى ازدادت نتيجة للتدهور الاقتصادي، وكان لابد من احداث التغيير والاصلاح، وكانت أبرز مظاهره تبسيط النظام الضريبى واختفاء المراكز والاقاليم التى تنقسم اليها المنطقة الريفية والتى أصبحت تؤلف مقاطعة واحدة تسمى (Praepositus) وذلك فى عهد ليو الاول (٤٥٧ ــ ٤٧٤م) واذا مابلغنا القرن السادس نجد تغييرا آخر فى الادارة ففى عام ٥٥٤م أصدر الامبراطور جستينيانوس

(Justinianus) مرسومة الثالث عشر وبمقتضاه وضعت مصر مرة أخرى تحت الاشراف الكامل لحاكم الشرق وانقسمت الى أربع ولايات متساوية فى المراكز وهي:

ايجبتوس (Aegyptus) أى مصر غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأغسطا منيكا (Augustamnica) شرقى الدلتا حتى الفرما والعريش وأركاديا (Arcadia) مصر الوسطى حتى البهنسا، ثم منطقة طيبة من الاشمونين حتى أقصى الجنوب. ومن الظواهر الاقتصادية التى تسترعى الانتباه فى القرن السادس هى ظهور الضياع الكبرى التى تمتلكها الاسر النبيلة والتى أمكن مقارنتها بأمراء الاقطاع فى اوربا الغربية، وقد مارس هؤلاء أنواع التعسف والنهب مع الاهالى الفلاحين. الى جانب ظاهرة ثقافية هامة هى احتضار الحضارة الهلينية حتى عندما نبلغ القرن السابع نجد أن اللغة اليونانية وكا مايتعلق بها قد أندثر من البلاد وتزايد استعمال اللغة القبطية فى تحرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق وقد بدأت بوادر التدهور منذ عام ٦٠٨ م عندما أعلن هرقيوس(Heracleus) حاكم ولاية افريقيا الثورة على الامبراطور فوكاس (Phocas) الذى اعتبره مغتصبا للعرش وتمكن قادته فى ٦٠٩م من الاستيلاء على مصر، ولكن الفرس بقياده خسرو (Chosroes) بداوا فى غزو الامبراطورية الرومانية من الشرق ودخلوا مصر واستولوا عليها فى ٦١١م، وتولى هرقل الاصغر ابن هرقل عرش الامبراطورية وتوفى خسرو وتولى ابنه العرش وبدت رغبة الفرس فى عقد الصلح الذى انتهى بانسحابهم من جميع أراضى الامبراطورية ومنها مصر التى عادت إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية الى أن فتحها العرب على يد عمرو بن العاص فى عام ٢٠هـ/٦٤٠م

ثانيا ـ تاريخ المغرب القديم *

١ ـ العصور الحجرية: ـ

تستمر هذه العصور من الناحية الزمنية في المغرب منذ ظهور الانسان حتى نهاية مرحلة العصر الحجرى الحديث أى حوالى ١٢٠٠ق.م اعتمادا على المصادر الكلاسيكية بينما الادلة الاثريه الفينيقية الاولى ترجع هذا التاريخ الى حوالى القرن الثامن ق.م وقد استمرت تلك العصور فى المغرب خلال العصر التاريخى فى بعض المناطق الداخلية وتتشابه تلك العصور فى المغرب من حيث أقسامها والنمط الاقتصادى السائد فيها مع مثيلاتها فى المناطق الاخري.

أ ـ العصر الحجرى القديم :ـ

١ ـ العصر الحجرى القديم الاسفل :

ويمكن حصر حضارة الانسان فى المغرب فى ذلك العصر فى مرحلتين:

المرحلة الاولي: وأطلق عليها العلماء الفرنسيون اسم حضارة الحصى المشذب Galet amenage أو Pebble Culture

المرحلة الثانية: وهى الأشولية أو النواه المشذبة من وجهيها Biface وعرفت هذه المرحلة باسم الكلاكتو ـ ابفيلين Calacto Abbevilien وقد عثر العلماء على آثار هذه المرحلة فى عدد من المواقع الاثرية الداخلية والساحلية والصحراوية وتميزت حضارتها بكثرة الفؤوس اليدوية التى استخدمها الانسان

---

* أمال مصطفى كمال.

فى قطع مايحتاج اليه، ومن أهم المواقع التى عثر بها على آثار ذلك العصر عامة محجر سيدى عبد الرحمن بالقرب من مدينة الدار البيضاء بالمغرب الاقصى حيث عثر فى طبقاته على عدد من الفؤوس اليدوية والشظايا والبقايا العظمية الحيوانية كعظام فرس النهر ووحيد القرن ووجود بعض الكهوف.

٢ ـ العصر الحجرى القديم الاوسط: ـ

كانت الاداة الميزة لحضارة هذا العصر فى المغرب هى الشظايا Flakos وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار هذه المرحلة من ليبيا حتى المحيط الاطلسي، وبالنسبة للمواقع الليبية مثلا هناك موقع وادى درنة الذى عثر فيه على بقايا عظام حيوانية بالاضافة للادوات الحجرية الصوانية وقد قدر عمر هذه البقايا بحوالى عام ٤٣٠٠ ق.م ، وقد لوحظ وجود تشابه فى صناعة هذا العصر مع صناعة الحضارة الفلوازية الموستيرية الفلسطينية التى زامنت ذلك العصر، وتشابه أيضا بين البقايا العظمية لانسان ذلك العصر فى المغرب والانسان النياندرتالى الفلسطينى مما يؤكد وجود صلات حضارية ويؤكد خروج الانسان فى ذلك العصر من دائرته المحدودة وأهم حضارات هذا العصر الحضارة العاترية فى منطقة جبال أطلس جنوب تونس، وقد عثر الاثريون على مظهر غاية فى الاهمية ينتمى لهذه المرحلة وهو مظهر معنوي، حيث عثر على كوم من الكرات الحجرية فى أحد المواقع جنوب تونس وبمقارنة الموقع بمواقع أثرية أخرى متشابهة ثبت أن تلك الكومات كانت تتوسط تلك المواقع وان الانسان كان يجتمع عندها معتقدا بوجود قوة مقدسة فى هذا المكان يعمل على استرضائها لحمايته من الشرور.

وقد تطورت الحياة الانسانية فى مجتمعات العصر الحجرى القديم الاوسط

بشقيها المادى والفكرى مما دفعها نحو الانتقال الى المرحلة الحضارية التاليه وهي: ـ

٣ ـ العصر الحجرى القديم الاعلى : ـ

تعتبر الاسلحة النصلية بمثابة الاداة المميزة لهذه المرحلة الحضارية وتمثلت آثارها فى بلاد الغرب فى منطقة الجبل الاخضر فى ليبيا وحتى ساحل المحيط الاطلسى. وقد ثبت وجود صلات حضارية بين شرقى البحر المتوسط وخاصة فلسطين وبين المواقع الليبية يمثلها كهف هوافتيح فى منطقة وادى درنه، وتؤرخ هذ المرحلة بحوالى عام ٢٨٠٠ أو ٢٩٠٠ ق.م. أما فى المغرب فكانت الحضارة السائدة فى ذلك العصر هى الحضارة القفصية والتى تميزت بالاسلحة والادوات الميكروليثية والازميل وانتشرت فى تونس وشرقى الجزائر وتؤرخ بحوالى عام ٦٨٠٠ ق.م ، وقد اتسع المجال الحضارى للانسان فى ذلك العصر وزادت صلاته الحضارية بكل من الشرق الادنى كما رأينا فى فلسطين. أما الجديد فكان الجانب الاوربى متمثلا بالتحديد فى شبه جزيرة أيبريا حيث وجد تشابه بين الحضارة الساحلية التى سميت بالحضارة الوهرانية فى المغرب وبين بعض المواقع الساحلية الاسبانية ونتجت عن تلك الصلات حضارة عرفت بأسم الابيرو ـ مورية Ibero Maurusian أى الممتدة من شبه جزيرة ايبريا حتى المغرب ازدادت كذلك قدرات الانسان الفكرية فى تلك المرحلة وقد أثبتت ذلك الجانب المعنوى النقوش والرسومات التى خلفها الانسان معبرا عن أفكاره. وانتقل الانسان بهذا التقدم المادى والفكرى نحو مرحلة ثورة انتاج الطعام والتى تتمثل فى العصر الحجرى الحديث.

ب ـ العصر الحجرى الحديث : ـ

كان الطابع المميز لهذا العصر فى المغرب أو النمط الاقتصادى السائد هو الرعى بجانب مظاهر الانتاج الزراعى المحدود، لأن طبيعة الاقاليم المغربية تتفق فى ذلك الوقت مع حياة الرعى أكثر من اتفاقها مع حياة الزراعة المستقرة التى تتطلب مجهودا شاقا للتحكم فى القوى المائية كما كان الحال فى الشرق الادنى القديم. وقد بدأ العصر الحجرى الحديث فى المغرب حوالى الالف الخامس ق. م. واستمر حتى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. بل استمر فى بعض المناطق الداخلية حتى العصر الروماني، وتعتبر الاوانى الفخاريه هى الصناعه المميزة لذلك العصر والتى تثبت توصل الانسان للاستقرار والزراعة والانتاج، لان الانسان المستقر يشعر بحاجة ماسة لتخزين الطعام والشراب وبأنه تأقلم مع البيئة وأستغلها لأبعد مدي، فشكل من الطين أوانى متعددة الاغراض وقد عثر على آثار هذه المرحله من الاوانى الفخارية فى منطقة الجبل الاخضر فى برقة فى موقع هوافتيح وتؤرخ تلك الاثار بحوالى النصف الثانى من الالف الخامس ق. م. ، وقد دلت تلك الاثار على وجود مؤثرات حضارية مصرية مما يؤكد وجود اتصال حضارى بين منطقة شرقى ليبيا ووادى النيل الادني، والى جانب الفخار استمر الانسان فى هذا العصر يستخدم الاسلحة الميكروليثية ورؤوس السهام والادوات العظمية واتجه للنواحى الكمالية والجماليه فزين تلك الادوات بالقواقع والخرز.

وزادت أيضا قدرته فى التعبير عن أفكاره بالرسوم والنقوش التى وجدت آثارها على عدد من الكهوف الساحلية والهضاب والجبال وكانت أغلبها رسوم حيوانية ورسوم غير مفهومة لها علاقة بالسحر لأن الانسان كان لازال يبحث عن الامان والاطمئنان والتغلب على القوى الشريرة.

٢ ـ العصور التاريخية : ـ

هناك ظواهر خاصة تمثل العصر التاريخى لكل منطقة وقد أتفق العلماء على أن توصل الانسان فى بداية تلك المرحلة الى التعبير بالرموز واختراع الكتابة يعتبر بمثابة علامة مميزة على بداية العصر التاريخى لان هذه الاداة التعبيرية الجديدة ساعدت الانسان على تسجيل حياته وتنظيم كافة شئونه الاقتصادية والسياسية تنظيما جديدا يعتمد على التدوين والتسجيل والتوثيق ولذلك اعتبر هذا العمل الفكرى خطا فاصلا بين مجتمعات ماقبل التاريخ ومجتمعات العصر التاريخى بوجه عام.

أ ـ العصر الفينيقي: ـ

بعد نهاية العصر الحجرى الحديث بالمغرب بدأ العصر التاريخى حوالى عام ١٢٠٠ ق. م حيث جاءت الى المغرب عناصر بشرية جديدة سامية الاصل عن طريق البحر ورست بسفنها على الشواطيء المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، وبدأت نقلة حضارية حاسمة لمجتمع العصر الحجرى الحديث فى المغرب الى مجتمع العصر التاريخى وكان ذلك على أيدى الفنيقيين.

وهم فى الاصل عناصر كنعانية جاءت من الشرق واستولت على الساحل الفينيقى قبل بداية العصر التاريخى وتمكنت من تأسيس عدة مدن على الساحل مثل صور وصيداوجبيل وبعض المدن الداخلية، وكان الفينيقيون لايميلون بطبعهم للمسائل السياسية بل يركزون نشاطهم فى المجالات الاقتصادية وتسويق تجارتهم، كذلك نجحوا فى مجال الصناعة مثل صناعة البرونز والعاج والعظم والزجاج وقد تطلب ذلك توفير المواد الخام اللازمة لتلك الصناعة والتى لم تكن متوفرة فى بيئتهم، ولذلك ارتبطت رحلاتهم الخارجية بهدف تسويق

منتجاتهم أو الحصول على المواد الخام، وزاد نشاطهم التجارى قرب نهاية الالف الثانى ق.م، ولما كانت منطقة الشرق الادنى القديم خطرا بالنسبة لهم حيث كانت بعض القوى السياسية هناك مثل الحيثيين لها أطماع فى سوريا، فقد اتجهت أنظارهم نحو غربى البحر التوسط وتأسيس مراكز فينيقية على الساحل المغربى بعيدة عن ذلك الخطر. وكانت أولى تلك المراكز أوتيكا (عتيقة) التى أسست عام ١١٠١ ق.م وقرطاجة التى أسست فى عام ٨١٤ ق.م، وكان الفينيقيون يختارون الاماكن المناسبة لهذا الغرض وكانت السهول الواقعة فى شمال تونس أنسب من السواحل الصخرية في المناطق الاخري، وكانت تلك المراكز بمثابة موانى ومحطات لرسو السفن والتزود بالماء والزاد وكذلك لاتمام عملية التجارة، وكان استقرار الفينيقيين فى المواقع الساحلية ابتداء من لبدة الكبرى وطرابلس حتى جزيرة الصويرة فى المغرب الاقصي، وقد كان العصر الفينيقى فى المغرب عصر استكشاف اقتصادى اكثر منه مرحلة سياسية، لأنه من هذه الناحية كان تابعا لحكومات المدن الفينيقية المشرقية وخاصة مدينة صور، وظلل هذا الارتباط حتى بداية العصر القرطاجي. ومن الظواهر الهامة التى ميزت العصر الفينيقى منافسة اليونانيين الشديدة لهم فى المجال الاقتصادى ورغم ذلك فقد سارت العلاقات السلبية بين الطرفين، واعترف اليونانيون بفضل الفينيقيين فى تعرفهم على الابجدية البربرية فى العصر الفينيقي: والبربر هم أقدم عنصر بشرى وجد فى المغرب القديم وكانوا يعيشون فى شكل قبلى مستقر ويعتمدون على الرعى والزراعة فى حياتهم المنتمية للعصر الحجرى الحديث إلى أن جاءت السفن الفينيقية من الشرق، وقد تداخلت العناصر البربرية طوال العصور التاريخية فى المغرب مع العناصر الفينيقية السامية الأصل واليونانية والرومانية الهند وأوربية الأصل والوندالية والبيزنطية فى المجالات الاقتصادية والسياسية والحربية والسلمية والحضارية، ويلاحظ تقارب الجانب البربرى مع الجانب السامى فى المجالات الحضارية اللغوية

والدينية أكثر من العناصر الهندية الأوربية مما مهد نحو مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب وهي مرحلة العصر العربي الاسلامي وكان البربر أول العناصر التي واجهها الفينيقيون لكنهم لم يجدوا صعوبة في ذلك مع وجود بعض المشكلات، لكن لما تأكد البربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحتة تقبلوهم، وبدأت محاولات من الطرفين للتفاهم والتعامل الاقتصادي لأول مرة وازدادت الصلات بين العنصرين، ويعتبر ذلك بمثابة نقلة حاسمة في حياتهم من حيث تعرفهم على معالم عصر المدنية وهو العصر التاريخي بعد أن كانوا لايزالون في مرحلة العصر الحجري الحديث، وتبادل الطرفان النشاط التجاري في سلام، وقامت بينهما كذلك علاقات حضارية حيث بدأ البربر يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية الجديدة مما ساهم في تطورهم كما تأثر الفينيقيون بتقاليد البربر وعقائدهم.

وفي أواخر العصر الفينيقي بدأت العلاقات بين الفينيقيين واليونان في التطور من الاطار السلمي الى الاطار الحربي بسبب المنافسة التجارية والسياسية منذ بداية القرن السادس ق.م والتي ظهرت بوادرها في جزيرة صقلية، وعجزت مدينة صور عاصمة امبراطورية الفينيقيين عن القيام بدور الحماية والدفاع عن المراكز الفينيقية الغربية بسبب ظروفها السياسية متمثلة في الضغط الآشوري والبابلي والكلداني من الشرق، أما التهديد اليوناني في المغرب فقد امتد من صقلية الى الساحل الليبي في طرابلس حيث استقرت بعض العناصر اليونانية هناك، وذلك غير الفرس الذين وصلت سيادتهم في ذلك الوقت حتى مصر في عهد قمبيز (٥٢٥ق.م) وحاولوا التحرش غربا بالمراكز الفينيقية لكنهم صدوا عن تحقيق ذلك الهدف، هذا على الصعيد الخارجي، أما على الصعيد الداخلي فقد ساءت الأحوال أيضا، فكان نظام الحكم في المدن الفينيقية قائما على أساس عدد من الاسر الحاكمة التي تمتعت بقدر كبير من الثراء نتيجة لتغلب العامل

الاقتصادي، واستحوذت على السلطات وأصبحت لها الزعامة فى ذلك الوقت، وكانت أشهرها أسرة ماجو الذى تمكن من تكوين جيش قوى فى مدينة قرطاج من المرتزقة ومن العناصر البربرية واليونانية لكن تلك القوة المأجورة أصبحت خطرا ومصدراً للثورات، وأمام تلك التطورات وضعف مدينة صور زعيمة المدن الفينيقية بدأت مدينة قرطاج على خليج تونس تحتل تلك الزعامة وبدأت مرحلة جديدة فى المغرب أقرب للصفة السياسية منها للاقتصادية وهى مرحلة العصر القرطاجى التى انتقل فيها المغرب من الاطار المحلى البحت إلى صميم معترك التطورات السياسية الدولية فى حوض البحر المتوسط.

ب ـ العصر القرطاجى : ـ

يمتد العصر القرطاجى من حوالى منتصف القرن السادس ق.م الى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م وبالتحديد عام ١٤٦ق.م وهو العام الذى سقطت فيه قرطاج على يد الرومان ولايعتبر هذا العصر من أهم مراحل التاريخ المغربى القديم فحسب بل من أهم مراحل التاريخ الافريقى وتاريخ حوض البحر الابيض المتوسط، وتميز هذا العصر بالدور الذى لعبته مدينة قرطاج التى أصبحت عاصمة لامبراطورية كبرى واحتلت دور الزعامة السياسية والحضارية للدولة القرطاجية، وكانت تعتبر نموذجا للحياة السياسية والحضارية فى تلك الفترة وقد تميزت قرطاج بموقع حصين على الساحل التونسى فبنيت فى شبه جزيرة محاطة بالبحر وكان لها ميناء تجارى وآخر حربي، وكانت أهم منشآتها المرتبطة بأهدافها الاقتصادية والسياسية المنشآت التحصينية والدفاعية مثل الأسوار والخنادق والأبراج. وقد تمثلت فى قرطاج كل أنواع النشاط السياسى وقد مر تنظيمها السياسى بثلاث مراحل، الأولى مرحلة الملكية وهو نظام قائم على أساس الثروة حيث يختار الملك من الطبقة الارستقراطية الثرية إلى ان

نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى هى طبقة ملاك الاراضى الزراعية واستحوذت على السلطة فى منتصف القرن الخامس ق.م. وبدأت المرحلة الثانية وكانت أقرب للنظام الجمهورى واستمرت حتى بداية القرن الثالث ق.م وتأثرت بالتنظيم اليونانى والرومانى من حيث تعدد الوظائف والهيئات السياسية العديدة - أما المرحلة الثالثة فجمعت بين المرحلتين السابقتين واستمرت فى القرنين الثالث والثانى ق.م واستكمالا لهذا التنظيم اتجهت قرطاج لتدعيم كيانها العسكرى بانشاء قوة حربية برية وبحرية، ولاشك أن خبرة القرطاجيين الطويلة بفنون الملاحة التجارية ودرايتهم ببناء السفن وتجهيزها أتاحت لهم السيادة البحرية إلى حد كبير وساعد على تثبيت هذه الدولة فى المغرب وحوض البحر الابيض المتوسط كقوة فى مواجهة القوى الأخرى اليونانية والرومانية المعاصرة، وقد انتهى الصراع القرطاجى اليونانى بانتصار القرطاجيين وتأكيد سيادتهم فى المنطقة، وكانت الحلقة الاولى من ذلك الصراع فى صقلية وانهزمت قرطاج فى الجولة الاولى واتبع ذلك تعديل مؤقت فى السياسة الخارجية القرطاجية حيث اضطرت قرطاج الى الانسحاب المؤقت من ميدان نشاطها فى حوض البحر المتوسط واتجهت لتركيز نشاطها فى الاطار الافريقى المغربى فدعمت علاقاتها مع البربر الذين أصبحوا دعامة هامة فى مقومات الدولة القرطاجية ويكونون عنصرا هاما من عناصر الجيش، وقام القرطاجيون فى هذه المرحلة بالرحلات الاستكشافية والتجارية البحرية والبرية فوصلوا أقصى الغرب على الساحل المغربى حتى جزيرة الصويرة وحتى نهر النيجر من الداخل ومنطقة ساحل الكنغو، وقد ساعد ذلك على استعادة القرطاجيين لكيانهم الاقتصادى مما دفع اليونانيين فى صقلية لمعاودة تهديد القرطاجيين، وانتصر القرطاجيون فى هذه الجولة عام ٣٦٧ ق.م ، وحدثت فى ذلك الوقت أزمة داخلية خطيرة فى الدولة القرطاجية مصدرها البربر الذين تعرضوا لمعاملة القرطاجيين السيئة أثناء حربهم مع اليونان وتحولت الازمة لثورة لكن سرعان ما عادت العلاقات سلمية

بين الطرفين، وكانت آخر جولة من الصراع القرطاجي اليونانى والتى انتهت بانتصار القرطاجيين.

المجتمع المغربى فى العصر القرطاجي:

إن أول ظاهرة تلفت النظر فى تاريخ المغرب القديم فى العصر القرطاجى هى الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية فهناك العنصر القرطاجي الفينيقى الاصل والعنصر البربرى المحلى والعنصر اليونانى بالاضافة لعناصر مصرية و اترورية وقبرصية وكريتية وافريقية زنجية. وكان لكل عنصر مقاوماته الحضارية المادية والفكرية فى المجالات الدينية والاقتصادية والادبية والفنية، وعلى ذلك فالمجتمع المغربى فى تلك الفترة كان مجتمعا مختلطا تبلورت فيه أنماط جديدة نتيجة هذا الاختلاط مما ساعد على انتقاله من مجتمع منعزل نسبيا فى مرحلة العصر الحجر ى الحديث والقائم على النظام القبلى المحلى المحدود فى نشاطه الى مجتمع متطور له فاعليته فى تاريخ منطقة حوض البحر الابيض المتوسط والقارة الافريقية، ويعتبر المجال الدينى ذو أهمية خاصة فى حياة ذلك المجتمع نظرا لارتباط القرطاجيين بأصلهم الفينيقى حيث كان للدين فاعلية خاصة فى الحضارة الفينيقية.

البربر فى المجتمع المغربى فى العصر القرطاجى : ـ

كان البربر يكونون العنصر الغالب فى بلاد المغرب وكان نظامهم الاجتماعى تعود على النظام القبلى البحت، ويرجع البربر فى أصولهم البشرية الى عنصر البحر الابيض المتوسط وفى أصولهم اللغوية الى عائلة اللغات الحامية التى تعود بهم الى شبه الجزيرة العربية وبصفة خاصة منطقة عمان وحضرموت واليمن، وكان انتقالهم للمغرب عن طريق الهجرات الحامية الكبرى الى القارة

الافريقية عبر بوغاز باب المندب، واتخذت تلك الهجرات الطرق الصحراوية فى شرق وشمال السودان والنوبة المصرية ومنها الى مناطق الواحات ثم الى المغرب وقد تعددت القبائل البربرية فى المغرب كما اختلفت فى تقاليدها ولهجاتها الخاصة ولكنها لم تصل الى الوحدة السياسية الا أثناء العصر القرطاجى لان الطبيعة القبلية للبربر وعدم استقرارهم فى مكان معين أدى الى استقلالهم القبلى لفترة طويلة، وكان الجانب الاول فى اقتصادهم هو الرعى والزراعة المحدودة، وعندما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لايزالون فى مرحلة العصر الحجرى الحديث بدأت العلاقات بينهما فى التطور فى المجالات الاقتصادية والحضارية مما ساعد على انتقالهم من المرحلة القبلية البحتة نحو تكوين دولة بربرية أثناء العصر القرطاجى وقد كان للنظام القبلى البربرى أثره على العصبية البربرية التى تعتمد على أساس صلات المصاهرة بين أفراد القبائل، وكان لتلك العصبية أثرها البالغ فى تاريخ البربر وتأخرهم فى التوصل الى الوحدة السياسية ذلك انه اثناء مرحلة الصرا ع القرطاجى اليونانى وبعد أن ساءت معاملة القرطاجيين للبربر الذين كانوا يعملون كجنود مرتزقة فى صفوف الجيش القرطاجى شعر البربر كيف انهم يفتقرون الى قيادة موحدة تتولى توجيههم فى هذه التجارب السياسية الاولى فى مواجهة القرطاجيين، واستفاد البربر من تلك المرحلة وبدأوا يتجمعون فى مجموعات من القبائل تنتظم كل مجموعة منها فى شكل اتحاد قبلى اقليمى يرأسه أحد قادة هذه القبائل ويطلق علية لقد اغليد Aguelid أى ملك أو رئيس، وتلك الاتحادات كانت تسمى دولا أو ممالك مثل مملكة ماسولة Massylie فى منطقة نوميديا الشرقية ومملكة مازيسولة Masesylie فى نوميديا الغربية ثم مملكة موريتانيا فى المغرب الاقصى Mauritania وقد توثقت الصلات بين البربر والقرطاجيين فى مجالات التعامل الاقتصادى والفكرى وشمل هذا الاتصال الجانب اللغوى المدون حيث بدأ البربر فى تسجيل لهجاتهم فى القرن الثانى ق.م

متأثرين باللغة الفينيقية ومن أهم مظاهر النشاط القرطاجى الخالد فى تاريخ الانسانية قيامهم بعمليات الاستكشاف الجغرافى لاول مرة لمنطقة الساحل الافريقى الغربى والساحل الاوربى الغربى وذلك ابتداء من القرن الخامس ق.م عندما قام أحد حكامهم وهو هانوHanno برحلته الشهيرة التى وصل فيها لمنطقة الكونغو فى افريقيا الاستوائية الغربية، وقد اجتذب هذا المجال الجديد على الساحل الافريقى الغربى كل من التجار القرطاجيين واليونانيين، وقد حاول بعض الباحثين تتبع الاثار الفينيقية والقرطاجية على الساحل المغربى المطل على المحيط الاطلسى ووجدوا أنها تمتد الى أبعد مدى لها فى جزيرة الصويرة وتشير الفقرة الاولى من نص رحلة هانو الى ان الغرض منها كان اصلا تأسيس مراكز ليبية ـ فينيقية أى بربرية قرطاجية على الساحل الغربى لافريقيا ولم تقتصر جهود القرطاجيين على عمليات الاستكشاف البحرية بل نجحوا أيضا فى عبور الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب رغم مخاطر هذه الرحلة و صعابها، فقد نجح رحالة قرطاجى اسمه ماجوفى عبور الصحراء ثلاث مرات، ورغم ما فى ذلك من مبالغة لكن مما لاشك فيه انهم عبروا الصحراء من قرطاج لمنطقة النيجر والسنغال، وفى وقت بلغت فيه قرطاج أوج مجدها وعظمتها وسيادتها واجهت قوة خطيرة جديدة ظهرت فى منطقة حوض البحر الابيض المتوسط وهى روما ودخلت قرطاج فى صراع مرير مع الرومان استمر حوالى قرن من الزمان من عام ٢٦٤ الى عام ١٤٦ ق.م وتمثل فى حروب ثلاثة عرفت بالحروب البونية وجدير بالذكر أن العلاقات بين روما وقرطاج قبل ذلك الوقت كانت علاقات سلمية قامت على أساس التحالف بين الطرفين بشكل يحفظ المصالح الاقتصادية لكل منهما فى حوض البحر الابيض المتوسط، وتوج ذلك التحالف بعدد من المعاهدات، ولكن كان طبيعيا ان تتصادم مصالح الطرفين خاصة بعد أن اصبحت روما قوة لها وزنها فى غربى المتوسط وبشكل يهدد أمن وأمان الدولة القرطاجية حتى بات الصراع حتميا وانتهى بتفوق

الرومان وسقوط قرطاج عام ١٤٦ ق.م ، وحول الرومان ممتلكاتها فى افريقيا لولاية رومانية Provincia Africa Romana

جـ ـ العصر الرومانى : ـ

بينما كان استقرار الفينيقيين فى المغرب سلميا كان استقرار الرومان بالقوة العسكرية مما أعطى صفة التحكم الحربىٰ البحت أكثر من صفة الاستيطان والاتصال بالبربر فى المجالات التجارية والاجتماعية والفكرية، فكانت مرحلة احتلال أجنبى للمنطقة، ويقسم تاريخ المغرب أثناء العصر الرومانى لثلاث مراحل هي:

١ ـ تاريخ المغرب اثناء مرحلة عصر الجمهورية الرومانية من عام ١٤٦ ق. م الى عام ٢٩ ق.م

٢ ـ تاريخ المغرب اثناء المرحلة الاولى من عصر الامبراطورية الرومانية من عهد اغسطس الى جورديان الثالث (٢٩ق.م الى ٢٤٤م)

٣ ـ تاريخ المغرب فى المرحلة الاخيرة من عصر الامبراطورية الرومانية من عام ٢٤٤ الى عام ٤٢م. وفى المرحلة الاولى قسم الرومان المغرب الى قسمين رئيسيين : الولاية الافريقية وتشمل منطقة العاصمة قرطاج والاراضى التابعة لها وقد تحكم فيها الرومان بصورة كاملة، ثم ممالك بربرية انقسمت الى : نوميديا وعاصمتها قسنطينة، موريتانيا القيصرية غرب الجزائر وعاصمتها شرشال، موريتانيا الطنجية وعاصمتها طنجة واتجه تاريخ المغرب فى هذه المرحلة الى اظهار الشخصية المغربية بصورة أكثر قوة من الجانب السياسى منها فى المرحلة السابقة، فتمكن البربر من تحقيق سيادتهم السياسية الى حد

كبير رغم أنها تعرضت لتدخل الرومان خشية ازدهار تلك القوة البربرية بدرجة يصعب التحكم فيها وتهدد الكيان الروماني، ورغم ذلك فقد حاولو امرارا التخلص من التدخلات الرومانية والصمود لعمليات الضغط العسكرى والسياسى الروماني، لكن تلك المحاولات لم تصل لتحقيق غاياتها النهائية، مثل ثورة الزعيم النوميدى يوجورثا Iugurtha وماسينيسا الثانى وحيرباص من زعماء نوميديا أيضا وفى المرحلة الثانية من تاريخ المغرب والتى زامنت المرحلة الاولى من الامبراطورية الرومانية تكررت حلقات الصراع بين البربر والرومان وأهمها فى تلك المرحلة ثورة تاكفاريناس فى نوميديا وثورة مازيبا Mazippa فى موريتانيا وانتهت جميعها لصالح الرومان، وفى عهد الامبراطور كاليجولا Caligula الذى حكم من عام ٣٧ الى عام ٤١م عمل على الاستحواذ على المناطق المتبقية مستقلة من المغرب وضمها للنفوذ الرومانى المباشر حتى أصبحت على عهده بلاد المغرب كلها جزءا من الامبراطورية الرومانية وقسمها كالتالى : اقتطع الجزء الغربى من ولاية افريقيا وأصبح ولاية ورمانية تحمل اسم ولاية نوميديا ثم فى الغرب ولايتا موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، وظل الوضع كذلك حتى تولى دقلديانوس الحكم فى عام ٢٨٤م وأعاد تقسيم الولايات الرومانية فى شمال أفريقيا وفى المرحلة الاخيرة من تاريخ المغرب فى العصر الرومانى تدهورت الأحوال فى الامبراطورية الرومانية مما كان له أثره على بلاد المغرب خاصة بعد دخول المسيحية فى المغرب واعتناق البربر لها، ولم يكف البربر عن الثورة فى مواجهة الرومان وكان أهمها فى تلك المرحلة ثورة فيرموسFirmus فى عام ٣٧٢ م وثورة اخيه جيلدون من بعده لكنها انتهت الى نفس مصير ما سبقها.

ولكن على الرغم من مظاهر الضعف تلك، فقد حاول بعض الاباطرة الاصلاح، مثلما قام به الامبراطور دقلديانوس من اصلاحات على مستوى

الامبراطورية فى الناحية الاقتصادية والسياسية والجيش، وفى شمال افريقيا قسم الولايات المغربية لعدد أكبر من الاقاليم، وانضمت ولاية موريتانيا الطنجية للولايات الاسبانية، ولكن هذا التقسيم تغير على عهد قنسطنطين الاكبر الذى حكم من عام ٣٠٦ الى عام ٣٣٧م حيث جمع الولايات والاقاليم النوميدية فى ولاية واحدة واتخذ مدينة سيرتا عاصمة لهذه الولاية المتحدة وحملت اسمه (قسنطينة).

العصر الرومانى فى المغرب فى جانبه الحضاري:

أن أول ظاهرة حضارية ميزت هذا العصر هى قيام الرومان بانشاء عدد من المدن الرومانية الساحلية والداخلية، وقد اختار الرومان نفس المواقع التى سبق وأن اختارها الفينيقيون والقرطاجيون لانشاء مدنهم، من حيث صلاحية المكان وتناسبه مع كافة الاغراض الاقتصادية والدفاعية. وتضمنت تلك المدن فى تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة مثل المبانى الحكومية والمكتبات والمعاهد والحمامات والاسواق والمنازل ومعاصر الزيوت والمطاحن والساحات والمسارح والملاعب والاسطبلات وغيرها من متطلبات الحياة العامة فى المدن . كذلك اهتموا بتشييد الطرق التى تربط أجزاء المدينة ببعضها.

وقد حاول الرومان طبع هذه المدن بالطابع الرومانى الصرف والتأثير على البربر لاجتذابهم للثقافة الرومانية، وكان مواطنو تلك المدن يحملون نفس حقوق المواطنة التى كانت لسكان روما.

وقد ازدهرت فى تلك المدن أيضا الصناعة مثل صناعة الفخار والسجاجيد، وانتعشت التجلرة بفضل تقدم الصناعة وتنوع المحاصيل الزراعية وكان أهمها القمح والزيتون والكروم وفواكه اقليم البحر المتوسط كذلك ازدهرت التجارة مع

المناطق الجنوبية، هذا من الناحية المادية أما من الناحية الثقافية فحاول الرومان نشر ثقافتهم بكافة الوسائل ففرضوا اللغة اللاتينية رغم استمرار البربر فى استخدام لهجاتهم الخاصة، كما حاول الرومان فرض ديانتهم وعلى رأسها عبادة الأباطرة التى لم يتقبلها البربر أيضا وظلوا يعتقدون فى آلهتهم الى جانب اقبالهم على اعتناق الديانة المسيحية الجديدة ولكن العناصر الحضارية الرومانية المادية والفكرية لم تتمكن من إحلال نفسها بصورة نهائية فى المغرب وصبغه بالصبغة الرومانية، لأن البربر ظلوا يقاومون الرومان محافظين على تركتهم الحضارية البربرية والقرطاجية حتى أثناء المرحلتين الوندالية والبيزنطية، وتفسير ذلك أن المغرب منذ العصر القرطاجى بدأ يؤدى دوره السياسى والحضارى فى منطقة البحر المتوسط على قدم المساواة مع الدولة الرومانية، لذا لم يكن للاحتلال الرومانى فاعليته فى تعديل هذا الاتجاه.

ثم كانت نهاية العصر الرومانى فى المغرب على أيدى العناصر الوندالية التى توغلت فى شبه جزيرة ايبريا وانتهزت فرصة اختلاف أحد الحكام فى المغرب وهو بونيفاس مع الحكومة فى روما واستعان بهم فتقدموا نحو المغرب فى عام ٤٢٩م، وكان ذلك بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ المغرب.

د ـ العصر الوندالي:

انطلقت القبائل الوندالية الجرمانية من موطنها فى بحر البلطيق وقامت بعدة مغامرات وصلت فى نهايتها لاسبانيا فى عهد زعيمها غندريق Gunder-ic(٤١٦ ـ٤٢٥م) ومن هناك انطلقوا بسفنهم نحو سواحل موريتانيا الطنجية ابتداء من ٤٢٥م، وقد تعرضت بلاد المغرب فى ذلك الوقت للقلاقل، فقد توفى هونوريوس حاكم الامبراطورية الرومانية الغربية فى عام ٤٢٣م ولم يترك وريثا للعرش سوى ابن اخته قنسطانز (فالنتنيان الثالث) وكان يبلغ من العمر أربعة

أعوام ولم يعترف به ثيودور الثانى امبراطور الشرق، وبدأت المخاوف من أن تستغل القسطنطينية فى الشرق ذلك الموقف لتحقيق وحدة الامبراطورية من جديد تحت لوائها، وشب الخلاف على اثر ذلك وفى المغرب أثار بونيفاس حاكم افريقيا المخاوف من أن يؤسس امارة له بافريقيا، خاصة بعد أن حقق انتصارات عسكرية عديدة على البربر، فحاربته حكومة الإمبراطورية، وفى ظل هذه الاحوال (الخلاف على العرش، ثورات البربر، تمرد بونيفاس)، كان من السهل على الوندال غزو شمال افريقيا بدون مقاومة وقد أتم هذ ا العمل جنسريق خليفة غندريق وأخوه وكان اعظم قادة الجرمان فى القرن الخامس، وانتهت حروبه فى افريقيا باحتلال قرطاج. ثم واصل جنسريق فتوحاته الى ٤٥٥ م واغتال فالنتنيان، وكانت وفاته ضربة قاضية للامبراطورية الغربية حيث استغل جنسريق ذلك وزحف باسطوله على ايطاليا وانتصر هناك وتربع على عرش الزعامة فى العالم الغربي، فسيطر على البحر المتوسط واستولى على معظم جزره (كورسيكا، سردينيا، البليار، صقلية)، واكمل فتوحاته فى الغرب واصبح سيدا على بلاد شمال افريقيا من اقصاها الى اقصاها.

وقد نتج عن حصار جنسريق لايطاليا سقوط أيتيوس امبراطور الغرب وبعد ذلك بقليل توفى مارسيان وتول عرش الامبراطورية الشرقية أسبا والغربية ماجريانوس Majorianus الذى تولى أمر القضاء على جنسريق وجنح الاخير للسلم وعقدت معاهدة صلح بينهما، وعندما عاد ماجريانوس لايطاليا فى عام ٤٦١ م وجد نفسه معزولا بفعل قائد الجيش الرومانى ريسيمر وعين مكانه ليبيوس سرفيوس الذى لم تعترف به القسطنطينية، وانتهز جنسريق تلك الخلافات على العرش وراح ينهب ايطاليا وهاجم سواحل البليبونيز وشل حركة التجارة فى البحر المتوسط، فقرر الامبراطورليو «leo» فى الشرق بالاتفاق مع ريسمر وضع حد لهجمات جنسريق فجهزوا له أسطولا فى ٤٦٨م واستهدفوا

ضـربه فـى ثلاثة مـواقـع هـى سـردينيـا وقـرطاج وطرابلس، وفـشلت تلك الخطة وعقدت مـعاهدة لصالح جنسريق، وسقطت على اثر تلك الاحداث الامبـراطورية الغربية، وضاعت هيبة الامبراطورية الشرقية التى انتقلت اليها السلطة تماما فى عـام ٤٧٦م. أمــا عن سـيـاســة جنسـريق فى ادارته فى بلاد المغـرب فـقـد بدأ باستقلال الاهالى أسوأ استـغلال، فكانوا تحت رحمته فى موريتـانيا يجمعـون القمح لصالحه، ومارس نشاط القرصنة فى البحر، وأثر ذلك على نشاط المغاربة البـحرى وقد اشتـدت قـسوته بـخاصـة على الكاثوليك فـاحتـل كنائسـهم وصـادر كنوزها لانه رآهم جـمـاعـات خطره ومـتـآمره. وبالنسـبـة لادارة المقـاطعـات فى افريقيا فقد أقام فى افريقيا دولة عظيمة حسب التقاليد الجرمانية لكنه ابقى على مـاوجده فيـها من نظم وقوانين وأدخل عليـها تغييـرات كلمـا اقتضت سلطته ذلك، واسـتتب له الامر هناك منذ عام ٤٤٢م ولم ينازعه فيه أحد، فـتخلص من النبلاء المعارضين، كـمـا تخلص من مـجلس الشـعب برفض دعوته للانعقـاد، وكـان يعين بنفسه جميـع الاشراف والموظفين الوندال والرومان ويعين الوزير الاول وكـان من أصل جـرمـاني، وكـذلك مـدير الديوان المهـتم بالشـئـون السـيـاسـيـه واصـدار القرارات، وكبار الكهنة الملحقين بالبلاط، ويختـار أعضـاء مـجلس الشورى الذى يتكون من ولاة المقاطعات والقساوسة والاعيان، ويعين ولاة الجزر، وقد وجد فى قرطاج فى عهد أحد خلفائه وهو حنياريق ، بروقنصل يمثل الرومان المقيمين فى البلاد ويضـعـه الملك فى المقـام الاعلى من مراتب الاشراف، وظلت ادارة قرطاج اخـاضـعـة لمجلس بلدي، ولم تكن مـيـزانيـة الدولة منفـصلة عن خـزينة الملك الشـخصية التى كان دخلها من أملاك التـاج وضـرائب المغلوبين، وقد سك ملوك الوندال العـملة وكـان الملك هو القـائد الاعلى للجـيش والمتـصـرف فى شـؤون السياسـة الخـارجية، ومن ناحية القضـاء كانت لهم محاكمهم الخـاصـة، ولم تكن لهم لغة رسمية فاستخدموا اللاتينية فى التشريع والشؤون الدبلوماسية، أما شعائرهم الدينية فكانت تمارس باللغة الوندالية وكانت عبادتهم الآريوسية.

توفى جنسريق فى عام ٤٤٧م وعلى عهد خلفائه تعرض نفوذ الوندال فى المغرب لخطر البربر الذين عاملهم الوندال معاملة فظة مما نتج عنه اضطراب فى النظام الاجتماعي، فأعلن الفلاحون التمرد على استغلال الملاك وتعسف رجال السلطه فى نوميديا، ووصلت الثورة حتى موريتانيا التى استولى عليها البربر وقتلوا الوندال بمساعدة الرومان. وتعرض الوندال لخطر آخر وهو وفود أعداء جدد من الشرق هم الجمالة الرحل المنحدرون من طرابلس يقودهم أمير داهية يسمى كابادون Cabadon فى عهد تراسموند خليفة جنسريق الذى لم يستطع القضاء على خطرهم نهائيا ولاعلى خطر البربر الذين انتصروا على الوندال فى عهد هلدياريق، وبسطوا نفوذهم على موريتانيا الطنجية والقيصرية، وازدادت المعارضة ضد ملك الوندال الذى بدأ يستعد لتسليم افريقيا للامبراطور الروماني، وعزل هلدياريق وعين جليمار حفيد جنسريق، وكان يحكم الامبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت جوستينيانوس Justinianus الذى عارض الوصاية البيزنطية على جليمار لكن المفاوضات فشلت فقرر جوستينيانوس فى عام ٥٣٢م اعلان الحرب فى افريقيا وقف بجانبه تجار قرطاج ورجال الكنيسة الكاثوليك الذين استنجدوا به ليخلصهم من الوندال وانتصر جوستينيايوس فى عام ٥٣٣م ونزل الاسطول البيزنطى على سواحل افريقيا واستسلم جيلمار ووضع فى الأسر، ودخلت بلاد المغرب فى حظيرة اللامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية).

بعد انتصار جوستينيانوس على الوندال شرع فى اعادة تنظيم افريقيا وكان يحلم بأن يطبق فى بلاد المغرب النظام الذى كان معمولا به قبل مجيء الوندال، فمحق كل أثر لهم وأبعدهم عن الشؤون العامة حتى معتنقى المسيحية منهم، وأصبح جنود جيلمار رقيقا وزوجاتهم جوارى للجنود المنتصرين، وقل عدد السكان الوندال وانتزعت ملكياتهم وعادت الكنائس للكاثوليك والاراضى

لأحفاد ملاكها القدامي، وفى عام ٥٢٤م أعلن الامبراطور عن برنامج اعادة تنظيم البلاد على أن تصبح لها شخصيتها المستقلة، فعين عليها قائدا امبراطوريا له مهام قضائية ويجمع الضرائب ومسؤول عن الاملاك الامبراطورية ويفصل فى الخلافات الدينية وله عدد من الاعوان، مستشارون قضائيون واعضاء لديوانه وموظفون اضافيون للادارة المالية، وقسمت بلاد المغرب الى سبع مقاطعات لكل منها وال، ثلاثة منهم قناصل ومسئولون عن جهة زغوان شمالى تونس والمزاق (جنوب البلاد التونسية) وطرابلس وهؤلاء كانوا تحت سلطة القائد الامبراطوري، ويخضع له ايضا الحكام فى كل من نوميديا وموريتانيا السطيفية والقيصرية، أما موريتانيا الطنجية فألحقت بالقيصرية، وقد مارس هؤلاء الولاة نهب واستنزاف واستغلال الاهالي، فكان تعسف الادارة البيزنطية من الاسباب التى أدت الى انهيار افريقيا، كذلك انصرفت عناية جوستينيانوس للجيش، فعهد بقيادته لحاكم عسكرى يقيم فى قرطاج ويساعده قائد للمشاة وقائد للفرسان. واعتمد النظام العسكرى على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، وكان الليمس أو خط الحدود البيزنطى مطابقا تقريبا لليمس Limes الرومانى القديم فى كل من طرابلس وتونس ونوميديا.

كذلك وجدت الاسوار والقلاع. أما بالنسبة للبربر فى ظل هذا النظام، فقد حاول جليمار ملك الوندال استمالتهم من قبل فكسب ود كثير من المزارعين الافارقة بعطاياه الوفيره وتحالف معهم وكان على البيزنطيين مواجهة الحرب معهم، وكان أشدهم بأسا قبائل نوميديا من الخيالة وكذلك قبائل الرحل الصحراوية والليبية، وكان خطر القبائل المرتحلة أشد، وانتصر سليمان قائد الجيش الرومانى أول الامر عليهم عام ٥٣٥م. ثم حدث تمرد للجيش فى قرطاج ضد سليمان بسبب معاملته لجنوده كعبيد فكرهه جنده وضباطه الذين شهدوا بأعينهم قادتهم الكبار وهم يستأثرون بالغنائم ويستحوذون على الاراضى باسم

الامبراطور، لكن جوستينيانوس قضى على ثورتهم فى عام ٥٣٩م. وعاد سليمان مرة أخرى لمحاربة البربر فى جبال الاوراس وانتصر عليهم هناك وبنى سلسلة من التحصينات فى قلب الاوراس. وتقابل معهم مرة أخرى ومنى بالهزيمة وقتل، فعاود البربر ثوراتهم وخاصة قبائل نوميديا وكذلك الموريين الذين عاثوا فى البلاد فسادا. وتوفى جوستينيانوس فى ذلك الوقت عام ٥٦٥م. وترك الحكم البيزنطى فى افريقيا متداعيا، أما خلفاؤه فلم يكونوا على المستوى المطلوب لمجابهة ماحل من كوارث على بلاد المغرب وأولهم جوستينوس الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) وتيبريوس الثاني، وقد أظهر الاول ديبلوماسية فائقة فى علاقاته مع البربر، وتدهورت بلاد المغرب على عهدهما أيضا، ثم تولى الامبراطور موريس (٥٨٢٢ ـ ٩٠٢م) وأدخل تعديلات هامة فى افريقيا، فضمت طرابلس لمصر وضمت بعض المواقع الساحلية لمقاطعة سطيف فى موريتانيا القيصرية وتكونت منها موريتانيا الاولي، أما موريتانا الثانية فتألفت من مركز افريقى واحد هو سبته وبعض المدن الاسبانية وجزر البليار. وفى عام ٥٩١م تولى حكم بلاد المغرب جناديوس Gennadius الذى حارب البربر فى قرطاج وازادت اعتداءات الأثرياء على الأهالي، كما شب النزاع بين الدوناتوسية والكاثوليكية وكشفت الكنيسة فى أفريقيا عن فساد رجالها ومتاجرتهم بالقيم، وخلف هيراقليوس جناديوس فى حكمم افريقيا والذى توج امبراطورا فى عام ٦١٠م وعرفت أفريقيا الهدؤ على عهدة، وحدث هدؤ أيضا فى العلاقات بين المسيحية والسلطة الامبراطورية، وتغلغلت المسيحية فى موريتانيا بمنطقة بنى جوار، لكن المسيحية فى بلاد المغرب واجهت أزمتها الاخيرة قبل زحف المسلمين عندما نادى سرجيوس Sergius كبير الاساقفة فى القسطنطينية بعقيدة الارادة الواحدة Monothietes وانعقدت المجامع فى قرطاج ووجهت رسائل للبابا والامبراطور وكبير الأساقفة تندد بآراء سرجيوس، وانتهى الأمر بسقوط الامبراطور بعد أن فشل فى حل تلك الازمة التى اشتدت بعد نزوح الرهبان

أصحاب عقيدة الارادة الواحدة الى افريقيا بعد طردهم من مصر على يد العرب، وتركهم الامبراطور قسطنطين بن هيراقليوس (هرقل) يمارسون شعائرهم بحرية ودخل الناس فى دينهم أفواجا ما أثار نقمة المسيحيين وبعدوا عن الامبراطور، ولما اعتلى قنسطانس Constans عرش الامبراطورية عام ٦٤٥م اتهم باعتناقة لعقيدة الارادة الواحدة فلم يجد القس مكسيموس، أشد المعارضين لتلك العقيدة، بدا من دفع الاهالى والقبائل البربرية للثورة ضد الامبراطور وفى خضم تلك الخلافات كان العرب يستعدون لغزو الغرب واستولوا على قرطاج فى عام ٦٩٨م وعلى كل ماتبقى من ممتلكات بيزنطية فى المغرب بعد ذلك.

ثالثا ـ تاريخ بلاد النوبة وافريقيا الشرقية القديم *

قامت فى أفريقيا منذ أقدم عصور التاريخ ممالك لها تاريخها وحضارتها ـ وذلك قبل أن تعرف أوربا الحكومات المستقرة المتحضرة ـ ولذلك فإن الادعاء بان الافارقة لم يسهموا فى الحضارة العالمية ادعاء باطل تشجبه الأدلة القاطعة والآثار التى لاتزال باقية تدل على ما كانت عليه الممالك التى نشأت فى أنحاء مختلفة من القارة الافريقية من حضارة.

وسنحاول أن تلقى نظرة سريعة على ظروف قيام بعض الممالك الأفريقية القديمة ومعالم حضارتها.

١ـ حضارة نباتا النوبية (Napata)

فى أواخر الأسرة العشرين المصرية ـ كانت الإضطرابات تعم أرجاء البلاد المصرية بسبب ضعف الملوك، وأدت الإضطرابات الى تدهور الاحوال الإقتصادية.

ومن مظاهر التدهور الذى ساد البلاد يومئذ تعدد سرقات المقابر الملكية ـ حتى لم تترك مقبرة دون العبث بمحتوياتها مما أضطر الكاهن الأكبر لامون أن يتخذ إجرا جريئاً بنقل موميات الملوك وتكدسها فى مخبأ كبير فى الدير البحري.

على أن التذمر من هذه الإجراءات التى أتخذت وما أصاب الكهنة من خيبة أمل بسببها وصل لدرجة أنهم فضلوا أن يهجروا طيبة وينتقلوا لمكان يجدون فيه

* أ.د. شوقى عطا الله الجمل.

مجالا أوسع لنشاطهم ، فهجروا طيبة الى الجنوب (بلاد النوبة) واستقبل أهل النوبة كهنة آمون بكل ترحاب.

وإستقـر كهنـة طيبـة المهاجرون للجنوب فى (نباتا)، وهى مدينة كبيرة تقع قرب الشـلال الرابع وتتمتع بمناظر خلابة بالإضافة لمناخها الرائع، فالنيل يجرى بجـوارها وتحيط بها المزارع الواسعة من كل جانب كما أنها تقع فى مفترق طـرق القـوافـل الآتيـة من الجنوب او الذاهبـة من الشـمـال للجنوب ـ مما أدى لثراء أهلها.

وحمل الكهنة الذين تدفقوا على (نباتا) معهم كل ما أمكنهم حملة من أدوات كانوا يستخدمونها فى المعابد المصرية وتتعلق بالطقوس المختلفة.

واسـتـغل الامـراء الوطنيـون فى نباتا هذه الظروف فاعلنوا أنفسـهم حكامـاً مستقلين فى مناطقهم.

وأخذ هؤلاء الحكام يعملون لبسط سلطانهم تدريجياً على الأقاليم الممتدة من الشلال الأول حتى النيل الأزرق جنوباً.

وقـويت عـبـادة أمـون النـوبي، واصـبـح حكام نبـاتا يصـرحـون بأن (طـيـبـة) العاصمة الدينية وما يقع جنوبها يعتبرمن مملكتهم، وحاولو أن يجعلوا (إقليم دنقلة) الخصب صورة من مصر العليا.

ونظر النوبيون لمدينتهم (نباتا) بإعتبارها طيبة النوبية.

وقد إستطاع العالم الأثرى (ريزنر) أن يكتشف الجبانات الملكية الخاصة بالأسرة المالكة الكوشية التى إتخذت من نباتا عاصمة لها ـ والتى إستطاعت بعد ذلك ان تمد نفوذها لمصر نفسها مكونة الأسرة الخامسة والعشرين.

ومن أهم ما كشفت عنه هذه الجهود ـ الاهرام الأربعة لملوك النوبة ـ بيعنخي، وشبكا وشبتاكا، وتانوت آمون، وتوجد هذه الأهرامات فى بلدة (الكورو) الواقعة جنوب نباتا على الضفة اليسرى للنيل وتقابلها على الضفة الأخرى مدينة (نوري) حيث عثر ريزنر فى عام ١٩١٧ على مقبرة الملك تهرقا.

وقد حاول العالم الأثرى الألمانى لبسيوس (R. Lepsius) الذى اوفدته حكومة بروسيا على رأس حملة علميه لمصر لدراسة اثارها القديمة ـ أن يضع قائمة بأسماء ملوك الأسرة الكوشية ومدة حكمهم.

ومن أشهر ملوك النوبة الملك بيغنخى ـ الذى وصل للسلطة فى بلاد النوبة حوالى عام ٧٥ق.م

وقد عثر العالم الأثرى ريزنر على مقبرة فى جبانة الكورو، كما عثر فى جبل (برقل) على لوحة ضخمة سجل عليها بالهيروغليفية إنتصاراته على ملوك مصر السفلى والوسطي.

وحذا بيغنخى حذو الفراعنة المصريين فكتب إسمه فى خرطوش ملكي، كما إتخذ اللقب المصرى لقب (ملك الشمال والجنوب).

وامتدت سلطة بيغنخى تدريجياً للشمال، وقد عثر على شاهد من الجرانيت فى معبد بجبل البرقل، نقش عليه باللغة الهيروغليفية اخبار الحملة التى قادها بيعنخى صوب مصر.

ويذكر النص كيف زحف الجيش النوبى على مصر الوسطى فاستولى على ميدوم، والفيوم ثم استولى على منف.

وحكم بعد بيعنخي الملك شبكا ـ الذى أضاف لمعبد الكرنك جزء لا يزال يحمل إسمه وبعده حكم الملك شبتاكا ثم الملك تهرقا (Tharka)وقد كان عهد تهرقا مليئاً بالنشاط فى الداخل والخارج وأعماله العمرانية وفى مصر فى بلاد كوش تشهد بذلك، ومن أهم الأثار التى عثر عليها والتى ترجع لعهد تهرقا معبده فى سمنه ـ فقد أرسل جماعات من أصحاب الحرف والصناعات من منف لإقامة هذا المعبد وتزيينه بالنقوش ـ وقد صحفت عمد المعبد بالذهب، وصنعت الأبواب من خشب الأرز، وزرعت الحدائق فى الأرض المجاورة للمعبد بالنباتات والأشجار، وحفرت الآبار ولامدادها بالمياه، وكانت الكروم التى زرعت فى حدائق المعبد تستخدم فى صنع النبيذ.

وقد عثر على اثار أخرى للملك تهزقا فى مصر وفى بلاد النوبه ومن الأثار التى عثر عليها فى مرسى الكرنك ـ مقاييس للنيل فى سنوات متعددة من عهد تهرقا.

وقد تعرضت مصر فى نهاية حكم تهرقا للغزو الآشوري، وقد نجح الاشوريون فى غزو الدلتا ـ حتى ظهر أمير مصر (بسماتيك) إستطاع أن يخلص مصر من نفوذ الآشوريين بل نجح فى إن يمد سلطانه جنوباً على إقليم طيبة.

وهكذا أصبحت مصر كلها من سواحل البحر المتوسط حتى جنوب الشلال الأول موحدة تحت حكم ملك مصرى واحد ـ ويعتبر بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين المصرية.

ويمكن أن نلقى بعض الضوء على مظاهر الحياه المختلفة فى عهد ملوك نباتا:

١ ـ الناحية الإجتماعية : كان نظام الاقطاع سائداً طوال العصر الكوشى ـ فقد كانت البلاد تقسم الى اقطاعيات على رأس كل منها أمير ، وكان الأمراء يتمتعون بثراء كبير، ولكل امير جيشة .

٢ ـ الناحية الدينية : أساس الدولة الكوشية التى قامت فى بلاد كوش هم كهنة آمون الذين هاجروا من مصر الى نباتا ـ وكذلك كانت لعبادة آمون رع مكانتها فى نفوس الأسرة المالكة الكوشية ـ وقد كان ملوك كوش يتبعون شعائر الدين المصرى ـ وقد وهب ملوك كوش هبات كثيرة للمعابد والكهنة ـ والى جانب أمون رع إهتم ملوك كوش بالالة (دحون) الاله القوى لبلاد النوبة ـ على أن عادات الدفن ـ كما تدل عليها مقابرهم ـ ترجع للأصول المصرية.

٣ ـ الحالة الاقتصادية : تقدمت الزراعة والرعى والصناعة بالإضاف للتجارة بين مصر وبلاد النوبة، ولما كانت بلاد السودان هى المصدر الرئيس للذهب وغيره من الأحجار الكريمة فقد إشتهر ملوك كوش بالثروة وإهتموا باقتناء الخيول، وقد عثر على مقابر عدة لها فى بلاد النوبة مما جعل المؤرخين يشبهونهم بالمماليك الذين حكموا مصر فى العصر الحديث.

٤ ـ الحالة الثقافية : عكف بعض الأثريين على دراسة اللوحات التى عثر عليها من العصر الكوشي، مثل لوحة الملك ببعنخى التى عثر عليها بمعبد جبل البرقل، ولوحة الملك شبكا التى عثر عليها بمنف ومن دراسة هذه اللوحات يبدو انه كانت توجد فى هذا العصر طبقة من الكتاب تأثرت بالكتابات المصرية ـ وقد عثر على وثائق خاصة بالمعاملات بين الأفراد والعقود الخاصة بالبيع والشراء والملكية... الخ) وهى مكتوبة (بالديموطيقية) وهى الكتابة الشعبية التى تطورت من (الهيراطيقية).

٢ ـ حضارة مروى (Meroe) :

بعد أن ضعفت دولة نباتا ـ إنتقلت العاصمة جنوبا الى (مروي) التى تقع قرب شندى الحالية ـ وإمتد سلطان مملكة مروى من الشلال الاول الى حدود الحبشة وكان موقع مدينة مروى فى مفترق طرق التجارة سبباً فى ثرائها .

وقد نشر ريزنر (Reisner)أيضا ثبتاً بملوك مروى يحتوى هذا الثبت على أسماء ما يقرب من ستين ملكا وملكه ـ منهم أربعون ملكاً، وعشرون ملكة.

وتقع مروى على ضفة النيل الشرقية على بعد ٨٧٧ ميلاً من وادى حلفا (على طريق النهر).

وتوجد فى جزيرة مروى عدة مجموعات من الأهرامات.

ومن الدراسات التى عملت على الاثار التى ترجع للعهد المروى يمكن ان نميز ملامح الحضارة المروية :

١ ـ تدل هذه الآثار على أن حضارة العصر المروى كانت حضارة زاهيه وأنها تأثرت ـ بالحضارة الفرعونية بالإضافة الى التأثيرات الأخرى الإغريقية والرومانية والحبشية.

٢ ـ عثر على عدد كبير من الأهرامات والمعابد فى قسطل، والبلانه ووجدت تيجان للملوك والملكات من الفضة مرصعة بالجواهر.

٣ ـ وجدت مجموعة من الحلي، والأسلحة والأطباق وتحف من البرنز، ورقعة للشطرنج من العاج والأبنوس، وسروج للخيل من الجلد المصبوغ وبعضها مطعم بالأحجار الكريمة.

٤ ـ تدل الآثار التى عثر عليها على انهم كانوا يضعون مع الميت فى قبره ـ الطعام والشراب، كما أن العبيد والخيول والكلاب التى كانت فى خدمة الملك الميت كانت تدفن معه.

٥ ـ ويعتقد الاستاذ امرى (Emery) الذى اكتشف مقابر النوبة فى قسطل والبلانه فى عام ١٩٣١ ـ أن هذه الآثار للملوك والأشراف، وقد عثر على آثار قنوات مائية قديمه.

٦ ـ وقد تحدث سترابون عن المرويين ـ فذكر إنهم يعيشون على الذرة والشعير ويصنعون منها مشروباً يعرف بالمريسة.

وتحدث عن العاصمة (مروي) فذكر إنها جزيرة كبيرة وهى جبلية بها مناجم للنحاس والحديد والذهب والأحجار الأخرى الكريمة.

وذكر أن المنازل فى المدن الرئيسية تبنى من فروع الأشجار، وأن الأهالى يستخدمون فى حروبهم القوس الخشبى ـ وذكر إنهم يعبدون الآلهه المصرية بجانب الهتهم.

ونشير الى أنه موجود بالمتحف المصرى قسم خاص بالتاريخ والحضارة النوبية كما أن الكثير من آثار النوبة تسرب للمتاحف الأوربية ـ عن طريق البعثات الكشفية التى عملت فى هذه المناطق أو غير ذلك من الطرق.

فقد كانت مقابر ومعابد بلاد النوبة نهباً للأجانب قبل ان تهتم الحكومات الوطنية بإصدار القوانين للمحافظة على هذه الثروة القومية.

٣ ـ حضارة مملكتى مقرة وعلوة :

مملكتا مقره وعلوه مملكتان نوبيتان ـ قامتا فى بلاد النوبة بعد إنتشار المسيحية فيها.

ويرجع المؤرخون أن المسيحية وصلت بلاد النوبة عن طريق مصر، فقد دخلت المسيحية مصر على يد القديس مرقس، وكانت مصر فى ذلك الوقت ولاية رومانية، وقد لاقى المصريون المسيحيون إضطهاداً من الرومان بلغ أشهده فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٤ ـ ٣٠٥م) الذى أسرف فى تعذيب وقتل مسيحى مصر، وترتب على حركة الإضطهاد هذه هجرة عدد كبير من المصريين نحو الجنوب، وظل الأمر كذلك حتى إعترف الامبراطور قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧م) بالمسيحية ديانه على قدم المساواة مع الديانات الأخرى فى الإمبراطورية.

ويرى المؤرخون ان المسيحية دخلت من مصر الى بلاد النوبة منذ القرن الأول الميلادى على يد مصريين ممن إنتموا لهذه الديانه ونزحوا الى هذه البلاد فى القرنين الاول والثانى الميلاديين.

على أن التبشير بالمسيحية فى النوبة كان فى القرن السادس الميلادى ـ حين أرسلت الأمبراطورة ثيودورا (Theodora) بعثة للتبشير فى بلاد النوبة فى حوالى ٥٤٢م ـ وبقيت البعثة ببلاد النوبة عامين ونجحت فى تحويل حاكم النوبة السفلى الملك سلكو (Silko) الى المسيحية على المذهب اليعقوبى الذى كانت تعتنقه الإمبراطورة الرومانية.

وعين أسقف خاص لبلاد النوبة، وبنيت كنيسة فى (دنقله العجوز) عاصمة مملكة النوبه السفلى وصارت المسيحية الديانة الرسمية لملكة النوبه السفلي.

وهكذا انتشرت المسيحية فى بلاد النوبه بمملكتيها :

١ ـ مملكة مقرة : التى تمتد من قرب الشلال الثالث الى كبوشية الحالية وأصبحت دنقله العجوز عاصمة لها.

٢ ـ مملكة علوة : فى أقصى بلاد النوبه ، وعاصمتها (سوبا) على النيل الأزرق.

وقد كانت مملكتا النوبة المسيحيتان تابعتين دينياً لبطريرك الأقباط بالإسكندرية يرسل للنوبه المطارنه من مصر.

ومن دراسة التاريخ الحضارى لدولتى مقرة وعلوه المسيحيتين يتضح لنا :

١ ـ إنتشرت المسيحية فى الدولتين على يد مهاجرين من أقباط مصر أو من الذين اعتنقوا المسيحية فى مملكة مقره.

٢ ـ إزداد إنتشار المسيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت ديانة معظم السكان بسبب الهجرة الواسعة للأقباط من مصر لبلاد النوبه اثر الغزو الفارسى لمصر، واضطهاد الملكانيين لأقباط مصر بعد إسترداد البيزنطيين مصر.

٣ ـ حول النوبيون العديد من المعابد الوثنية الى كنائس ويقول أبو المكارم فى كتابه عن تاريخ الكنائس والأديره فى القرن الثانى عشر الميلادى (١) إنه كان فى مملكة علوه ربعمائه كنيسه ودير على جانبى النيل الأررق وفى البطاح، وقد ظلت هذه الكنائس قائمة حتى القرن السادس عشر.

وقد عثرت البعثات الأثريه على بقايا عدد من الكنائس فى مناطق إبريم ، ودنقله وفرس، وبهين وغيرها من الأماكن فى بلاد النوبه.

٤ ـ كانت الصلوات والأدعية فى الكنائس والأديره بالنوبة غالباً تؤدى باللغة الإغريقية ـ الى أن أخذت الكلمات القبطية تدخل للعبادات فى النوبه بعد القرن السابع الميلادي.

٥ ـ المسيحية فى النوبة لم تتخذ لها جذوراً عميقة ـ فلم تمثل إتجاهاً وطنياً أو قومياً.

٦ ـ عاشت المسيحية فى النوبه الى جانب الأفكار الوثنيه.

٧ ـ ظلت الكنيسة المصرية تعين مطارنة لبلاد النوبة ـ وكثيراً ما كانت الظروف الداخلية فى مصر تؤدى الى إمتناع البطاركه عن ارسال مبعوثين مصريين لمدد طويلة فتظل الوظائف الدينية خالية.

ومن دراسة الأوضاع السياسية والإجتماعية والاقتصادية فى مالك النوبة المسيحية نلاحظ :

١ ـ **التنظيم السياسي** : كان على رأس كل دولة من دولتى النوبه ملك يتمتع بسلطة مطلقه، ونظام الوراثه (أموي) هو السائد، وكانت المملكه مقسمه الى أقسام ادارية والى جانب الملك وجد موظفون يرأسهم نائب الملك، كما وجد «أسقف المملكة أو مطرانها يعينه بطريرك الإسكندرية.

٢ ـ **النواحي الإجتماعية** : كان المجتمع من طبقتين :

أ ـ الطبقة الحاكمه : الأسرة المالكة ، وحكام الأقاليم والموظفون.

ب ـ افراد الشعب :

٣ ـ الإقتصاد النوبي : يقوم على التجاره ، وتتم عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشي، والحبال، والحديد والحبوب، وكان لملك النوبه علاقات تجاريه مع إثيوبيا بالإضافة الى مصر.

وتقوم الزراعة فى المناطق التى يتسع فيها الوادي، وكانوا يزرعون الذره، والشعير والسمسم، والكروم، وقد كثرت عندهم أشجار النخيل.

وكانت طريقة التسميد (بروث البهائم) معروفه لديهم، وكانت الزراعة منتشره على ضفاف النيل، وفى الجزر المنتشرة فيه.

كما أن الرعى والعنايه بالماشيه كان من مصادر الثروة، وكانت بلاد النوبة العليا أكثر ثراء من بلاد النوبه السفلى لاتساع واديها وخصوبة اراضيها ومراعيها.

وقد أستخرج الذهب، والحديد من مناجم النوبه.

ضعف ممالك النوبة المسيحية وإنهيارها :

تعتبر الفتره بين القرنيين الثانى عشر والرابع عشر من أزهى عصور مملكتى النوبة المسيحيتين (مقره وعلوه) ـ لكن القرن الثالث عشر الميلادى واوائل القرن الرابع عشر نهاية مملكة النوبه الشماليه (مقره)، كما أن نهاية مملكة علوه كانت فى أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

٤ ـ حضارة اكسوم

قامت مملكة اكسوم فى الأجزاء الشمالية والشرقية من إثيوبيا، حوالى منتصف القرن الأول للميلاد.

وقد استطاعت اكسوم قبل أن يمرقرنان على نشأتها ـ أن تصبح واحده من اقوى دول العالم فى ذلك الوقت، وأتسعت حدودها حتى بلغت اقصاها فى الثلث الأول من القرن السادس الميلادى فوصلت بحدودها الى سهول الصومال جنوبا وحدود مصر شمالاً والنيل النوبى غرباً وعبرت حدودها الشرقيه للبحر الأحمر لكى تحتل جزءا من جنو ب الجزيرة العربية، وبعد ذلك تعرضت هذه المملكة لتدهور وإنحلال مستمرين حتى إختفت نهائياً من التاريخ.

والبعض يذهب الى أنه فى القرن السابع الميلادى انتهت هذه المملكة العظيمة لكن الأساطير الاثيوبية تذهب الى أنها استمرت حتى القرن العاشر الميلادي.

والاهتمام بتاريخ مملكة اكسوم لم يبدأ بصورة حقيقية الا فى العصر الحديث حين بدأ العلماء الألمان ينقبون عن آثار تلك البلاد، ث تبعهم الايطاليون أثناء الاحتلال الايطالى لاريتريا واثيوبيا وبعد الإستقلال اهتم بعض الاثريين الفرنسيين بدراسة تاريخ وحضارة مملكة اكسوم.

ويحيط بنشأة مملكة اكسوم كثير من الأساطير ـ كما أن هناك إختلافات فى مدلول لفظ اكسوم.

وقد قسم بعض المؤرخين تاريخ مملكة اكسوم الى فترتين :

الفترة الأولى : تمتد من قيام اكسوم حتى دخول الديانة المسيحية المملكة.
أما الفترة الثانية : تبدأ بتحول الملك (عيزانا) ملك اكسوم الى المسيحية فى القرن الرابع الميلادى حوالى ٣٢٠م وتمتد حتى إنتهاء المملكة. وقد بذل بعض المؤرخين جهوداً لدراسة تاريخ ملوك اكسوم وعلاقاتهم الخارجية ولا شك فى أن الكثير من الغموض يحيط بالتاريخ المبكر لمملكة اكسوم لكن القيت أضواء على تاريخ اكسوم فى عصر الملك عيزانا الذى إعتلى العرش حوالى عام ٣٢٠م

ويكتسب عصر عيرانا أهمية خاصة، فقد تحولت البلاد خلال عهده الى المسيحية ونجحت مملكة اكسوم فى توسيع سلطانها وبسط نفوذها على العديد من الأقطار المجاورة.

وقد ساهمت النقوش التى عثر عليها بالاضافة الى المصادر الرومانية والأساطير الاثيوبية فى إلقاء الضوء على أوضاع مملكة اكسوم فى فترة حكمه.

فقد نجح هذا الملك فى أن يتوسع نحو الغرب على حساب مملكة مروي، كما أنه شن حرباً ضارية ضد قبائل البجة التى تمردت على سلطان المملكة.

ويبدو أن أكسوم بلغت درجة كبيرة من الإزدهار فى عهد عيرانا، وكانت لها علاقات سياسية وتجارية مع الرومان، كما كانت لها علاقات مع عرب جنوب الجزيرة العربية ومع ممالك النوبة المسيحية .

وبعد إنتهاء حكم عيرانا بدأت مملكة اكسوم تدخل فى فترة ضعف. ومن أشهر الملوك الذين حكموا اكسوم فى هذه الفترة الملك (كالب) الذى يمثل عهده نهاية ازدهار دولة اكسوم وبداية فترة الانحلال التى انتهت بإنهيار المملكة، نتيجة عوامل متعددة لعل أبرزها الصراع على العرش الذى يحدثنا عنه إبن هشام فى مخطوطة بدار الكتب المصرية عن : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، كما يتحدث عن هذا الصراع فى القرن التاسع الميلادى ابن المقفع، ساويرس فى كتابه : تاريخ الآباء البطاركة.

ويمكننا تتبع تاريخ اكسوم ومظاهر حضارة مملكة اكسوم فى فترة مجدها فيما يلى :

١ ـ وصلت اكسوم الى مكانة مرموقة عالمياً خلال القرن الثالث الميلادى

وظهرت حضارتها المتميزة فى المبانى المتعددة الطوابق واللوحات الضخمة المصنوعة من قطعة حجر واحدة، كما تمثل رخاؤها الإقتصادى فى عملتها.

٢ ـ نجح الملك عيزانا فى القرن الرابع فى القضاء على القوى المعارضة لحكمه وقد اعتنق المسيحية .

٣ ـ فى عهد الملك كالب ـ آخر ملوك اكسوم العظام ـ نشبت حروب بين اكسوم والحميرين فى جنوب الجزيرة العربية. وقد تلقب كالب بلقب ملك اكسوم وجمير وذى ريدان، وسبأ وصالحين، والبلاد العليا واليمن والسهل الساحلي، وحضر موت والبجة والنوبا .

٤ ـ عندما بزغ فجر الإسلام فى القرن السابع الميلادى ـ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعه بالهجرة الى الحبشة (اكسوم) وقد استجاب نجاشى الحبشة (اكسوم) لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم وحمى المهاجرين.

٥ ـ النظام الإدارى للدولة : كان الملك على رأس هذا النظام، ثم الكاهن الأكبر، والقاضي، وقائد الجيش ـ وكان الإبن الاكبر يرث أباه، ولما دخلت المسيحية المملكة أصبح الملك يتوج فى الكنسية، وقد عرف البلاط الاكسيومى عدداً اخر من الوظائف مثل السفراء والمترجمين.

وكانت البلاد مقسمة الى أقاليم على رأس كل منها حاكم يعينه الملك وكان الجيش يتكون من فرق مسلحة بالحراب والفئوس الصغيرة ، والسيوف وقد استخدمت الفيلة فى الحرب، وكان لأكسوم اسطول لحماية التجارة فى البحر الاحمر.

٦ ـ العلاقات الخارجية : كانت لأكسوم علاقات مع الرومان، ومع الممالك المجاورة (مروي) ومع العرب فى الجزيرة العربية.

٧ ـ النشاط الاقتصادى : لعبت التجارة دوراً هاما فى علاقات دولة اكسوم بالدول الاخرى وشمل هذا النشاط تجارة الصادر والوارد ، وتجارة العبور (الترانسيت)، وقد شملت صادرات اكسوم ـ العاج، والصدف، والذهب، وتركزت الواردات فى السلع المصنعة وأدوات الزينة، والأسلحة.

ولما كانت التجارة تلعب دوراً هاماً فى إقتصاد اكسوم فقد إهتمت بتمهيد الطرق البرية والنهرية وحمايتها، وكانت المعاملات التجارية على «اساس المقايضة، وأصبحت سلع مثل الملح والحديد والذهب تقوم بوظيفة النقود، وقد سكت اكسوم عمله خاصه بها.

٨ ـ وقد سادت فى اكسوم عقائد متعددة الى أن دخلتها المسيحية فى القرن الرابع الميلادى واعتنقها الملوك والشعب.

وقد وجد عدد من اليهود السود فى اكسوم (الفلاشة) وأحفادهم كانوا فى إثيوبيا حتى الوقت الحاضر ـ وقد سعى اليهود بعد قيام دولتهم فى إسرائيل لتهجيرهم اليها.

٩ ـ استمرت اكسوم قائمة ولها علاقات متعددة بالعالم الخارجي وبالجزيرة العربية بالذات من منتصف القرن الأول الميلادى حتى القرن السابع الميلادى ـ ودخلت المملكة بعد ذلك فى فترة انحلال أدت لسقوطها فى حوالى القرن العاشر الميلادي.

٥ ـ حضارة زمبابوى :

يرتبط اسم زمبابوى بالمنطقة التى كانت تسكنها بعض قبائل البانتو أجداد قبائل الماشونا والتى قامت فيها مملكة عظيمة على يد فرع من شعب الزولو ـ

،وهى مملكة المتيابيلى (Matabele) والتى يرجع الفضل فى تأسيسها عام ١٨٣٠ الى الزعيم مزلكازي(Mazili kazi) وقد كانت هذه البلاد تحت سلطة الملك لوبينجيولا (Lobengula) حين بدأت الأنظار تتجة اليها بعد زيارة المستكشف الاسكتلندى دافيد ليفنجستون (David livingstone) لها عام ١٨١٥.

وقد نجح المستعمر البريطانى سيسل رودس (Cecil Rhodes) بعد أن أسس شركة جنوب أفريقيا البريطانية فى عام ١٨٨٩ فى ان يغرر بالملك لوبينجيولا وأن يحصل على تصريح باستغلال مناجم هذه المملكة الأفريقية، وانتهى الأمر بموت لوبينجيولا فى عام ١٨٩٤ وضم رودس أراضى هذه الملكة للإمبراطورية البريطانية - ومنذ ١٨٩٥ اصبح يطلق على هذه البلاد اسم روديسيا.

وقد اكتشفت فى أراضى هذه البلاد التى إتخذت بعد الاستقلال اسم زمبابوى (Zimbabwe) آثار تدل على الحضارة القديمة للشعوب التى سكنتها ـ وإن كان المستعمرون الإنجليز أثناء استعمارهم لهذه البلاد رفضوا الاعتراف بأن الآثار المكتشفة تدل على حضارة الشعب الذى استعمروه، وذهبوا إلى أن آثار زمبابوى ترجع الى شعوب اخرى وفدت على المنطقة.

ونذكر فى البداية الى أنه عثر فى الكهوف الموجودة فى زمبابوى خلاف الاثار التى سنشير اليها على نقوش صخرية ملونة بالوان مختلفة تمثل مظاهر الحياة لسكان هذه الكهوف فى هذا الوقت المبكر من تاريخهم.

وقد حاول بعض الاثريين واللغويين تفسير كلمة زمبابوى التى كان الوطنيون يطلقونها على بلدهم والتى أطلقوها عليها بعد استقلالها ـ فالبعض ذكر ان

زمبابوى ـ كلمة بانتوية مكونة من كلمتين Zim = قرية Babwe = رئيسة اى ان معناها القرية او المدينة الرئيسية ـ أى العاصمة.

والبعض ذكر أن الإسم الصحيح هو (zimbagwi) وهى تعنى المبانى الحجرية والبعض أرجع التسمية الى قبائل (zambas) وهى قبائل قوية كانت تسكن هذه البلاد.

على أن كتابات ومشاهدات الرحالة من أمثال (Adam Renders) الأمريكى وكذلك (karl Mauch) الألمانى لفتت الأنظار لآثار زمبابوي، فبدأت أعمال التنقيب عنها، كما كثرت الابحاث عن أصلها ودلالتها.

وقد ذهب البعض الى أن هذه الآثار ترجع لعلاقات هذه المناطق فى شرق أفريقيا بعرب سبأ وربطها البعض بنشاط الفينيقيين البحرى والتجاري، والبعض أرجعها الى علاقات بمصر القديمة على أن المواطنين ويصرون على ان هذه آثار للحضارة الوطنية التى كانت قائمة فى بلادهم فهى آثار أجدادهم ودليل على ما كانوا عليه من تحضر قبل أن تطأ اقدام المستعمر الاوربى هذه البلاد.

وسنلقى نظره سريعة على اهم المناطق التى سجلها نشاط البعثات الأثرية وما أسفرت عنه أعمال الحفر والتنقيب.

١ ـ منطقة زمبابوى نفسها:

وأهم الاثار التى وجدت بها المعبد البيضاوى (The Elipticall Temple) والأكروبول وآثار وادى الخرائب، والتماثيل المختلفة، والمبانى المعمارية، والعديد من الأدوات التى عثر عليها فى هذه المنطقة.

ويلاحظ على أثار زمبابوى :

- كثرة الممرات فى المعابد، وشكلها اللابزنتي، وكثرة التواءاتها فى الاكروبول بالذات.

- أسقف المعابد محملة على أعمدة مثبتة فى الارض، وأستخدم الاسمنت لتقوية القواعد

- الأسمنت كان يصنع من صحن قطع الجرانيت وخلطها بالجير.

- لم يعثر على كتابة غائرة على حوائط المعابد.

- عثر على عدد كبير من المسلات فى المعبد البيضاوي.

- وجدت أعداد كبيرة من تماثيل الحجر الصابونى (soap stone) فى المعبد البيضاوي.

- عثر على أدوات من الذهب. وآلات وأوانى نحاسية بالإضافة الى آلات وأسلحة مصنوعه من الحديد.

- عثر على ادوات من البرنز، وعقود من الخرز، وأواني فخارية.

- عثر على حفر مخصصة لصهر الحديد

ويبد وأنه كانت تعيش فى قبائل المنطقة اشتهرت بمهارتها فى أعمال النقوش.

٢ ـ آثار منطقة خامى (khami)

وهى تقع غربى مدينة بولاوايو بمقدار ١٢ ميلاً وتطلق عليها بعض المراجع

الإنجليزية اسم منطقة هيدبارك. ومن دراسة هذه الأثار يرجح أن المنطقة كانت مركزاً لتعدين الذهب ـ وأن الذهب كان يفد لهذه المنطقة حيث يصهر.

وقد عثر بالمنطقة على بعض الآلات والأدوات مما يدل على أن المنطقة كانت عامره بالسكان.

٣ ـ آثار بلنجوى (Belingwe)

تقع هذه المنطقة جنوب مقاطعة فكتوريا، وجنوب غرب منطقة زمبابوى الأثرية ـ ولا تزال هذه المنطقة تحتاج لمزيد من الكشف عن اثارها ودراستها.

٤ ـ آثار دهلو ـ دهلو (Dhlo Dhlo)

توجد شرق بولاوايو وقد نشرت عدة بحوث عن هذه الأثار من اهمها بحث فرانكلن هوايت (franklin white) الذى نشر فى عام ١٩٠١ ومبانى المنطقة من حجر الجرانيت والبعض يرجح ان هذه الاثار تمثل حصناً للدفاع. اكثر منها معبداً. وقد عثر فى المنطقة على بعض الأدوات الفخارية لحفظ المياه. وبعض الأدوات والأسلاك من الصفيح والزجاج، وقد نشرت أخيراً بعض الأبحاث المتقدمة عن هذه المنطقة.

٥ ـ آثار انيانجا (Inyanga)

وهى فى أرض الماشونا ـ شمالى اومبتالى بحوالى ٠ ميلاً. وقد وجدت مصاطب على التلال كما وجدت آثار فى الوديان.

ولعل أهم الأبحاث التى نشرت عن هذه الاثار مانشره :

Edward, Telford : vonders of Mashona land (Rhodesian Herald - 20 Dec. 1899)

هذه لمحه سريعة عن بعض هذه الآثار، ومن يريد معلومات أ كثر عما نشرته البعثات الأثرية عن هذه الآثار الأفريقية يرجع للبحث الذى اشرنا اليه سابقاً ونشير الى ما وصلت اليه مس جرترود كاتون (G. Caton) فى مقدمة الطبعة الجديدة لكتابها عن حضارة زمبابوى (١٩٧١) من أن هذه الحضارة مرت فى مراحل ثلاث :

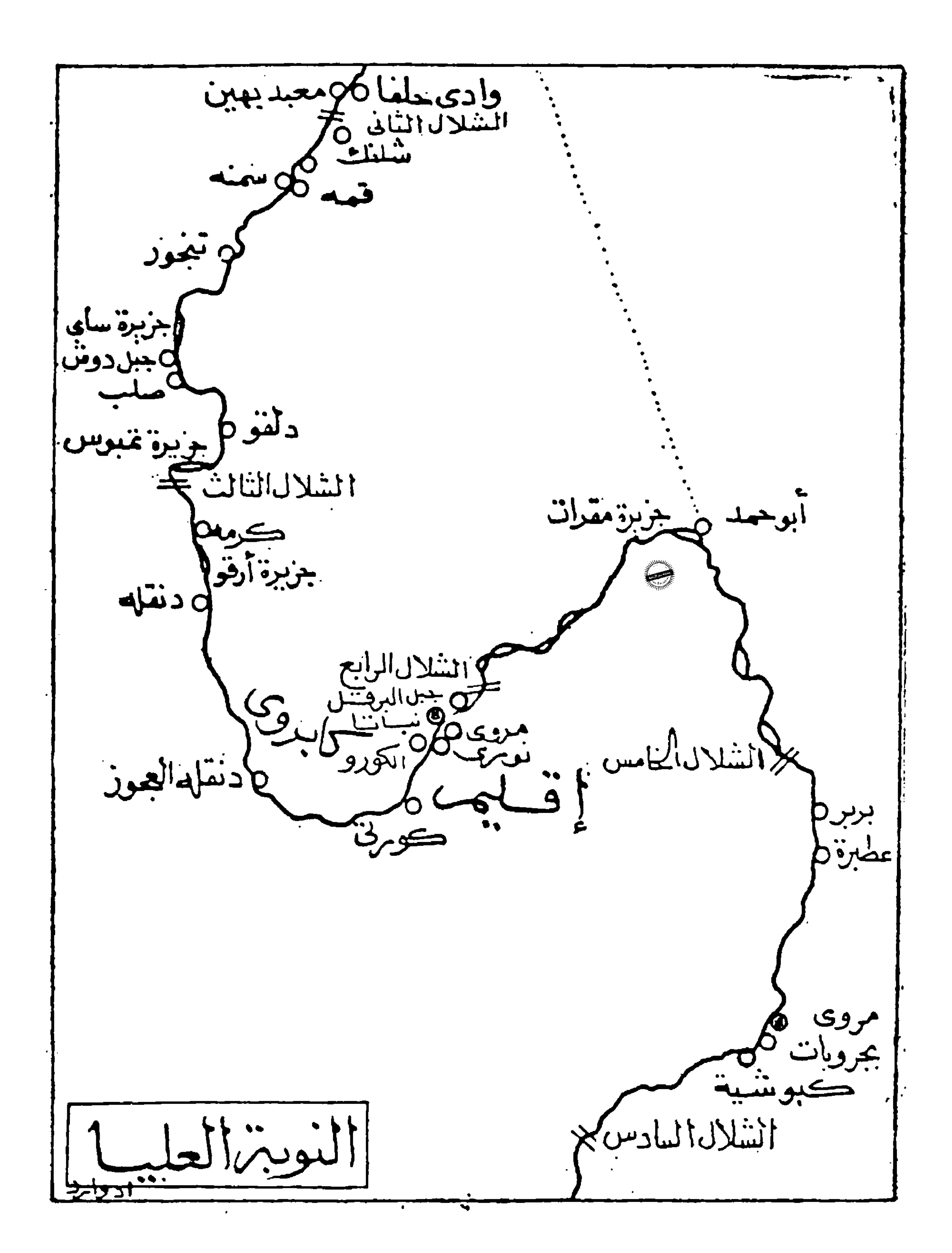
أ ـ المرحلة الرعويه الزراعية

ب ـ مرحلة إستخدام الحديد وما يرتبط به من مظاهر حضارية.

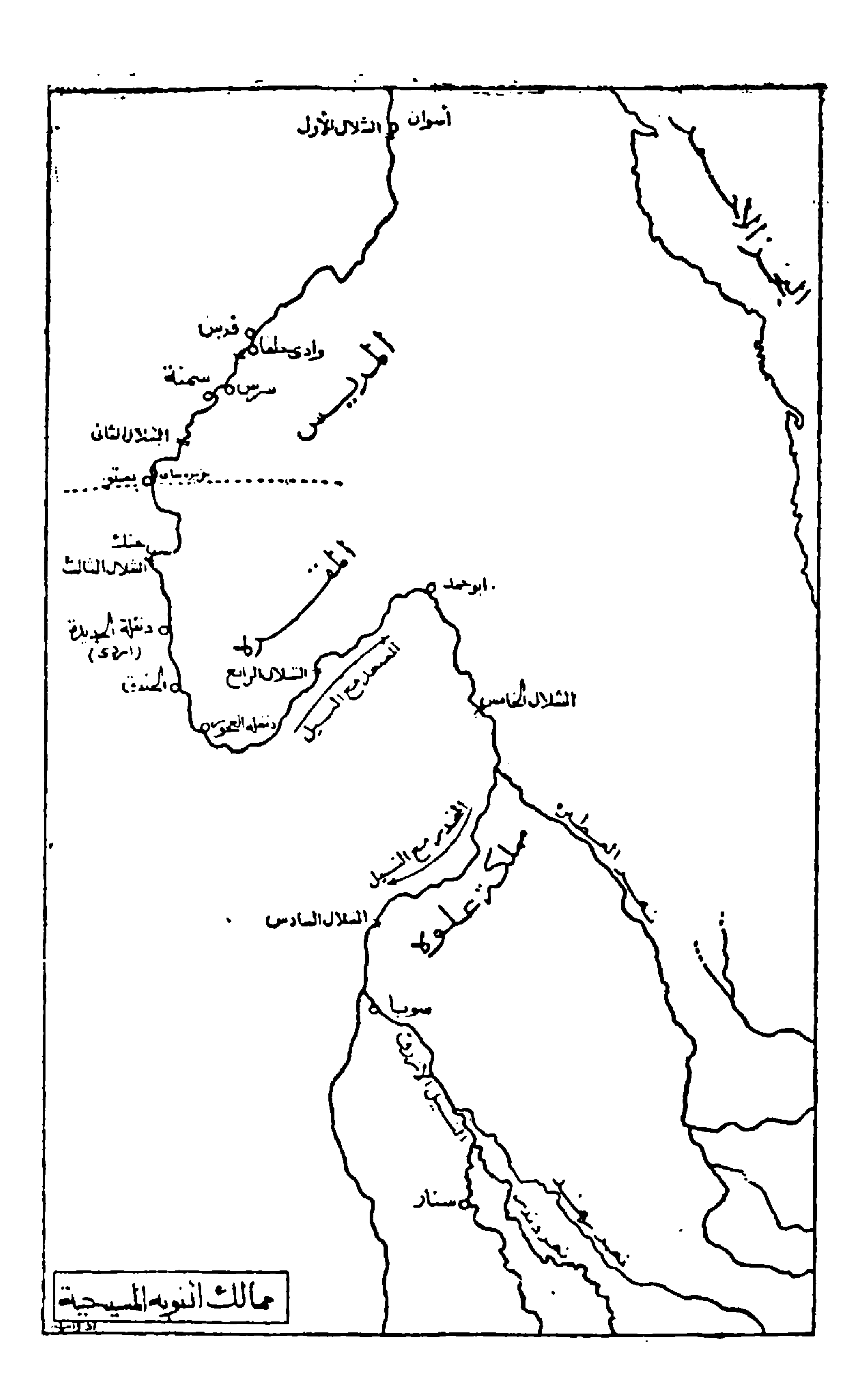
جـ ـ المرحلة المرتبطة بالنشاط التجارى ـ وما ترتب على ذلك من إحتكاك حضاري.

ومن جهه التحديد الزمنى لعمر الآثار التى عثر عليها فإنه من المرجع أنها ترجع للعصور الوسطى ـ فى الفترة بين القرنين الثامن، والثالث عشر.

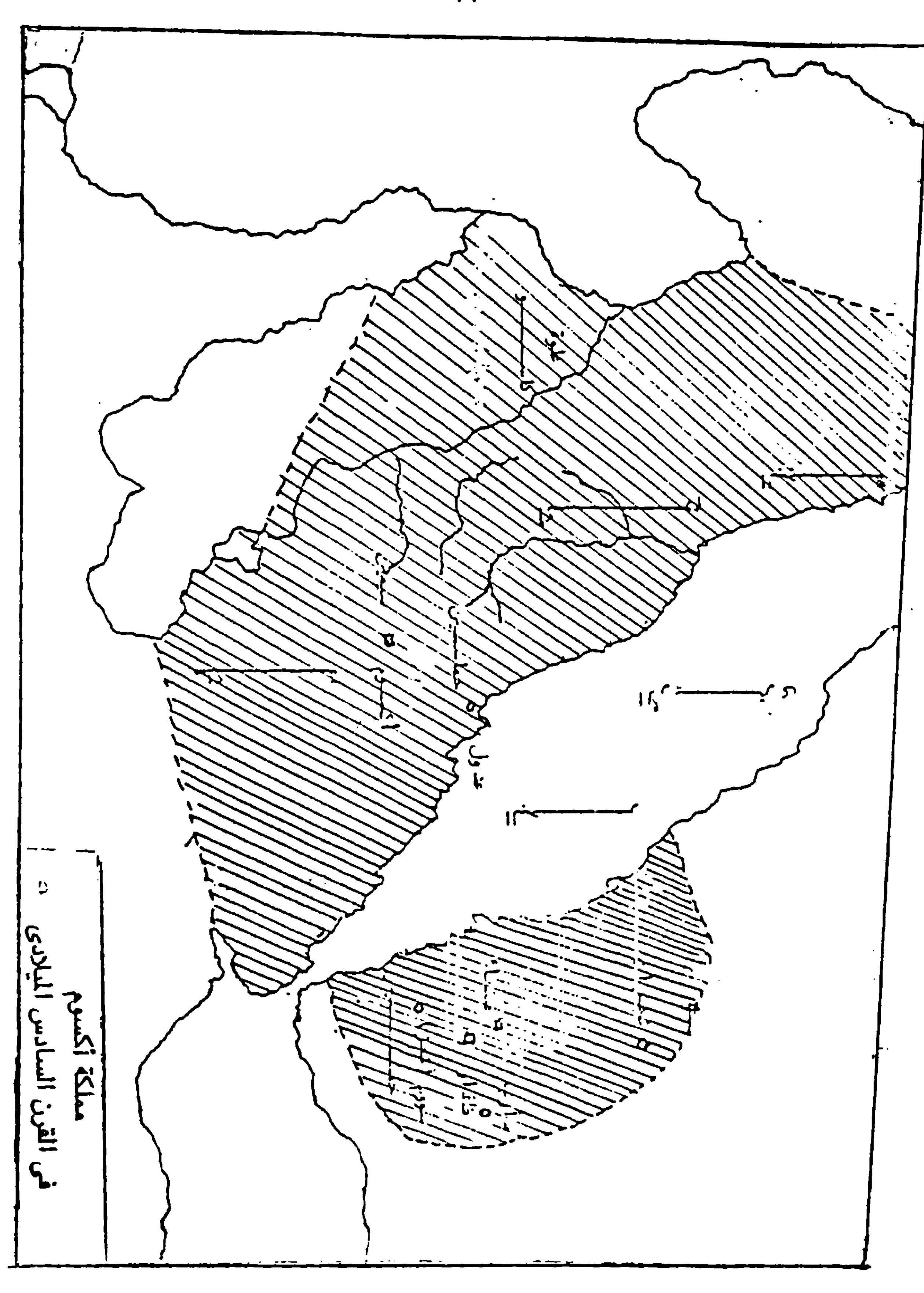
أما عن علاقة هذه المناطق بعرب شبه الجزيرة العربية ـ فهو أمر لاخلاف فيه ـ لكن الخلاف فى تحديد أثر هذه العلاقات الحضارى على سكان هذه البلاد ـ وهل هذه العلاقات كانت هى العامل الأساسى المؤثر فى حضارة زمبابوى فى عصر إستغلال مناجم الذهب وتعدينه بالذات.


وادى حلفا
معبد يهين
الشلال الثاني
شلنك
سمنه
قمه
تنجور
جزيرة ساي
جبل دوش
صلب
دلقو
جزيرة تمبوس
الشلال الثالث
كرمه
جزيرة أرقو
دنقله
أبو حمد
جزيرة مقرات
الشلال الرابع
جبل البركل
نباتا
مروى
نوري
الكورو
كابدوى
دنقله العجوز
كورتي
إقليم
الشلال الخامس
بربر
عطبرة
مروى
بجرويات
كبوشية
الشلال السادس
النوبة العليا

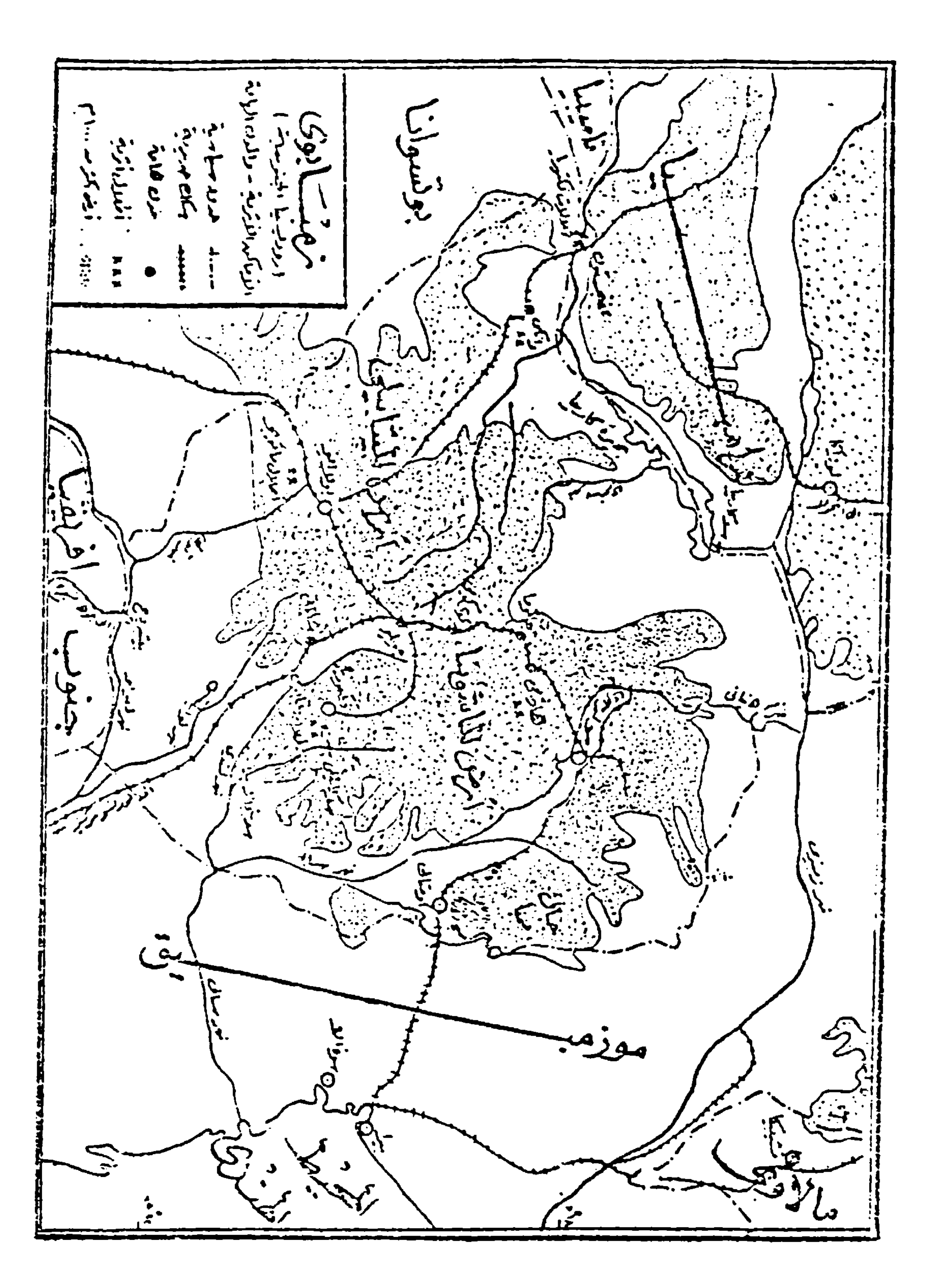
الشكل رقم ١


أسوان
الشلال الأول
فرس
وادي حلفا
سمنة
سرس
المريس
الشلال الثاني
الشلال الثالث
دنقلة العجوز
الشلال الرابع
ابوحمد
الشلال الخامس
مملكة علوه
الشلال السادس
سوبا
سنار
ممالك النوبه المسيحية

الشكل رقم ٢



الشكل رقم ٣



الشكل رقم ٤

اهم مصادر ومراجع التاريخ القديم

(١) ـ مصادر قديمة :

1 - Appianus, Romaika, with an English translation by: Horace white, 4 Volumes, (loeb lassical library).

2 - Caesar, De Bello Alexandrino., De Bello Africo, De Bello Hispaniensi translated by: Way, A.G. I Vol. (L.C.L.)

3 - Caesar, Bellun Civile, Trans. By: Peskett, A.G., I Vol. (L.C.L)

4 - Cicero, Epistulae Ad Familiares, trans. by: clynn williams, w., 3 Vols. (L.C.L.)

5 - Dio cassius, Historia Romana, Trans. By: Cary, E., 9 Vols. (L.C.L.)

6 - Diodorus Siculus, Histaria, trans. by: Oldfather, C.H., 12 Vols. (L.C.L)

7 - Dionysius Halicarnassus, Romanae Antiquitates, trans. by: Spelman, Revised by: Cary, E., 7 Vols. (L.C.L.)

8 - Herodotus, Historial, trans-by: Godley, A.D., 4 Vols. (L.C.L.)

9 - Livius, Ab Urbe Condita, Trans. by: foster, B.O., Moore;F.G., Evan, T. Sage and Schlesinger, 14 Vols. (L.C.L.)

10 - Lucanus, De Bello Civili, trans by: Duff, J.D., I vol. (L.C.L.).

11 - Plinius, Historia Naturalis, trans., by : Rockham, H. , and Jones, W.H.S., 10 Vols., (L.C.L.)

12 - Plutarchus, Vitae Paralellae, trans. by: Perrin, B., 11 Vols. (L.C.L.)

13 - Polybius, Historial, trans. by ; Paton, W.R., 6 Vols. (L.C.L)

14 - Procopius, Historia Bellarum, trans, by: Dewing, H.B., 7 vols. (L.C.L.)

15 - Strabo, Geographia, trans. by: Horace, L., Jones, 8 Vols. (L.C.L.)

16 - Tacitus, Historiae et Annales, trans. by: Moore, C.H,.and Jackson, J., 4 Vols. (L.C.L.)

مراجع حديثة:

1 - Balout, L. :Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris 1955.

2 - Baynes, N.: the Byzantine Empire, London, 1946.

3 - Bevan, E,: A History of Egypt under the ptolemaic dynasty. London, 1927.

4 - Bouchier, E.S.: life and letters in Roman Africa, Oxford 1913

5 - Budge, E.A. : The Egyptian Sudan, its History and Monume-nts, 2 Vols. (London 1901).

6 -Braidwood, R.: The world's first farming villages, London, 1965.

7 - Breasted, J.H.: Ancient Records of Egypt, 5 Vols, London, 1906 - 27.

8 -Breasted, J.H.: History of Egypt from Earliest times to the Persian conquest, London, 1948.

9 - Cagnat, R.: Les Limes de L' Afrique proconsulaire et de la Byzance, Paris 1902

10 - Caton, Thompson: The Zimbabwe Culture (london 1941)

11 - Cole, s.: The Neolithic Revolution, London, 1961.

12 - Emery, Walter: Nubian Treasure (An Account of Ballana And Qustal. London 1949).

13 - Gauthier, E.F.: Le Passe De L' Afrique du Nord, Paris, 1912.

14 - Gardiner, A.H., Egypt under the pharaohs, Oxford, 1956.

15 - Gilbert et Colette charles Picard,: Daily life in Carthage, London, 1961.

16 - Graham Alexander,: Roman Africa, London, 1902.

17 - Gzell, S.: Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord, IV Tom. Hachette, Paris 1912 - 29.

18 - Harden, D.: the Phoenicians, London, 1968.

19 - Hardy, E.R.: Christian Egypt, church and people , Oxtord, 1952.

20 - Hardy, E.R.: The Large Estates in Byzantine Egypt, Columbia, 1931.

21 - Hays, W.C.: Most ancient Egypt, chicage, 1965.

22 - Hall: Great Zembabwe. (London 1901)

23 - Hall And Neal: The Ancient Ruins of Rhodesea (London 1902)

24 - Hamilton, J.B. : The Anglo Egyptian Sudan From Within.

25 - Johnson , A,C.; West, L.C, gyzantine Egypt, Economic Studies, Princeton, 1946.

26 - Johnson, A.C.: Egypt and the Roman Empire,, London, 1951

27 - Jones, A.H.M,: the cities of the Eastern Roman provinces, London, 19337.

28 - Jones, A.H.M.: The later Roman Empire, 3 Vols., Oxford, 1964.

29 - Julien, Ch. A.: Histoire de L'Afrique du nord, Paris, 1961.

30 - Mazel, J.: Avec les pheniciens, Paris 1968.

31 - Mac. Michael, H.A. : A History of the Arabs in the Sudan 2vols. (1922)

32 - Mc Bardey, C.b.: the stone Age of North Africa, London, 1960.

33 - Mommsen, Theodor: The Provinces of the Roman Empire from, caesar to Diocletian, translated by: William, p. Dickson, London, 1906.

34 - Moscati, s.: The world of the phoenicians, London, 1968.

35 - Ostrogorsky, G.: History of the Byzantine state, Translated by: Hussey, J.,1956

36 - Petrie, Flindees, W.M.: History of Egypt, 3 Vols. 1927.

37 - Picard, G.: Le monde de carthage, Paris, 1956.

38 - Preaux, C., Les Egyptiens dans La civilzation Hellenistique d'Egypt, Paris, 1943.

39 - Raven, s.: Rome in Africa, London, 1969.

40 - Skeat, T.C.: The Reigns of the ptolemies, London, 1954.

41 - Wallace, S.L. Taxation in Egypt from Augusts to Diocletian. Princeton, 1938.

42 - Warmington, B.H,: Carthage, London 1960

43 - Warmington, B.H,. The North African Provinces from Diocletan to the vandal conquest, London, 1954.

44 - waid, J.: Our Sudan, and Its Pyramids and progress, london 1905

٣) مراجع عربيــة :

١ ـ ابن إسحاق : سيرة إبن هشام ٣ اجزاء (١٨٥٩)

٢ ـ ادولف، ايرمان : مصر والحياة المصرية القديمة (ترجمة عبد المنعم ابو بكر، محرم كمال (١٩٦٢).

٣ ـ حسن كمال : تاريخ السودان القديم (١٩٣٤).

٤ ـ زاهر رياض : كنيسة الأسكندرية فى أفريقيا (١٩٦٢).

٥ ـ ساويرس ابن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

نشرة سوريال طيه واخران (١٩٤٣ ـ ١٩٤٨)

٦ ـ سليم حسن : مصر القديم ج ١١ ، ج ١٢ (١٩٥٧)

٧ ـ شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر، ج ١ (١٩٦٩).

ـ شوقى الجمل : حضارة زمبابوى (مجلة الدراسات الأفريقية ـ العدد السادس ١٩٧٣).

٩ ـ فوزى مكاوى : مملكة اكسيوم ـ رسالة دكتوراه من معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٧٤)

١٠ ـ المقريزى : تقى الدين حمد بن على : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ (بولاق ١٢٤٠ هـ).

١١ ـ أبو المكارم : الكنائس والاديرة فى القرن الثانى عشر الميلادى (نسب خطا الى ابن صالح الأرمنى (جزءان) ١٩٨٤م.

الفصـل الثـانى
تاريخ افريقيا الاسلامى والوسيط

١ـ عوامل انتشار الاسلام فى افريقيا*

وصلت دعوة الاسلام الى القارة لأول مرة أثناء هـجرة المسلمين إلى الحبشة فى عـهد الرسـول صـلى الله عليـه وسلم فى العـام الخـامس من بعـثـتـه نتـيـجة لاضطهاد قريش للمسلمين آنذاك. وقد نتج عن هذه الهجرة التى لم تكن تقصد نشر الاسلام بقدر ماكانت فرارا من اضطهاد قريش إلى ملك الحبشة الذى لا يظلم عنده أحد أن أسلم هذا الملك نفسه بعد أن وصل إليه رسول من النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الاسلام، وإن كان قد أخفى إسلامه لظروف داخلية أجبرته على ذلك.

ثم وصلت دعوة الاسلام للمرة الثانية إلى القارة صحبة الوفد الذى أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصر فى العام السادس من الهجرة ، وهو العـام الذى يعرف بعـام الوفود. وكـان على رأس هذا الوفد الصـحـابى الجليل حـاطب بن أبى بلتـعـة الذى التـقى بالمقـوقس حـاكم مـصـر ونـائب الامـبـراطور البـيزنطى فـيـها ودعـاه إلى الإسلام ولكنه لم يقبل، ورد بإرسـال هدية للرسـول صلى الله عليه وسلم، كان منها مارية القبطية.

وكان اللقاء الثالث للاسلام بالقارة لقاء ناجحا هذه المرة، وذلك بعد الحملة التى أرسلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقادها عمرو بن العاص وفتحت

---

* أ.د. رجب محمد عبدالحليم

مـصـر فـى عـام ٢٠هـ/٦٤٠م وأخـرجت منهـا القـوات البـيـزنطيـة وبنت مـدينة الفسطاط التى انطلق منها الدعاة الذين أخذوا يجوبون البلاد وينشرون الاسلام بين المصريين فأسلم الكثيرون منهم ، واستمرت الدعوة حتى أسلم غالبيتهم وأصبحت مصر القاعدة الرئيسية التى انطلق منها الاسلام الى مختلف أنحاء القارة وخاصة الأجزاء الشمالية ومنطقة حوض النيل.

كانت مصر إذن قاعدة للدعوة والدعاة، وأيضا قاعدة عسكرية انطلقت منها جيوش الفتح لإتمام فتح شمالى افريقيا كله وتخليصه من الاحتلال البيزنطى ثم توصيل الدعوة إلى أهله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى يد العلماء والفقهاء والدعاة . وقد استمر فتح بلاد المغرب التى تمتد من غرب مصر حتى المحيط الأطلسى قرابة سبعين عاما، وهى مدة طويلة بالقياس إلى فتوحات المسلمين فى البلدان الأخرى . ويعود السبب فى ذلك إلى أن البيزنطيين كانوا يتدخلون بقواتهم وأساطيلهم البحرية لايقاف هذا الفتح بعد أن خسروا بلاد الشام ومصر ويعود أيضا إلى أن كثيرا من البربر لم يتفهموا دعوة الاسلام فهما صحيحا فى البداية، ولما وقفوا على حقيقة هذه الدعوة اعتنقوا الاسلام على يد الدعاة الذين أرسلهم الخلفاء والولاة وساعدوا العرب فى فتح بقية البلاد، بل وساعدوهم فى القفز إلى أوربا حيث فتحوا بلاد الأندلس فى عام ٩٢هـ/٧١١م. وكان هذا الفتح على يد جيش يتكون معظمه من البربر المسلمين بقيادة قائد بربرى هو طارق بين زياد فى عهد والى إفريقية والمغرب العظيم موسى بن نصير فاتح المغرب الأقصي. وإن دل فتح الأندلس على يد جيش من البربر على شئ فانما يدل على النجاح العظيم الذى أحرزته الحركة الاسلامية فى الشمال الافريقى كله.

وبعد هذا النجاح كان من المنتظر أن ينطلق الاسلام إلى أرض جديدة ولم

تكن هذه الأرض إلا الصـحـراء الكبـرى حـيث يعـيش عـدد هائل من البـربر المعـروفين باسم الطوارق ، ثم ينطلق الاسـلام فـيمـا يلى هذه الصـحـراء إلى أفريقـيا جنوب الصـحـراء والتى كانت تعرف باسم بلاد السودان ، والتى كانت تمتد من المحيط الأطلس غربا حتى البحر الأحمر شرقا .

وقد انطلق الاسـلام الى هذه البقاع من قواعد متعددة اتخذها زمن الفتح أو بعـده بقليل، اذ لم تعـد الفسطاط هى المركز الوحيد الذى انطلق منه الاسـلام الى القارة، بل شاركها فى هذا المجال مراكز أخرى مثل مدينة القيروان التى بناها فى عام ٥٠هـ القائد العظيم عقبة بن نافع الفهرى فاتح افريقية أو ما كان يعرف بالمغرب الأدني(طرابلس وتونس) فى ذلك الحين، كما شاركها أيضا مدينة تونس التى بناها فى عام ٨٢هـ القائد البارع حسان بن النعمان الأزدى فاتح المغـرب الأوسط (الجـزائر)، ومـدينة فـاس التى بناها الأدارسـة الذين حكمـوا المغرب الأقصى بدءا من عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م.

من هذه المراكز المتعددة بدأ الاسلام يأخذ طريقه عبر الصحراء الكبرى التى انتشر فيها أولا، ومنها اتجه جنوبا إلى غرب القارة ووسطها وشرقها . واتخذ الاسـلام إلى هـذه البقاع طرقا عديدة فمن الطبيـعى قبل أن ندرس تاريخ هذه البلاد أن نتحدث أولا عن الطرق التى دخل منها الاسلام الى قارة أفريقيا، ثم الوسائل التى انتشر بها فى هذه القارة.

أما الطرق التى تسرب منها الاسـلام الى قـارة أفريقـيا فـيلاحظ أنها طرق عـديدة، منهـا طريق القـوافل التـجـارية التى تربط بين شـمـال القـارة وبين بلاد السـودان الغربى والأوسط (غرب افريقيا) ونخص بالذكر الطريق الذى يبدأ من جنوبى تونس ويتجـه الى بلاد الكانم والبـرنو فى حوض بحـيرة تشـاد، والطريق الذى يبـدأ من جنوبى الجـزائر ويتـجـه إلى بلاد الـهـوسـا فى شـمـالى نيـجـيريا،

والطريق الذى يبدأ من جنوبى مراكش ويصل إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر. ومن هذه الطرق تدفق الاسلام إلى غرب القارة وخاصة إلى بلدان غانة وغمبيا وغينيا ومالى والنيجر ونيجيريا وتشاد وغيرها.

كذلك هناك طريق بحرى يسير عبر مياه البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، ويربط بين شبه الجزيرة العربية وبين شرق أفريقيا ومنه تدفق الاسلام الى شرق القارة وخاصة إلى أريتريا والصومال والحبشة وزنجبار وساحل شرقى افريقيا حتى مدينة سوفالة جنوب نهر الزمبيزى فى موزمبيق. وهناك طريق وادى النيل وطريق درب الأربعين ، ومنهما تدفق الاسلام إلى بلاد البجة وبلاد النوبة وإلى دارفور وبقية بلاد السودان الشرقى ، وهو سودان وادى النيل الذى يعرف الآن بجمهورية السودان.

ويلاحظ أن معظم هذه الطرق طرق تجارية ولم تستخدم كمعابر للجيوش إلا فى القليل النادر، مما يؤكد سمة الطابع السلمى لانتشار الاسلام فى قارة افريقيا. ومما يؤكد ذلك أيضا أن أهل القارة أنفسهم سواء كانوا من البربر أم من الزنج والسودان وبعد أن وصلتهم الدعوة هم الذين قاموا بنشر الاسلام فى بلدانهم وفيما وراءها من بلدان، ولم تكن حركات الفتح والتوسع والجهاد التى حفل بها تاريخ الاسلام فى القارة فى بعض الفترات لاسيما فى عهد الراشدين والأمويين إلا ذات أثر ضئيل فى نشر الاسلام ، ولم يكن هدفها نشر هذا الدين بقوة السلاح كما يدعى كثير ممن المستشرقين وأعداء الاسلام، وانما كان هدفها هو إزاحة العقبة التى كانت تحول دون وصول الدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة كما نص القرآن الكريم ذاته، وتتمثل هذه العقبة فى جيوش الاحتلال البيزنطى التى كانت تحتل أراضى مصر والساحل الشمالى لأفريقيا كله قبل فتح الاسلام لهذه البلاد

وبعد أن أنقذ المسلمون أهالى القارة من هذا الاحتلال البغيض، أصبح الطريق مفتوحا أمام الدعوة ، ومن ثم تلقفها الأفارقة بشغف وحب شديدين، واتخذت الدعوة إلى هؤلاء الأفارقة أشكالا متعددة وعلى يد أناس مختلفى الصفات والاتجاهات، منهم الدعاة الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل العظيم، ومنهم التجار الذين جمعوا بين الدعوة والتجارة ومنهم الحجاج الذين تأثروا بمظاهر الأخوة الاسلامية فى موسم الحج وأثروا فى إخوانهم وأهاليهم بعد أن عادوا من الحج مشحونين بشحنة دينية عميقة. ومنهم المهاجرون الذين أتوا فى هجرات عديدة شملت العرب وغيرهم، وحملوا معهم الاسلام والعروبة والثقافة العربية الاسلامية. ومنهم الصوفية الذين اخترقوا أعماق القارة ووصلوا إلى النجوع والكفور والقرى والغابات، ساعد على ذلك طبيعة الاسلام ذاته . ولا بد أن نفصل الحديث عن هذه الوسائل التى انتشر بها الاسلام فى القارة حتى نأخذ فكرة مبسطة عنها بقدر الامكان.

١ـ الدعاة:

ويقصد بالدعاة الأفراد المسلمون العاديون وخاصة الذين تلقوا قدرا كثيرا أوقليلا من العلوم الدينية. وعلى رأسهم الفقهاء والوعاظ والعلماء والمشايخ والقراء والقضاة، وكان هؤلاء يسمون فى مختلف أنحاء القارة بأسماء مختلفة مثل المرابط ـ ألفا ـ المعلم ـ الفقيه ـ الشيخ ـ سيدنا ـ مولانا. وكانوا يحظون بأوفى نصيب من الاحترام والتقدير، وكانت كل قوية فى افريقيا تقيم دارا لاستقبالهم واستضافتهم، وكان يتخذون منهم مستشارين لهن ووزراء يصرفون لهم أمور الدولة، مثلما كان الحال فى دولة غانة الوثنية كما يقول البكرى الذى عاش فى القرن العاشر للميلاد. وكان هؤلاء الدعاة ينشئون الكتاتيب التى كانوا يتخذونها مدارس لتعليم الأطفال الوثنيين القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخري،

ومن ثم يصبح هؤلاء الأطفال بذرة إسلامية تم زرعها داخل الأسر الوثنية، وكذلك كان الدعاة ينشئون المدارس التى كانت تتخذ مركزا هاما لنشر ثقافة الاسلام، وكذلك المساجد والزوايا والأربطة والخلاوى والتى كان يلتقى فيها الأفارقة بالدعاة ويتلقون العلوم الدينية ويخرجون دعاة للإسلام بين أهليهم وأقاربهم من الوثنيين.

ولذلك انتشر الاسلام بين الأفارقة وخاصة بعد أن اعتنقه بعض ملوكهم الذين كانوا يتحولون تلقائيا إلى دعاة للاسلام فى بلادهم. والمثال على ذلك ملك مالي، وملك التكرور، وملك سلي وهؤلاء نشروا الاسلام بين شعوبهم من التكرور والسوننك والماندنجو وغيرهم من شعوب غرب القارة. وخرج من هذه الشعوب دعاة تخصصوا فى الدعوة إلى الاسلام حتى أصبحت كلمة تكرورى أو سوننكى تعنى داعية للإسلام عند شعوب هذه البلدان.

ومن أهم الدعاة الذين نشروا الاسلام بين البربر فى الصحراء الكبرى وبين التكرور فى السنغال، والسوننك فى غانة، الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولى المتوفى عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م، والذى قامت على يديه دولة المرابطين الكبرى قبل ذلك ببضع سنين، تلك الدولة التى فتحت الباب واسعا أمام الاسلام بعد القضاء على مملكة غانة الوثنية فى عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م. داعية آخر قام بنشاط كبير فى حوض نهر النيجر الأعلى هو أبو القاسم على بن يخلف الذى أسلم على يديه ملك مالى الذى اتخذ لقب المسلماني بعد إسلامه فى القرن الحادى عشر للميلاد. وكذلك فى بلاد الهوسا نجد داعية إسلاميا كبيرا هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى المتوفى عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م والذى نشر الإسلام فى بلاد الهوسا ، ثم أتى بعده قرون داعية كبير من شعب الغولانى هو الشيخ عثمان بن فودى ألذى أتم حركة نشر الاسلام فى هذه البلاد وخاصة نيجيريا والكمرون.

واذا تجهنا شرقا ووصلنا الى بلاد حوض بحيرة تشاد حيث دولة الكانم والبرنو نجد داعية إسلاميا عظيما هو الشيخ محمد بن مانى الذى أسلم على يديه ملوك هذه البلاد فى القرن الحادى عشر للميلاد. وكذلك تحول كثير من النوبيين وأهالى السودان النيلى ودارفور على يد دعاة وفدوا من مصر واليمن والحجاز من أمثال غلام الله بن عائد اليمن، وحمد أبو دنانة من الحجاز، والشيخ محمد القناوى الأزهرى من مصر، وتلقف الدعوة وأذاعها سوادنيون من أمثال الشيخ محمود العركي، والشيخ صغيرون مخمد بن سرحان العدوى وغيرهم من الذين قاموا بنشر الاسلام فى هذه البلاد.

كذلك وفد على منطقة القرن الافريقى وساحل شرقى افرريقيا عدد كبير من الدعاة من أمثال ود بن هشام المخزومى الذى أقبل إلى بلاد الحبشة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنشأ أحفاده دولة إسلامية فى إقليم شوا وسط هضبة الحبشة، كذلك وفد دعاة من بنى عبد الدار أو من بنى عقيل بن أبى طالب إلى بلاد الزيلع والصومال وأريتريا وأنشأ أحفادهم سلطنة إسلامية أخرى فى هذه البلاد تسمى سلطنة أوفات الاسلامية.

وهكذا كان للدعاة فضل كبير فى نشر الاسلام وثقافته وكذلك فى إقامة سلطنات إسلامية فى كثير من نواحى القارة كما سنرى ذلك فى حينه بالتفصيل فى هذا الكتاب.

٢ـ التجـــار:

لعب التجار الدور الاول فى نشر الاسلام فى القارة بعد إخوانهم الدعاة يظهر ذلك من قول السير توماس أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الاسلام أن التجارة والدعوة الى الاسلام مرتبطان كل الارتباط، فقد تسرب الاسلام عبر

الطريق التجارية الموصلة بين مختلف أنحاء القارة والتى أشرنا إليها من قبل، وهى طرق تدفق منها الاسلام الى حوض نهرى السنغال والنيجر ومنطقة حوض بحيرة تشاد، وكذلك إلى الصومال وبلاد النوبه والسودان والحبشة وساحل شرق افريقيا.

وقد قام العرب والبربر بدور كبير فى هذا النشاط التجارى وأصبحت مدن الشمال الافريقى مراكز للتجارة بجانب كونها مراكز للعلم والثقافة، ووصلت إليها السلع الافريقية، واتجه تجار العرب والبربر واخترقوا الصحراء الكبرى ووصلوا الى بلدان افريقيا جنوب الصحراء، وكان لذلك أثره الكبير فى نشر الاسلام الذى أقبل مع قوافل التجارة ، ووصل فى ركاب التجار، وازداد انتشاره بعد أن انتقل معظم النشاط التجارى إلى أيدى السودان والزنوج أنفسهم من تجار الفولانى والتكرور والهوسا والكانمية والصوماليين وغيرهم من الأفارقة الذين اتخذوا التجارة حرفة رئيسية، وصار هؤلاء التجار الأفارقة دعاة للاسلام، وقلدوا المغاربة فى إقامة بعض الأسواق فى مدن معينة فى أيام معلومة.

وكان هؤلاء التجار سواء كانوا من العرب أم من البربر أم من السودان والزنج ينزلون هذه الأسواق أو فى المراكز التجارية ثم يحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى القائم على قيم الاسلام. ولذلك كان الاسلام يتركز أولا فى المدن التى كان ينشط فيها التجار بوجه خاص، وكانوا اذا ما استقربهم المقام فى إحدى هذه المدن ينشئون كتاتيب أو مدارس لتعليم وتحفيظ القرآن الكريم ويبنون المساجد التى كانت مقرا للدعوة الى الاسلام ، وقاموا فى نفس الوقت بمزاولة نشاطهم التجارى ، وكانوا أثناء الليل يحولون دكاكينهم إلى مكان يتلقى فيه الأطفال الوثنيون مبادئ القراءة والكتابة

على ضوء النيران ، مما حبب فيهم الأهالي، فوثقوا فيهم مما فتح الباب أمام الاسلام كي ينتشر بينهم.

كذلك وثق فيهم رجال الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء ومشايخ القبائل حيث كانوا يستقبلون فى بلاط هؤلاء الملوك الوثنيين بترحاب كبير لسمو أخلاقهم وخبرتهم بالسياسة وشئون الادارة والمال، ونظرا لأنهم كانوا يجلبون لهذه الطبقة ما كانت تحتاجه من سلع فاخرة ، ومن ثم أضفى هؤلاء الملوك حمايتهم على هؤلاء التجار، فنعم التجار بالأمان والاستقرار وازداد نشاطهم بين أفراد هذه الطبقة التى سرعان ما تحولت إلى الاسلام فى عدد كبير من البلدان.

ومن أهم المراكز التجارية التى أنشأها العرب و أهالى البلاد المحليون واتخذوا منها مراكز للتجارة والدعوة: مدينة أودغشت التى يقع مكانها الآن فى موريتانيا، ومدينة تمبكت التى بناها المرابطون من المغاربة على ضفة نهر النيجر أواخر القرن الخامس الهجري. كذلك كانت مدن كانو، ومالى وجاو، ونجيمى فى غرب القارة مراكز للدعوة والتجارة. وكانت كذلك مدينة عيذاب التى تقع على ساحل البحر الاحمر جنوب حلايب، ومدينة قوص التى تقع على نهر النيل فى صعيد مصر مراكز انطلق منها تجار الكارم إلى الحبشة وشرق إفريقيا، كما انطلقوا من موانى سواكن وباضع (مصوع)وزيلع وبربرة ومقدشو وممبسة ومالندى وكلوة وسوفالة وكلها موانى تقع على ساحل البحر الأحمر الغربى وعلى الساحل الشرقى لافريقيا، ونشط التجار فى هذه المراكز التجارية كلها ووصل نشاطهم إلى أعماق القارة فى بلاد أوغندا والكونغو وأسلم على أيديهم أعداد هائلة من الأفارقة.

وكانت قوافل الجمال التى تحمل تجارة القارة لا تستطيع العودة من هذه

المناطق الداخلية الى المناطق الساحلية فى موسم الأمطار، فكان التجار ينتظرون الشهر أو الشهور يتاجرون ويحتكون بالأهالى مما كان يؤدى إلى إسلام الكثير منهم ، ثم يعودون من حيث أتوا حينما تتحسن الأحوال الجوية. هذا فى الوقت الذى أصبح التجار المحليون المقيمون دائما فى بلدان القارة عمدا الدعوة إلى الاسلام، وتعاون الفريقان سواء كانوا مقيمين أم مرتحلين متنقلين فى النشاط التجارى الذى صحبته الدعوة إلى الاسلام فى غالب الأحيان، ومن ثم انتشر هذا الدين على أيديهم بين مختلف أنحاء القارة إلى حد كبير.

٣ـ الحجـــاج:

نتيجة للنشاط التجارى الواسع الذى أشرنا اليه والذى ساد شمال القارة ووسطها وغربها وشرقها وما نتج عنه من انتشار الاسلام والثقافة الاسلامية، نشطت قـوافل الحج التى كـانت فى نفس الوقت قـوافل للتـجـارة التى كـان يمارسها الحجاج على طول طريقهم إلى الأراضى المقدسة، وقوافل لتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التى يمرون بها . فكانت تخرج من غرب القارة قوافل عديدة على رأسها ملوك هذه البلدان الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق ومتاعب نظرا لطول الطريق ومخاطره ووعورته، لكنهم كانوا يخرجون فى رحلة قد تستغرق عاما أو عامين ويلتقون فى موسم الحج بكثير من المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبلادهم التى جاءوا منها فيشعرون جميعا بالأخوة الاسلامية، ويشعر الافريقى بانتمائه إلى عالم إسلامى واسع، وبأخوته لمسلمى ذلك العالم، فتتحطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية، ويصبح الجميع شعبا واحدا يتفوه بعبارات واحدة، ويتجهون لقبلة واحدة، ويؤدون مناسك واحدة،

ومن ثم أصبح خروج المسلمين من غرب افريقيا ووسطها وشرقها ملوكا

وجماعات وأفرادا إلى الحج واتصالهم بالشعوب الاسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة تأكيدا لروح الأخوة الاسلامية التى فرضها الاسلام ، فيعود هؤلاء الأفارقة ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين ووقف جهودهم على إعلاء شأنه فى بلادهم وماجاورها من البلاد الوثنية، خاصة وأن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم وثقافة الأفارقة، كما كانوا يعودون أحيانا مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة، مما كان له أثره فى نشر الاسلام فى بلادهم، لاسيما وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، ونشر الاسلام بين الوثنيين ، ونشر عقائده الصحيحة بين المسلمين الأفارقة.

وكان المسلمون الجدد من هؤلاء الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لاخوانهم وأقربائهم الذين أدوا هذه الفريضة ، فيقدمون هم الآخرون عليها، ولذلك تعددت قوافل الحج التى كانت تخرج من هذه البلدان والتى كانت تضم آلافامؤلفة على رأسها الملوك والحكام فى أحيان كثيرة. ومن أشهر الملوك الذين أدوا هذه الفريضة من حكام افريقيا الغربية منسا موسى سلطان مالى الاسلامى الذى خرج إلى الحج من هذا المكان النائى فى غرب القارة على رأس موكب كبير تحدث عنه المؤرخون وذلك فى عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م.، اذ كان موكبه يضم أكثر من عشرة آلاف حاج، وكان يحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام تقدر بمائة حمل جمل، أهدى منه لسلطان مصر ولأمرائها وموظفيها. كما أفاض منه على فقراء مكة والمدينة، ومنح عن سعة حتى قيل إن قيمة الذهب انخفضت فى مصر انخفاضا ملحوظا لكثرة ما أنفقه فيها.

كذلك تحدثنا المصادر بأن ملوك سلطنة صنغى الاسلامية التى خلفت سلطنة مالى فى غرب إفريقيا قاموا بأداء هذه الفريضة، ومن أشهرهم

السلطان أسكيا محمد الأول فى عام ٤٩٥هـ/١١٠١م، وأن سلاطين الكانم والبرنو الذين كانت دولتهم تقوم حول بحيرة تشاد أكثروا من أداء هذه الفريضة لدرجة أن بعض هؤلاء السلاطين كان الواحد منهم يحج ثلاث مرات، وبعضهم توفى أثناء الذهاب أو العودة ودفن فى مصر . وكان حكام وأهالى بلاد السودان النيلى والصومال والحبشة وشرق افريقيا بصفة عامة يؤدون هذه الفريضة فى سهولة ويسر ، نظرا لقرب بلادهم من بلاد الحجاز، وكانوا يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم فى شمال وغرب افريقيا حتى السلاطين أنفسهم مما يدل على أهمية هذه الشعيرة لديهم وعلى أن تأثيرها فى نفوسهم كان قويا ولذلك كانوا يعودون من هذه الرحلة ممتلئين حماسة للإسلام ولنشره بين من لم يعتنقه من الوثنيين فى بلادهم وقراهم.

٤ـ الهجرات:

لعبت تحركات القبائل وهجراتها سواء كانت عربية أم بربرية أم سودانية وزنجية دورا عظيما فى نشر الاسلام واللغة العربية والثقافة الاسلامية فى القارة الافريقية. ومن أهم هذه الهجرات هجرات العرب إلى بلدان القارة المختلفة وكانت مصر هى القاعدة والمنطلق الذى انطلقت منه الهجرات العربية غربا إلى شمال افريقيا، وجنوبا إلى بلاد النوبة والسودان.

فقد هاجرت جماعات عربية من ربيعة وجهينة وبلى إلى أرض البجة منذ منتصف القرن السابع للميلاد، ونجحوا فى نشر الاسلام بين الأهالي، ودفعت شهرة وادى العلاقى الذى يقع فى الصحراء الشرقية بين أسوان والبحر الأحمر بالذهب والزمرد إلى جذب جماعات كبيرة من ربيعة وجهينة منذ عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م إلى هذه المنطقة حيث استقر العرب هناك وتزاوجوا مع البجة وأقاموا

إمارة عربية مدت نفوذها إلى أسوان وشمال بلاد النوبة حيث صاهروا حكام مملكة مقرة النوبية المسيحية، ونتج عن ذلك انتقال الحكم إلى هؤلاء العرب من ربيعة الذين عرفوا باسم بنى كنز، نسبة إلى لقب كان قد أطلقه أحد خلفاء الفاطميين فى مصر على أحد أمرائهم نظير مساعدته لهذا الخليفة فى القضاء على أحد الثائرين والخارجين على دولته فى صعيد مصر، وتطورت أحوال بنى كنز هؤلاء حتى استطاعوا أن يقيموا دولة بنى كنز العربية فى بلاد النوبة، واتخذوا دنقلة عاصمة لهم منذ عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م.

وبقيام هذه الدولة انفتح باب الهجرة العربية على مصراعيه، فهاجرت قبائل عربية كثيرة إلى وسط السودان وأقاموابين نهرى النيل الأبيض والنيل الأزرق، واستطاعوا أن يساعدوا ويتحالفوا مع قبائل سودانية تسمى الفونج، وأن ينشئوا معا دولة إسلامية أخرى هى دولة الفونج الاسلامية كانت عاصمتها سنار، وذلك فى عام ٩١١هـ/١٥٠٥م. كذلك هاجرت قبائل عربية كثيرة من مصر إلى مملكة دار فور الوثنية منذ القرن الحادى عشر للميلاد، ووفدت إلى هذه المملكة هجرات عربية أخرى من تونس وشمال إفريقيا، واختلط هؤلاء المهاجرون بالأهالى وصاهروا ملوك دارفور، ونتج عن هذه المصاهرة انتقال الحكم اليهم ، وأصبحت دار فور سلطنة عربية إسلامية منذ عام ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م.

كذلك تواصلت الهجرات إلى بلاد الزيلع والحبشة، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم منطقة القرن الافريقي. وقد سبق أن أشرنا الى هجرة ود بن هشام المخزومى فى عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد تبع ذلك هجرات عربية استقرت على طول ساحل هذه المنطقة، وأقامت فى المدن الساحلية التجارية، مثل سواكن وباضع (مصوع) وزيلع وبربرة، وانطلقت إلى الداخل وسكنت مع الأهالى واشتغلت بالتجارة والزراعة والرعي، وازداد عددها حينا بعد

حين حتى تمكنت من إقامة سلطنات إسلامية مثل سلطنة شوا وسلطنة أوفات وسلطنة عدل الاسلامية.

وقد ازدادت هجرات العرب على ساحل شرق افريقيا وأنشأوا مراكز تجارية بطول هذا الساحل حتى قال بعض المؤرخين إنهم أنشأوا ستا وثلاثين مدينة بدءا من مقدشو وحتى سوفالة جنوب نهر الزمبيزى فى موزمبيق. ومن أشهر هذه الهجرات هجرة سليمان وسعيد ابنى عباد بن عبد بن الجلندى ،وكانا ملكين فى عمان واضطرتهما ظروف القتال مع الحجاج بن يوسف الثقفى الذى أراد أن يفرض نفوذه على عمان بالقوة المسلحة، إلى ترك وطنهما والاتجاه فى سفن إلى ساحل شرق إفريقيا حيث وصلوا ومن معهما من رجال وجند وأهالى إلى جزر أرخبيل لامو التى تقع فى دولة كينيا الآن ، وذلك فى الفترة (٧٥هـ-٨٥هـ)، واسقروا هناك وأنشاوا إمارة صغيرة كان لها أثرها فى نشر الاسلام بين الأهالى الموجودين فى تلك المنطقة.

كذلك هاجر بعض الشيعة الزيدية إثر مقتل إمامهم زين بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين فى عام ١٢٢هـ/٧٤١م على يد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، بعد أن خرج زيد عليه وأعلن إمامته فى الكوفة ببلاد العراق قبل ذلك بعام. فاضطر أتباعه بعد مقتله إلى الهجرة خوفا من اضطهاد الأمويين لهم، فوصلوا إلى ساحل بنادر بالصومال، وأقاموا هناك حوالى مائتى عام أرسوا فيها قواعد الاسلام والثقافة الاسلامية بين الصوماليين.

ولم تلبث أن وفدت هجرة أخرى إلى هذا المكان نفسه تعرف باسم هجرة الإخوة السبعة، جاءت من الأحساء فى عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م، ووصلت إلى ساحل بنادر بالصومال بعد أن ضاق بهم المقام فى منطقة الخليج نتيجة

لصراعات سياسية ومذهبية، وكان هؤلاء الإخوة من قبيلة الحارث العربية. ولما وصلوا إلى هذا الساحل استطاعوا أن يطردوا الزيدية إلى الداخل، وأن ينشئوا مدينة مقدشو فى عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م، ويتخذوها عاصمة لدولتهم التى أقاموها هناك والتى كانت تعرف باسم سلطنة مقدشو الاسلامية وبذلك ظهر إلى الوجود مركز إسلامى كبير سوف يكون له أثره القوى فى نشر الاسلام والعروبة والثقافة العربية الاسلامية لابين الصوماليين فحسب، بل بين كثير من سكان شرق إفريقيا كله.

وقد أعقب تلك الهجرة هجرة شيرازية فارسية أتت من شيراز بإيران، كان على رأسها أمير يدعى على بن حسن بن على الشيرازي، وذلك فى عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م وذلك نتيجة خلافات وقعت بينه وبين إخوته فى شيراز واضطرته إلى الهجرة هو وأتباعه ورجاله فى سبع سفن ضخمة إلى شرق افريقيا حيث استقر به وبهم المقام فى جزيرة كلوة التى تتبع دولة تنزانيا الآن، واستطاع أن يؤسس سلطنة إسلامية تسمى سلطنة كلوة ، استمر هو وأحفاده يحكمونها حوالى قرنين من الزمان حتى أتت هجرة عربية أخرى من اليمن من بنى الحسن ابن طالوت المهدلى وحكمت هذه السلطنة، ومن ثم تغلبت الصبغة العربية فيها على الصبغة الشيرازية الفارسية، واستمرت هذه السلطنة فى الوجود حتى جاء البرتغاليون وتغلبوا عليها فى عام ٩١١هـ/١٥٠٥م

كما وفدت أيضا هجرت كبيرة إلى ساحل إفريقيا الشرقى فى عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م كان على رأسها أحد سلاطين عمان، وهو سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهاني، وقد اضطر هذا السلطان إلى الخروج من بلاده نتيجة لظروف سياسية داخلية واتجه مع حاشيته وأتباعه وجنده إلى ساحل شرق افريقيا حيث استقر بهم المقام فى خليج لامو فى مدينة تسمى بات حيث رحب به

العمانيون السابقون الذين كانوا قد هاجروا إلى هذا المكان نفسه فيما يعرف بهجرة سليمان وسعيد فى القرن الأول للهجرة والتى سبقت الاشارة إليها، كما رحب به حاكمها المدعو إسحاق وزوجه من ابنته، فانتقل الحكم إليه وأنشأ سلطنة اسلامية تسمى سلطنة بات النبهانية منذ ذلك التاريخ، واستطاعت هذه السلطنة أن تضم إلى مناطق نفوذها معظم الساحل الشرقى لأفريقيا، وأن تظل فى الحكم حتى القرن الثامن عشر للميلاد.

ونتيجة لهذه الهجرات العربية المتتابعة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية والثقافة الاسلامية بين السكان المحليين فى منطقة القرن الأفريقي، وفى منطقة الساحل الشرقى لأفريقيا وكذلك فى الجزر المواجهة لهذا الساحل مثل جزيرة زنجبار، وجزر القمر ، وجزيرة مدغشقر (مالاجاش الآن) وغيرها من الجزر، وتكون عالم إسلامى واضح المعالم نشأت فيه دول وسلطنات إسلامية ظلت موجودة حتى اصطدمت بالبرتغاليين والأحباش، ثم بالاستعمار الأوربى فى العصر الحديث.

كذلك خرجت هجرات عربية من مصر فى اتجاه الغرب إلى بلاد المغرب العربى منذ عصر الفتوحات الاسلامية فى القرن الأول للهجرة، وظلت هذه الهجرات تتتابع حتى القرن الخامس للهجرة حيث نزحت إلى هناك من مصر هجرة بنى هلال وبنى سليم. ولاشك أن الحكم العربى الاسلامى بالاضافة الى هذه الهجرات قد أديا فى النهاية الى تعريب أهل البلاد الأصليين، فانتشرت بينهم اللغة العربية وأصبحت لسانهم، وأصبحت هذه البلاد بلدانا عربية إسلامية.

المهم أن هذه البلاد انطلقت منها هجرات عربية ولكنها كانت قليلة العدد وقليلة الأفراد، واتجهت جنوبا إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى حوض نهر

السنغال والنيجر، وحوض بحيرة تشاد، مثل بنى جذام وبنى حسان وبنى معقل وأولاد سليمان وجهينة وغيرهم، واستقرت هذه القبائل هناك ولا زالت توجد إلى الآن بعض هذه القبائل التى تحتفظ بأصولها العربية ولكن نظراً لقلة هذه الهجرات إلى هذه البلاد وقلة عدد أفرادها فإنها لم تؤد إلى انتشار اللغة العربية كثيرا بين الأهالى هناك، وكانت فقط لغة العلم والتعليم والتجارة والوثائق الرسمية للدولة ، بينما كان الأهالى مسلمين ولكنهم لا يتكلمون العربية إلا قليلا منهم. ولما جاء الاستعمار الأوروبى لهذه البلاد حارب هذه اللغة وحارب الاسلام بكل ما يستطيع من قوة ولازال رغم الاستقلال.

وإذا كان العرب قد هاجروا إلى البلدان الأفريقية التى أشرنا إليها فى مختلف أنحاء القارة. وكان لهم أثرهم الكبير فى نشر الاسلام ولغته وثقافته، وكذلك فى إقامة سلطنات إسلامية، كذلك كان لهجرات البربر أثر كبير فى هذه الميادين وخاصة بربر صنهاجة الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى واستطاعوا نتيجة لجهود داعية عظيم أشرنا إليه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولى أن يقيموا دولة المرابطين الكبرى فى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦، وأن يضموا إليها بلاد المغرب الأقصى وبلاد الأندلس، ثم مملكة غانة الوثنية، وانطلق دعاتهم بين أهالى غانة والسودان الغربى ينشرون الاسلام، كذلك وفد كثير من قبائل البربر الأخرى إلى هذه البلاد مهاجرين إليها واستقروا فيها وأنشأوا المدن أو المراكز التجارية مثل مدينة أودغشت ومدينة تمبكت وغيرهما.

كذلك هاجرت قبائل من البربر إلى حوض بحيرة تشاد حيث أقامت دولة تسمى دولة الكانم والبرنو. ولم يلبث ملوك هذه الدولة أن اعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وظلوا يحكمون هذه البلاد حتى القرن التاسع عشر للميلاد بعد أن نشروا فيها الاسلام.

كذلك كان لهجرات النوبيين والصومالى والجلا والأعفار والزنوج أثرها الكبير فى نشر الاسلام فى منطقة القرن الافريقى وفى ساحل شرق افريقيا، وكانت هذه الهجرات وراء توسع السلطنات الاسلامية التى قامت فى هذه المنطقة، وساعدتها فى رد عدوان الأحباش على المسلمين فى منطقة القرن الافريقى وخاصة فى القرن السادس عشر للميلاد. كذلك كان لقبيلة الياو الزنجية فى شرق افريقيا أثرها الكبير فى نشر الاسلام فى المناطق الداخلية فى القارة.

٥ ـ *الطرق الصوفية*:

ارتبط نشاط الدعوة إلى الاسلام لاسيما فى غرب إفريقيا وشرقها بانتشار الطرق الصوفية وخاصة بين المشتغلين بالتجارة، وكانت هذه الطرق قد بزغ نجمها فى الأفق منذ أن تعرض العالم الاسلامى لخطر الاستعمار الأوروبى الحديث بدءاً من القرن السادس عشر للميلاد، واستطاعت الطرق الصوفية أن تلعب دورا خطيرا فى الدعوة لمقاومة هذا الاستعمار، وكذلك فى الدعوة إلى الوحدة الدينية، وفى نشر الاسلام بين من لم يعتنقه. ونتيجة لذلك جذبت هذه الطرق كثيرا من الشباب الأفارقة الذين انخرطوا فى تلك الطرق الصوفية المتعددة. ففى شرق إفريقيا وبلاد سودان وادى النيل ظهرت الطريقة الميرغنية فى القرن التاسع عشر للميلاد والتى كان لها تأثيرها الكبير على الناس هناك. كذلك ظهرت هناك الطريقة القادرية والشاذلية والرفاعية قبل ذلك بقرون عديدة، وانتشر أتباع هذه الطرق على طول الساحل الشرقى لافريقيا، وفى الجزر المواجهة له وكذلك فى المناطق الداخلية.

وفى شمال إفريقيا ظهرت الطريقة السنوسية على يد فقيه جزائرى يدعى محمد بن على السنوسى فى عام ١٨٣٧م. واستطاع هذا المصلح الكبير أن يقيم دولة دينية فى الأراضى الليبية دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء،

وتمكنت هذه الطريقة من خلال أتباعها وزواياها التى انتشرت فى إفريقيا جنوب الصحراء أن تنشر الاسلام بين العديد من القبائل الإفريقية الوثنية مثل قبيلة (بيلي) التى كانت تسكن منطقة إنيدى شرق بوركو فى شمال نيجيريا، كذلك عمقت الاسلام فى واداى التى تقع شرق بحيرة تشاد، وبين قبائل الجلا فى الحبشة حيث كانوا يشترون العبيد أو الأطفال ثم يحررونهم ويرسلونهم إلى مركز الطريق الرئيسى فى واحة جغبوب فيتعلمون ثم يعودون إلى بلادهم دعاة للإسلام.

كذلك كان لأتباع الطريقة القادرية التى انتشرت فى شمال وغرب إفريقيا أثر كبير فى نشر الاسلام فى هذه البلاد. فقد اتخذ أتباعها من واحة توات بالصحراء الكبرى ثم من مدينة ولاتة بموريتانيا أول مركز لهم فى تلك البلاد منذ القرن الخامس عشر للميلاد، ثم لجأوا إلى تمبكت وانتشر أتباعهم ودعاتهم فى أنحاء السودان الغربي، وكذلك فى منطقة القرن الافريقى وساحل شرق إفريقيا، ووصل أتباعها فى الداخل حتى الكونغو. وكان أتباع هذه الطريقة يقومون بتأسيس المدارس لتعليم الدين ونشر الاسلام، ويرسلون نوابغ الطلاب إلى مدارس القيروان وتونس وفاس والأزهر وغيرها للتعمق فى الدراسات الدينية، فاذا ما أتموا دراستهم عادوا الى أوطانهم دعاة للاسلام.

ومن الطرق الأخرى التى انتشرت فى القارة الطريقة التيجانية التى أنشأها أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التيجانى المتوفى عام ١٨١٥م. وقد قام أتباعه بنشر هذه الطريقة بين رجال القوافل والتجار، فانتشرت تعاليمها فى حوض السنغال وفى تمبكت وفى سائر أنحاء غرب إفريقيا. كذلك ظهرت هذه الطريقة فى السودان النيلى وشرق افريقيا على يد بعض التيجانية القادمين من غرب افريقيا. وقد اعتنق هذه الطريقة علية القوم فى الحبشة مثل سلطان جمه

أبو جفار، والرأس على نائب الامبراطور الحبشي، وعمل هذان الرجلان على نشر الاسلام بين الوثنيين من الأحباش ونجحا فى ذلك نجاحا عظيما فتحول معظم سكان الولايات الوسطى والشمالية فى الحبشة إلى الاسلام.

وهكذا أدت هذه الوسائل من دعاة وتجار وحجاج وهجرات وطرق صوفية إلى نشر الاسلام فى مختلف أنحاء القارة وخاصة فى غربها ووسطها وشرقها ساعد على ذلك طبيعة الإسلام ذاته.

٦ـ طبيعة الاسلام:

ذلك أن الإسلام لم يفرض كما رأينا على الشعوب الوثنية الافريقية فرضا، إنما حمله قوم من أهل افريقيا نفسها اتخذوا صفة التجار أو المعلمين أو الدعاة أو الصوفية، فليس غريبا أن يلقى قبولا منهم، فهو فى نظرهم دين إفريقى غير دخيل، والدعوة إليه تتم بالطرق السلمية وليس بالغزو المسلح كما فعل الاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث.

كما أن الاسلام لم يستعبد هذه الشعوب إنما أشعرها بالعزة والكرامة، فخلق منها دولا كبرى وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال، لم يقض على نظمها المحلية بل تواءم معها وخلق منها ومن تقاليده تقاليد إسلامية الطابع إفريقية الروح. ومن ثم تقبله الأفارقة ، خاصة وأن الاسلام لم يكن دينا فحسب، إنما كان دينا وحضارة تقوم على أساس تعمير الدينا وكسب الآخرة، ومن ثم لزم أن ينشر الاسلام نور العلم والثقافة بين أتباعه ومعتنقيه، فارتبط الاسلام بالعلم والتعليم منذ البداية، وكان الافريقى لايكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعيا كلما زادت ثقافته، ولذلك سمعنا عن عدد كبير من العلماء الأفارقة الذين ظهروا فى مختلف ميادين العلم والثقافة، ولم يكونوا فى ذلك أقل من إخوانهم علماء المغاربة أو المشارقة.

زد على ذلك أن الاسلام لم يعترف بالتفرقة العنصرية فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللون ولا يميز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الثروة لأن «أكرمكم عند الله أتقاكم» فمعيار التفاضل بين الناس هو التقوى والعمل الصالح، ولذلك أقبل الأفارقة على اعتناقه ، فوحد بينهم وقضى على تعدد الآلهة وتعدد الولاءات ، وأصبح الولاء لله وحده.

ومن ثم فإن الاسلام عنصر توحيد، فهو يقاوم عناصر الفرقة والتشرذم، وله قيمة ايجابية لا تقهر فى تقوية الشعور بالجماعة والولاء لها ، ومن ثم فقد وحد الاسلام بينهم دينيا، كما وحد بينهم لغويا، إذ انتشرت اللغة العربية بين كثير من شعوب القارة وصارت هى أداة الفكر والعلم والتعليم والمخاطبة، أما الشعوب التى احتفظت بلغاتها، فقد كانت العربية وسيلة العلم والتعامل التجارى واللغة الرسمية للدولة، لأن اللغات الإفريقية لم تكن لغات مكتوبة.

كذلك وحد بينهم الاسلام سياسيا وقضى على التشرذم القبلى والنزعات القبلية وأنشأ دولا كبرى بل امبراطوريات عظمي، مثل مبراطورية مالى التى ضمت معظم منطقة غرب إفريقيا بالكامل وكانت مساحتها تفوق مساحة دول غرب أوربا مجتمعة. ليس هذا فقط، بل إن الإسلام جعل الإفريقى يشعر بانتمائه ليس إلى بلاده فقط بل إلى عالم إسلامى واسع يستطيع أن ينتقل بين أرجائه سواء كان تاجرا أو حاجا أو صوفيا أو طالب علم. وفى كل مكان يجد هذا الافريقى القوت والمأوى والمساعدة والاستقبال الودود على أساس من أخوة الإسلام التى تجمع أفراد هذا العالم الاسلامى الواسع الذى يمتد من الصين حتى المحيط الأطلسي.

ومن هنا اعتبر الأفارقة أن الاسلام دين إفريقى قام بنشره بينهم قوم من أنفسهم اتخذوا الدعوة أوالتجارة أو التصوف وسيلة إلى ذلك، وطبقوا مبادئ

الاسلام السمحة وأخلاقه الحميدة وقيمه السامية من إخاء ومساواة وتكافل وتعاون، ومن ثم انتشر الاسلام فى هذه البقاع الواسعة فى القارة حتى إنه يمكن القول بأن قارة افريقيا هى القارة المسلمة الوحيدة فى عالم اليوم، على اعتبار أن غالبية سكانها يعتنقون الإسلام، يتبين ذلك بوضوح من خلال حديثنا عن السلطنات والممالك الاسلامية التى قامت بالقارة فى العصور الوسطي، ونبدأ فى الحديث أولا عن السلطنات التى قامت فى غرب هذه القارة ثم فى وسطها ثم فى شرقها

ب ـ الاسلام والدول الإسلامية فى أفريقيا

أولا ـ الدول الاسلامية فى أفريقيا الشمالية :*

١ ـ مصر الإسلامية :

ـ الفتح العربى لمصر :

أ ـ الدولة الطوولونية : (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٦٨ ـ ٩٠٥)

ب ـ الدول الإخشيدية : (٣٢١ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٦٩م)

جـ ـ الدولة الفاطمية : (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ / ١١٧٥١ ـ ٢٥١٠٧م)

د ـ الدولة الأيوبية : (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/١١٧١ ـ ١٢٥٠م)

هـ ـ الدولة المملوكية : (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)

---

* د . حسين سيد مراد

الفتح العربى لمصر:

بدأ التفكير فى فتح مصر بعد أن تم استكمال فتح بلاد الشام حين طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب فى مؤتمر الجابية عام ١٧هـ/ ٦٣٨م ـ أن يأذن له فى فتح مصر لأن فتحها قوة للمسلمين وعون لهم. لكن الخليفة تردد فى الاجابة على طلب ابن العاص لأنه كان يخشى من توزيع قوى الجيش الاسلامى بين العراق وفارس والشام ومصر. على أية حال وافق الخليفة على طلب ابن العاص حينما أدرك أن بقاء مصر فى يد البيزنطيين يهدد مركز العرب فى بلاد الشام، وعقد له على أربعة آلاف جندى لفتحها وتبليغ الدعوة إلى أهلها.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن أحوال مصر قد ساءت فى العصر البيزنطى. فالحالة الاقتصادية ساءت بسبب كثرة الضرائب، كما ساءت اجتماعيا لأن الرومان اعتبروا المصريين الطبقة السفلى فى المجتمع. كما ساءت أيضا بسبب الاضطهاد الدينى . نتيجة لذلك ازداد المصريون كرها للحكم البيزنطى. وهذا يفسر موقف أقباط مصر من الفتح،، والسهولة التى تم بها.

سار عمرو بن العاص بقواته من فلسطين عام ١٨هـ/ ٦٣٩م، ووصل الى العريش عام ١٩هـ/ ٦٤٠م واستولى عليها بسهولة. ثم زحف بجيشه ووصل إإلى الفرما وسقطت المدينة فى يد المسلمين. وطلب عمرو بن العاص المدد فأرسل إليه الخليفة أربعة آلاف مقاتل. ثم استكمل عمرو الزحف ووصل إلى حصن بابليون. وفى طريقه استولى على أم دنين. وقضى العرب بضعة شهور فى حصار القوات البيزنطية فى حصن بابليون وبدأت مفاوضات بين المسلمين والروم وفشلت فاقتحم المسلمون الحصن فبادر الروم الى تسليم الحصن وأن يدفعوا الجزية للعرب.

اتجه عمرو بن العاص بعد ذلك بجيوشه لفتح الاسكندرية وقد حشد البيزنطيون قواهم فيها وطال حصار المدينة فى الوقت الذى اشتدت مقاومة البيزنطيين داخلها. وأخيرا وبعد حوادث وتفصيلات أدرك المقوقس تعذر الاستمرار فى المقاومة فتم توقيع معاهدة الاسكندرية عام ٢١هـ/٦٤١م وأهم شروطها : أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين سنويا وأن تعقد هدنة بين الطرفين لمدة أحد عشر شهرا تجلو خلالها الحامية البيزنطية بأموالها وعتادها عن المدينة، كما تعهد العرب بعدم التدخل فى شئون المسيحيين. وبعد فتح الاسكندرية اتجه عمرو بن العاص إلى الصعيد وقام بفتحه وبذلك فتحت مصر، وأصبحت ولاية تابعة لدولة الخلافة فى المدينة المنورة.

كان من نتائج الفتح العربى لمصر انتشار الاسلام واللغة العربية ويرجع ذلك إلى سياسة الدولة الاسلامية فى تبليغ الدعوة الاسلامية، وإلى سرعة امتزاج العرب الوافدين إلى مصر بعد الفتح الاسلامى بسكان البلاد، وإلى قيام الخلافة بتعريب الدواوين فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٨٧هـ/٧٠٥م هذا التطور استغرق سنين عديدة وأدى إلى انتشار اللغة العربية فى مصر وليس أدل على انتشار هذه اللغة من قيام أحد الأساقفة الأقباط وهو ساويرس بن المقفع بالتأريخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية كما ازدهرت مدرسة مصر الدينية حتى أصبحت مصر مركزا من مراكز الثقافة العربية الاسلامية.

بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين خضعت مصر لدولة الخلافة الأموية فى دمشق (٤٠ ـ ١٣٢هـ/ ٦٦١ ـ ٧٤٩م) وبعد سقوطها خضعت لدولة الخلافة العباسية فى عصرها الأول. وفى عصرها الثانى ازداد نفوذ الأتراك وسيطروا على الدولة مما أدى إلى قيام دول مستقلة كالدولة الطولونية والدولة الأخشيدية.

أ ـ الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) :

ارتبط قيام الدولة الطولونية فى مصر بازدياد نفوذ الأتراك فى العصر العباسى الثاني، فقد استعان بهم الخلفاء فقلدوهم المناصب الكبري. فصار منهم الوزراء والولاة. وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وازدياد نفوذ الأتراك أن كثيرا من الولاة كانوا أتراكا، وكانوا يفضلون البقاء فى العاصمة قرب الخليفة وينيبون عنهم بدورهم نوابا يحكمون البلاد بإسمهم. ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر وينقشون اسمهم على السكة. من هؤلاء باكباك التركى الذى ولى مصر عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م. فظل فى بغداد وأرسل أحمد بن طولون لينوب عنه فى حكمها. تولى أحمد بن طولون مصر نائبا عن باكباك ودعم حكمه ونجح فى التغلب على المتاعب الداخلية وظل ابن طولون واليا على مصر بعد عزل باكباك وولاية يارجوخ عليها.

احتفظ يارجوخ بابن طولون حاكما لمصر نائبا عنه بل أطلق يده فى حكمها، وجعل منه الحاكم الفعلي. وفى عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م توفى بارجوخ، وأصبح ابن طولون واليا عليها من قبل الخليفة مباشرة، فتوطدت قدمه فى هذه البلاد. وفى عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م قلده الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م) خراج مصر وولاه الثغور الشامية. وقضى أحمد بن طولون على الصعاب التى واجهته فى حكم مصر، لكنه تعرض لحقد الموفق طلحة أخو الخليفة . الذى سعى لعزله عن ولاية مصر.لكن الموفق طلحة فشل فى تحقيق مسعاه وترتب على ذلك استقرار أحمد بن طولون فى حكم مصر. بعد ذلك سار بجيشه ونجح فى ضم الشام ودعى له على منابرها عام ٢٦٤ ـ ٢٦٥هـ/٨٧٧ ـ ٨٧٨م. ثم عاد إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس. وخرج مرة أخرى الى الشام فى عام ٢٦٩هـ/ ٨٨١م لخروج وإلى الرقة عليه وبعد أن قضى عليه، عاد الى مصر.

أما عن سياسته الداخلية فقد اتبع ابن طولون سياسة أكسبته حب المصريين. وساد البلاد جو من الهدوء والأمن والاستقرار لاهتمامه بشئون الاقتصاد كما اختط لنفسه حاضرة جديدة أطلق عليها القطائع، كما بنى البيمارستان وجامعه فيها وتوفى ابن طولون عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٢م. فاجتمع الجند وولوا مكانه ابنه خمارويه.

بعد أن تولى خماروية حكم الدولة (٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ / ٨٨٣ ـ ٨٩٥م) خرج على رأس حملة إلى الشام عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م. كما واجه المشاكل التى سببها الموفق طلحة أخو الخليفة، وأخيرا تم الصلح بين خماروية ودار الخلافة، وتضمن الصلح تولية خماروية وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. وكان من أثر هذا الصلح اعتراف حكام الموصل والجزيرة بولايته ودعوا له على منابرها. ثم ساعد موت الخليفة المعتمد وأخيه الموفق عام ٢٧٩هـ/٨٩٢م على توطيد سلطانه. فقد استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة وجعلها لأولاده من بعده. وكان من أثر هذه السياسة تزويج ابنته. قطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد. وقد عم الرخاء البلاد فى عهده وأنفق الأموال على أبهة البلاط وتوفى عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م. وبوفاته ضعفت الدولة.

سقوط الدولة الطولونية (٢٨٢ هـ ـ ٢٩٢هـ/٨٩٥ ـ ٩٠٤م):

تولى مصر بعد خماروية ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنين، انتشرت خلالها الفوضى وظهر الصراع على الحكم وأول هؤلاء الثلاثة أبوالعساكر بن خماروية الذى عزل بعد عام من ولايته فى عام ٢٨٣هـ/٨٩٦ ـ ٩٠٤م) وفى عهده سادت الفتن واستولى القراطة على الشام عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م. ونتيجة لهذا الضعف بدأت الخلافة العباسية تفكر فى استعادة مصر

إلى سلطانها، فأرسل الخليفة المكتفى (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) قائده محمد بن سليمان لاستردادها، وهزم هذا القائد العباسى جيش الدولة الطولونية وقتل هارون بن خمارويه وتولى الأمر عمه شيبان، فزحف القائد العباسى إلى القطائع ففر شيبان، وأزال هذا القائد الدولة الطولونية بعد أن دخل القطائع وخربها وعادت مصر ولاية عباسية عام ٢٩٢هـ/٩٠٤.

سادت الاضطرابات مصر بسبب ضعف الخلفاء العباسيين واستبداد الأتراك، وظلت مصر على هذه الحال إلى أن وليها محمد بن طفج الإخشيد.

ب ـ الدولة الاخشيدية (٣٢١ ـ ٣٥٨هـ/٩٣٣ ـ ٩٦٩م):

مؤسس هذه الدولة محمد بن طفج (٣٢١ ـ ٣٣٤هـ/٩٣٣ ـ ٩٤٥م) وهو أحد أتراك فرغانة. أخذ نجمه يعلو بسرعة لجهوده فى خدمة الخلافة العباسية، إذ تصدى لمحاولات استيلاء الفاطميين على مصر عام ٣٠٢هـ/٩١٤م ثم عام ٣٠٧هـ/ ١٩١٩م، فضلا عن جهوده فى حماية الحجاج من عدوان الأعراب والبدو الذين قطعوا طريق الحج عام ٣١٦هـ/٩١٨م. ولذلك عينه الخليفة العباسى المقتدر واليا على الرملة عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م ثم واليا على دمشق عام ٣١٨هـ/ ٩٣٠م. وتطلع إلى ولاية مصر فولاه عام ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، وعزل من الولاية ولم يمض شهر على تعيينه ثم عاد مرة أخرى إلى ولاية مصر فى خلافة الراضى بالله ومنحه الخليفة لقب الإخشيد .

نجح الإخشيد فى تثبيت نفوده داخل مصر، لكن واجهته أخطار هددت سلطانه فى بلاد الشام إذ طمع محمد بن رائق أمير الأمراء فى بلاد الشام واستولى عليها عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م، ولم يسترد الاخشيد بلاد الشام إلا بعد مقتل ابن رائق عام ٣٢٠هـ/٩٤١م. وقبل وفاة الإخشيد أقدم على أخذ البيعة

لابنه أبى القاسم أنوجور. وهذا يعنى استقلاله بمصر وتأسيس أسرة حاكمة بحيث يرثه أبناؤه فى حكمها. وتوفى الإخشيد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور.

أصبح أبو القاسم أنوجور واليا على مصر عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ووصل كتاب الخليفة العباسى المطيع لله بذلك. وكان عمر أنوجور خمسة عشر عاما لذلك قبض كافور ـ أحد كبار رجال الدولة ـ على زمام الامور، وقام بالقضاء على المشاكل الداخلية. كما حارب الحمدانيين الذين طمعوا فى بلاد الشام وانتصر كافور وبقيت بلاد الشام للاخشيديين. وظل كافور مسيطرا على شئون الدولة حتى وفاة أنوجور عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م .

تولى الحكم بعد أنوجور أخوه على بن الاخشيد، وأقر الخليفة المطيع لله ذلك. وخلال فترة حكمه التى دامت خمس سنوات وشهرين كان كافور هو صاحب السلطة الفعلية فى البلاد وساءت الأحوال فى تلك الفترة لانخفاض النيل عام ٣٥١هـ/٩٦٢م. واشتدت هجمات الفاطميين على البلاد من الغرب، والنوبيين من الجنوب وتوفى على بن الاخشيد عام ٣٥٥هـ/٩٦٢م.

انتهز كافور وفاة على بن الإخشيد وصغر سن أحمد بن على الاخشيد الذى كان فى التاسعة من عمره وانتزع الحكم لنفسه ووافق الخليفة المطيع لله العباسى على ذلك. وحكم كافور سنتين وأربعة أشهر ازداد خلالها الخطر الفاطمى وتوفى كافور عام ٣٥٧هـ/٩٦٨م وخلفه فى الحكم أبو الفوارس أحمد ابن على الاخشيد. وفى عهده تعرضت البلاد لغزو فاطمى بقيادة جوهر الصقلى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م. ونجح هذا القائد الفاطمى فى دخول مصر وإسقاط الدولة الاخشيدية. وبذلك أصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة الفاطمية فى المغرب.

جـ- الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩ - ١١٧١م) :

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٧ - ٩٠٩م بعد مبايعة عبيد الله المهدى بالخلافة فى القيروان. وبعد أن دان المغرب للسيادة الفاطمية بدأ تفكيرهم فى فتح مصر من أجل ثروتها وأهمية موقعها الجغرافى من الناحيتين السياسية والحربية، وقربها من بلاد الشام والحجاز، ذلك أن نجاح الفاطميين فى فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على هذه الأمصار الهامة، لذلك بدأت أطماع الفاطميين فى مصر فى بداية حكم أول خلفاء الدولة - عبيد الله المهدى - الذى أرسل ثلاث حملات، الأولى عام ٣٠١هـ/٩١٣م، والثانية عام ٣٠٧هـ/٩١٩م، والثالثة فى عام ٣٢١هـ/ ٩٣٣م وفشلت هذه الحملات فى فتح مصر. ثم وصلت الحملة الرابعة فى عهد ابنه الخليفة القائم فى عام ٣٢٤هـ/٩٣٦م وفشلت أيضا فى الاستيلاء على مصر بفضل جهود الإخشيد.

وبعد آن آلت الخلافة الفاطمية للمعز لدين الله جهز جيشا لفتح مصر، شجعه على ذلك ماوصل إلى علمه من سوء أحوال مصر وانتشار الاضطرابات والفتن فيها بعد وفاة كافور عام ٣٥٧هـ/٩٦٨م، بالاضافة إلى ضعف الدولة العباسية. ولذلك خرج قائده جوهر الصقلى على رأس جيش متجها الى مصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، فوصل إلى برقة ودخلها ثم سار إلى الاسكندرية واستولى عليها بدون قتال. ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر فى الصلح، فأجابه جوهر إلى ما طلب وأعطى الأمان للمصريين. وبذلك زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر وأصبحت ولاية فاطمية. ثم بدأ جوهر بإنشاء مدينة القاهرة التى ستصبح حاضرة الخلافة الفاطمية .

بعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر وإقامة الدعوة الفاطمية فى فلسطين والشام والحجاز، بعث إلى المعز يستدعيه، فقدم المعز

ودخل القاهرة عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م، وأصبحت مصر بذلك دار خلافة ، وتسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذى حكم مصر أربع سنوات. أما المعز فقد قضى الشطر الأكبر من خلافته فى المغرب ولم يبق فى مصر أكثر من ثلاث سنوات ت ثموفى عام ٣٦٥هـ/٩٧٦م وخلفه ابنه العزيز.

يعتبر عهد العزيز بالله (٣٦٥/٣٨٦هـ/٩٧٦ ـ ٩٩٦م) عهد يسروررخاء اتسعت رقعت الدولة فى عهده من بلاد الحجاز شرقا إلى المغرب الأقصى غربا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا. وفى عهده اهتمت الدولة بنشر عقائد المذهب الشيعي. وبنى الكثير من المنشآت ونبغ فى عهده طائفة من الشعراء والكتاب والأدباء والمؤرخين. وبوفاته انتقلت الخلافة إلى ابنه الحاكم بأمر الله.

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة (٣٨٦ ـ ٤١١هـ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) وله أحد عشرة سنة لذلك كان برجوان الخادم وصيا عليه الى عام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م). وبعد ذلك بعام مسك بأمور الحكم وأظهر تعصبا للمذهب الفاطمى واضطهد أهل الذمة والمسلمين من السنة. وفى عام ٣٩٦هـ/١٠٠٦م بدل سياسة التعصب واتبع سياسة التسامح واستمر فى هذه السياسة حتى عام ٤٠١ ـ ١٠١١م. ومنذ هذا العام وحتى وفاته عام ٤١١هـ ـ ١٠٢٠م اتبع سياسة تتسم بالتذبذب والاضطراب مع كل رعاياه. ومما يذكر له إنشاء دار الحكمة التى ألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم. وانتهت خلافته بقتله. وتولى الخلافة ابنه الظاهر.

بعد أن تولى الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة (٤٠١١ هـ ـ ٤٢٧هـ/١٠٢٠ ـ ١٠٣٦م) اتبع سياسة متسامحة مع أهل الذمة، ووجه عنايته إلى الاهتمام بشئون البلاد الاقتصادية وبوجه خاص الزراعة، وبعد وفاته آلت الخلافة إلى ابنه أبى تميم الملقب بالمستنصر.

حين تولى المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م) الحكم كان فى السابعة من عمره، وقد حكم قرابة ستين سنة. تميزت السنوات الأولى من حكمه بالرخاء والثروة، غير أن هذا الرخاء لم يستمر طويلا إذ أخذ نفوذ الدولة ينكمش فى الخارج. كما انخفض النيل عام ٤٤٣هـ/١٠٥٤م وأعقب ذلك الغلاء وانتشار الوباء، وأطلق على تلك الفترة الشدة العظمي، وانتشرت الفوضى والفتن. لذلك استدعى المستنصر والى عكا بدر الجمالى عام ٤٦٥هـ/١٠٧٣م وعهد اليه بالوزارة وتدبير الأمور. ويعتبر ذلك الحدث بداية دور جديد فى تاريخ الخلافة الفاطمية وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة وظهور نفوذ الوزراء العظام الذين سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة.

انتقلت الخلافة بعد وفاة المستنصر عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م الى ابنه المستعلى (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ/١٠٩٤ ـ ١٠٠٢م) دون أخيه الأكبر نزار الذى ولاه أبوه العهد لعدم رغبة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى خلافة نزار، وحدث صراع على الحكم بين الأخوين نزار والمستعلى انتهى لصالح الأخير. وفى عهد المستعلى ظهر الخطر الصليبى على سواحل بلاد الشام، وأرسل الأفضل جيشين انهزما أمام الصليبيين الذين استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين وتوفى المستعلى وآلت الخلافة الفاطمية إلى ابنه الآمر.

فى خلافة الآمر (٤٩٥ ــ ٥٢٤هـ/١٠٠٢ ـ ١١٣٠م) قبض الوزير الأفضل على زمام الأمور فى البلاد، ولم يحتفظ الخلفاء فى أيام ضعف دولتهم إلا برسومهم الدينية. وقتل الأفضل بتدبير الخليفة الآمر الذى أعاد دار العلم بعد أن أغلقها الوزير الأفضل. كما أن الآمر قتل على يد فريق من الباطنية. وبوفاته آلت الخلافة إلى ابن عمه الحافظ.

شهدت أيضا فترة خلافة الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٤٩م) زيادة نفوذ وزيره أبى على بن الأفضل الذى قبض على الخليفة وسجنه، كما اتبع هذا الوزير سياسة معادية للمذهب الشيعي. ولذلك قتل على يد الشيعة وخرج الحافظ من سجنه وعين فى الوزارة بهرام الأرمني. اتبع هذا الوزير سياسة متعصبة تجاه المسلمين الذين استنجدوا بوالى الغربية رضوان الذى قدم الى القاهرة على رأس جيش ففر بهرام، وبذلك خلا الجو لرضوان الذى تقلد الوزارة عام ٥٣١هـ/ ١١٣٧م، وتلقب رضوان بلقب ملك وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين. وانتهت خلافة الحافظ بوفاته عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م.

ولى الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ/١١٤٩ ـ ١١٥٤م) الخلافة بعد وفاة أبيه الحافظ، واستمرت المنازعات فى عهده بين الوزراء، فقد اغتصب ابن السلار منصب الوزارة من ابن مصالة المغربي، كما كان ابن السلار سنيا، ولذلك سعى إلى إحلال هذا المذهب مكان المذهب الشيعى فأنشأ مدرسة للمذهب الشافعى فى الاسكندرية عام ٥٤٦هـ/١١٥١م، ولذلك دبر الخليفة مؤامرة لاغتياله وقتل الخليفة الظافر عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م وخلفه ابنه الفائز وكان فى الرابعة من عمره.

بعد أن آلت الخلافة إلى الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ/١١٥٤ ـ ١١٦٠م) سيطر الوزير طلائع بن رزيك على أمور الدولة، وأعاد الأمن إلى نصابه وتلقب هذا الوزير بالملك الصالح. وفى ذلك الوقت فقدت مصر عسقلان بعد أن استولى عليها الصليبيون. وهى آخر معاقلهم فى بلاد الشام، ثم توفى الفائز وتولى الخلافة العاضد (٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ / ١١٦٠ ـ ١١٧١م) الذى قتل الوزير طلائع بن رزيك عام ٥٥٦هـ/١١٦١م وفى عهده سقطت الدولة الفاطمية.

سقوط الدولة الفاطمية :

بعد أن تخلص الخليفة العاضد من وزيره ابن رزيك عين العادل بن طلائع بن رزيك فى الوزارة، غير أن هذا الوزير عزل وحل محله شاور فى الوزارة. وقام الأخير بقتل العادل بن رزيك. وسادت الفتن البلاد بظهور ضرغام أمين الباب وأمير البرقية الذى طمع فى منصب الوزارة. ولم يلبث النزاع بين شاور وضرغام أن أدى إلى تدخل قوى خارجية وذلك حين طلب شاور النجدة من نور الدين محمود بدمشق. وفى نفس الوقت سعى ضرغام إلى التحالف مع عمورى ملك بيت المقدس الصليبي..

وقبل أن يتمكن عمورى من المسير إلى مصر عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م سار اليها شاور مع جيش قوى أرسله نور الدين محمود يقوده أسد الدين شيركوه على مقدمته صلاح الدين الأيوبي، ودخل هذا الجيش القاهرة وقتل ضرغام وقلد شاور الوزارة. ثم ساءت العلاقة بين الحليفين شاور ونور الدين محمود بعد أن خان الأول العهد ورفض دفع المال المتفق عليه بينهما. كما استعان شاور بالصليبيين الذين أعانوه وأجبروا شيركوه على العودة بجيشه إلى الشام عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م. ثم عاد شيركوه إلى مصر على رأس جيش عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م لأن التحالف بين شاور والفرنجة كان يهدد مركز نور الدين محمود فى الشام وبسبب قلة أعداد جيش شيركوه بالمقارنة بأعداد جيش شاور والصليبيين عاد شيركوه إلى الشام مرة أخري. ثم قدم أسد الدين شيركوه على رأس جيش للمرة الثالثة عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م بعد أن استنجد الخليفة العاضد بنور الدين محمود، فقبض شيركوه على شاور وقتله فولى العاضد شيركوه الوزارة عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، وظل فى منصبه حتى توفى فى هذه السنة وخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة ضعف أمر الخليفة العاضد. وقضى صلاح الدين على الفتن والمؤامرات التى دبرت ضده. كما تصدى لحملة صليبية على مصر عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م مما أدى الى تدعيم مركزه فى مصر، وأخيرا اتخذ صلاح الدين الخطوة الأخيرة لإسقاط الدولة الفاطمية حين أمر بالدعاء على المنابر للخليفة العباسى المستضئ بدلا من الدعاء للخليفة الفاطمى العاضد. وتوفى الأخير بعد ثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته فى المحرم من عام ٥٦٧هـ/١١٧١م).

د ـ الدولة الايوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م):

صلاح الدين الأيوبى وتأسيس الدولة :

بعد أن أزال صلاح الدين الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م أصبح نائبا لسيده نور الدين محمود فى حكم مصر، فكان يذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسي، كما ضرب النقود باسمه، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب في ولائه. فى الوقت نفسه حرص صلاح الدين على الاحتفاظ بمكان يأوى إليه إذا غضب عليه نور الدين فأرسل أخاه توران شاه عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م لفتح النوبة حتى تصبح مأوى للأيوبيين. لكنه وجد أنها بلاد فقيرة لا تصلح كمأوي. فأرسل أخاه إلى اليمن لفتحه عام٥٧٠هـ/١١٧٤م وتم الفتح . وتوطدت قدم صلاح الدين الأيوبى فى مصر، وكان نور الدين محمود يفكر فى عزله لكن الموت عطل ما كان يسعى اليه نور الدين، إذ توفى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. وبذلك أصبحت الأحوال مهيأه أمام صلاح الدين لبسط سلطانه على البلاد الاسلامية فى بلاد الشام.

لكن صلاح الدين تعرض لمؤامرة كبرى عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م اشترك فيها كل أنصار الفاطميين فى مصر الذين كانوا يسعون إلى إحياء الخلافة الفاطمية.

وقام المتآمرون بالاستعانة بقوى خارجية فاتصلوا بالاسماعيلية الباطنية لقتل صلاح الدين واتصلوا بالصليبيين لغزو مصر أثناء الثورة. كما اتصلوا أيضا بملك صقلية ليهاجم أسطوله الاسكندرية، ولكن المؤامرة انكشفت وأحبطت قبل أن تولد وتم القبض على المتآمرين.

بالقضاء على هذه المؤامرة دعم صلاح الدين حكمه فى مصر وبدأ يفكر فى توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبي. فانتهز فرصة الخلاف بينه وبين الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين.، وأسرع إلى مدينة دمشق واستولى عليها عام ٥٧٠هـ/١١٧٥م. ثم اتجه بعد ذلك إلى حلب وحاصر المدينة لكنه اضطر إلى فك الحصار والاتجاه الى حمص لمحاربة الصليبيين. ثم تجدد الصراع حول حلب بين الطرفين وحاصرها صلاح الدين مرة أخرى وفتحها وأرغمهم على الصلح وأصبح صلاح الدين صاحب الأمر فى دمشق وحمص وحماة والموصل .

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية من الفرات الى النيل. ولم يبق إلا أن يوجه صلاح الدين جهوده نحو تحصين مصر ثم الاتجاه نحو الصليبيين للقضاء على وجودهم فى الشام.

بذل صلاح الدين جهودا كبيرة فى تحصين مصر، ليأمن شر غارات الصليبيين. ولذلك قرر بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ليحمى عاصمة البلاد وأهلها من أى هجوم خارجي، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم لتكون مركزا للحكم وملاذا يحتمى به إذا هددته ثورة داخلية من جانب أنصار الفاطميين أو خطر خارجى من جانب الصليبيين. والمعروف ان عمارة القلعة لم تتم الا فى عهد الملك الكامل الأيوبى عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م وامتدت جهود صلاح الدين إلى مختلفة الثغور والموانى المصرية مثل

تنيس ودمياط والاسكندرية واهتم أيضا بتحصين الثغور والمدن فى بلاد الشام وأكثر من بناء الحصون فى المواقع الاستراتيجية لمواجهة الخطر الصليبي.

صلاح الدين الأيوبى والجهاد ضد الصليبيين :

بدأ صلاح الدين مواجهة الخطر الصليبى خلال الفترة الأولى من حكمه (٥٧٠ ـ ٥٨٢هـ/١١٧٤ ـ ١١٨٦م). وفى تلك الفترة لم يسع الى توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين لانشغاله بتوحيد الجبهة الاسلامية. وكانت مواجهته للصليبيين لحماية حدود دولته أو ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الاسلامية الانفصالية. وبعد أن وحد صلاح الدين الجبهة الاسلامية بفتح حلب عام ٥٧٩/١١٨٣م، والموصل عام ٥٨١هـ/١١٨٦م اتجه بكل طاقاته لمحاربة الصليبيين خلال الفترة من ٥٨٢ ـ ٥٨٨ هـ/١١٨٦ ـ ١١٩٢م.

بدأ صلاح الدين يستعد لحرب شاملة ضد الوجود الصليبى بسبب استفزازات أرناط صاحب حصن الكرك الذى لجأ إلى تهديد الحرمين فى الحجاز، وقطع طريق الحج واعتدى على بعض قوافل المسلمين وهى فى طريقها الى بيت الله الحرام. لذلك قام صلاح الذين بتعبئة قوى المسلمين واتجه بجيشه لمواجهة الصليبيين وهزمهم قرب صفورية عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ثم هاجم طبرية وفتحت جيوشه المدينة ولم تسقط قلعتها، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية فوصلوا إلى حطين ـ وهى هضبة مرتفعة على سفح جبل طبرية ـ وهم فى حالة من الإنهاك والعطش. ودارت بين الفريقين معركة حطين الشهيرة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م وانتصر فيها المسلمون ووقع أرناط فى الأسر وقتل. وطارد صلاح الدين الصليبيين حتى استولى على حصن طبرية كما وقعت فى يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت وصور وطرابلس وعسقلان. بعد ذلك اتجه لفتح بيت المقدس وتم له ذلك عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعد أن غادرها

الصليبيون، وأمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب وإعادة تشييد المساجد والمدارس التى هدمها الصليبيون.

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

خرجت هذه الحملة بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين، واشترك فيها ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا شأنا هم فريدريك بارباروسا امبراطور ألمانيا، وفيليب الثانى ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .

ولم يصل إمبراطور ألمانيا لغرقه. ووصل جيشا ريتشارد وفيليب إلى عكا واستوليا عليها. ثم حدث نزاع بين فيليب وريتشارد فعاد الأول إلى بلاده وأدرك الأخير صعوبة استرداد بيت المقدس فبدأت المفاوضات التى انتهت بتوقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م. ومن أهم شروطه وقف الحرب بين الطرفين ثلاث سنين، وترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج وأن يحكم، الصليبيون الساحل من صور إلى يافا، وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين. وفى نفس العام الذى وقع فيه صلح الرملة توفى صلاح الدين الأيوبى الذى أعاد للإسلام قوته.

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

آلت الدولة الأيوبية إلى العزيز عثمان (٥٨٩ ـ ٥٩٥هـ/١١٩٣ ـ ١١٩٨م) بعد وفاة أبيه صلاح الدين، وظلت الأحوال فى مصر كما كانت فى أيام أبيه. إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض النيل (٥٩١ ـ ٥٩٢ هـ/١١٩٤م)، فساءت أحوال الرعية. كما شهدت فترة حكمه النزاع مع أخيه الأفضل على حكم مصر. كما واجه الخطر الصليبى وأعانه فى التصدى له عمه

العادل الذى هزمهم قرب غزة واستولى على يافا عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م. كما صد العادل الصليبيين حين حاولوا الاستيلاء على بيت المقدس عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م وتوفى العزيز عثمان وخلفه فى الحكم عمه العادل.

بعد أن أصبح العادل (٥٩٥ ـ ٦١٥هـ/١١٩٨ ـ ١٢١٨م) سلطانا للبلاد قام ببعض الأعمال الحربية المحدودة ضد الصليبيين عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧ فى منطقة طرابلس. كما قام الصليبيون فى فترة حكمه باعداد حملة بقيادة حنادى برين لغزو مصر عام ٦١٥هـ/١٢١٨م وهى كالحملة الصليبية الخامسة فاستولوا على دمياط. وبعد الاستيلاء عليها توفى الملك العادل فى هذه السنة وكان قد عهد بالحكم لابنه الكامل.

بعد ان تولى الكامل (٦١٥ـ٦٣٥هـ/١٢١٨م) السلطة حسم النزاع الذى قام بينه وبين أقاربه على الحكم ليتصدى للصليبيين، ثم بنى الاستحكامات جنوبى دمياط وفى المنصورة. وجاءته الإمدادات من حماة وحلب وحمص. ثم التقى مع الصليبيين عند المنصورة فحلت بهم الهزيمة بسبب فيضان النيل، واحاطة المسلمين بهم من كل ناحية وتفشى الحمى فى جندهم. فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح عام ٦١٨هـ/١٢٢١م. ووافق السلطان الكامل على طلبهم وتم جلاء الصليبيين عن دمياط وعقدت هدنة بين الفريقين مدتها ثمانى سنوات.

لم تحل هذه الهدنة وصول حملة صليبية أخرى على رأسها الإمبراطور فردريك ـ امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ـ إلى الشام عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. واضطر الكامل بسبب قيام النزاع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق إلى عقد صلح مع فردريك عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م تنازل الكامل فيه عن بيت المقدس للصليبيين على أن يكون الحرم بما حواه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين .

عاش السلطان الكامل بعد توقيع هذا الصلح تسع سنين تقدمت فيها أحوال مصر وازدهرت اقتصاديا بفضل تحسين الري. كما أتم تحصين قلعة القاهرة وأسس الكثير من معاهد العلم. وتوفى الكامل عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وبوفاته حدث نزاع على الحكم بين أبنائه.

بعد وفاة السلطان الكامل تولى ابنه العادل الثانى الحكم عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م. فساء ذلك أخاه الصالح أيوب الذى دخل فى نزاع مع العادل الثانى انتهى بعزل هذا الأمير وولاية الصالح أيوب للسلطة عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م

وفى سلطنة الصالح ايوب قدمت إلى مصر الحملة الصليبية السابقة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء عليها. ودخلت الحملة دمياط وعسكرت بالقرب من المنصورة وفى الوقت الذى كان الصليبيون يزحفون نحو المنصورة توفى الصالح عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وأخفت زوجته شجرة الدر موته حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس الجيش. ثم استدعت ابنه وولى عهده توران شاه الذى كان بحصن كيفا، وقاد توران شاه الجيش المصرى وعاونه مماليك أبيه فى هزيمة لويس التاسع فى المنصورة. فاضطر إلى التقهقر نحو دمياط. فطارده الجيش المصرى حتى فارسكور وقضوا عليه وعلى جيشه عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وأسر لويس التاسع هو وكثير من رجاله. وتم فك أسره على أن تجلو الحملة عن مدينة دمياط. وهكذا أخفق الصليبيون فى كل حملاتهم على مصر.

ازداد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الصالح أيوب خاصة بعد انتصارهم على الصليبيين فى موقعة فارسكور. وحين أساء توران شاه معاملتهم قتلوه، وولوا شجرة الدر سلطانة على البلاد وتزوجت من عز الدين أيبك وتنازلت له عن الحكم وبذلك انتهت الدولة الأيوبية وقامت الدولة المملوكية.

هـ ـ الدولة المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) :

اعتماد الأيوبيين على المماليك :

حرص حكام الدولة الأيوبية على تكوين عصبيات لهم يعتمدون عليها فى الحفاظ على ملكهم. ولم يجد هؤلاء وسيلة لتحيق هدفهم الا عن طريق الإكثار من شراء المماليك، فاشتروا منهم أعدادا كبيرة وعنوا بتدريبهم ليكونوا لهم عدة وسندا. وبمرور الوقت ازداد نفوذ المماليك وتدخلوا فى الأحداث التى تعرضت لها الدولة. فعلى سبيل المثال دبر المماليك مؤامرة لعزل العادل الثانى من السلطنة وأحلوا نجم الدين أيوب عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م.

أدرك الصالح نجم الدين أيوب فضل المماليك عليه فى الوصول الى كرسى الحكم، وأحس بحاجته إلى جيش قوى من المماليك يسانده، فاشترى من المماليك الترك مالم يشتر أحد مثله من قبل، حتى عاد أكثر جيشه منهم، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية. أما عن السبب فى تلك التسمية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح أيوب جزيرة الروضة فى النيل مركزا لهم. وكان معظم هؤلاء المماليك الأتراك مجلوبين من بلاد القفجاق شمالى البحر الأسود، ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين .

قيام دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م) :

أدت الظروف الداخلية والأحداث الخارجية التى مرت بها مصر أواخر عهد الدولة الأيوبية إلى انتقال الحكم إلى المماليك. فقد جاء إلى مصر حملة صليبية بقيادة لويس التاسع ووصلت إلى دمياط عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ثم مات السلطان الصالح أيوب وأخفت زوجته شجرة الدر خبر موته. ووصل توران شاه ابن

الصالح أيوب وأصبح سلطانا على مصر. وعاونه المماليك فى الانتصار على الصليبيين فى المنصورة ثم فى فارسكور. فازدادت قوة وشوكة المماليك. فى الوقت نفسه عمد توران شاه إلى الحد من نفوذهم فى الدولة بل قام بتهديد شجرة الدر وطالبها بمال أبيه. فحرضت عليه المماليك فدبروا مؤامرة لقتله فقتل عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م.

بعد ذلك انتقل الحكم الى شجرة الدر وحلف لها المماليك. واتفق على أن يكون عز الدين أيبك مدبرا للسلطنة. واعتمدت شجرة الدر على المماليك البحرية كلية فى الحكم. لكن المعارضة لحكمها جاءت من الخليفة العباسى المستعصم. عندئذ عزلت شجرة الدر نفسها ـ بعد حكم دام ثلاثة شهور ـ لزوجها عز الدين أيبك الذى كان يمثل طبقة المماليك البحرية. ولذلك رفض بنو أيوب فى الشام الاعتراف بقيام حكم المماليك فى مصر، وأعدوا جيشا لغزو مصر تحت قيادة الناصر يوسف. والتقى هذا الجيش مع قوات المماليك البحرية فى موقعة بالشرقية انتصر فيها المماليك. وأدى هذا النصر إلى تثبيت أركان الدولة المملوكية فى مصر. واستمر العداء بين الطرفين، ولكن ظهور المغول أدى الى اتفاقهما على الصلح عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م. بشرط أن يكون للمماليك مصر وغزة والقدس إلى الأردن، وأن يحكم الناصر الأيوبى باقى الشام والجزيرة. وتلقب أيبك بالسطان وطلب التقليد من الخليفة العباسى وجاء التقليد. وبذلك يكون أيبك أول سلطان للمماليك فى مصر.

واجه المعز أيبك (٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م) مشاكل داخلية هددت سلطانه. أول هذه المشاكل جاءته من ناحية المماليك البحرية، فقد نافسه أقطاى منافسة شديدة فى حكم مصر. ولكن أيبك استدرج أقطاى الى القلعة بقصد مشاورته وقتله. عندئذ خشى الكثير من المماليك على أنفسهم وفروا إلى الشام.

المشكلة الثانية التى واجهت أيبك وأودت بحياته كان سببها زوجته شجرة الدر التى كانت تميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان، ولذلك استبدت بأمور السلطنة وبدأت تفكر فى الخلاص من أيبك حتى يكون لها النفوذ المطلق. ونفذت شجرة الدر مؤامرتها وقتلت أيبك. لكن مماليكه انتقموا منها وقتلوها بعد ثلاثة أيام من قتله عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وآلت السلطنة إلى ابنه على بن أيبك.

تولى على بن أيبك (٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ/١٢٥٧ ـ ١٢٥٩م) السلطنة بالرغم من أن عمره كان فى الخامسة عشر، ويرجع ذلك إلى فشل كبار الأمراء فى الاجتماع على أحدهم. واختير أحد الأمراء وهو سيف الدين قطز. وصياله، ومال السلطان الصبى إلى اللهو، فى الوقت الذى وصلت فيه الأخبار بالغزو المغولى لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ومقتل الخليفة العباسى ووصول المغول إلى الشام، فقام الأمير قطز بعزل على بن أيبك وتولى هو السلطنة وتلقب بالملك المظفر سيف الدين قطز.

تولى قطز السلطنة (٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ/١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م) والخطر المغولى يهدد الشام ومصر. بل دخل المغول حلب ودمشق واتجهوا إلى بعلبك وخربوا بانياس وكل المدن التى دخلوها. ثم وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو يطلب منه التسليم، ورفض قطز وقام بقتل رسل المغول وأخذ يعد العدة للقاء المغول وأرسل الأمير بيبرس على رأس مقدمة الجيش الذى وصل إلى غزة فسيطر عليها المماليك. ثم وصل إليه قطز ومعه بقية الجيش. وفى تلك الاثناء عاد هولاكو إلى حاضرته وترك كتبغا نائبا عنه، والتقى الجيشان فى موقعة عين جالوت قرب بيسان بفلسطين عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وانتصر فيها المماليك على المغول. وأنقذت هذه المعركة مصر والشام/ خطر المغول بل أنقذت الحضارة الاسلامية من الدمار، وتم طرد المغول من الشام ودخلها قطز واستعاد بيبرس حلب منهم .

شاءت الظروف ألا يعود قطز إلى مصر، فقد قتله بيبرس وهو فى طريق العودة لأن قطز تنكر لوعده لبيبرس باعطائه ولاية حلب تقديراً لجهوده فى معركة عين جالوت، وبذلك انتقلت السلطنة إلى بيبرس .

واجه بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) بعد أن تولى السلطنة بعض المشاكل الداخلية، ففى بلاد الشام امتنع بعض الأمراء عن الاعتراف له بالولاء، لكنه قضى عليهم، كما قامت ضده ثورة شيعية فى القاهرة لكن جنده أحاطوا بالثوار وقضوا عليهم.

أدت هذه الثورات التى قامت ضد بيبرس إلى البحث عن دعامة كبرى يسند إليها سلطانه فقام بإحياء الخلافة العباسية التى سقطت فى بغداد على يد المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م فى القاهرة عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م ليضفى على نفسه وعلى ملكه صفة شرعية. وبعد أن دعم حكمه فى الداخل بدأ يواجه الخطر الصليبى والخطر المغولى فى الخارج.

قام بيبرس بحركة جهاد ضد القوى الصليبية فى الشرق الأدنى فاستولى فى عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م على قيسارية ويافا وأرسوف والرملة. وأخيرا توج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، كما أرسل حملة للاستيلاء على قبرص عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م لكنها فشلت. ثم تابع الحرب ضد الصليبيين عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م واستولى على حصن الأكراد وحصن عكا والقرين .

كما وجه بيبرس جهوده العسكرية ضد المغول ودفع شرهم عن بلاد الشام ولم يسمح لهم بالتقدم غربا خارج حدودهم فى العراق. كما اهتم بتأمين حدود مصر الجنوبية، فأرسل حملة كبيرة إلى مملكة النوبة المسيحية عام

٦٧٥هـ/١٢٧٦م نجحت فى إخضاعها وإجبار ملكها على دفع الجزية. وامتدت جهود بيبرس لتأكيد نفوذه على بلاد الحجاز. وبعد هذه الجهود الكبيرة التى بذلها بيبرس لتدعيم الدولة المملوكية توفى فى دمشق عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م.

كان بيبرس قد أخذ العهد لابنه الاكبر سعيد بركة قبل وفاته. ولذلك نودى به سلطانا (٦٧٦ـ٦٧٨هـ/١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م). ولم يرض عنه كبار الأمراء من المماليك فأجبروه على التنازل عن السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتم اختيار الابن الثانى لبيبرس الأميربدر الدين سلامش سلطانا فى نفس العام، واختير الأمير قلاوون وصيا عليه. وكان السلطان الجديد فى السابعة من عمره مما ساعد على استئثار الأمير قلاوون بالسلطة وأخيرا قام الأخير بعزل السلطان بدر الدين سلامش قبل أن يمضى عليه فى السلطنة ثلاثة أشهر وحل محله.

بعد أن تولى المنصور قلاون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) السلطنة المملوكية واجه ثورات داخلية من بعض أمراء المماليك. فخرج عليه نائب الشام الأمير شمس الدين سنقرعام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م وظل خارجا عن الطاعة حتى عفا عنه السلطان فيما بعد عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م. وعينه حاكما على أنطاكية. كما تصدى قلاوون للخطر المغولى والصليبي. وبالنسبة للمغول فقد أرسلوا جيشا عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م إلى حلب وقاموا بتخريبها فأعد السلطان جيشا لمنازلتهم، لكن القوة المغولية غادرت حلب حين علمت بقدوم الجيش السلطاني. وفى العام التالى هزم قلاوون المغول فى موقعه حمص. وبعد أن أنزل ضرباته بالمغول اتجه إلى الصليبيين لينزل بهم ضربته الثانية. فأرسل حملة استولت على اللاذقية عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م كما استردت قواته طرابلس من الصليبيين عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م كما استولى على بيروت وجبلة.

اتبع قلاوون سياسة داخلية حسنة وأقام الكثير من المنشآت الحيوية أشهرها

المدرسة والبيمارستان، بالإضافة إلى القلاع التى جددها بالشام. وتوفى قلاون فى عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وهو يستعد لاسترداد عكا من الصليبيين وخلفه ابنه خليل فى السلطنة.

بدأت سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩هـ/٦٩٣هـ/١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م) بمصاعب داخلية واجهته فى سبيل تدعيم حكمه، لكنه تغلب عليها. ثم خرج بسرعة ليقود الحملة التى كان والده المنصور قلاوون قد أعدها لاسترداد عكا، ووصل إليها بجيوشه عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م وحاصر المدينة ثم اقتحمها الجيش بعد فرار من استطاع الفرار من الصليبيين، وبعد ذلك استولى الجيش المملوكى بسهولة على بقية المراكز الصليبية التى بأيديهم مثل صور وصيدا وطرطوس. وبهذا العمل تم القضاء على الوجود الصليبى فى بلاد الشام. وانتهت سلطنة الأشرف خليل عقب قيام بعض أمراء المماليك بتدبير مؤامرة ناجحة لقتله عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م فآلت السلطنة إلى أخيه الناصر محمد بن قلاوون.

حين تولى الناصر محمد السلطنة (٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ/١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م) كان طفلا لم يتجاوز عمره تسع سنوات، ولذلك عزله العادل كتبغا الذى حكم من (٦٩٤ ـ ٦٩٨هـ/١٢٩٧ ـ ١٢٩٩م) وواجه متاعب داخلية وانتهت فترة حكمه بعد أن قتل، فاضطر أمراء المماليك إلى إعادة الناصر محمد بن قلاوون ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية.

وفى سلطنته الثانية (٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ/١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م) ظهر الخطر المغول على بلاد الشام باستيلاء جيوش غازان على دمشق عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م. لذلك خرج الناصر محمد على رأس الجيش للتصدى للخطر المغولى ونجح فى هزيمة المغول هزيمة قاسية فى موقعة مرج الصفر قرب دمشق عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. أما فى الداخل فقد سيطر الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير

سـلار نائب السلطنة على الأمـور بالدولة، لذلك تنازل الناصـر طواعـيـة عن السلطنة للأمير بيبرس الجاشنكير.

بعد أن تولى السلطنة بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ/١٣٠٨ ـ ١٣٠٩م) رفض الكثير من أمراء الشام الاعتراف به، أما الناصر محمد بن قلاوون فكان مقيما فى حصن الكرك وأخذ يعد العدة لاسترداد سلطنته، وبالفعل نظم صفوفه واتجه إلى مصر فهرب بيبرس من القلعة ودخلها الناصر محمد بن قلاوون وبدأت سلطنته الثالثة.

شهدت سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م) رخاء واستقرار الأحوال فى مصر، وأقام الكثير من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها كما جدد المارستان المنصوري، أى أنه قضى عهده الطويل فى الإصلاح والإنشاء والتعمير، أما بالنسبة لسياسته الخارجية فقد أرسل حملات إلى النوبة عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤ـ١٣٠٥م وعامى ٧١٥ ـ ٧١٦هـ /١٣١٥ ـ ١٣١٦م.

بوفاة الناصر محمد بن قلاوون إلى نهاية دولة المماليك البحرية ـ فى مدة ثلاث وأربعين سنة من٧٤١ ـ ٧٨٤هـ إلى ١٣٤١ ـ ١٣٨٢م، استقر فى السلطنة بعده أولاده وأحفاده بحيث بلغ عدد من تولى السلطنة من أولاده ثمانية ومن أحفاده أربعة، كثرت فى عهدهم مؤامرات المماليك وازدادت الأحوال سوء وانتهت فترة الرخاء والاستقرار التى سادت عهد الناصر محمد، وساد البلاد المجاعات والأوبئة ونتيجة لذلك تمت تنحية المماليك البحرية عن السلطة نهائيا وتولى الحكم السلطان برقوق الذى كان من المماليك الجراكسة .

دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ/١٣٨٢ ـ ١٥١٧):

نشأة المماليك الجراكسة :

كون السلطان المنصور قلاوون فرقة جديدة من المماليك لكى يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، ولتكون سندا لأولاده وذريته فى الاحتفاظ بالعرش. ولتحقيق هذا الغرض أقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج ـ وهى البلاد التى تقع بين بحر قزوين والبحر الأسود، وأكثر المنصور قلاوون من شراء هؤلاء المماليك الجركس وعنى بتربيتهم فى أبراج القلعة. مما جعل اسم البرجية يلصق بهم فى التاريخ. وقد تعهد أبناء قلاوون وأحفاده هذه الطائفة بالرعاية والعطف، فعلى سبيل المثال استكثر الأشرف خليل بن قلاوون من شرائهم.

وسرعان ما ساعد تطور الأحداث الداخلية فى مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاوون إلى ظهور البرجية على مسرح الأحداث وازدياد نفوذهم. وهناك الكثير من الاشارات فى المصادر التى تؤكد زيادة هذا النفوذ

قيام دولة المماليك الجراكسة :

كان آخر سلاطين مصر من بيت قلاوون أمير حاجى عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م حفيد الناصر محمد. وسنه وقتئذ إحدى عشرة سنة. ولما ساءت أحوال البلاد وجد الأمير برقوق أن الأمور باتت مهيأة لعزل السلطان الصبى وإعلان نفسه سلطانا، وتم له ذلك عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م وتلقب بالظاهر، وبذلك انتهى حكم المماليك البحرية وبدأ حكم المماليك البرجية أو الجراكسة.

تعرض الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩٢هـ/١٣٧٢ ــ ١٣٩٠)م بعد أن تولى

سلطنته الأولى إلى العديد من المؤامرات ونجحت إحداها وتم عزله ونفيه إلى الكرك وإعادة حفيد الناصر أمير حاجى (٧٩١ ــ ٧٩٢هـ/١٣٨٩ــ١٣٩٠م)، واستمرت المنازعات بنى أمراء المماليك مما مكن الظاهر برقوق من استرداد سلطنته المسلوبة عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م ولذلك قضى الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية على الأأراء المنافسين له.

وفى هذه السطنة ظهر الخطر المغولى حين استولى تيمورلنك على بغداد عام ٧٩٥هـ/١٣٨٣م. لذلك جهز برقوق جيشا وخرج لاسترداد بغداد ولكن تيمورلنك حين علم بخروجه عاد إلى بلاده. وتوفى برقوق عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م وخلفه فى السلطنة أكبر أبنائه الناصر فرج الذى كان فى الثالثة عشر من عمره.

تعرضت الدولة المملوكية فى سلطنة الناصر فرج الأولى (٨٠١ ــ ٨٠٨ هـ / ١٣٩٩ ــ ١٤٠٥) لغزو المغول لبلاد الشام وهزيمتهم للجيش المملوكى عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، لذلك تضاءلت مكانة هذا السلطان ونشب نزاع بين أمراء المماليك اختفى فيه السلطان شهرين وحل محله فى السلطنة أخوه المنصورعبد العزيز عام (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ثم هدأت الأمور وعاد السلطان فرج لمنصب السلطنة (٨٠٨ــ٨١٥هـ/١٤٠٥ــ١٤١٢م) واتهم بسوء السياسة وقلة الدين ولذلك قتل . وعهد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسى عام ٨١٥هـ/١٤١٢م) لعدم اتفاق امراء المماليك على السلطان الجديد حتى استطاع المؤيد شيخ أن يلى السلطنة .

قضى المؤيد شيخ (٨١٥ ــ ٨٢٤هـ/١٤١٢ ــ ١٤٢١م) على منافسيه فى الحكم. ولم تستفد مصر من سياسته شيئا، فقد سبب مماليكه الكثير من الأضرار للشعب، وحين توفى خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر الذى

أخذ السلطنة لنفسه، وتوفى ططر فخلفه ابنه محمد فى السلطنة عدة أشهر تحت وصاية برسباى عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢ وفى هذا العام انتزع برسباى السلطنة لنفسه.

امتاز عهد السلطان برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ/١٤٢٢ـ١٤٣٨م) بالاستقرار وقلة الاضطرابات مما مكنه من القيام بغزو جزيرة قبرص التى كانت لها جهود صليبية ضد دولة المماليك. وأرسل برسباى ثلاث حملات. نجحت الحملة الثالثة فى فتحها عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م. بعد برسباى تولى السلطنة ابنه العزيز يوسف (٨٤١ ـ ٨٤٢هـ/١٤٣٨م) بالاستقرار وقلة الاضطرابات مما مكنه من القيام بغزو جزيرة قبرص التى كانت لها جهود صليبية ضد دولة المماليك. وأرسل برسباى ثلاث حملات. نجحت الحملة الثالثة فى فتحها عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م(٨٢) بعد برسباى تولى السلطنه ابنه العزيز يوسف (٨٤١ـ٨٤٢هـ/١٤٣٨ـ١٤٣٩م لكن أقوى الأمراء فى ذلك الوقت جقمق نجح فى أن يعزله ويتولى السلطنة.

واجه جقق (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ/١٤٣٨ـ١٤٥٣م) منافسة أمراء المماليك له لكنه قضى عليهم. وامتازت فترة حكمه باستقرار أحوال البلاد وسيادة العدل، كما تحسنت علاقة دولة المماليك بالدولة التيمورية فى عهده . كما قام بغزو جزيرة رودس وأرسل ثلاث حملات أعوام ٨٤٤ـ ٨٤٨هـ/١٤٤٠، ١٤٤٣ . ١٤٤٤م لفتح هذه الجزيرة لكنها فشلت وتم الصلح بين دولة المماليك وفرسان رودس. وتوفى جقمق عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وشهدت الفترة من وفاته حتى سلطنة قايتباى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م وصول ستة سلاطين لحكم الدولة. ولا يوجد فى تلك الفترة ل ما يستحق الذكر. فتعاقب على السلطنة عثمان بن جقمق عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م). ثم الأشرف إينال (٨٥٧ـ٨٦٥هـ/١٤٥٣ـ١٤٦١م) وبعده تولى ابنه أحمد بن إينال (٨٦٥هـ/١٤٦١م) فالظاهر خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ/١٤٦١ـ١٤٦٧م) ثم

تولى الظاهر سيف الدين يلباى (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) فالظاهر تمربغا (٨٧٢هـ/١٤٦٧ـ١٤٦٨م) وتتميز تلك الفترة بالاضطرابات وعدم الاستقرار.

أبثت قايتباى بعد أن تولى السلطنة (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/١٤٦٨ـ١٤٩٦م) أنه من أقدر سلاطين المماليك الجراكسة، فقد واجه خطر الدولة التركمانية التى هددت شمال الشام والعراق، واتبع فى الداخل سياسة مالية متعسفة ففرض الكثير من الضرائب، كما طبق سياسة الاحتكار لجمع الأموال التى ساعدته على إقامة العديد من المنشآت مثل مسجد قايتباى والقلعة والوكالات وامتدت منشآته فى كل جهات الدولة المملوكية وفى أواخر أيامه ساءت أحوال البلاد لانتشار مرض الطاعون وتوفى قايتباى عام ٩٠١هـ/١٤٩٦م.

بوفاة قايتباى تولى السلطنة فى مدة خمس سنين (٩٠١ ـ ٩٠٦ هـ / ١٤٩٦ ـ ١٥٠١م) ثلاثة سلاطين أولهم محمد بن قايتباى (٩٠١ـ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ ـ ١٤٩٨م) ثم تولى السلطنة الظاهر قانصوه ٩٠٤ ـ ٩٠٥ هـ / ١٤٩٨ ـ ١٥٠٠م) فالناصر محمد بن قايتباى ولاية ثانية (٩٠٥ـ٩٠٦هـ/١٥٠٥م) ولا يوجد فى تلك الفترة ما يستحق الذكر.

نهاية الدولة المملوكية :

بعد أن تولى قانصوه الغورى السلطنة (٩٠٦ـ٩٢٢هـ/١٥٠١ـ١٥١٦م) ظهر فى عهده الخطر البرتغالى الذى قضى على سيطرة مصر على التجارة بين الشرق والغرب بعد كشفهم لطريق رأس الرجاء الصالح، ولذلك جهز الغورى أسطولا لمحارب البرتغاليين لكنه انهزم فى موقعة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م، كما ظهر فى عهد الغورى الخطر العثمانى ودافع عن الشام ضد أطماع العثمانيين إلا أن خيانة بعض أمراء المماليك للغورى أدت إلى

هزيمته فى معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م ودخل العثمانيون الشام وقتل الغورى فى المعركة وأخيراً تولى الأشرف طومان باى السلطنة فى نفس العام وواجـه الجـيش العـثـمـانى الزاحف إلى مـصـر فى مـعـركـة الريدانيـة عـام ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلا أنه انهزم واستولى العثمانيون على مصر. وبهذه الموقعة انتهت الدولة المملوكية وأصبحت مصر ولاية عثمانية .

٢ ـ دول المغرب الاسلامى :

ـ الفتح العربى لبلاد المغرب .

١ ـ دولة برغواطة فى تامسنا بالمغرب الأقصى (١٢٥ ـ ٥٤٣ هـ / ٧٤٢ ـ ١١٤٨م)

٢ ـ دولة بنى مدرار فى سجلماسة بالمغرب الأقصى (١٤٠ ـ ٢٩٧ هـ/٧٥٧ ـ ٩٠٩م)

٣ ـ الدولة الرستمية فى تاهرت بالمغرب الاوسط (١٦٠ ـ ٢٩٦ هـ/٧٧٦ ـ ٩٠٨م).

٤ ـ دولة الأدارسة فى فاس (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ/٧٨٨ـ٩٨٥م).

٥ ـ دولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ/٨٠٠ ـ ٩٠٨م).

٦ ـ الدولة الفاطمية فى المغرب (٢٩٦ ـ ٣٦٢ هـ/٩٠٩ ـ ٩٧٣م).

٧ ـ الدولة الزيرية الصناجية فى تونس (٣٦٢ ـ ٥٤٣هـ/٩٧٣ ـ ١١٤٨م).

٨ ـ الدولة الحمادية فى الجزائر (٤٠٨ ـ ٥٤٧هـ/١٠١٧ ـ ١١٥٢م).

٩ ـ دولة المرابطين فى المغرب الأقصي(٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ/١٠٤٦ ـ ١٥٦م)

١٠ ـ الدولة الموحدية فى بلاد المغرب (٥٤١ ـ ٦٦٨هـ/١١٥٦ ـ ١٢٦٩م).

١١ ـ الدولة الحفصية فى تونس (٦٢٦ ـ ٩٨١هـ/١٢٢٩ ـ ١٥٧٤م).

١٢ ـ الولة الزيانية (فى الجزائر (٦٣٣ ـ ٩٦٢هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٥٥٥م).

١٣ ـ الدولة المرينية فى المغرب الأقصى (٦١٠ ـ ٨٦٩هـ/١٢١٣ ـ ١٤٦٥م).

١٤ ـ الدولة الوطاسية فى المغرب الأقصى (٨٧٦ ـ ٩٦١هـ/١٤٧٢ ـ ١٥٥٤م).

الفتح العربى لبلاد افريقية والمغرب

عمرو بن العاص وفتح برقة وطرابلس :

بعد أن فتح العرب مصر عام ٢١هـ/٦٤٢م، بدأ التفكير فى فتح بلاد افريقية والمغرب ، حين أرسل عمرو بن العاص إلى برقة أحد قادته وهو ـ عقبة بن نافع فى سرية ليستطلع أحوالها. ثم زحف بنفسه واستطاع أن يفتح برقة فى أواخر عام ٢٢هـ/٦٤٣م، ثم عاد إلى مصر بعد أن فرض عليهم الجزية. وفى العام التالى ٢٣هـ/ ٦٤٤م قاد عمرو بن العاص حملة أخرى لفتح مدينة طرابلس، واستولى على قاعدة الإقليم بعد قتال البربر والروم. ثم عاد إلى مصر عام ٢٥هـ/٦٤٥م. بعد أن وصل إليه أمرالخليفة عمر بن الخطاب بالكف عن مواصلة الفتح. ثم عادت الحملات إلى إفريقية فى خلافة عثمان بن عفان الذى أرسل حملة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

عبد الله بن سعد بن أبى سرح وموقعة سبيطلة :

تعتبر حملة عبد الله بن سعد إلى أفريقية عام ٢٧هـ/٦٤٧م أول حملة إلى تلك المنطقة وهذه الحملة واجهت القوات البيزنطية بقيادة جرجير وانتصرت عليها فى موقعة سبيطلة. واكتفى عبد الله بن سعد بالنصر والغنائم ثم عاد إلى مصر فهى حملة استطلاعية تهدف إلى معرفة احوال البلاد قبل الشروع فى الفتح الفعلى الذى يعقبه الاستقرار العربي.

محاولات معاوية بن حديج لفتح افريقية :

قاد معاوية بن حديج ثلاث حملات الأولى عام ٣٤هـ/٦٥٤ ـ ٦٥٥م، والحملة

الثانيه عام ٤١هـ/٦٦١م، وقد تحقق النصر فى الحملتين. ونعتقد أن هاتين الحملتين كانتا مكملتين لجهود حملة عبد الله بن سعد فى استكشاف تلك المنطقة قبل بدء الفتح الحقيقي. أما الحملة الثالثة والأخيرة فكانت فى عام ٤٥هـ/٦٦٥م، انتصر فيها ابن حديج على القوات البيزنطية والبربرية ثم اتخذ ابن حديج عاصمة له فى منطقة القرن على مقربة من موضع القيروان. ولم ينزل منه حتى استدعاه الخليفة معاوية بن أبى سفيان عام ٥٠هـ/٦٧٠م وولاه على مصر وعاد دون أن يترك واليا على البلاد. لذلك بعث معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع إلى إفريقية.

حملة عقبة بن نافع الأولى على إفريقية ٥٠ ـ ٥٥هـ/٦٧٠ ـ ٦٧٥م:

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية عام ٥٠ هـ/٦٧٠م وقوام جيشه عشرة آلاف وبعد أن فتح إفريقية بدأ يفكر فى اتخاذ مدينة لتكون مركزا للاستقرار العربى فى إفريقية. فأتى موضع القيروان واختط المدينة واستمرت حركة العمران والبناء الى سنة ٥٥هـ/٦٧٠م أى أن عقبة كرسى جهوده بعد فتح إفريقية لبناء القيروان التى أصبحت بعد تأسيسها معسكرا ثابتا وقاعدة حربية للجند، تخرج منها الحملات لأستكمال فتح بلاد المغرب ونشر الاسلام. ثم عزل عقبة وتولى القيادة أبو المهاجر دينار.

حملة ابن المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢ هـ/٦٧٤ ـ ٦٨١م):

وصل أبو المهاجر إلى إفريقية ونزل خارج القيروان فى منطقة تسمى تكيروان كانت آهلة بالبربر، من أجل صهرهم مع العرب فى بوتقة الاسلام، واستكمل الفتح حتى وصل إلى مدينة تلمسان، وأسلم على يديه كسيلة بن لمزم الأوربى زعيم قبيلة أوربة وكل أفراد قبيلته، وانتهت قيادة أبى المهاجر لحملات الفتح بعد سبع سنوات، وعاد عقبة بن نافع مرة ثانية لقيادة حملات الفتح.

ولاية عقبة بن نافع الثانية : (٦٢ ـ ٦٤ هـ/٦٨١ ـ ٦٨٣):

بعد أن وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية جهز الجيش لاستكمال فتح بلاد المغرب واستخلف على القيروان زهير بن قيس. ثم زحف بجيشه فى اتجاه المغرب الأوسط سالكا الطريق الداخلى ودخل جبال الأوراس، وكان فى طريقه يهزم جيش الروم والبربر حتى وصل قرب طنجة بالمغرب الأقصي. واتجه إلى الجنوب وفتح مواطن المصامدة، واخترق جبال الأطلس وهو يهزم القبائل، ثم اتجاه غربا نحو المحيط. ثم عاد بعد أن وصل بجيوشه للمغرب الأقصى مرة أخرى مخترقا بلاد البربر فى طريق عودته إلى القيروان. لكن حياته انتهت فى تهودة. بعد أن خاض معركة الموت ببسالة ضد البربر والروم بزعامة كسيلة بن لمزم الذى زحف بجيوشه إلى القيروان ودخلها وحكم منها .

حمله زهير بن قيس على إفريقية (٦٩ هـ/٦٨٨م) :

خرج زهير بن قيس على رأس الجيش للقضاء على سيطرة كسيلة على إفريقية واسترداد نفوذ الخلافة المفقود فى القيروان. والتقى مع كسيلة فى معركة عنيفة انتصر فيها زهير وقتل كسيلة واستردت القيروان. ثم اتجه زهيربن قيس إلى برقة حين علم بنزول الروم بها واستشهد وهو يقاتلهم، وظلت الأحوال فى إفريقية حتى قدم إليها حسان بن النعمان على رأس جيش لاستكمال الفتح.

ولاية حسان بن النعمان (٧١ ـ ٨٥ هـ/٦٩٥ ـ ٧٠٤م):

بعدأن استقر حسان بن النعمان فى القيروان بدأ يفكر فى القضاء على الروم وحاميتهم القوية فى مدينة قرطاجة، وأوقع الهزيمة بهم واستولى على المدينة ثم عاد إلى القيروان وقرر القضاء على المقاومة البربرية بزعامة الكاهنة

التى كانت تتحصن فى جبال الأوراس، واتجه إليها حسان والتقى معها فى معركة عنيفة انهزم فيها واضطر إلى الارتداد إلى برقة، وظل مقيما بها حتى وصلت اليه. الامدادات عام ٧٩هـ/٦٩٨م فنهض للقاء الكاهنة، وفى اللقاء الحاسم وسط جبال الأوراس انتصر حسان بجيوشه على جيش الكاهنة وتم بذلك القضاء على المقاومة الفعلية للبربر. وبذلك أتم حسان بن النعمان فتح إفريقية والمغرب الأوسط وعزل وتولى القيادة موسى بن نصير.

ولاية موسى بن نصير (٨٥-٩٥هـ/٧٠٤-٧١٤م) :

بعد أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان قضى على قوة بربرية كانت تسكن جبل زغوان - إلى الغرب من مدينة تونس الحالية - ثم اتجه بجيشه إلى المغرب الأقصى وفتح طنجة وسبته، ثم أرسل العديد من الحملات التى نجحت فى مدنفوذ المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب الأقصى من ناحية الجنوب. وعاد موسى إلى القيروان بعد أن فتح المغرب الأقصى .

وبعزل موسى بن نصير من قيادة جيوش الفتح فى بلاد المغرب تنتهى فترة الفتح ويبدأ عصر الولاة الذى ينتهى فى إفريقية بقيادم دولة الأغالبة عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وفى المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية عام ١٦٤هـ/٧١١م، وفى المغرب الأقصى بقيام دولة بنى صالح البرغواطية فى تامسنا عام ١٢٤هـ/ ٧٤٢م، والدولةالمدرارية فى سلجماسه عام ١٤٠هـ/٧٥٧م، ودولة الأ دارسة فى عام ١٧٠هـ/ ٧١٧م.

الدول الاسلامية المستقلة فى بلاد المغرب الاسلامي

١ـ دولة برغواطة فى تامسنا بالمغرب الاقصي.

(١٢٥ ـ ٥٤٣هـ/٧٤٢ ـ ١١٤٨م.)

ارتبط ظهور دولة برغواطة فى تامسنا بالمغرب الأقصى بالاضطرابات التى أثارها الخوارج فى هذه البلاد عام ١٢٢ هـ/٧٤٠م. ومؤسس هذه الدولة طريف ابن مالك، من بربر مصمودة، اعتنق الإسلام مع الفتح العربي، ثم أخذ بمذهب الخوارج الصفرية عند لجوء دعاته إلى المغرب. وقبل تأسيس دولته شارك طريف بفاعلية فى التاريخ المغربى فشارك فى فتح الأندلس. كما شارك مع ميسرة المطغرى فى ثورة الخوارج وكان قائد قواده، ولما فشلت هذه الثورة عاد طريف ابن مالك إلى المغرب الأقصى واتجه إلى تامسنا فى عام ١٢٥هـ/٧٤٢م حيث موطن عصبيته وهى قبيلة برغواطة المصمودية فقدمه بربرها على أنفسهم وولوه أمرهم. وكانت فترة حكمه التى انتهت بوفاته عام ١٢٧هـ/٧٤٥ فترة عمل دائب لتثبيت دعائم دولته وتنظيم قواعدها .

بعد وفاة المؤسس تم مبايعة ابنه صالح (١٢٧ ـ ١٧٤هـ/٧٤٥ ـ ٧٩٠م) لأنه كان من أهل العلم. وقد حكم سبعة أربعين عاما مما يدل على قوته وقبول للناس الحكمه وإلالما حكم هذه الفترة الطويلة. وبوفاة صالح تولى الأمر ابنه إلياس (١٧٤ ـ ٢٢٤هـ/٧٩٠ ـ ٨٣٨م) بعد أن عهد أبوه إليه لعلمه بالشرائع وفقهه فى الدين، وكان إلياس عدلا حسن السيرة زاهدا .

ثم تولى الأمر يونس بعد أن عهد إليه ابوه الياس بالأمر فحكم أربعة وأربعين

عاما (٢٢٤ ـ ٢٦٨هـ/٨٣٨ ـ ٨٨١م) وقد استخدم الشدة والعنف فى نشر تعاليم المذهب .

مما سبق يتضح لنا أن الحكم كان وراثيا فى دولة بر غواطة الخارجية على الرغم من أن مبادئ الخوارج تقول بالشوري. بل إن المؤامرات كانت طريقا للوصول الى الحكم يتضح ذلك حين استولى على الحكم أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بالقوة من يونس، وبذلك انتقل الحكم من بيت الاخير إلى غيرهم من قرابته، وحكم أبو عفير حتى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م واستخدم القوة فى فرض المذهب الصفرى .

بوفاة أبى عفيرآل الأمر إلى ابنه عبد الله أبى الانصار (٢٩٧ ـ ٣٤١هـ / ٩٠٩ـ ٩٥٢م) وتميز عهده بالاستقرار وحسن السياسة. وبعده انتقل الحكم إلى أبنه أبى منصور عيسى (٣٤١ ـ ٣٦٩هـ/٩٥٢م) الذى عظم سلطانه لأنه ورث دولة نعمت بالاستقرار بفضل جهود أبيه. وبعد عصر هذا الحاكم لا تمدنا المصادر بمعلومات تفيد فى تتبع حكام تلك الدولة وسياستها الداخلة، فابن خلدون يذكر أنه لم يقف على من ملك أمرهم بعد أبى منصور عيسى.

وقد ارتبطت دولة برغواطة بعلاقات عدائية مع معظم الدول والقوى المجاورة لها ما عدا الدولة الأموية بالأندلس فقد كانت تربطهما علاقات ودية ، ويرجع العداء الى الاختلاف المذهبي، فبرغواطة تدين بالمذهب الخارجى الصفرى وفى الوقت ذاته كانت معظم القوى المغربية المعاصرة لها قد اتخذت المذهب السنى مذهبا لها مثل الدولة الإدريسية فى فاس، ودولة الأغالبة فى توينس والدولة الزيرية الصنهاجية فى تونس (افريقية) والدولة المرابطية فى المغرب الأقصي، وأخيرا الدولة الموحدية التى استطاعت القضاء نهائيا على دولة برغواطة عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م .

٢ـ الدولة المدرارية فى سجلماسة بالمغرب الاقصي
(١٤٠ ـ ٢٩٧هـ/٧٥٧ ـ ٩٠٩م)

قامت الدولة المدرارية الخارجية الصفرية فى واحة تافيلالت التى تقع فى الاقليم الجنوبى للمغرب الأقصي. وأسسها أبو القاسم سمكوا زعيم قبيلة مكناسة البترية الذى انتهز فقدان الخلافة لنفوذها فى المغرب الأقصى فحمل قبيلته على مبايعة عيس بن يزيد الأسود وطاعته (١٤٠ـ ١٥٥هـ/٧٥٧ ـ ٧٧١م). وفى ولاية عيسى اختطت مدينة سجلماسة عام ١٤٠هـ/٧٥٧م . وظل عيسى يحكم حتى تم إقصاؤه عن الحكم لأنه لم يلتزم بتعاليم المذهب الخارجى الصفرى الذى قامت على أساسه الدولة .

ثم آلت الدولة إلى أبى القاسم سمكوا (١٥٥ ـ ١٦٨هـ/٧٧١ـ٧٨٣م) الذى يعتبر الموسس الحقيقى للدولة. وقام فى خلال فترة حكمه بتدعيم النظام المالى والإدارى للدولة التى نعمت بالأمن وازدهرت أحوالها الاقتصادية وبوجه خاص التجارة مع بلاد السودان الغربي. وبعد وفاته تولى الحكم ابنه الياس الملقب بأبى الوزير.

بولاية إليـاس بن أبى القاسم (١٦٨ ـ ١٧٤هـ/٧٨٣ـ٧٩٠م) حكم الدولة أصبح الحكم وراثيا فى أسرة أبى القاسم. وبذلك لم يرا ع خوارج سجلماسة تعاليم المذهب فى اختيار الحاكم بالشوري، والمصادر المتاحة لا تشير إلى سياسته الداخلية وانتهى حكم إلياس بعد تعرضه لمؤامرة دبرها أخوه اليسع الأول عام ١٧٤هـ/٧٩٠م واستولى الأخير على حكم الدولة.

يعتبر اليسع الأول (١٧٤ـ٢٠٨هـ/ ٧٩٠ ـ ٨٢٣)م من أعظم حكام سجلماسة لما قام به من إصلاحات عديدة فقد زاد فى عمران سجلماسة، وأعاد توزيع القبائل على خططها. واهتم بالجيش واستفاد به فى توسيع حدود دولته وأقام علاقات ودية مع الدولة الرستمية الأباضية توجها بالمصاهرة حين زوج ابنه مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم وبوفاة اليسع خلفه ابنه مدرار.

تولى مدرار الحكم ولقب بالمنتصر (٢٠٨ ـ ٢٥٣هـ/٨٢٣ـ٨٦٧م)، ونعمت الدولة فى بداية حكمه بالهدوء نتيجة لجهود أبيه فى الحكم. وفى أواخر عهده شهدت الدولة فتناداخلية وصراعا بين ولديه للوصول إلى كرسى الحكم، نجح فيه ابنه ميمون بن تقية (٢٥٣ ـ ٢٦٣هـ/٧٦٧ ـ ٨٧٦م) فى الانفراد بالحكم، وساعده فى ذلك شيوخ المذهب. وبعد وفاته تولى الحكم ابنه محمد(٢٦٣ ـ ٢٧٠هـ/٨٧٦ ـ ٨٨٣م) وساد الهد ربوع الدولة .

أخيراً آلت الدولة المدرارية إلى اليسع الثانى الملقب بالمنتصر ٢٧٠ ـ ٢٩٧هـ/٨٨٣ ـ٩٠٩) والذى ظل يحكم حتى اجتاح الجيش الفاطمى سجلماسة واستولى عليها، وقتل اليسع الثانى حاكم الدولة. وبذلك سقطت الدولة المدرارية عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م وأصبحت سجلماسة ولاية فاطمية بعد أن نعمت بالاستقلال مدة قرن ونصف قرن من الزمان.

٣. الدولة الرستمية فى تاهرت بالمغرب الاوسط

(١٦٠ ـ ٢٩٦هـ/٧٧٦ ـ ٩٠٨م)

مؤسس الدولة الرستمية هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي، الذى أخذ تعاليم الأباضية على يد سلامة بن سعيد فى القيروان. وقد شارك عبد الرحمن بن رستم فى أحداث إفريقية خلال عصر الولاة. وتولى القيروان بعد أن عهد

إليه بذلك أبو الخطاب المعافرى بعد أن خلص القيروان من صفرية ورفجومة وذلك عام ١٤١هـ/٧٥٩م. وظل يحكم حتى جاء الوالى محمد بن الأشعث على رأس جيش لتخليص القيروان من الخوارج ففر إلى المغرب الأوسط عام ١٤٤هـ/٧٦١م . بعد فرار ابن رستم إلى المغرب الأوسط قام بالدعاية للمذهب الأباضى فاستجابت لدعوته قبائل المغرب الأوسط لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة ثم بويع بالامامة عام (١٦٠هـ / ٧٧٦ ـ ٧٧٧م) لفضله وكونه من حملة العلم ولدينه، كما أنه لاقبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل .

بعد ذلك قام ابن رستم باختيار منطقة تاهرت لتكون مركزا للدولة الناشئة، كما أحسن السيرة فى الرعية وساد العدل فى دولته وقام بتنظيمها إداريا و باختيار معاونيه . وازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية وبوجه خاص التجارة بعد أن أصبحت تاهرت سوقا إقليمية تفد إليها تجارة السودان وتجارة المشرق والمغرب توفى ابن رستم عام ١٦٨هـ/٧٨٤م تاركا لشيوخ الأباضية اختيار خليفته فى الامامة فوقع الاختيار على ابنه عبد الوهاب.

فى إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٦٨ ـ ١٩٨ هـ/٧٨٤ ـ ٨١٤م) اتسعت الدولة، وامتد سلطانها على المغرب الأوسط وحاصر مدينة طرابلس كما ظهر فى فترة حكمه جماعة أباضية معارضة لحكمه أطلق عليها النكارية. ويرجع ظهور تلك الجماعة إلى استئثار عبد الوهاب بالأمور دون مشايخ الأباضية واستبداده بالسلطة، كما أثار المعارضون مسألة شرط العلم عند الإمام، وهل يجوز أن يبقى وهناك من هو أعلم منه. وبهذا شككوا فى صحة إمامة عبد الوهاب، وساءت العلاقة بين النكارية وأتباع هذا الإمام ، والذين أطلق عليهم الوهبية. ثم توفى الإمام عبد الوهاب عام ١٩٨هـ/٧٨٤م ووقع الاختيار على ابنه أفلح الذى رشحه أبوه للامامة ووجد فيه رؤساء الجماعات الأباضية فى تاهرت الصفات اللازمة لإمامته .

فى إمامة أفلح بن عبد الوهاب (١٩٨ ـ ٢٤٧هـ/٧٨٤ ـ ٨٦١م) استقرت أمور الدولة وازدهرت أحوال تاهرت، وعم الرخاء فى الدولة وكثرت الأموال لازدهارها تجاريا، وازداد عمران المدينة، وبنيت القصور وعمرت الضياع . كما مرت الدولة فى عهده بفترة من الفتن والاضطرابات بسبب الخلاف المذهبي. وبعد وفاة أفلح اجتمع شيوخ الأباضية لاختيار الإمام، فقدموا من أبنائه أبا بكر بن أفلح.

تولى أبو بكر بن أفلح (٢٤٧ ـ ٢٦٠هـ/٨٦١ـ٨٧٣م) إمامة الدولة التى سيطر صهره محمد بن عرفة على أمورها وأصبحت له السلطة الحقيقية وفى نهاية الأمر تخلص أبو بكر من ابن عرفة بعد ارتفاع شأنه. كما استعان أبو بكر بأخيه أبى اليقظان فى الحكم وعهد إليه بالنظر فى شئون تاهرت. ثم حدث انشقاق فى البيت الرستمى حين خرج أبو اليقظان على أخيه الامام أبى بكر وانتهى الأمر بتولية الامامة لأبى اليقظان محمد بن فلح .

بدأ أبو اليقظان ٢٦٠ ـ ٢٨١هـ/٨٧٣ـ٨٩٤م) إمامته بإقرار قواعد الدولة، فنظم خطة القضاء وبيت المال والحسبة وساد العدل فى دولته وعادت تاهرت فى عهده مركزا علميا مرموقا بعد أن تأثرت بالاضطرابات التى سبقت حكمه. وتوفى أبو اليقظان وآلت الإمامة إلى ابنه يوسف المكنى بأبى حاتم.

بعد أن آلت الامامة إلى أبى حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان (٢٨١ ـ ٢٩٤هـ/٨٩٤ ـ ٩٠٧م) نازعه فى الإمامة أحد أفراد البيت الرستمى وهو يعقوب ابن أفلح وانتهى النزاع لصالح الإمام أبى حاتم يوسف، وبعد أن قضى على منافسيه قام بتنظيم الحكومة والقضاء على الفساد وازدهرت مجالس العلم فى عهده وراح أبو حاتم يوسف ضحية مؤامرة انتهت بوصول ابن أخيه يقظان بن اليقظان (٢٩٤ ـ ٢٩٦هـ/٩٠٧ ـ ٩٠٩م) إلى إمامة الدولة. وفى عهده اقتحم أبو

عبد الله الشيعى تاهرت وخربها وقضى على الدولة الرستمية بعد أن قتل الإمام يقظان وأبناءه.

٤ـ دولة الادارسة فى فاس بالمغرب الاقصي (١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ/٧٨٨ ـ ٩٨٥م).

يرجع الفضل فى تأسيس الدولة الادريسية إلى إدريس بن عبد الله الذى ينتهى نسبه إلى الامام على بن أبى طالب. وقد فر إدريس بعد واقعة فخ عام ١٦٩هـ/٧٨٥م التى أوقع فيها العباسيون بالعلويين وصحبه مولاه راشد، وظل يبحث عن مأوى إلى أن حل بالمغرب الأقصي، ونزل بوليلى عند زعيم قبيلة أوربة الذى رحب به وقبل دعوته ثم بويع إدريس عام ١٧٢هـ/٧٨٨م . وبذلك نجح العلويون فى إقامة دولة لهم فى المغرب بعيدا عن أعين الخلافة.

بذل إدريس بعد مبايعته جهودا لنشر الإسلام بين القبائل البربرية كما حارب قبيلة برغواطة التى اتهمت بالزندقة ، ووصل إدريس بالفتوحات إلى تلمسان التى بنى فيها المسجد الجامع عام ١٧٤هـ/٧٩٠م . ووصلت أخبار إدريس إلى هارون الرشيد فأرسل إليه الأخير رجلا يدعى الشماخ الذى قدم إليه سما وتوفى إدريس الأول عام ١٧٧هـ/٧٩٣م.

كان إدريس قبل وفاته قد ترك إحدى جواريه وتسمى كنزة حاملا فاتفق رؤساء القبائل على أن ينتظروا كنزة حتى تلد فإذا ولدت غلاما كان أميرهم. وبالفعل ولدت كنزة غلاما أسموه ادريس على اسم أبيه، وبايعوه وهو فى المهد حتى كانت سنه ١٨٨هـ / ٨٠٤م تمت مبايعته، ثم قام باختطاط مدينة فاس وتم عمرانها عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م، بعد ذلك انتقل اليها وغدت عاصمة للدولة ثم بدأ إدريس الثانى سلسلة من الحملات فى المغربين الأوسط والأقصى عام

١٩٧هـ/٨١٣م مدت سلطان الدولة من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسى . وتوفى إدريس الثانى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م بعد أن ثبت دعائم الدولة وخلفه فى الحكم ابنه محمد.

أقدم محمد بن إدريس الثانى (٢١٣-٢٢١هـ/٨٢٨ - ٨٣٦م) بعد أن تولى الحكم على تقسيم الدولة بين أخواته بناء على نصيحة جدته كنزة وكان هذا التقسيم ضررا على الدولة فهو لم يقهم عمالا له لكن أعطاهم نواحى الدولة إقطاعات. وكان هذا من أسباب ضعف الدولة، إذ سادتها الفتن والحروب بين الإخوة وتوفى محمد بن إدريس وترك دولة مفرقة مقسمة وضعيفة لابنه على الأول.

حين تولى على الأول (٢٢١ - ٢٣٤هـ/٨٣٦ - ٨٤٨م) الحكم كان فى التاسعة من عمره فحكم تحت وصاية أقاربه كبار رجال الدولة حتى توفى . وكان قد عهد بالأمر إلى أخيه يحيي الأول بن محمد (٢٣٤ - ٢٤٥هـ/٨٤٨ - ٨٦٠م) وفى عهده اتسع العمران بفاس وتم بناء مسجد القرويين . وبعد وفاته تولى الحكم ابنه يحيي الثانى الذى قتل على يد أهل فاس لسوء سيرته . ثم اختار أهل فاس ابن عمه. على الثانى وفى عهده ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية عبد الرازق الفهرى الصفري، وحاربه على الثانى لكنه انهزم ففر إلى قبيلة أوربة، وتولى الحكم يحيي الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى الذى قاتل الخوارج الصفرية وهزمهم وتوفى عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م . فانتقل الحكم إلى يحيي الرابع بن إدريس بن على بن عمر (٢٩٢ - ٣٠٩ هـ/٩٠٥ - ٩٢١م). وأهم أحداث عهده أنه فى سنة ٣٠٥هـ/٩١٧ - ٩١٨م أقبل جيش فاطمى كبير على رأسه مصالة بن حبوس الكتامى وهدفه إزالة دولة الأدارسة انتصر مصالة لكنه أقر يحيي الرابع على الحكم فى فاس نائبا عن الفاطميين واستمر يحكم

حتى قام موسى بن أبى العافية الذى كان مواليا للأمويين بالأندلس ـ بالاستيلاء على فاس لنفسه عام ٣١٣هـ/٩٢٥ ـ ٩٢٦م، وبذلك سقطت الدولة الإدريسية وتم القضاء على أمرائها فى فاس، وانحصرت فى منطقة الريف حتى تم القضاء عليها نهائيا عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

٥ ـ دولة الأغالبة فى إفريقية (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ/٨٠٠ ـ ٩٠٨م)

قامت دولة الأغالبة فى أفريقية حين عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد إلى ابراهيم بن الأغلب حكم إفريقية حكما شبه مستقل فى نظير مبلغ قليل من المال مع التعهد بالولاء والطاعة للخلافة العباسية: وسلكت الدولة العباسية هذا المسلك لحماية حدودها من الناحية الغربية والحفاظ على المغرب الأدنى بعد ضياع نفوذها فى المغربين الأوسط والأقصى.

قضى ابراهيم بن الأغلب (١٨٤ ـ ١٩٦هـ/٨٠٠ ـ ٨١٢م) فترة حكمه فى تثبيت دعائم الدولة فأنشأ قوة عسكرية كما أنشأ مدينة جديدة ليقيم بها تقع إلى الجنوب الغربى من القيروان أطلق عليها العباسية ثم القصر القديم، وانتقل إليها بأهله وحرسه وجنده، وأصبحت تلك المدينة قاعدة للحكم فى البلاد . كما قضى على خصومه من العرب فقضى على ثورة حريش الكندى فى تونس وثورة الجند فى طرابلس كما قضى على عمران بن مخاله ووزيره .

توفى ابراهيم بن الأغلب وخلفه فى حكم الدولة ابنه العباس الذى تولى الامارة (١٩٦ ـ ٢٠١هـ/٨١٢ ـ ٨١٧)م والذى لم يعمر طويلا حيث ساءت العلاقة بينه وبنى أخيه زيادة الله، واتبع سياسة مالية تضمن له دخلا ثابتا لبيت المال حين فرض ضريبة مالية ثابتة دون النظر لحالة الخصب أو الجدب و لذلك عارض الفقهاء المالكيون هذه السياسة . وتوفى العباس وخلفه أخوه زيادة الله.

أرسل زيادة الله بن الأغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ/٨١٦ـ٨٣٨م) فى خلال فترة إمارته جيشا بقيادة أسد بن الفرات إلى صقلية التى نجح فى فتحها عام ٢١٢هـ/ ٨٢٨م . وفى عهده زاد عمران أفريقية ومدنها، وجدد مسجد عقبة فى القيروان، وأنشأ سورا حصينا لميناء سوسة كما أنشأ رباط سوسة، وعم الرخاء فى دولته . وتوفى زيادة الله الأول عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م.

آل ملك إفريقية بعد زيادة الأول الى أخيه الأغلب بن ابراهيم (٢٢٣ ـ ٢٢٦هـ/٨٣٨ ـ ٨٤١م). وتمتعت الدولة فى عهده بفترة من الأمن والاستقرار، إذ قضى على مظالم العمال فى الأقاليم، كما منع عمل النبيذ والخمر. وبعد وفاة الأغلب آلت الامارة الأغلبية إلى ابنه أبى العباس محمد.

استعان أبو العباس محمد (٢٢٦ ـ ٢٣٢ هـ/٨٤١ ـ ٨٥٦) بأخيه أحمد فى إدارة شئون الامارة. ثم قام أخوه بانقلا ب أبعد أبا العباس محمد عن الحكم لمدة أكثر من سنة ثم استعاد أبو العباس محمد امارته . ونعمت امارته بالهدوء وفى عهده استمرت الفتوحات فى صقلية.

وعن أعماله المعمارية استكمل بناء رباط سوسة ، كما قام ببناء مدينة جديدة أسماها العباسية قرب تاهرت كما ارتفع شأن المالكية فى عهده . وتوفى أبو العباس محمد عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م ، وخلفه ابن اخيه أبو ابراهيم أحمد بن محمد.

فى إمارة ابى ابراهيم احمد بن محمد (٢٤٢ ـ ٢٤٩هـ/٨٥٦ ٨٦٣م) نعمت الدولة بالاستقرار وأرسل حملات إلى صقلية نجحت فى فتح قصر يانة عام ٢٤٤هـ/٨٥٩م . كما كانت له جهود عمرانية فبنى المواجل، كما زاد فى مسجد القيروان، كما أعاد بناء المسجد الجامع فى مدينة تونس وحصن مدينة سوسة وبنى سورها . وبوفاته تولى الحكم أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني.

لم تطل إمارة زيادة الله الثانى (٢٤٩ ـ ٢٥٠هـ/٢٦٣ ـ ٢٦٤م) إلا لمدة سنة واحدة ولم تكن له أخبار . وحين توفى خلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الملقب بأبى الغرانيق (٢٥٠ ـ ٢٦١هـ/٨٦٤ ـ ٨٧٥م) الذى كانت له حروب مظفرة فى صقلية. وفى عهده فتحت جزيرة مالطة وذلك عام ٢٦١ هـ/٨٦٤ ـ ٨٧٥م). وبوفاة أبى الغرانيق تولى الامارة إبراهيم بن أحمد.

وجه إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ ـ ٢٨٩هـ/٨٧٥ ـ ٩٠٢م) جهوده فى بداية حكمه إلى بناء المنشآت الدينية كالمساجد والأربطة وأوقف علهيا الأموال، وأكمل تجديد جامع الزيتونة فى تونس، وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة . وفى فترة حكمه سادت الاضطرابات والفتن لكنه قضى عليها. كما ظهر فى أواخر عهده الخطر الفاطمى ، وبدأ أبو عبد الله الشيعى يغير على بلاد الأغالبة ولذلك أرسل إليه الخليفة العباسى يأمره بالتنازل عن الحكم. وتنازل لابنه أبى العباس عبد الله (٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ/٩٠١ ـ ٩٠٣م) الذى قتل على يد ابنه أبى نصر زيادة الله الثالث (٢٩٠ - ٢٩٦هـ / ٩٠٣ ـ ٩٠٩م) الذى أخذ الحكم لنفسه وهو آخر الأغالبة إذ سقطت الدولة على يد أبى عبد الله الشيعى عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م بعد أن دخل القيروان وأعلن قيام الدولة الفاطمية .

٦ـ الدولة الفاطمية فى المغرب (٢٩٦ ـ ٣٦٢ هـ/٩٠٩ ـ ٩٧٣م) :

قامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب بفضل جهود الداعى أبى عبد الله الشيعى الذى حل بمنازل قبيلة كتامة وجمع حوله الأنصار وأقنعهم بفساد الحكم الأغلبي. ثم جاهر بدعوته وصارح الناس بانه يدعو للرضا من آل البيت وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل الرسول صلى الله عليه وسلم . واستطاع بما تجمع له من قوة أن يستولى على بلاد الزاب كلها. ثم دخلت قواته بلاد أفريقية (تونس وطرابلس) وسيطر عليها عام ٢٩٦ هـ/٩٠٩م

وأعلن قيام الدولة الفاطمية. وبعث يستدعى الامام المستتر فى مدينة سلمية فى شمال الشام عبيد الله المهدى الذى استطاع رغم الجهود التى بذلتها الخلافة العباسية للقبض عليه أن يصل إلى مصر، ثم فر منها مع أتباعه الى بلاد المغرب.

وبسبب عيون الخلافة والدولة الاغلبية غير المهدى الطريق حتى وصل الى سجلماسة وتخوف منه صاحبها من بنى مدرارو سجنه، وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعى فجمع جيشا ضخما سنه ٢٩٧ هـ/٩١٠م واتجه به إلى سجلماسة وتمكن من تخليص عبيد الله المهدى والقضاء على الدولة المدرارية . وبويع عبيد الله المهدى بيعة عامة فى سجلماسة، وفى طريق العودة مر الجيش الفاطمى بتاهرت وأزال إمامة الدولة الرستمية، وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءا من الدولة الفاطمية.

بعد أن أصبح عبيد الله المهدى (٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ/٩١٠ ـ ٩٣٤م) أول خلفاء الدولة الفاطمية قام بجهود لتوطيد سلطان خلافته فى المغرب. فتخلص من أبى عبد الله الداعى والمتآمرين، كما بذل جهودا كبيرة للقضاء على معارضيه وشرع فى بناء حاضرة جديدة أطلق عليها المهدية تقع على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان. وبدأ البناء عام ٣٠٥هـ/٩١٧م وانتقل اليها سنه ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى عهده بدأ التفكير فى غزو مصر وأرسل إليها حملتين بقيادة ابنه القائم الأولى عام ٣٠٢ هـ ٩١٥م والثانية عام ٣٠٥هـ/٩١٩م لكنهما فشلتا فى غزوها .

خلف المهدى ابنه القائم، أبو القاسم محمد (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ /٩٣٤ ـ ٩٤٦م) الذى ركز جهوده فى دعم النفوذ الفاطمى فى المغربين الأوسط والأقصى ومواجهة الوجود الأموى فى المغربين الأوسط والأقصى. كما أرسل القائم حملة إلى مصر عام ٣٢٤هـ/٩٣٦م لم توفق فى فتحها . وتوفى القائم وخلفه ابنه المنصور.

انشغل المنصور، أبو طاهر اسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/٩٤٦ ـ ٩٥٢م) طيلة خلافته بالقضاء على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الأباضى وقض عليه عام ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧م وقد أضعفت هذه الثورة الدولة الفاطمية فى المغرب. وبنى المنصور مدينة جديدة عام ٣٣٧هـ/٩٤٩م عرفت بالمنصورية اتخذها حاضرة له.

آلت الخلافة الفاطمية بعد وفاة المنصور إلى المعز، أبى تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٢ هـ/٩٥٢ ـ ٩٧٢م) الذى عنى بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب، فعهد إلى قائده جوهر الصقلى عام ٣٤٧هـ/٩٦٨م بذلك، كما شرع فى فتح مصر، وأسند القيادة أيضا إلى جوهر عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م فسار جوهر بجيشه واستطاع فتح مصر فى ذلك العام. وقدم المعزلدين الله إلى مصر عام ٣٦٢ هـ/٩٧٣م وأصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت ولاية فاطمية :

٧ـ الدولة الزيرية الصنهاجية (٣٦٢ ـ ٥٤٣ هـ/٩٧٣ ـ ١١٤٨م) :

قبل رحيل المعز لدين الله الفاطمى الى مصر عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م استدعى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي، وعرض عليه أن يتولى أمور افريقية والمغرب تابعا للفاطميين فى مصر، فقبل بلكين ذلك فأصدر المعزله عهدا بولاية إفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح (٣٦٢ ـ ٣٧٤هـ/٩٧٣ ـ ٩٨٤م) وأصبح واليالكل بلاد افريقية بأقسامها الثلاثة طرابلس وافريقية وبلاد الزاب وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط. وقد ثار عليه الزناتيون فى أفريقية عام ٣٦٨ هـ/٩٨٨م فسار إليهم بلكين لإخضاعهم وتم له ذلك. وبسبب السياسة الأندلسية المعادية لبنى زيرى والمؤيدة للزناتيين اتجه أبو الفتوح يوسف بجيشه إلى المغرب الأقصى ودخل فاس وأصيلا وسلاعلى ساحل المحيط الأطلسى . وتوفى أبو الفتوح فى أثناء عودته إلى أفريقية عام ٣٧٤هـ/٩٨٤م

آلت أمور الدولة إلى المنصوربن يوسف بن زيرى (٣٧٤ ـ ٣٨٦ هـ/٩٨٤ ـ ٩٩٦م) وفى عهده اقتصر أمر الدولة على بلاد افريقية والزاب وكانت سيادتها على المغرب الأوسط اسمية وحين توفى المنصور خلفه ابنه نصير الدولة باديس (٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ/٩٩٦ ـ ١٠١٥م) الذى حكم فترة ليست قصيرة من الزمن انقضت فى حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ومع عمه حماد صاحب القلعة من ناحية أخري. وبوفاته تولى ابنه المعز.

بدأ المعز بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٤ هـ/١٠١٥ ـ ١٠٦٢م) أعماله بالقضاء على نزعة الانفصال عند بنى حماد عام ٤٠٨ هـ/١٠١٧م) بعد أن خاض ضدهم حروبا طويلة وأصبح حماد وبنوه تابعين للقيروان على أن يتمتعوا باستقلال محلى فى المغرب الأوسط . كما أعلن استقلال بلاده عن الفاطميين عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وعودته إلى المذهب السنى المالكى وإلغاء المذهب الشيعى فى المغرب. وعلى أثر ذلك بعث المعزبن باديس إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله يطلب منه عهدا بتوليته على أفريقية والمغرب، فأرسل إليه الخليفة العباسى عهدا بالولاية .

كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن مواجهة هذا الانفصال، لكنها سعت للانتقام من بنى زيرى فأقطعت عرب بنى هلال وبنى سليم بلاد افريقية والمغرب وسرحتهم إليها. وواجه المعزبن باديس خطر العرب الهلالية فى معركة دارت عام ٤٤٣ هـ/١٠٥١م لكنه انهزم وقضى الهلاليون على جيشه تماما. فتراجع المعز وتحصن فى القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها فاضطر إلى الانسحاب بجنده إلى المهدية. وفى عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماما.

توفى المعز بن باديس وخلفه ابنه تميم (٤٥٣ ـ ٥٠١هـ/١٠٦٢ ـ ١١٠٧م)

الذى اقتصرت دولته على المهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة. وفى عهده طمع النورمان فى سواحل أفريقية بعد أن غزو اصقلية نتيجة لما آلت إليه أحوال الدولة الزيرية . وجرت حروب بين تميم بن المعز والنورمان . ثم توفى وخلفه ابنه على بن تميم (٥٠١ ـ ٥٠٩ هـ/١١٠٧ ـ ١١١٦م) الذى استنجد بالمرابطين ليحول دون استيلاء النورمان على المهدية وأعانه المرابطون . وتوفى على بن تميم ثم آلت الدولة إلى الحسن بن على بن تميم بن المعز (٥١٥ ـ ٥٤٣هـ/١١٢١ ـ ١١٤٨م) وفى عهده جمع النورمان أسطولا ضخما للاستيلاء على المهدية وعجز الحسن بن على عن الدفاع عن بلاده فسقطت المهدية عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م) وكل مدن ساحل افريقية وطرابلس فى يد النورمان وظلت البلاد على هذا الحال حتى تمكن الموحدون من طردهم منها.

٨ ـ دولة بنى حماد في الجزائر (٤٠٨ ـ ٥٤٧ هـ/١٠١٧ ـ ١١٥٢م) :

بعد أن عرضنا للدولة الزيرية الصنهاجية فى افريقية نتناول الدولة الحمادية وهم أبناء عمومة بنى زيرى ـ فى المغرب الأوسط. وقد اتخذ بنوحماد مدينة أشير عاصمة لهم، ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة يلجأون إليها وقت الخطر. وأول أمراء هذه الأسرة حماد بن يوسف بن بلكين بن زيرى الذى نجح فى مد سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله. واضطر المعز بن باديس إلى الاعتراف بعمه حماد أميرا مستقلا على المغرب الأوسط عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م بشرط ألا يتصرف بنوحماد فى شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطان فى القيروان. وبسبب ظروف دولة بنى زيرى الخارجية اكتفى بنوحماد بالطاعة الاسمية والتعاون فى أثناء الأخطار التى تهددهما معا. وبعد وفاة حماد بن يوسف عام ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م انقل الحكم إلى ابنه القائد بن حماد (٤١٩ ـ ٤٤٦ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٥٥م) ثم الى محسن بن القائد (٤٤٦ ـ ٤٥٤ هـ/١٠٥٥ ـ ١٠٦٢م). ثم صار عرش الدولة الى الناصر

علناس بن حماد (٤٥٤ ـ ٤٨١ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١٠٨٨م) وهو من أعظم أمراء هذه الأسرة وتعرضت دولته لخطر الهلالية وانهزم أمام العرب عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م ولذلك اتخذ بجاية عاصمة له وانتقل اليها سنه ٤٦١ هـ/١٠٦٩م .

ثم آل أمر الدولة إلى المنصور بن الناصر علناس (٤٨١ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٨٨ ـ ١١٠٦م) وفى عهده أصبحت بجاية من أعظم مدن افريقية والمغرب الأوسط، وبعد وفاته تولى ابنه باديس بن المنصور (٥١٥ـ٥٤٧ هـ/١١٢١ ـ ١١٥٢م) وكانت دولته قد تأثرت بغارات بنى هلال وظلت الدولة تعانى الضعف حتى تمكن عبد المؤمن بن على أول خلفاء الدولة الموحدية من دخول بجاية سنه ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م. وهكذا انتهت دولة بنى حماد وأصبح المغرب الأوسط تابعا للموحدين.

٩ ـ دولة المرابطين فى المغرب الاقصى (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٤٦ ـ ١١٥٦م) :

مؤسس تلك الدولة صنهاجة الصحراء المعروفون بالملثمين الذين يؤلفون مجموعة متعددة ـ من القبائل التى تكونت منها دولة المرابطين. ومن أهم قبائلهم جزولة ولمطة، وجدالة ومسوفة ولمتونة. وقد انتهت رئاسة الملثمين إلى يحيي بن ابراهيم الجدالى الذى أناب ابنه ابراهيم ثم رحل إلى المشرق حاجا عام ٤٢٧ هـ/١٠٣٥م . وعند رجوعه حضر مجالس علم ابن عمران الفاسى فى القيروان. وأخذ منه يحيي العلم الغزير، وطلب منه أن يبعث معه طالبا من طلابه ليفقه الملثمين فى شئون دينهم فوافق ابن عمران الفاسى وكتب إلى أحد تلاميذه وهو وجاج بن زلو اللمطى بذلك واختار الفقيه وجاج لهذه المهمة عبد الله بن ياسين الذى قبل العمل معه.

بدأ عبد الله بن ياسين مهمته فى قبيلة لمتونة حوالى عام ٤٣٠ هـ/١٠٣٨م واستخدم الشدة فى حمل الناس على إقامة شعائر الدين والبعد عن المنكر. فاستثقل اللمتونيون ذلك فخرج مع جماعة من أتباعه إلى جزيرة فى المحيط قرب

مصب نهر السنغال وهناك أنشأ رباطا لم يلبث ان اتسع وكثر الناس فيه. فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعداد هم قال لهم : «أخرجوا فأنتم المرابطون» وانضمت إليه أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم .

بدأ عبد الله بن ياسين جهوده العسكرية ضد قبائل الملثمين فأخضع بالقوة لمتونة وجدالة ومسوفة . وتوفى يحيي بن ابراهيم وتولى أمر لمتونة يحيي بن عمر. واستعاد المرابطون أودغشت عام ٤٤٧هـ/١٠٤٥. ثم زحفوا إلى سجلماسة وافتتحوها كما استولوا على درعة. ثم توفى يحيي بن عمر ونقلت الرئاسة إلى أبى بكر بن عمر الذى رشح لقيادة الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين، ثم زحف على السوس واستولى على تارودانت عام ٤٤٨هـ/١٠٤٦م. ثم استسلمت له أغمات وتادلا.

بعد ذلك شرع المرابطون فى جهاد برغواطة واستشهد عبد الله بن ياسين خلال جهاده ضد برغواطة عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م واستكمل أبو بكر بن عمر قتال البرغواطيين . ثم عاد إلى أغمات وأقام بها مدة ثم بلغه أن فتنة نشبت بين لمتونة وجدالة فقررالعودة إلى الصحراء بقصد فض هذا النزاع واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين حوالى عام ٤٥٢هـ/١٠٦٠م على الدولة. ثم رجع أبو بكر إلى الشمال عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م فتلقاه يوسف فى جيش عظيم وقدم إليه الهدايا، فعرف أن الأمور استقرت ليوسف فتنازل له عن ولاية المغرب ثم رجع الى الصحراء وعاش أبو بكر يجاهد فى بلاد السودان الغربى ويعمل فيها على نشر الاسلام حتى توفى عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م .

بعد هذا التنازل أصبح يوسف بن تاشفين أميرا على المغرب بعد أن تنازل له أبوبكر عن حكمها عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م، واختط مدينة مراكش عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ليتخذ منها عاصمة للمملكه كما كون جيشا ضخما وأخضع

المغرب الأقصى بأكمله للمرابطين بضم سبتة وطنجة، كما امتدت حدوده إلى تلمسان عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، ثم عبر إلى الأندلس وانتصر على نصارى الأسبان فى الزلاقة عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، ثم جاز إلى الأندلس الجواز الثانى له فى عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م، والجواز الثالث عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وبذلك أخضع الأندلس لحكمه المباشر. وتوفى يوسف ابن تاشفين عام ٥٠٠هـ/١١٠٦ وخلفه ابنه على بن يوسف.

بعد أن ولى على بن يوسف الحكم (٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ/١١٠٦ ـ ١١٤٢م) قام بتوطيد نفوذ دولته فى الأندلس فجاز إليها ثلاث مرات لمواجهة نصارى الأسبان. ومن أعماله بناء سور مراكش وجامعها. كما ظهر فى عهده المهدى بن تومرت الذى سيقضى على ملك المرابطين وتوفى على وخلفه ابنه تاشفين.

نجح تاشفين بن على (٥٣٧ ـ ٥٣٩ هـ/١١٤٢م) فى غزواته بالأندلس . لكنه انهزم أمام جيوش الموحدين قرب تلمسان وقتل عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م. وخلفه اسحق بن على (٥٣٩ ـ ٥٤١هـ/١١٤٤ ـ ١١٤٦م). وفى عهده زاد خطر الموحدين الذين استولوا على فاس وحاصروا مراكش التى استسلمت بعد حصار دام تسعة أشهر عام ٥٤١هـ/١١٤٤ وقبض على اسحق بن على وقتل وانتهت بذلك دولة المرابطين.

١٠ - الدولة الموحدية فى بلاد المغرب (٥٤١ ـ ٦٦٨ هـ/ ١١٥٦ ـ ١٢٦٩م)

يرجع الفضل فى تأسيس الدولة الموحدية إلى جهود كل من محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن على والعصبية القبلية للمصامدة وبوجه خاص مصامدة جبال درن (الأطلس الكبير). ومن قبائلهم هرغة ودكالة وحاحة ورجراجة وأصادة وتينملل.

اولا: دور محمد بن تومرت (٥١٥ ـ ٥٢٤ هـ / ١١٢١ ـ ١١٢٩):

ينتسب محمد بن تومرت إلى قبيلة هرغة وكانت ولادته عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م وقد تلقى دراسته الأولى بالمغرب ثم انتقل إلى المشرق عام ٥٠١ هـ/ ١١٠٧م لطلب العلم فأخذ العلم فى الاسكندرية وفى بغداد على أبرز علماء ذلك العصر إذ قضى عشر سنوات فى المشرق وفى طريق عودته إلى المغرب بدأ دعوته كآمر للمعروف وكناه عن المنكر، لذلك تعرض للأذى وهو يمارس دعوته . وقد مرفى طريق عودته بالمهدية ثم اتجه الى بجاية، وطرده واليها لدعوته، فانتقل إلى ملالة وتعرف بها على عبد المؤمن بن على الكومى الزناتي، ثم اتجه إلى تلمسان، وفى سنه ٥١٤ هـ/ ١١٢٠م قصد مدينة فاس وطرد منها لآرائه. ثم دخل مراكش وقام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باستخدام القوة. وعقدت مناظرة بينه وبين فقهاء المرابطين فى حضور الأمير المرابطى على بن يوسف وتغلب عليهم ابن تومرت، ونادى البعض بقتله، لكن الأمير المرابطى على ابن يوسف رفض ذلك وطرده من مراكش.

اتجه ابن تومرت إلى أغمات وتركها إلى جبل تينملل حتى يجد النصرة من المصامدة وهناك جاهر بدعوته، واتهم المرابطين بأنهم مجسمون، وقام ببناء مسجد تينملل وسور للبلد وقلعة حصينة وأعلن أنه الإمام المهدى المنتظر وبويع عام ٥١٥ هـ / ١١٢١م. وأرسل المهدى جيشا بقيادة عبد المؤمن بن على عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م للاستيلاء على مراكش وانهزم الجيش الموحدى وتوفى ابن تومرت فى هذه السنة بعد أن سجل عقيدته فى كتابه أعز ما يطلب .

ثانيا : دور عبد المؤمن بن على (٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ/ ١١٢٩ ـ ١١٦٢م):

بعد وفاة المهدى احتاج عبد المؤمن بن على إلى عشر سنوات ليثبت سلطانه

قبل أن يشرع فى القضاء على دولة المرابطين. وفى عام ٥٣٤هـ / ١١٤٠م اشتبك مع المرابطين عند وهران وقتل الأمير المرابطى تاشفين بن علي، وبموته سقطت وهران وتلمسان. وفى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م استولى على فاس، ثم حاصر مراكش ودخلها عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦ م وقتل اسحاق بن على آخر أمراء المرابطين.

وبذلك انتهت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية فى المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط. ثم استكمل فتح المغرب الأوسط عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بعد الاستيلاء على الجزائر وقلعة بنى حماد وبجاية. وفى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م توجه عبد المؤمن بجيشه الى أفريقية ونجح فى الاستيلاء على كل مدنها عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وآلت الدولة بعده إلى ابنه يوسف.

اتبع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/ ١١٦٢ ـ ١١٨٤) سياسة والده فى داخل المغرب وخارجه وقد تلقب بالأمير فى البداية وبعد أربع سنوات من توليته اتخذ لقب الخلافة. وقد واجه يوسف ثورات كثيرة فى أفريقية التى أصبحت مصدر القلاقل والأضطرابات، وقد بذل يوسف جهدا كبيرا فى القضاء على تلك الثورات التى قامت هنالك كما تصدى للفتن الكثيرة فى الأندلس وتمكن قواده من إخمادها وإيقاف خطرها عام ٥٦١هـ/ ١١٦٦م. وأخيرا خرج بنفسه إلى الأندلس لمواجهةالفتن وأخطار النصارى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م وقضى عليها كما قضى على فتنة ابن مردانيش وعاد إإلى المغرب عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م . ونتيجة استمرار خطر نصارى الأسبان خرج يوسف مرة أخرى بجيش كبير إلى الأندلس وأصيب بسهم أثناء القتال أود ى بحياته سنه ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م بعد أن شرع فى بناء مدينة الرباط.

تولى خلافة الدولة الموحدية بعد يوسف بن عبد المؤمن ابنه أبو يوسف

يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩م)، وتعتبر فترة حكمه بمثابة العصر الذهبى للدولة الموحدية. وقد قضى على ثورة بعض الأمراء ضده. ثم واجه ثورة بنى غانية فى افريقية ونقلهم إلى المغرب الأقصى لأنهم كانوا من أكبر أسباب الفوضى فيها وأسهم هؤلاء العرب فى تعريب قسم هام من سكان المغرب الأقصي.

وقد استنجد صلاح الدين الأيوبى بأسطول الموحدين لمواجهة الصليبيين فى المشرق، لكن المنصور لم يجب صلاح الدين لطلبه لانشغاله بمحاربة نصارى الأسبان فى الأندلس الذى توجه إليه يعقوب المنصور عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م وخلال إقامته بالأندلس عقد صلحابينه وبين النصارى مدته خمس سنوات. ثم نقض النصارى العهد بمهاجمة أراضى المسلمين، فكان جواز المنصورالثانى عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥م وفيها حدثت غزوة الأرك التى انتصرت فيها جيوش المنصور، وكانت أخر معركة عظيمة تم فيها للمسلمين النصر، وكان لهذه المعركة نتائج إيجابية. كما كان للمنصور جهود معمارية فقد أتم بناء مدينة الرباط وبنى مسجد سلا الكبير ومدرسته، والجامع الأعظم بمراكش وصومعة الكتبيين وبيمارستان مراكش .

خلف محمد الناصر (٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ/ ١١٩٨ ـ ١١٢١٣م) أباه يعقوب المنصور ولم تمضى بضعة أشهر على توليته حتى ظهر ثائر فى غمارة، فقضى عليه الناصر.ثم توجه لقمع حركة ابن غانية فى افريقية ودخلهاعام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥م ، وعين عبد الواحد بن أبى حفص على أفريقية . وفى أثناء عودته إلى مراكش نزل بالمغرب الأوسط ووجه أسطولا فتح ميورقة، وبسبب اضطراب أحوال الأندلس وهجمات النصارى على المدن الاسلامية خرج محمد الناصر بجيش كبير للإيقاع بقوات النصارى عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م لكنه تعرض لهزيمة

كبيرة فى موقعة العقاب عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م. وترجع هذه الهزيمة إلى تفكك الجيش الاسلامى وتماسك جيوش النصارى بالاضافة إلى انفصال الأندلسيين عن الجيش المغربي.

بوفاة الناصر بدأت الدولة الموحدية تمر بدور الضعف، وأول خلفاء تلك الفترة يوسف بن محمد الناصر الملقب بالمستنصر (٦١٠ ـ ٦٢٠ هـ/ ١٢١٣ ـ ١٢٢٣م وفى عهده ظهر بنومرين وأصبحوا خطرا على الدولة . وتوفى يوسف وخلفه عبد الواحد آخر عام ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣م.ثم أرغم على التنازل لعبد الله ابن المنصور الذى تلقب بالعادل (٦٢١ ـ ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٤ ـ ١٢٢٦م) وشهد حكمه اضطرابات فى الاندلس والمغرب. ثم أرغم أيضا على التنازل عن الحكم لأخيه إدريس المأمون (٦٢٤ ـ ٦٢٩هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٣١م) وقد بذل جهودا جبارة لإقرار الهدوء بالبلاد والقضاء على الثوار والطامعين فى الملك. كما أعلن الرجوع إلى مذهب مالك وأنكر عصمة المهدى وتوفى وخلفه ابنه عبد الواحد الرشيد (٦٣٠ ـ ٦٤٠ هـ / ١٢٣٢ ـ ١٢٤٢م) ثم خلفه أخوه على بن المأمون السعيد (٦٤٠ ـ ٦٤٦هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٤٨م) ثم تولى عمر المرتضى (٦٤٦ ـ ٦٦٥ هـ/ ١٢٤٨ ـ ١٢٦٦م) ثم تولى الحكم أخيرا ادريس أبو دبوس (٦٦٥ ـ ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٦ ـ ١٢٦٩م) وقد سقطت الدولة فى عهده بعد الهزيمة أمام جيوش المرينيين. وهذه الفترة تميزت بتناحر بنى عبد المؤمن حول كرسى الخلافة، وغزو ممالك وامارات أسبانيا لأملاك الدولة فى الأندلس، وظهور الخطر المرينى الذى عجل بسقوط الدولة. وبسقوطها قامت على أنقاضها ثلاث دول هى الدولة الحفصية فى تونس، والدولة الزيانية فى تلمسان، والدولة المرينية فى المغرب الأقصي.

١١ـ الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى (٦٢٦ ـ ٩٨١هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٥٧٤م):

أدت المتاعب التى سببها بنوغانية للدولة الموحدية فى زمن الخليفة محمد الناصر (٥٩٥ ـ ٦١١ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٤م) إلى تعيين الشيخ عبد الواحدبن أبى حفص الهنتانى واليا على أفريقية عام ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م لدور الأخير فى هزيمة بنى غانية، وأطلق الخليفة الموحدى يد الشيخ عبد الواحد الحفصى فى إدارة شئون هذه الولاية ومنحه جميع السلطات، كل ذلك مقابل الحفاظ على إفريقية تابعة للدولة الموحدية وتعتبر هذه الولاية تمهيدا لظهور دولة جديدة فى تونس. وظل عبد الواحد الحفصى يحكم حتى توفى عام ٦١٨ هـ / ١٢١١م.

تولى ولاية افريقية بعد وفاة الشيخ عبد الواحد ابنه أبوعبد الله بن أبى محمد، ولاه الخليفة الموحدى العادل (٦٢٠ ـ ٦٢٤هـ/ ١٢٢٤ ـ ١٢٢٦م) وقتل هذا الخليفة على يد أخيه ادريس بن يعقوب الذى تولى الخلافة ولقب نفسه بالمأمون (٦٢٦ ـ ٦٢٩ هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٣٢م) ورفض والى افريقية مبايعته، فبعث الخيفة الجديد إلى أبى زكريا يطلب منه المبايعة على أن يوليه افريقية كلها، وقبل أبو زكريا هذا العرض وناصب أخاه العداء ونجح أبو زكريا فى الاستيلاء على الحكم عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م.

بعد أن آلت افريقية إلى أبى زكريا بن عبد الواحد (٦٢٥ ـ ١٢٢٨م) أعلن استقلاله بافريقية عن الدولة الموحدية وطرد عمال الموحدين عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م . واهتم بتوسيع حدود دولته فاستولى على قسنطينة وبجاية بل مد نفوذه إلى كل أنحاء المغرب الأوسط. وجاءته بيعة مدينة سبتة وطنجة وقصر عبد الكريم بالمغرب الأقصى عام ٦٤٠هـ/ كما بنى الجامع بتونس والمدرسة وبنى سوق الحطابين . وتوفى هذا الحاكم عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م.

حكم الدولة الحفصية بعد أبى زكريا ابنه أبو عبد الله محمد بن زكريا المستنصر (٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٧٦م) ونصب نفسه خليفة عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، وهو نفس العام الذى وردت فيه بيعة أهل مكة والحجاز. وتمكن المستنصر الحفصى من صد الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع على تونس عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م وعادت الحملة الصليبية من حيث أتت بعد أن فشلت بقتل قائدها . وتوفى المستنصر بعد أن حكم ثمانية وعشرين عاما وخلفه ابنه يحيي.

تولى إدراة شئون الدولة الخليفة أبوزكريا يحيي (٦٧٧ ـ ٦٧٩هـ/ ١٢٧٨ ـ ١٢٨٠م) الذى أمر برفع المظالم وأحسن إلى الجند ونظر فى بناء جامع الزيتونة لكنه لم يكن يعنى بأمور الخلافة مما أدى إلى سوء الأحوال فى الدولة، لذلك خرج عليه عمه أبو اسحق ابراهيم الذى نجح فى خلعه من خلافة الدولة.

دانت للخليفة أبى اسحاق ابراهيم (٦٧٩ ـ ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٠ ـ ١٢٨٣م) كل إفريقية وواجه الكثير من الفتن من هوارة وبنى رياح كما خرج عليه عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١م الفضل ابن أبى زكريا بالقيروان وادعى أنه أحق بخلافة أبيه،كما ثار عليه أحد قواده وهو أبو بكر بن موسى الكومى عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وقضى على تلك الفتن وواجهته ثورة الداعى ابن عمارة ولكنه قتل عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م . وسيطر الداعى ابن عمارة أحمد بن مرزوق على الدولة التى اضطربت أحوالها وانتشر الجور حتى ظهر أبو حفص عمر الذى قضى عليه أواخر عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. تم آلت إليه الدولة.

كان أبو حفص عمر (٦٨٣ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٨٤ ـ ١٢٩٥م) يعظم العلماء والصالحين، وقد انقسمت الدولة الحفصية فى عهده إلى قسمين الأول بيده وعاصمته تونس، والقسم الثانى تحت حكم الأمير أبى زكريا ابراهيم الذى استولى على مدينة بجاية وقسنطينة عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٤ م وعاصمته بجاية .

وبوفاة أبى حفص عمر تولى الحكم أخوه محمد أبو عصيدة وشهد حكمه إعادة وحدة الدولة الحفصية لكن فشلت المحاولة وتوفى عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م

ثم شهدت الدولة الحفصية صراعات على الحكم، ذلك أن أبا عصيدة أوصى بالخلافة من بعده إلى يحيي بن أبى بكر الذى حكم يوم وفاة أبى عصيدة وكانت مدة حكمه ستة عشريوما حتى قتل على يد أبى البقاء خالد الذى استولى على الحكم عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، ونجح أبو البقاء فى إعادة الوحدة إلى الدولة الحفصية. ثم انتهت فترة حكم أبى البقاء بعد أن خرج عليه أبو يحيي بن اللحيانى عام ٧١١هـ/ ١٣١١م وظل يحكم حتى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، ولم تظل فترة حكمه إذ خرج عليه أبو يحيي أبو بكر بن الأمير أبى زكريا عام ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م واستولى على الحكم، وشهدت فترة حكمه الطويلة الكثير من الأحداث الداخلية والخارجية حتى توفى عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م وخلفه ابنه عمر الثانى .

بعد أن تولى الحكم أبو حفص عمر الثانى فى يوم وفاة والده دخل الحفصيون فى صراع مع بنى مرين فى المغرب الأقصي، إذ زحف ابو الحسن المرينى على تونس عام ٧٤٨هـ/١٣٤٨م وقتل أبا حفص عمر الثانى وأصبحت تونس خاضعة للسيطرة المرينية حتي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م حين قضى أبوالعباس الفضل الحفصى على هذه السيطرة. وحكم أبو العباس حتى عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م اذ خلفه أخوه ابراهيم فى الحكم فى نفس هذا العام وشهد هذاالعام أيضا عودة السيطرة المرينية على افريقية للمرة الثانية وانتهى الاحتلال المرينى للبلاد عام ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩م. وبطرد المرينيين تولى الحكم أبو اسحق ابراهيم حتى عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م. وخلفه فى الحكم خالد أبوالبقاء الثانى حتى عام ٧٧٣هظ/ ١٣٧١م.

ثم تولى حكم الدولة ابوالعباس أحمد الأول المنتصر (٧٧٢ ـ ٧٩٦هـ/ ١٣٧١ ـ ١٣٩٥م.) الذى استطاع أن يعيدالوحدة والأمن الاستقرار الداخلى للبلاد وقضى على نفوذ القبائل العربية وتولى الحكم بعده ابنه أبو فارس (٧٩٦ ـ ٨٣٧ هـ / ١٣٩٥ ـ ١٤٣٦م) الذى استكمل القضاء على نفوذ القبائل العربية وفرض سيطرته على أقاليم الدولة. وساد الأمن كل أرجائها لحسن سياسته وهو آخر الخلفاء العظام إذ بوفاته عادت الدولة الى الانقسام وعادت الاضطرابات وانقسمت الدولة إلى ثلاثة أجزاء: تونس والمهدية وقسنطينة ولم تعد الوحدة الحفصية.

تولى الحكم أبو عبد الله المنتصر بن أبى فارس عام ٨٣٨ هـ/ ١٢٣٤م. وحكم سنة واحدة إذ توفى عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م. ثم حكم بعده أخوه أبوعمر عثمان (٨٣٩ ٨٩٢هـ/ ١٤٣٥ ـ ١٤٨٨م) وبعد وفاته تولى حفيده أبو زكريا بن عبد الله لكنه قتل وتولى الحكم بعده ابن عمه أبو محمد عبد المؤمن لكنه قتل أيضا وبويع بالخلافة أبو زكريا يحيي وحكم ست سنوات ثم تولى الخلافة أبو عبد الله محمد بن الحسن حتى عام ٩٢٢هـ/ ١٥٢٥م. وقد شهدت هذه الفترة الانقسام والصراع على الحكم.

ثم تولى الحكم الحسن بن مسعود عام ٩٢٢هـ / ١٥٢٥م ثم أحمد الحفصى وفى تلك الأثناء ظهر النفوذ العثمانى ثم دخلت الدولة فى دائرة الصراع بين الأسبان والأتراك وأخيرا آلت الدولة فى عهد محمد بن حسن الحفصى الى الدولة العثمانية عام ٩٨١ هـ/ ١٥٧٤م وأصبحت إفريقية ولاية عثمانية بسقوط الدولة الحفصية.

١٢ـ الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط (٦٣٣ـ ٩٦٢هـ/ ١٢٣٦ـ ١٥٥٥م).

تنتمى الدولة الزيانية إلى قبائل زنانة التى استوطنت المغرب الأوسط وتسمى بدولة بنى عبد الواد نسبة إلى شيخ القبيلة وقد ورثت هذه الدولة الموحدين فى شرق المغرب الأوسط وكانت حدودها غير ثابتة إذ أنها كانت تضيق وتتسع حسب قوة جيرانها وضعفهم، وهم من الشرق الدولة الحفصية ومن الغرب الدولة المرينية. وتدين هذه الدولة لمؤسسها أبى يحيي بن يغمر اسن بن زيان (٦٣٣ ـ ٦٨١هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٢٨٢م)الذى ثبت أقدام بيته الزيانى وأسس دولة وقطع الدعوة للموحدين فى تلمسان وأحسن السيرة فى الرعية ونظم دولته إداريا وعسكريا، وقضى على من عانده من زنانة وخضعت الدولة فى عهده للدولة الحفصية بعد استيلاء أبى زكريا الحفصى على تلمسان. كما دخل فى صراع مع المرينيين وكانت له حروب مع يعقوب المريني.

بوفاة يغمر اسن تولى الحكم ابنه أبو عثمان (٦٨١ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٣٠٣م) الذى قضى فترة حكمه فى الدفاع عن حدود دولته فحارب مغراوة وبنى توجين كما اشتبك فى معارك مع المرينيين الذين حاولوا الاستيلاء على تلمسان.

بوفاة ابى عثمان تولى الدولة أبو زيان محمد الأول (٧٠٣ ـ ٧٠٧هـ/ ١٣٠٣ ـ ١٣٠٧م) ثم تولى أبو حمو موسى الأول بن عثمان (٧٠٧ ـ ٧١٨ هـ ١٣٠٨م) الذى محا الدعوة الحفصية من تلمسان واستمر الصراع فى عهده مع بنى مرين. ثم تولى أبوتاشفين عبد الرحمن الاول (٧١٨ ـ ٧٣٧هـ/ ١٣١٨ ـ ١٣٣٧م) وانتهى حكمه بعد حصار أبى الحسن المرينى تلمسان لمدة عامين واستيلائه عليها وقتل ابا تاشفين عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م وفقدت الدولة استقلالها حتى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م حين تمكن السلطان أبو سعيد عثمان الثانى (٧٤٩ ـ

٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨م) من تخليص تلمسان من التبعية للدولة المرينية لكن السطان المرينى أبا عنان نجح فى احتلال تلمسان عام ٧٥٣ هـ/ ١٣٥١م وظلت خاضعة للمرينيين حتى عام ٧٦٠هـ ١٣٥٨م، حيث قتل وهو يصد الخطر المرينى على تلمسان عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨.

احتل بنو مرين تلمسان عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م فى عهد سلطانهم أبى العباس أحمد، وظلت هذه التبعية قائمة لمدة ربع قرن من الزمان حتى طردهم من تلمسان أبومالك عبد الواحد بن موسى (٨١٥ ـ ٨٢٧ هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤٢٤م) وأعاد هذاالحاكم للدولة كيانها وسمعتها.

وبدأت الدولة الزيانية فى الضعف والانهيار بسبب الصراع على الحكم والسلطة . فقد حكم الدولة أبو عبد الله محمد الثالث (٨٢٧ ـ ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٤ ـ ١٤٢٩م) ثم أبو العباس أحمد المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٦٦ هـ/ ١٤٢٩ ـ ١٤٦١م) ثم أبو عبد الله محمد الرابع ٨٦٦ ـ ٨٨١ هـ/١٤٦١ ـ ١٤٧٦م) ثم أبو عبد الله محمد الخامس (٨٨١ ـ ٩١١ هـ/ ١٤٧٦ـ ١٥٠٥م) ثم أبو حمو موسى الثالث (٩١١ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠٥ ـ ١٥٢٦م). وفى تلك الأثناء ظهر الخطر الأسبانى على شواطئ المغرب الأوسط واستيلاء الأسبان على وهران وبجاية عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م دون أى مقاومة مع بنى زيان كما دفع ميناء الجزائر الجزية لهم.

وفى ذلك الوقت ظهر النفوذ العثمانى وتصدى الأخوان عروج وخير الدين للخطر الأسبانى ثم قاما بضم المغرب الأوسط «الجزائر» لسيطرةالدولة العثمانية وذلك عام ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٥، وكان ذلك فى حكم آخر حكام الدولة الزيانية الحسن عبد الله الثانى ٩٥٧ ـ ٩٦٢هـ/ ١٥٥٠ ـ ١٥٥م) .

١٣ـ الدولة المرينية فى المغرب الاقصى (٦١٠ ـ ٨٦٩ هـ/ ١٢١٣ ـ ١٤٦٥م)

بنو مرين بطن من قبيلة زناتة البترية. وكان موطنهم الأصلى فى المغرب الأوسط ثم دفعتهم قبائل بنى هلال غربا. ويعتبر أبو محمد عبد الحق بن محبو (٥٩٢ ـ ٦١٤ هـ/ ١١٩٥ ـ ١٢١٧م) مؤسس هذه الدولة فهو أول من قاد قبائل بنى مرين إلى داخل بلاد المغرب الأقصى واستفحل شأنهم وأصبحوا خطرا على الدولة الموحدية، وانتهت حياة هذا القائد المرينى وهو يحارب عرب رياح إذ قتل عام ٦١٤/ ١٢١٧م وتولى قيادة القبائل المرينية ابنه عثمان.

نجح عثمان بن عبد الحق (٦١٤ ـ ٦٣٧ هـ/ ١٢١٧ ـ ١٢٣٩م) بعد أن تولى قيادة الدولة فى هزيمة عرب بين رياح، وبسبب سوء أحوال المغرب الأقصى فى ظل الموحدين أعلن الأمير المرينى فى عام ٦١٦ هـ/ ١٢١٩م خلع طاعة الموحدين واتسع نفوذ المرينيين بخضوع جميع قبائل المغرب لهم . لذلك قام الخليفة الموحدى الرشيد بتدبير مؤامرة نجحت في اغتيال عثمان بن عبد الحق عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م.

ثم آلت الدولة الى أخيه محمد بن عبد الحق (٦٣٧ ـ ٦٤٢ هـ / ١٢٣٩ ـ ١٢٤٤م) الذى قام بفتح الكثير من قلاع المغرب الأقصى لكنه قتل فى المعركة مع الجيش الموحدى فى خلافة السعيد . ثم بايع أشياخ القبيلة أخاه أبا يحيي أبا بكر بن عبد الحق (٦٤٢ ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٤٤ ـ ١٢٥٨م)، وقد شهد عهده حسم الصراع مع الموحدين وتمكن من التغلب عليهم، وعلى يديه قامت الدولة المرينية وعاصمتها فاس. وقام هذا الحاكم بتوطيد دعائم حكمه داخليا إذ خضعت له مدينة مكناس عام ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥م وفاس عام ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩م ثم نقضت البيعة فدخلها مرة أخرى جيش موحدي، وسيطر على سلا ورباط الفتح عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م كما استولى أخيرا على درعة وسجلماسة عام

٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. ثم مات وتولى حكم الدولة أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ ـ ١٢٨٦م) وفى عهده استقرت أحوال الدولة الميرينية فى المغرب الأقصى واعترف الخليفة الموحدى المرتضى بالدولة المرينية. ثم تجدد الصراع بين الطرفين وبعد أحداث مليئة بالتفصيلات سقطت الدولة الموحدية نهائيا وورثتها الدولة المرينية فى المغرب الأقصى . وقد وقف هذا الحاكم بحزم ضد محاولات طرد المسلمين من الأندلس، كما دخل فى صراع مع الدولة الزيانية وتوفى أبو يوسف يعقوب المرينى بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس، و لذلك يعتبر من أعظم سلاطين الدولة .

خلف يوسف أباه يعقوب المرينى (٦٨٥ ـ ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦ ـ ١٣٠٦م) فعين أخاه الأمير أبا عطية حاكما على ممتلكات بنى مرين بالأندلس . وقد استمرت جهوده فى الأندلس ونجح فى الاستيلاء على المغرب الأوسط من بنى زيان ثم تولى الدولة اثنان من السلاطين حكم كل منهما عامين فتولى أبوثابت عامر بن أبى عامر(٧٠٦ ـ ٧٠٨هـ/ ١٣٠٦ ـ ١٣٠٨م) ثم أبوالربيع سليمان بن أبى عامر (٧٠٨ ـ ٧١٠ هـ/ ١٣٠٨ـ ١٣١٠م) وآلت الدولة بعد ذلك إلى أبى سعيد عثمان (٧١٠ ـ ٧٣٢ هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٣٢م) الذى تعرض لبعض المتاعب من قبل بنى زيان. لذلك قام باكتساح بلاد المغرب الأوسط ثم عاد إلى دولته التى ازدهرت أحوالها فى عهده .

بعد ذلك حكم الدولة أبو الحسن المرينى (٧٣٢ ـ ٧٤٩ هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٤٨م) وكانت له جهود محمودة فى الجهاد فى الأندلس ضد نصارى الأسبان، وامتد نفوذه إلى المغرب الأوسط فقد سقطت تلمسان فى يده عام ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧م كما سيطر على إفريقية الحفصية عام ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م وبذلك سيطر على الدولتين الزيانية والحمفصية .

بوفـاة أبى الحـسن تولى الدولة أبو عنان فـارس بن أبى الحـسن (٧٤٩ ـ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥٧م) الذى أعاد فتح المغرب الأوسط عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م كمـا حـاول ضم افـريقـيـة إلى دولتـه. وبانتـهـاء حكمـه انتـهى النفوذ المرينى من المغربين الأدنى والأوسط.

بعد وفاة السلطان أبى عنان المرينى عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م حكم أربعة عشر سلطانا فى مدة واحد وأربعين عاما كان آخرهم عبد العزيز بن أحمد (٧٩٦ ـ ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٦م) . وتميزت هذه الفترة بالتنافس على السلطة وزيادة نفـوذ الوزراء وأصـبح السـلاطين ألعوبة فى يد هؤلاء الوزراء وتدهورت بالتـالى أحوال الدولة الاقتصادية .

وفى أوائل القرن التـاسع الهجرى حكم الدولة أبو سـعيد بن أبى العبـاس أحـمـد (٨٠٠ ـ ٨٠١هـ/ ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨م) وصـار للحـجـاب نفـوذ أقـوى من الوزراء وتولى بعد ذلك أبو سـعيدعثمـان (٨٠١ ـ ٨٢٣ هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤١٠م) وفى عـهده خـضـعت الدولة للحـفصيين فى تونس ثم خلفه فى الحكم أخـوه عبد الله المعروف باسم سيدى عبو ثم تولى الحكم بعده عبد الحق بن أبى سـعيـد (٨٢٣ ـ ٨٦٩/ ١٤٢٠ ـ ١٤٦٥م) وهو آخر سلاطين الدولة المرينية التى سقطت فى أيامه ثم قامت علي أنقاضها الدولة الوطاسية.

١٤ـ الدولة الوطاسية (٨٧٦ ـ ٩٦١هـ/ ١٤٧٢ ـ ١٥٥٤م):

ازداد نفوذ الوزراء والحـجاب فى عهد آخر سـلاطين الدولة المرينية أبى عبد الحق المرينى . وقد تولى منصب الوزراء مجموعة من أبناء البيت الوطاسى منهم يحيي بن زيان الوطاسى الذى توفى عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، وتولى الوزراة بعده فى فاس على بن يوسف الوطاسى ثم يحيي بن يحيي بن زيان الوطاسي، وأخذ

هذا الوزير الأخير في تغيير مراسم السلطنة ودخل في عداء مع أقارب السلطان المريني، وتدخل في كل شئون الدولة للحد من سلطة السلطان، وتدعم وضع الأسرة الوطاسية نتيجة لكل ذلك فدبر السلطان عبد الحق المرينى مذبحه لبنى وطاس لم ينج منها إلا محمد الشيخ مؤسس الدولة الوطاسية فيما بعد.

بعد هذه المذبحة ظل منصب الوزارة شاغرا لا يقبل على توليه أحد خوفا من بطش السلطان، فقام عبد الحق المرينى بتعيين اثنين من اليهود فى منصب الوزارة والحجابة هما هارون فى الوزارة وشاويل فى الحجابة. وقد أساءوا السيرة فى الرعية وبوجه خاص فى الأشراف والفقهاء. فثارت الرعية وقتلوا اليهود يين كما قتل عبد الحق المرينى عام ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٥م .

آلت أمور الحكم فى فاس إلى الشريف أبى محمد عبد الله بن محمد الادريسى وحكم ست سنوات ثم خلفه أبوالحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى عام ٨٧٥ هـ/ ١٤٧١م. وحكم عاما واحدا ثم عزل بعد ذلك على يد محمد الشيخ بن أبى زكريا الوطاسى عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م الذى يعتبر مؤسسا لحكم الأسرة الوطاسية فى فاس .

واجه الأمير محمد الشيخ الوطاسى (٨٧٦ ـ ٩١٠ هـ/ ١٤٧٢ ـ ١٥٠٤م العديد من المشاكل الخارجية والداخلية فى فترة حكمه الطويل فقد تصاعد الخطر البرتغالى على دولته واحتلوا سواحل المغرب، وكان الحاكم الوطاسى عاجزا عن إيقاف هذا الخطر واقتصر ملكه على فاس ومكناس والحوض الاعلى لنهر سبو. وفى نفس الوقت ظهر العثمانيون وحاولوا الوقوف أمام هذا الخطر والتوسع بالاستيلاء على المغرب. وشهدت فترة حكمه أيضا قيام الثائرين فى بلاد السوس وقيام الشرفاء السعديين بمحاولة التصدى للخطر البرتغالي.

آلت الدولة بعد ذلك الى أبى عبد الله بن محمد الشيخ الوطاسى (٩١٠ ـ

٩٣٢هـ/ ١٥٠٤ ـ ١٥٢٥م) وزاد فى عهده النفوذ الأسبانى والبرتغالي، فقد احتل البرتغاليون ساحل أغادير عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م كما احتلوا ميناء أزمور عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٣م، ومن قبل استولوا على أسفى كما حاصروا مراكش عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٥م وفشل الحصار. على أية حال سقطت مدن الساحل ولم يبق إلا سلا ورباط الفتح . وفى ذلك الوقت ظهرت الحركة السعدية للجهاد الاسلامى ضد البرتغاليين والقضاء على الدولة الوطاسية، ونجح السعديون فى تحرير بعض الموانى الساحلية من قبضة الأسبان والبرتغال.

ثم آلت الدولة الوطاسية إلى أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد الشيخ (٩٣٢ ـ ٩٥٦ هـ/ ١٥٢٥ ـ ١٥٤٩م) الذى دخل فى صراع مع البرتغاليين كما دخل فى صراع مع الأشراف السعديين الذين سيطروا على مراكش، وفشل الوطاسيون فى استعادة المدينة واقتسم الوطاسيون والسعديون السلطة فى الأقصى .

انشغل السعديون بعد ذلك بطرد البرتغاليين من موانى المغرب وطردوهم من ميناء أغادير عام ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١م، ثم نجح السعديون فى القضاء على الدولة الوطاسية ودخلوا فاس وقبضوا على آخر سلاطين الدولة الوطاسية وأهله وأتباعه حيث لاقوا جميعا حتفهم بالسم ولم ينج من أفراد الأسرة الوطاسية غير العم بوحسون الذى تمكن من الفرار من الأسر قبل مقتل جميع أفراد أسرته واستنجد بالعثمانيين الذى أرسلوا له جيشا أعانه فى دخوله فاس عام ٩٦١ هـ/ ١٥٥٤م وعادت السلطنة الوطاسية بدخول بوحسون فاس وعودة محمد الشيخ السعدى إلى مراكش .

أعد محمد الشيخ السعدى جيشا نجح فى استرداد فاس وقتل آخر حكام الدولة الوطاسية أبو حسون عام ٩٦١ هـ/ ١٥٥٤م وعادت فاس للحكم السعدى. وكان دخول فاس هذه المرة هو النهاية للدولة الوطاسية تماما .

ثانيا ـ الاسلام والدول الاسلامية فى افريقيا الغربية والسودان الشرقى*

انتشار الاسلام بين بربر الصحراء الكبرى :

يقتضى الحديث عن الاسلام والدول الاسلامية التى قامت فى بلدان غرب إفريقيا أن نعطى نبذة عاجلة عن انتشاره أولا بين بربر الصحراء الكبرى الذين كانوا يعرفون باسم الطوارق أو الملثمين ، أى الذين يضعون اللثام على وجوههم، أو الصنهاجيين، نسبة إلى قبائل صنهاجة التى كانت من أكبر القبائل التى عاشت فى هذه الصحراء وأوفرها عددا وأكثرها قوة. ذلك أن هذه القبائل الصنهاجية هى التى قامت بجهد كبير فى نشر الاسلام فى غرب إفريقيا وخاصة غانة ومالى وبلاد الهوسا .

وقد بدأ الاسلام ينتشر بين صنهاجة منذ وقت مبكر يعود الى ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية (٦٠ـ٦٣هـ) فى أيام سيطرة دولة بنى أمية على افريقية فقد استطاع هذا القائد العظيم أن يتدفق بقواته إلى المغرب الأقصى ثم هبط جنوبا إلى إقليم السوس الأدنى ثم إلى السوس الأقصى وتوغل فى ديار الملثمين من صنهاجة ، وتذكر بعض الروايات أنه توغل حتى وصل الى غانة، وان كان هذا أمرا مستبعدا ، وان كانت حملته على بلاد الملثمين قد فتحت الباب أمام الاسلام كى يتدفق إلى تلك المناطق النائية. وقد واصل موسى بن نصير فاتح المغرب الأقصى فى عام ٩٠هـ مابدأه عقبة بن نافع، فقد أدرك مواطن الملثمين وبنى المساجد ، وولى زعماءهم أعمالا فى ديارهم فأقبلوا على الإسلام خاصة بعد أن أشركهم موسى فى فتح بلاد الأندلس فى عام ٩٢هـ/ ٧١١م.

---

* أ.د. رجب محمد عبدالحليم

وقد جاء والى إفريقية (تونس) عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع الفهرى فى عام ١٢٧هـ/ ٧٤٤م ليتمه مابدأه جده عقبة بن نافع من نصف قرن تقريبا، فأقام سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين أودغشت محطة التجارة جنوب الصحراء واستطاع جنوده عبور هذه الصحراء وأمعنوا فى نشر الاسلام فى أقاصى ديار الملثمين، فاستطاع تجار العرب والبربر أن يتصلوا بهذه الديار وببلاد السودان الغربى مما أسفر عن وصول الاسلام الى هذه البلاد.

ثم قامت دولة الأدارسة العلويين فى المغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ/ ٧٨٨ ـ ٩٨٩م) واستطاعوا أن يظفروابتأييد صنهاجة المغرب الأقصى وصنهاجة اللثام فى الصحراء، وبفضل هذه الوحدة استطاعوا أن يوجهوا أنظارهم إلى جهاد مقدس بقصد نشر الاسلام فكانوا أشبه بالدعاة منهم بالولاة، فقد جاوز نفوذهم منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبري، وامتد نفوذ فاس الثقافى إلى النواحى الشمالية من ديار الملثمين، وانتشر فى إقليم الواحات بعد أن أصبحت مضارب الملثمين القريبة من جبال أطلس (تعرف بجبال درن) خاضعة للأدراسة وجزءا من أملاكهم، ولذلك يمكن القول بأن إسلام صنهاجة أو الملثمين أو الطوارق الذى بدأ فى عهد عقبة قد تاكد فى عهد الأدارسة خصوصا فى القرن الثالث الهجري.

وكان إسلام قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان الغربي، إذ أدى إلى قيام حلف قوى يجمع قبائل صنهاجة (لمتونة وجدالة ومسوفة) بزعامة لمتونة. وكان هذا الحلف نذايرا بموجة من التوسع صوب الجنوب لنشر الاسلام بين القبائل الزنجية بالسودان المغربي، ولم يتجه الملثمون صوب الشمال حتى لا يصطدموا بقوة الأدراسة وبقبائل مصمودة القوية المحاربة.

استطاع تيولوتان زعيم هذا الحلف أن يحمل راية الجهاد ، ودان له معظم ملوك السودان الغربي واتقوه بدفع الجزية، واستولى على مدينة أودغشت التى كانت محطة رئيسية لقوافل الصحراء، وخلص تلك المدينة من يد ملك غانة الوثنى واتخذها عاصمة له، واستعان به ملك ماسين ضد ملك أوغام التى تقع شرقى مملكة غانة، فدخلت قواته أوغام واستولت عليها.

توفى الملك تيولوتان عام ٢٢٢هـ/٨٣٦م وتفرق الحلف الصنهاجى أثناء حكم أحفاده عام ٣٠٦هـ، واستطاعت مملكة غانة أن تستعيد مدينة أودغست، واحتفظت تلك المملكة بقوتها كأعظم ما تكون فى السودان الغربى حتى قام الحلف الصنهاجي الثانى عام ٤٢٦هـ/١٠٣٥م بزعامة الأمير أبى عبد الله بن يتفاوت اللمتونى الذى أستأنف الجهاد وحارب غانة وقبائل من السودان فى موقعة (غارة) بالقرب من مدينة تاتكلاتين ، لكنه استشهد فى هذه الموقعة بعد ثلاث سنوات من حكمه، أى عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م وأخفق الملثمون فى استعادة أودغست والسيطرة بالتالى على تجارة السودان .

وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تخلت لمتونة عن زعامة الملثمين وآلت تلك الزعامة إلى قبيلة جدالة فى شخص يحيي بن ابراهيم الجدالى الذى اتبع طريقة أسلافه فى الجهاد فى بلاد السودان الغربى لنشر الاسلام، وأسس دولته على دعوة دينية إصلاحية قطبها فقيه مغربى مالكى يدعى عبد الله بن ياسين استقدمه الزعيم الجدالى ليمكن للإسلام الصحيح من نفوس الناس، وكان معنى ذلك امتداد نفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصي، ثم تخطيه حدود هذا الاقليم نحو الجنوب وانتشاره فى بلاد السودانى الغربي.

بعد موت الأمير يحيي بن إبراهيم أصبح ابن ياسين المؤسس الدينى لدولة المرابطين بلاسند ، وفقد الحماية التى كان يبسطها عليه زعيم جدالة ورئيس

الحلف الصنهاجي، وأصبح مكروها لأنه كان متشددا فى تنفيذ التعاليم الإسلامية، كما أنه اختار يحيي بن عمر اللمتونى خلفا ليحيي بن ابراهيم الجدالي، وبذلك نقل الزعامة من جدالة إلى لمتونة.

لهذا كله رحل ابن ياسين الى بلاد السودان الغربى وأقام رباطا أورابطة هناك فى أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية قرب مضارب لمتونة، ناحية مصب نهر السنغال وتبعه كثير من الذين آمنوا بدعوته، ولما ازدادت قوته ، قام يجاهد قبائل البربر ويدعوهم إلى تنفيذ تعاليم الاسلام الحقة ومعه يحيي بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر اللمتونى ولكن يحيي استشهد عام ٤٤٨هـ/١٠٦٥م فى حربه ضد جيرانه، فأخذ ابن ياسين البيعة لأخيه أبى بكر وأقامه مكانه وتوجه لقتال برغواطة عام ٤٥١هـ/١٠٦٨م حيث استشهدابن ياسين من جراح أصابته، وبعد أن فرغ أبو بكر من السيطرة على قبائل الملثمين وأعاد الأمن إلى الصحراء رأى أن يوجه جهوده لمحاربة الوثنيين فى بلاد السودان الغربي.

وكان ابن ياسين قد انتزع مدينة أودغشت من ملك غانة وجاوزها جنوبا بدليل ما ذكره المؤرخون من أن رئيس التكرور حالف المرابطين وحارب الى جوارهم، ومن ثم استطاع الأمير أبو بكر أن يتخذ من هذه المدينة مرتكزا له فى جهاده، ضد ملك غانة، وبعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة إستولى أبو بكر على القسم الأكبر من مملكة غانة وضمه إلى دولته.

ثم رحل هذا الأمير بعد ذلك إلى الشمال فى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م قاصدا مراكش التى كان قد بناها عام ٤٥٤هـ/١٠٦١م، وتم الصلح بينه وبين ابن عمه يوسف ابن تاشفين على أساس أن يترك أبو بكر لابن تاشفين بلاد المغرب الأقصي، وعاد هو إلى الصحراء مؤثرا وحدة الصف، متجنبا سفك الدماء وكرس كل جهوده فى التوسع فى بلاد السودان ونشر الاسلام بين قبائله،

وكان هدفه هذه المرة هو إسقاط امبراطورية غانة الوثنية التى أصبحت دولة غانة الاسلامية.

ثم انتشر الاسلام فى افريقيا الغربية كلها فيما يعرف بالسودان الغربى وما يعرف بالسودان الأوسط.

أ- الاسلام والدول الاسلامية فى السودان الغربي: *

قامت فى السودان الغربى ثلاث ممالك إسلامية هى دولة غانة الاسلامية ثم سلطنة مالى الاسلامية، ثم سلطنة صنغى الاسلامية. ونبدأ الحديث عن دولة غانه الاسلامية.

دولة غانة الاسلامية

(٤٦٩-٦٠٠ هـ/ ١٠٧٦-١٢٠٣م)

غانة التى نقصدها بهذا الحديث ليست هى غانة التى تقع فى أقصى الجنوب من غربى إفريقيا وعاصمتها أكرا، وإنما هى التى كانت تقع بين منحنى نهر النيجر ونهر السنغال وتضرب حدودها فى جنوب موريتانيا الحالية، وكانت عاصمتها مدينة تسمى كومبى وتقع على بعد ٢٠٠ ميل شمال باماكو عاصمة دولة مالى الحالية.

وكانت غانة القديمة التى نتحدث عنها متسعة النفوذ والسلطان حتى قيل عنها إنها كانت امبراطورية خضع لها معظم بلاد السودان الغربى فى النصف الأول من العصور الوسطى وتعتبر هذه الدولة أو الإمبراطورية من أقدم ممالك غرب افريقيا شمال نطاق الغابات ويرجع تاريخ نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلادي، ويبدو أن كلمة غانة كانت لقبا يطلق على ملوكهم ثم

---

* أ.د. رجب محمد عبدالحليم.

اتسع مدلول هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة والامبراطورية. وقد قامت هذه الدولة على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال وكان أول ملوكهم المدعو (كازا) قد اتخذ مدينة (أوكار) قرب تمبكت الحالية عاصمة له، وكان الشعب يتكون من قبائل السوننك وهو أحد فروع شعب الماندى الذى يسكن معظم نواحى غرب افريقيا.

واستطاعت هذه الدولة منذ أواخر القرن الثامن الميلادى وبعد أن انتقل الحكم إلى فرع السوننكى أن تخضع بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسرير، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد، فأصبحت غانة تسيطر على المسافات الممتدة من أعلى نهر السنغال وأعلى نهر النيجر، وامتد نفوذها إلى موقع تمبكت شرقا وبلاد التكرور أو السنغال غربا، وينابيع النيجر جنوبا وأغلب الصحراء الغربية (موريتانيا حاليا) شمالا، وانتقلت عاصمتها إلى مدينة كومبى أو كومبى صالح، وهى نفسها مدينة غانة.

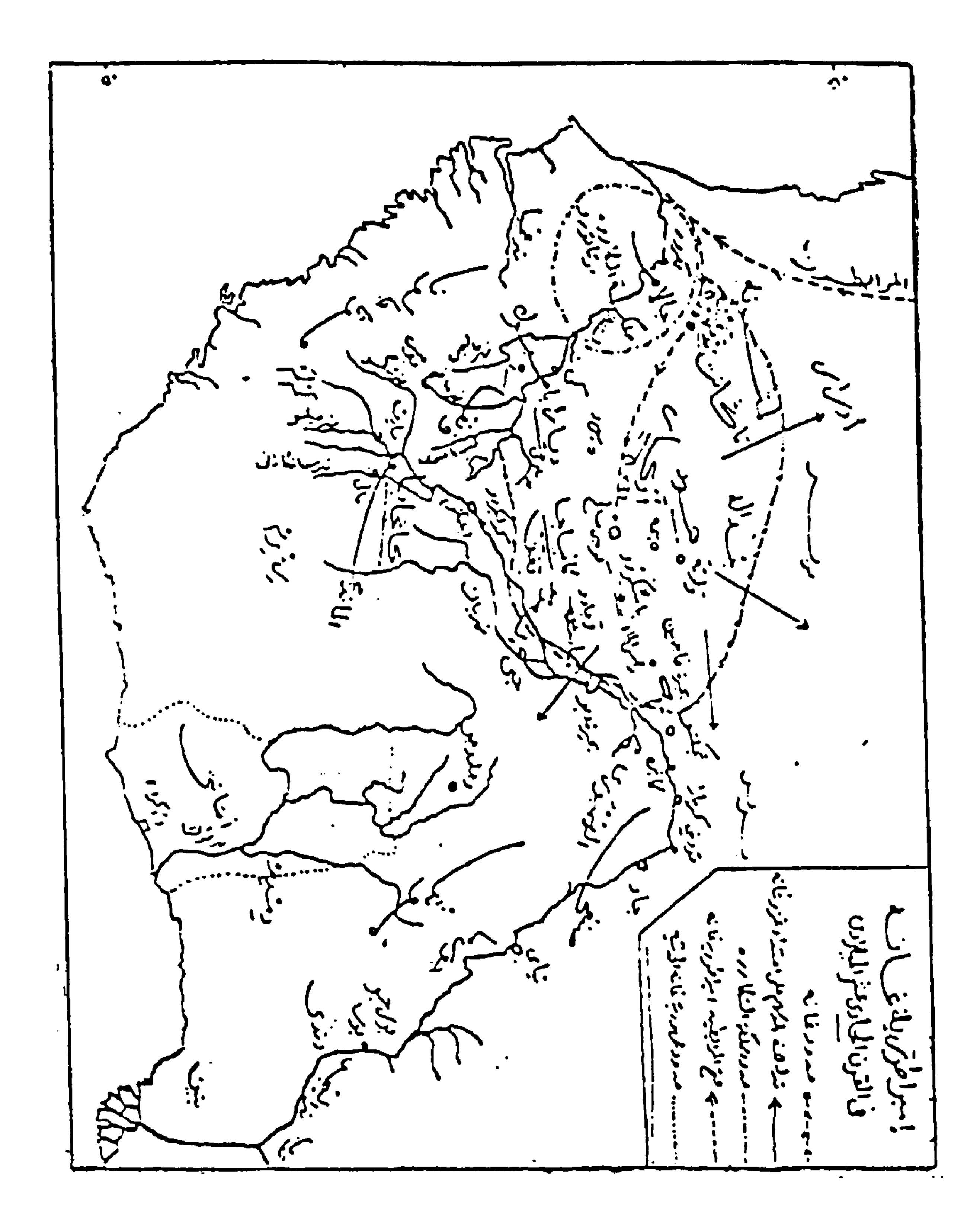
اعتمدت امبراطورية غانة على التجارة كمصدر رئيسى فى اقتصادياتها خاصة تجارة الذهب حتى صارت تعرف ببلاد الذهب، وأصبح ملوك غانة من أغنى ملوك الأرض رغم أنهم لم يسيطروا على مناجم الذهب التى كانت تقع فى منطقة وانقارة أو وانجارة Wangara جنوب مملكة غانة لكنهم كانوا يتحكمون فى الطرق التجارية المؤدية إليها، ساعدهم على ذلك موقع غانة التى جعلها حلقة اتصال بين شمال القارة وغربها.

وقد أدى رواج التجارة إلى أن أصبحت غانة العاصمة (كومبى صالح) من أكبرأسواق بلاد السودان ، وإلى تسرب الإسلام إليها سلميا عن طريق التجاروالدعاة المسلمين، يتبين هذا من رواية البكرى الذى زار هذه البلاد فى

عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، وذكر أن مدينة غانة مدينتان يحيطهما سور، إحد اهما للمسلمين وبها اثنا عشر مسجداً، يعين لها الأئمة والمؤذنون. بالاضافة الى الفقهاء وحملة العلم، أما المدينة الأخرى فهى مدينة الملك وتسمى بالغابة، وبها قصر الملك ومسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين، ويضيف البكرى أن تراجمة الملك كانوا من المسلمين، وكذلك كان صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه من المسلمين ويذكر أيضا أن ملك غانة رغم وثنيته كان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين ، وهذا يدل على أن الحركة الاسلامية كانت حركة دافقة، فقد كثر عدد المسلمين بين زنوج غربى افريقيا لدرجة أن شعب التكرور بأكمله كان قد أسلم على يد مليكه وارجابى بن رابيس الذى توفى عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، كذلك امتد الاسلام إلى مدينة سلى التى تقع بين التكرور وغانة، وإلى مدينة غيارو التى تبعد عن مدينة غانة مسيرة ١٨ يوما.

ويتحدث البكرى عن مملكة أخرى هى مملكة ملل ويقصد مملكة مالى التى تقع جنوب مملكة غانة ويقول إن ملكها يعرف بالمسلمانى الذى أعلن إسلامه على يد أحد الفقهاء المسلمين الذى كان يزوره، وخرج معه للاستسقاء بعد أن أجدبت البلاد وكاد الناس يهلكون، ولما استجاب الله وهطل المطر أمر الملك بتحطيم الدكاكير أى الأصنام، وأخرج السحرة من بلاده، وحسن إسلامه وإسلام أهله وخاصته رغم أن معظم أهل مملكته كانوا وثنيين.

ويتحدث البكرى أيضا عن مدن أخرى أهلها مسلمون مثل مدينة كونمة، ومدينة الوكن، ومدينة كوكو عند انحناءة نهر النيجر تجاه بلاد الهوسا ، والمدينة الأخيرة مدينتان ، مدينة الملك ومدينة المسلمين ، ويبدو أن ملكهم كان مسلما ، بدليل ما يذكره البكرى من أن مليكهم كان يتسلم عند تنصيبه خاتما وسيفا ومصحفا يزعمون أن أمير المؤمنين بعثها إليه. ويصرح البكرى فى نهاية حديثه بأن ملكهم مسلم ولا يتولى العرش أحد من غير المسلمين .



المصدر: ابراهيم طرخان: امبراطور غانة الاسلامية ، ص ٣٣،

وهذا يدل على أن كثيرا من المدن والقبائل الزنجية كانت قد أسلمت وحسن إسلاها، وكانت هذه المدن والممالك تحيط ببلاد غانة غربا وشرقا وجنوبا، وكان لا بد من القضاء على هذه المملكة (مملكة غانة) حتى يسير الاسلام فى مجراه الطبيعى ويستقر بين هذه الشعوب التى آمنت به، وحتى ينتهى دور غانة فى مناهضة الاسلام واستغلال تفرق شمل قبائل الملثمين أحيانا واعتدائها على هذه القبائل، فكان الهدف الأساسى الذى كرس له الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى زعيم الملثمين جهوده هو الاستيلاء على غانة وإخضاعها لدولة المرابطين التى اقامها هؤلاء الملثمون من قبائل صنهاجة.

ورغم أن أغلب المصادر تغفل تفاصيل جهاد هذا الأمير فى بلاد السودان الغربي، إلا أننا نعرف أنه استطاع أن يفتح مملكة غانة وأن يستولى على العاصمة عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، ويسقط الحكومة الغانية الوثنية. ومنذ ذلك الوقت يمكن أن يؤرخ لامبراطورية غانة الاسلامية حتى اختفائها من التاريخ فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. فقد أضحت حكومتها إسلامية ، ويقال إن ملكها اعتنق الاسلام بدليل أن المرابطين تركوه فى حكم غانة بعد أن أعلن الخضوع ودفع الإتاوة. وبإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان العاصمة وغيرهم من المدن فى الاسلام، وأكثر من هذا فقد عملت حكومة غانة الاسلامية على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية فى بغداد، وأجبرت رعاياها على لبس العامه كما ادعى ملوك غانة الاسلامية أنهم ينتسبون إلى البيت العلوي.

ومع أن حركة المرابطين أدت إلى إضعاف غانة سياسيا ، فإن سيادة المرابطين على غانة لم تستمر طويلا، إذ سرعان ما تخلصت غانة من هذه السيادة على أثر اغتيال الأمير أبى بكر أمير المرابطين عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧ على يد أتباع أحد زعماء قبائل الموسى Mossi في شمال داهومى وانتهزت بلاد

السودان الغربى هذه الفرصة وماتبعها من اضطراب الجيوش المرابطيةهناك بعد موت قائدها تحرك الأمير ابراهيم بن أبى بكر إلى الصحراء للمطالبة بملك أبيه من يد عمه يوسف بن تاشفين، فأعلنت غانة استقلالها وانفصالها عن الدولة المرابطية ونقضت تبعيتها لها، وفى نفس الوقت استطاعت بعض الولايات التى كانت تابعة لامبراطورية غانة أن تنفصل هى الأخرى وتستقل فى حكمها، مثل مملكة أنبارة وولاية ديارا وكانياجا، وأصبحت ممالك مستقلة بينما أصبحت سلطة ملوك سوننكى غانة لا تتعدى أوكار وباسيكورو، مما أضعف الدولة ومهد للقضاء عليها.

ومعنى ذلك أن فتح المرابطين لغانة لم يقض عليها تاريخيا ولكنه حولها إلى الاسلام، وجاءت الصدمة القاضية على الوجود التاريخى لامبراطورية غانة على يد قبائل الصوصو SOSSO الوثنية، وكان هؤلاء قد استقلوا بولاية كانياجا كما سبق القول، وكانوا من قبل يدفعون الجزية لحكومة غانة لفترة طويلة. وفى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى استولى أعظم أباطرة الصوصو وهو سوما نجورو على العاصمة كومبى صالح فى عام ١٢٠٣م بعد معركة طاحنة مع ملك غانة الاسلامية.

وبذلك أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين فتفرقوا فى البلاد، وقام زعيم الصوصو بالاتجاه نحو الجنوب حيث توجد دولة الماندنجو النامية فى كانجابا وهى التى اشتهرت باسم امبراطورية مالى فيما بعد، ورغم انتصاره على ملك كانجابا المسلم إلا أن أحد أبناء هذا الملك ويسمى سندياتا أو (مارى جاطه) نجح فى استرداد الأراضى التى ضاعت من أبيه، بل واستطاع أن يقضى على سومانجورو نفسه، وأن يضم جميع أملاك الصوصو بما فيها أراضى امبراطورية الماندنجو، وذلك بعد واقعة حربية فاصلة عام ١٢٣٥م. وفى

عام ١٢٤٠م نجح مارى جاطة فى تدمير مابقى من كومبى صالح عاصمة غانة، وكان ذلك هو الفصل الختامى فى اختفاء امبراطورية غانة من مسرح التاريخ.

ورغم أن غانة الاسلامية لم تعمر طويلا، إلا أن أهلها وأغلبهم من السوننك اشتهروا بحماستهم للإسلام وبالدور الكبير الذى نهضوا به فى الدعوة اليه، حتى أن بعض العشائر السوننكية تكاد تختص بالعمل فى الدعوة إلى الاسلام، بل إن كلمة (سوننك) فى أعالى نهر غمبيا استخدمها الماندنجو الوثنيون مرادفا لكلمة (داعية) كما سبق القول، مما يدل على الدور الكبير الذى لعبه السوننك فى نشر الاسلام.

وقد تحدث بذلك كثير من المؤرخين القدامي، فقد قال الغرناطى إن « أهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، سبط الشعور لهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة» ويقول الإدريسى إن أهل غانة مسلمون وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن أبى طالب، وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي».

وقد سبقت الاشارة إلى ادعاء ملوك غانة الانتساب إلى البيت العلوي، وهذا أمر شائع ومألوف ومشهور عند كثير من ملوك السودان، وإن كان هذا الأمر ليس صحيحا من الناحية التاريخية، إلا أنه يدل على أهمية النظرة التى كان ينظرها ملوك الامبراطوريات الاسلامية التى قامت فى غرب افريقيا إلى الشرق الاسلامي، وإلى الصلة التى كانوا يود ون أن يربطوا أنفسهم بها مع مسلمى هذا الشرق.

ويبدو أن هذه الدفعة التى دفعها المرابطون للإسلام كانت قوية بل وأقوى مما يظن إذ تركت فى تاريخ الاسلام فى غربى افريقيا آثارا عميقة ذلك أن دعاة

المرابطين نشروا الاسلام فى المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر وعلى ضفاف السنغال، وتمخض ذلك عن إسلام شعب التكرور الذى عمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين الحنيف بين قبائل الولوف والفولبه (الفولاني) والماندنجو، وأدى هذا الأمر إلى ظهور سلطنة مالى الاسلامية.

٢ـ سلطنة مالى الاسلامية

(٥٩٦ـ٨٧٤هـ/ ١٢٠٠ـ١٤٦٩م)

أسس هذه السلطنة شعب زنجى أصيل هو شعب الماندنجو، والماندنجو معناها المتكلمون بلغة الماندي، ويطلق الفولانى على هذا الشعب اسم مالي، والبربر اسم مل أومليت، والمؤرخون العرب يطلقون عليهم لقب مليل أوملل، فى حين نجد الهوسا يسمونهم بالونجارة، وتقع سلطنة مالى بين بلاد برنوشرقا والمحيط الأطلسى غربا وجبال البربر شمالا وفوتا جالون جنوبا.

وتعد هذه السلطنة أعظم ممالك السودان الاسلامية واشتهرت باسم بلاد التكرور، والتكرور أحد الأقاليم التى انضوت تحت سيادة مالي، وكانت المملكة تشتمل على خمسة أقاليم فى عهد قوتها وازدهارها ، كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالا ذاتيا، لكنها تخضع لسلطان مالى ، وهذه الأقاليم الخمسة حسبما ذكرها القلقشندى:

(١) مالى ، ويتوسط أقاليم المملكة.

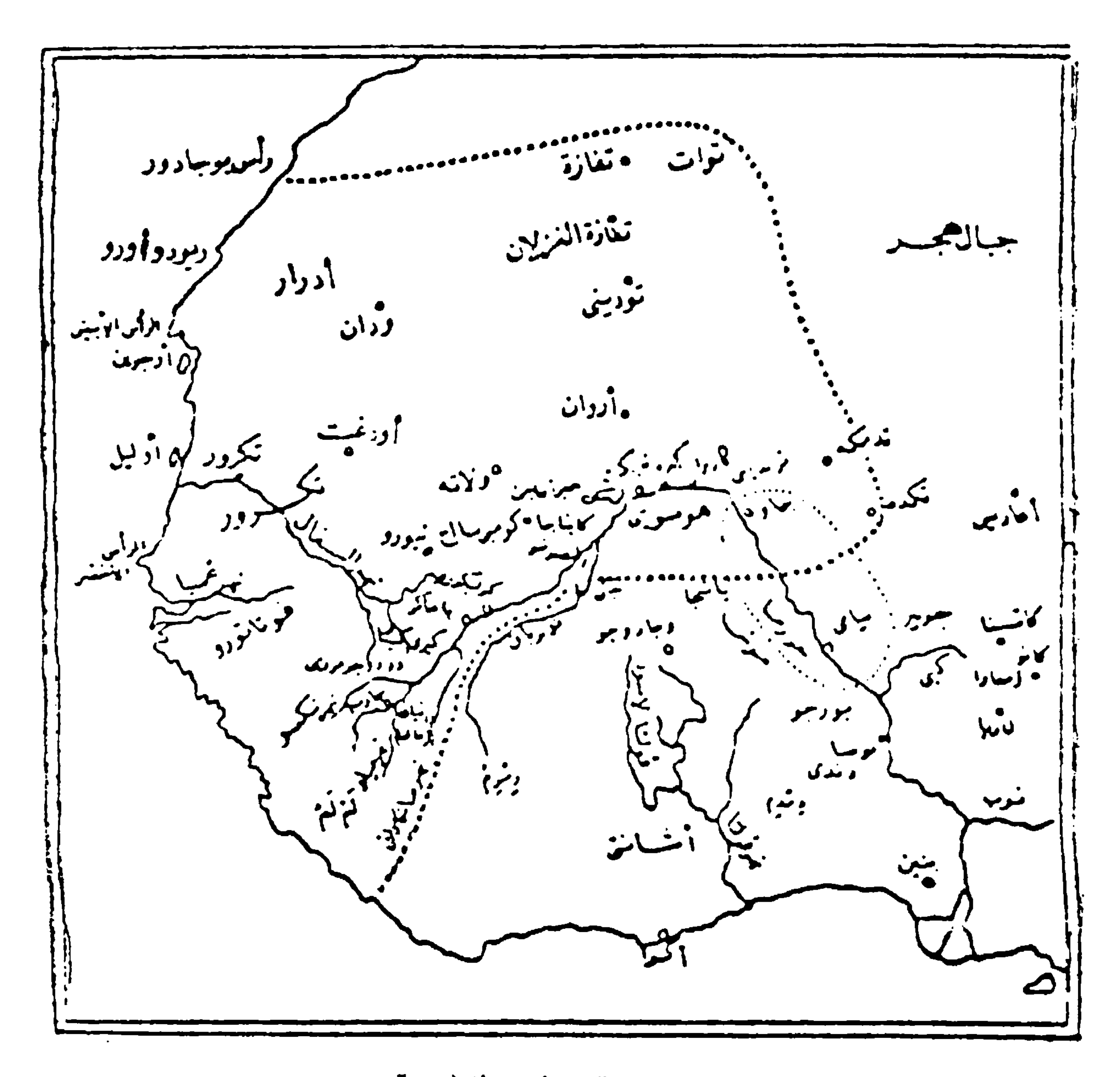
(٢) صوصو، ويقع الى الجنوب من مالي.

(٣) غانة ، ويقع شمال مالى ويمتد الى المحيط الأطلسى.

(٤) كوكو، ويقع شرق إقليم مالي.

(٥) تكرور، ويقع غرب مالى حول نهر السنغال.

سلطنة مالى الإسلامية



المصدر : ابراهيم طرخان : دولة مالى الاسلامية ، ص ٧٨ .

ولا نعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالي، وكل ما نعرفه عنها أنه فى نحو منتصف القرن الحادى عشر للميلاد اعتنق ملوك الماندنجو فى كانجابا (Kangaba) الاسلام، وأنشأوا دويلة صغيرة انفصلت عن مملكة غانة، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتى وأرادت أن تشارك فى الحياة الاسلامية مستغلة الصراع الذى نشب بين المرابطين ومملكة غانة، واستطاع ملوك كانجابا أن يوسعوا مملكتهم فى أوائل القرن الثالث عشر فى الجنوب والجنوب الشرقي، مما أثار حفيظة ملك الصوصو.

بدأ هذا الملك يعمل على السيطرة على مملكة كانجابا الناشئة وكادت جهوده تكلل بالنجاح بعد أن استطاع القضاء على دولة غانة الاسلامية عام ١٢٠٣م كما سبق القول، لكن سندياتا ملك كانجابا والذى اشتهر باسم مارى جاطه (١٢٣٠- ١٢٥٥م) استطاع أن يقهر ملك الصوصو وأن يصرعه فى ميدان المعركة عام ١٢٣٥م وأن يضم بلاده إليه ثم يوسع نفوذه شمالا ويستولى على البقية الباقية من مملكة غانة عام ١٢٤٠م ويقضى عليها تاريخيا منذ ذلك الوقت، وبذلك يعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقى لسلطنة مالى الاسلامية.

برزت سلطنة مالى فى سماء الحياة السياسية فى غرب افريقيا كأعظم ما تكون منذ ذلك الوقت ، واتخذت حاضرة جديدة ترمز الى الدولة وإلى قوتها النامية ونفوذها المضطرد، وكانت لها عاصمة قديمة تسمى جارب، فاتخذت عاصمة جديدة تسمى نيانى Niani وأحيانا تسمى مالى وتقع على أحد روافد نهر النيجر، واحتلت مالى مكانتها كأغنى مركز تجارى فى غربى السودان، وبدأ التجار يفدون إليها من شمالى إفريقيا ويقيمون فيها.

استمرت حركة التوسع فى عهد خلفائه، ففى عهد خليفته منسى ولى (١٢٥٥- ١٢٧٠م) استولى قواده على منطقة وانجارة الغنية بمناجم الذهب ،

كما استولوا على مدينتى بامبوك وبندو، ولم تتوقف الفتوح بعد منسى ولي، إنما استمرت فى عهد خلفائه حتى وصلت الغاية فى عهد ملك مالى الشهير منساموسى (٧١٢- ٧٣٨هـ/١٣١٢- ١٣٣٧م) فقد استولت قواته على ولاتة وتمبكت وجاو فى النيجر الأوسط، وبلغت دولة مالى الاسلامية ذروة مجدها وقوتها واتساعها فى عهد هذا الملك الذى طبقت شهرته الآفاق، فقد امتدت دولته من بلاد التكرور غربا عند شاطئ المحيط الأطلسى الى منطقة دندى ومناجم النحاس فى تكده شرقا (شرقى النيجر)، ومن مناجم الملح فى تغازة فى الصحراء شمالا، الى فوتاجالون ومناجم الذهب فى ونقارة جنوبا بغرب، وشملت الحدود الجنوبية منطقة الغابات الاستوائية، وتقدر مساحة مالى زمن السلطان منسا موسى بمساحة كل دول غربى أوربا مجتمعة وتعتبر من أعظم الامبراطوريات فى القرن الرابع عشر الميلادي، وفاقت شهرتها دولة غانة من حيث العظمة والقوة والثروة والاتساع والشهرة، فقد ضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح، وتحكمت فى طرق القوافل بين هذه المناجم شمالا وجنوبا ونتج عن ذلك غنى فاحش وثراء جم، يظهر من وصف ابن بطوطة والحسن الوزان لهذه المملكة، ولم ينج من أطماع ملكها منسا موسى سوى مدينة جنى Genni التجارية ومملكة الموسى Mossi المستقلة.

لكن ما كادت الدولة تبلغ الغاية من التوسع حتى بدت عليها مظاهر الضعف فأغرق الملوك فى الترف وفقدوا الروح العسكرية، فبدأت الأقاليم الخاضعة لهم تستقل واحدة بعد الأخرى، فاستقلت جاو واستولى الطوارق على أروان وولاتة وتمبكت وبدأ الولوف والتكرور يغيرون عليها من الغرب، ودولة الكانم من الشرق، واستقلت إمارة سيكون لها شأن عظيم فيما بعد وهى امارة صنغى التى سوف ترث مملكة مالى وتتبوأ مكانتها فى غربى القارة.

وقد بلغ ضعف مملكة مالى الغاية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد حين استنجدوا فى عام ١٤٨١م بالعثمانيين الذين كانوا قد استقروا بالمغرب طلبا لحمايتهم، ثم استنجدوا بالبرتغاليين الذين كانوا قد أنشأوا مستعمرة على ساحل افريقيا الغربي، ولكن البرتغاليين هم الآخرون لم يسعفوهم. وكان سلطان دولة صنغى الاسلامية (سنى على) المؤسس الحقيقى لهذه الدولة قد أوغل فى سلطنة مالي، فلم يترك بلدا ولا مدينة فى النصف الشمالى من دولة مالى إلا وحارب أهله، حتى إنه حارب أهل مدينة مالى نفسها واحتل تمبكت عام ١٤٦٩/٨٧٣، مما أجبر سلطان مالى إلى الاستنجاد بالعثمانيين مرة وبالبرتغاليين مرة أخري. وقد أرخنا لانتهاء عهد قوة امبراطورية مالى بهذا العام الذى سقطت فيه تمبكت، إذ أن هذه الامبراطورية ظلت تفقد أقاليمها إقليما إثر الآخر بعد ذلك حتى أصبحت فى منتصف القرن السابع عشرللميلاد مجرد دولة صغيرة فى كانجابا كما كانت من قبل. وظلت هذه الدولة الصغيرة موجودة حتى ابتلعها الفرنسيون فى عام ١٨٩٨م بعد أن تمكنوا من هزيمة آخر زعيم أراد أن يعيد مجد دولة مالى الاسلامية ويوحد شعب الماندنجو وهو ساموري التوري، ورغم جهاده المستمر إلا أن الفرنسيين تمكنوا من القبض عليه فى العام المذكور ونفوه إلى جابون حيث مات هناك فى عام ١٩٠٠م.

والحقيقية أنه لا يعنينا من سيرة هذه الدولة إلا أن نبين كيف انفعلت انفعالا قويا بالاسلام ، وكيف استطاعت أن تحقق من المظاهر الاسلامية ما سبق أن أشرنا إليه.

أولى هذه المظاهر، اتصالها بالقوى الاسلامية المختلفة وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية ، ظهر هذا من اتجاه سلاطين هذه المملكة الى الحج إلى مكة،

ثم زيارة مصر فى الطريق. وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر قيام هذه الدولة إذ أشار القلقشندى إلى خروج منسا ولى بن مارى جاطة للحج فى عهد السلطان بيبرس، وتطورت الصلات بين مالى ومصر فى عهد السلطان منسا موسى الذى يعتبر موكبه من أروع مشاهد مواكب الحج التى وفدت على مصر فى القرن الثامن الهجري.

وقد قدر بعض المؤرخين عدد من جاء فى ذلك الموكب بعدة آلاف منها خمسمائة عبد، وقالوا إنه أخذ معه خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس هدايا أو صدقات سواء فى مصر أو فى الحجاز، فقد بعث إلى الخزانة السلطانية فى القاهرة بحمل كبير من الذهب الخام ولم يترك أميرا أو رب وظيفة إلا ونفحه من هذا الذهب، وأكرمه سلطان مصر وبعث اليه بالخلع وزوده بما يحتاج إليه فى سفره إلى مكة من جمال ومتاع ومؤونة.

وكان السلطان منسا موسى قد بعث قبل مجيئه إلى مصر كتابا إلى سلطانها الناصر محمد خاطبه فيه بآيات التقدير والإخاء، وبعث إليه بهدية مقدارها خمسة آلاف مثقال من الذهب، مما يدل على عمق الصلات الطيبة وروح الأخوة الإسلامية بين القاهرة وغرب إفريقيا، تلك الصلات التى نشأ عنها علاقات ثقافية وتجارية واسعة، فقد انتهز السلطان منسا موسى فرصة وجوده فى مصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده طرفا من الثقافة المصرية المتفوقة، وتبع ذلك رحيل كثيرين من علماء مصر إلى مالى ورحيل علماء مالى إلى مصر حيث كان لهم رواق فى الأزهر يقيمون فيه يسمى رواق التكرور.

وقد رأى ابن بطوطة الرحالة العربى الشهير، طبيبا مصريا هناك، واشتملت حاشية السلطان منسا سليمان على ثلاثين مملوكا من ممالك القاهرة،

كما وفد التجار المصريون إلى هذه البلاد ورحل تجار التكارنة إلى القاهرة، واستقرت طوائف من هؤلاء فى مصر للاشتغال بالتجارة أو العلم أو التصوف، وربما ينسب حى بولاق الدكرور فى الجيزة إلى هؤلاء، كما بنوا فى مصر مدرسة فى مدينة الفسطاط تسمى مدرسة ابن رشيق لتدريس الفقه المالكي.

ولم تقصر العلاقات على مصر وحدها ، بل كان لسلاطين مالى علاقات ـ طيبة أيضا بملوك المغرب، والعلاقات بين الطرفين قديمة فى الاسلام، فيذكر ابن عذارى مؤرخ المغرب والأندلس الشهير بعضا من الهدايا التى كان يرسلها ملوك السودان الغربى فى القرن الرابع والخامس الهجرى إلى ملوك بنى زيرى فى تونس. أما سلطان مالى منسا موسى فقد أرسل بالتهنئة إلى السلطان أبى الحسن المرينى بمناسبة استيلائه على تلسان ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة فاس، وتوطد العلاقات الثقافية مع المغرب ليس فى حاجة إلى إيضاح ، بسبب انتشار مذهب مالك فى البلدين.

وقد امتدت هذه العلاقات إلى الأندلس، بدليل ما يروى من أن منسا موسى استعان بأحد علمائها وهو أبو اسحاق السهلى من أهل غرناطة ببلاد الأندلس فى بناء القصور والمساجد، وإليه يرجع الفضل فى إدخال فن البناء بالآجر فى غربى السودان ، وبنى مسجدا عظيما فى جاو وآخر فى تمبكت تفوق على كثير من المساجد كمركز ثقافى إسلامى ،كما بنى قصر منسا موسي.

وبلغ من عمق الحركة الاسلامية فى مالى أن أهلها كانوا يحتفلون بشهر رمضان وبالأعياد الإسلامية احتفالا كبيرا . وكان السلطان يوزع أموال الزكاة والذهب على القاضى والخطيب والفقهاء وفقراء الناس، ويصف ابن بطوطة خروج السلطان لصلاة العيد وصفا رائعا لايقل فخامة وأبهة عن خروج خلفاء بغداد أو القاهرة . ويقول إن الأهالى كانوا يواظبون على الصلاة فى الجماعات،

وأنهم كانوا يضربون أولادهم إذا ما قصروا فى أدائها، واذا لم يبكر الإنسان فى الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة لم يجد مكانا لكثرة الزحام، وبلغ من عمق العقيدة فى نفوسهم أنهم كانوا يلزمون أبناءهم بحفظ القرآن، وكانوا يضعون قيودا من الحديد فى أرجلهم إذا ما قصروا فى حفظه ولا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولذلك عرف كثير من الماليين اللغة العربية وكان السلطان منساموسى نفسه يجيد اللغة العربية، وكان التعليم لايتم إلا بهذه اللغة التى اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمى غرب إفريقيا عامة، وكانت جميع الوثائق الهامة تكتب بها، كما كانت لغة الحكومة والمراسلات الدولية ولغة التجارة، أى أنها كانت اللغة السائدة بجانب اللغات المحلية مثل لغة الهوسا وصننغى والفولانى التى أثرت فيها اللغة العربية، ولا يزال إلى اليوم توجد آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شتى مظاهر الحياة فى غرب افريقيا حتى أن الرحالة الانجليزى « فرانسيس مور» قال فى عام ١٧٣١ أنه وجد معظم أهل جمبيا البريطانية يتكلمون العربية وأن إلمامهم بها يفوق إلمام أهل أوربا العصور الوسطى باللاتينية.

وقد ساعد على ذلك أن سلاطين مالى كانوا يكثرون من بناء المساجد التى كانت تتخذ بجانب العبادة مكانا للتعليم والتدريس، ويذكر أن السلطان، منساموسى كان يقيم مسجدا فى كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة اذا كان مسافرا أوخارج عاصمته. ومن أهم هذه المساجد مسجد أوجامع سنكرى الذى أصبح جامعة علمية فى مدينة تمبكت حيث وفد إليه العلماء وطلاب العلم من داخل مالى وخارجها، وبلغ من أهمية هذه المساجد التى بناها سلاطين مالى بجانب ذلك أنها أصبحت حرما آمنافكان السلطان إذا غضب على أحد من الرعية استجار المغضوب عليه بالمسجد، وإن لم يتمكن من ذلك يستجير بدار خطيب المسجد، فلا يجد السلطان إليه سبيلا حتى يعفوعنه، وهذا يدل على مدى الاحترام الكبير الذى يكنه سلاطين مالى للأماكن الدينية ولرجال الدين الذين

كانوا يحيطون أنفسهم بهم، وكان مجلسهم لا ينعقد إلا بحضورهم، ولايبت فى رأى إلا بعد مشورتهم، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به سلاطين مالى من جهاد لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين القبائل الوثنية سواء داخل دولتهم أو خارجها، وأضفنا أيضا ماقالوا به من أصل مشرقى عربى لأسرتهم الحاكمة وهى أسرة كيتا، لأدركنا مدى انفعال تلك السلطنة وهؤلاء السلاطين بالتقاليد الإسلامية وبالحياة الاسلامية فى ذلك الوقت.

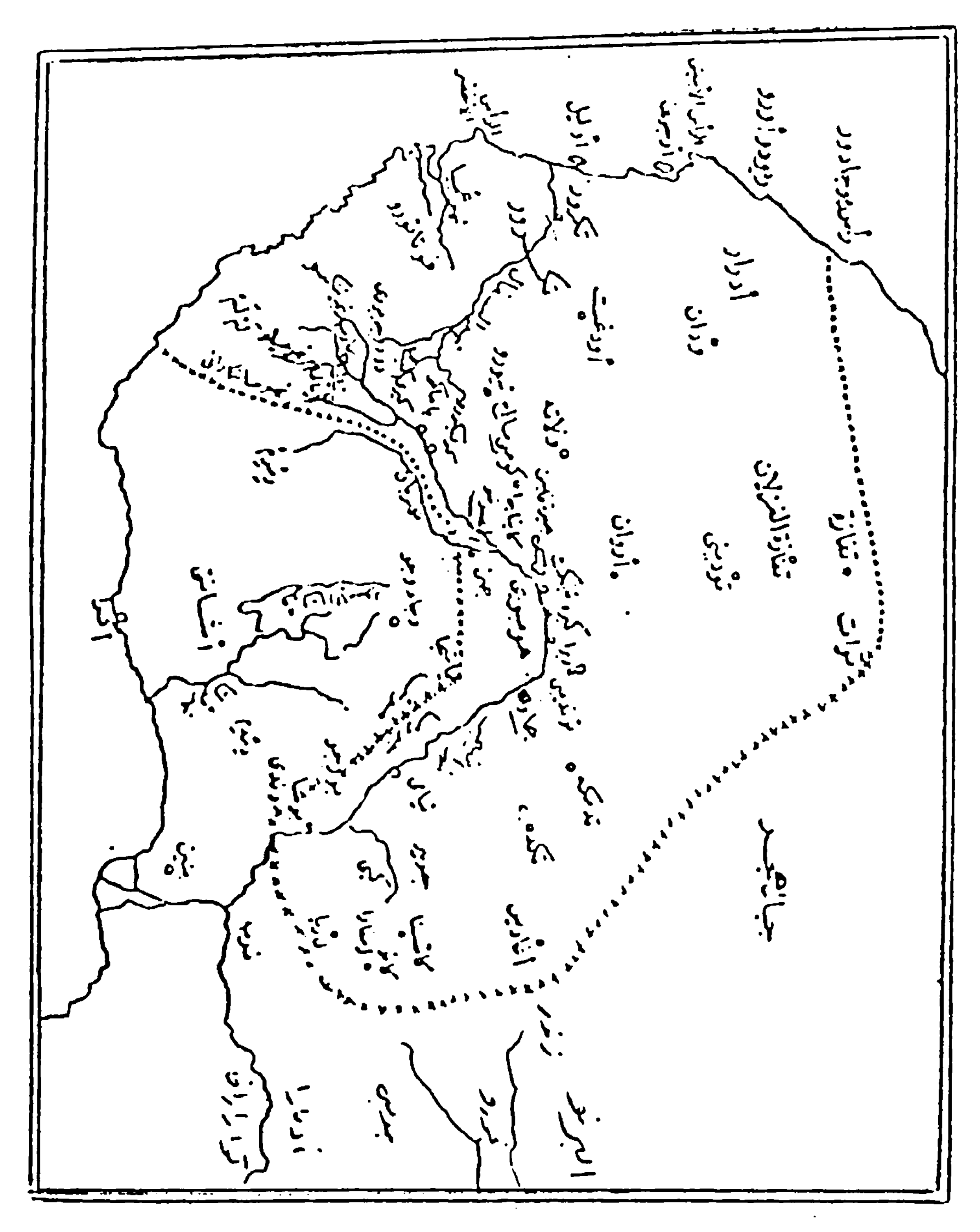
٣ـ سلطنة صنغى الاسلامية

(٧٧٧ـ١٠٠٠هـ/ ٣٧٥ ١ـ ١٥٩١م)

بدأت سلطنة صنغى (صنغاى ـ سنغاى) دويلة صغيرة لا تختلف فى قيامها عن سلطنة مالى أو غانة فقد تدفقت بعض قبائل مغربية وخاصة قبائل لمطة حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دندي، وسيطروا على الزراع من أهل صنغي، وقد رحب بهم هؤلاء الزراع حتى يحموهم من الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم وكونوا أسرة حاكمة استفادت إلى حد كبير من العلاقات التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق القوافل بتادمكة. وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحول ملوك صنغى إلى الاسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان الحركة الضخمة التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الاسلام فى غربى القارة.

رأى ملوك صنغى أن ينقلوا حاضرة ملكهم من كوكيا إلى جاو لتكون على مقربة من طريق القوافل الرئيسية. ومدينة جاو ورد ذكرها عند الخوارزمى عام ٨٣٣م وعند اليعقوبى عام ٨٧٢م، وقد زارها البكرى عام ١٠٦٨م وقال «إن مدينة كوكوا (جاو) مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، واذا ولى منهم ملك

سلطنة صنغى الإسلامية



الصمدر : ابراهيم طرخان دولة مالى الاسلامية، ص ٧٨، (بتصرف)

دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم ، وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين». كما زارها ابن بطوطة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد ، وقال عنها إنها مدينة كبيرة تقع على نهر النيجر، وهى من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، وقابل فيها فقهاء ينتسبون الى بعض قبائل البربر.

وقد زارها أيضا الحسن الوزان المعروف باسم ليو الإفريقى عام ١٥١٦م وقال عنها إن « سكان غاو تجار أغنياء يتجولون دائما ببضائعهم، ويقصدها عدد لايحصى من السود الذين يجلبون كمية كبيرة من الذهب ليشتروا به أشياء مجلوبة من أوربا ومن بلاد البربر، وقال إن بالمدينة ساحة يباع فيها يوم السوق عدد لايحصى عده من الرقيق من ذكور وإناث، وأشار إلى البضائع الأوربية المستوردة وإلى ارتفاع ثمنها، لكنه يشير دائما إلى ملك صنغى على أنه ملك تمبكت، وهذا يدل على ارتفاع مكانة هذه المدينة السياسية والثقافية فى ذلك الوقت.

وكانت جاو والبلاد التابعة لها تؤلف جزءا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥م عندما تحرك ملوك صنغى واستردوا استقلالهم منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة مالى منذ ذلك الوقت واتخذوا لقب « سنى أو السني» وأخذت بلادهم تتسع فى عهد سنى على (١٤٦٤ ـ ١٤٩٢م) الذى تعلم الكثير من دولة مالى وكون جيشا كبيرا منظما سار على رأسه الى الغرب واستولى على مدينة تمبكت عام ١٤٦٨ م ثم على مدينة جنى عام ١٤٧٣م وفتح مملكة الموسى وضمها لدولته وتقدم شرقا فهاجم بعض إمارات الهوسا فخضعت له كاتسينا، وجوبير وكانو وزمفرة وزاريا، ثم اتجه غربا فاستولى على بلاد الماندنجو والفولانى ومعظم ممتلكات دولة مالى الاسلامية واتجه شمالا حتى

مواطن الطوارق. وبذلك كون سنى على امبراطورية صنغى الاسلامية وكان أول إمبراطور لها حتى مات فى ظروف غامضة. وبموته انتقل الحكم إلى أسرة جديدة.

وكان سنى على مشغولا بمشروعاته السياسية ومنصرفا عن الشئون الدينية، ويبدو أن ذلك الأمر قد مهد السبيل أمام أحد قواده من السوننكى بعد وفاته، إذ أعلن هذا القائد الثورة ضد ابن سنى على الذى تولى العرش بعد وفاة والده، واستطاع هذا القائد الاستيلاء على السلطة وأطلق على نفسه لقب أسكيا محمد الأول (١٤٩٣ ـ ١٥٢٩م). وأسكيا لقب يعنى القاهر، وقام بتنظيم شئون البلاد من الناحية الإدارية واستخدم طائفة من الموظفين الاكفاء ونظم الجيش وأفاد من الخبرات السابقة واتخذت حركته مظهرا إسلاميا واضحا نتيجة عملين قام بهما أسيكا محمد الأول: الأول هو اهتمامه بالشئون الدينية واستغلاله ثورة سلفه فى النهوض بها وقيامه بالحج إلى حيث البيت الحرام فى مكة عام ١٤٩٥م.

وكان موكبه فى موسم الحج يفوق ما عرف عن موكب منسا موسى سلطان مالى من حيث الأبهة والفخامة والغنى والثروة والكرم. واستردت تمبكت فى عهده مكانتها كمركز للدراسات الاسلامية فى غربى إفريقيا، وبلغ من شهرتها أن ملك صنغى كان ينسب إليها، فقد سماه الحسن الوزان بملك تمبكت كما سبق القول.

والعامل الثانى الذى أعطى لحركة أسكيا محمد الأول مظهرا إسلاميا، هو حركة الجهاد التى قام بها بغرض توسيع رقعة بلاده، ونشر الاسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندجو والفولانى فى الغرب والطوارق البربر فى الشمال، وقبائل الموسى الزنجية فى الجنوب، والهوسا فى الشرق فى مدن كاتسينا

وغوبير وكانو وزنغروزاريا. وقد خضعت هذه المدن كلها لهذا الملك عام ١٥١٣م، وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الاسلامية فى هده الجهات فظهرت مدن كانو وكتسينا كمراكز للثقافة الاسلامية فى هذا الجزء من شمال نيجيريا. وقد أشار كثير من المؤرخين السودانيين إلى أن علماء من تمبكت رحلوا إلى هذه الجهات فى ظل نفوذ صنغي، وأقاموا هناك يفقهون الناس فى الدين وينشرون الثقافة الاسلامية حتى امتد النفوذ الاسلامى المنتشر فى ركاب سلاطين صنغى حتى منطقة بحيرة تشاد، وبلغت امبراطورية صنغى أقصى اتساع لها حتى صارت أضخم من امبراطورية مالى السابقة، واجتذبت قوتها وثراؤها ورخاؤها إعجاب المسلمين فى معظم أنحاء العالم الاسلامي.

يستفاد ذلك مما كتبه عنها الحسن الوزان والسعدى ومحمود كعت - التمبكتى وغيرهم ممن وصلوا بأسكيا محمد الأول مرتبة الأولياء فنسبوا إليه الكرامات والخوارق، ونسجوا حوله الأساطير، ويحق لهم أن يفعلوا ذلك ، إذ لم تصل دولة من دول السودان الغربي. الى هذا القدر من سرعة الزحف وامتداد السلطان فقد شمل نفوذ هذه الدولة منطقة السفانا كلها فى امتدادها من الشرق إلى الغرب وأستطاع أسكيا محمد الأول أن ينشر الأمن والسلام فى جميع ربوع هذه المملكة الشاسعة الأرجاء بتنظيماته الادارية والعسكرية الرائعة التى قام بها بين صفوف الجيش والادارة.

لكن حكمه آذن بالزوال حينما أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده وعزله أحدهم وتولى الحكم فى عام ١٥٢٩م وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحكومة إلا أن أسكيا اسحاق الأول (١٥٣٩-١٥٤٩م) استطاع أن يلى العرش بإنتخاب الجيش له، وأن يعيد الأمن إلى نصابه، وأن يقضى على منافسيه، وأن يبعد كبار ضباط الجيش وكبار المسئولين وأن يستبدلهم بآخرين ممن يخضعون لأوامره وسلطانه.

ورغم ذلك لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة، إذ خلفه أسكيا داود (١٥٤٩-١٥٨٢م) الذى عين أنصاره هو الآخر فى الوظائف الهامة، واشتهر بحنكته السياسية فأبعد خطر ملوك مراكش عن بلاده بإرسال الهدايا والتودد إليهم. وقد سار هذا الملك ومن سبقه وهو إسحاق الأول على نهج أسلافهما فى نشر الاسلام بين الوثنيين من جيرانهم.

وبعد وفاة داود عام (١٥٨٢) أثرت المنازعات التى قامت بسبب العرش تأثيرا سيئا على مملكة صنغي، فقد كان سلاطين المغرب منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى تغازة وإلى السيطرة على تجارتهم مع السودان الغربى وبخاصة تجارة الذهب، وظل ملوك صنغى يصدون سلاطين المغرب حتى سنة ١٥٨٥م حينما انقسمت البلاد على نفسها، فاستغل أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب الذى انتصر على البرتغاليين فى موقعة القصر الكبير ضعف صنغى وسيرجيشا عام ١٥٩٠م استولى على العاصمة جاو بعد أن هزم قوات إسحاق الثانى فى موقعة توند يبي، وبذلك دخلت هذه البلاد فى طور جديد من أطوار تاريخها وهوطور التبعية والانحلال والفناء. لكن واقعة توند يبى لم تكن نصرا للمغرب إلا من الناحية العسكرية إذ أنهم لم يحققوا الأغراض التى قاتلوا من أجلها، وهى السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقيا ، لأن ثروة صنغى لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدرما كانت نتيجة لسيطرتها على تجارته من مواطن انتاجه فى وانجارة وبندوكو وأشنتى وكلها فى جنوب مملكة صنغي، وهى تجارة لا تزدهر إلا فى ظل الأمن والسلام الذى قضى عليه سلاطين مراكش والذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم الى ما وراء المدن الرئيسية جنى وتمبكت وجاو. ولما أدركوا ضعف المزايا التى عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذى كلفهم كثيرا ، كفوا عن إرسال الجند والمئونة اللازمة لقواتهم هناك،، وتركوا هذه القوات تقررمصيرها بنفسها، فنشأت أسرة محلية من باشوات

تمبكت تدين بالتبعية الإسمية لسلطان مراكش، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد أو المولدين الذى سموا باسم أرما.

وكان هم هؤلاء الباشوات منصرفا إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة، على أن سلطانهم ضعف تدريجيا لأنه كان يعتمد على الجيش الذى كان يعزلهم إذا شاء حتى لقد بلغ عدد من تولى منهم بين سنتى ١٦٦٠ الى سنة ١٧٥٠م ١٢٨باشا، ولما ضعفت قوة الجيش نفسه اضطر الباشوات منذ عام ١٦٧٠م إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين من ملوك البمبارا، وهم ملوك مملكة سيجو الوثنية التى كانت تقع على وادى نهر بانى جنوبى كانجابا فى حوض النيجر ولم تعد هناك دولة صنغى القوية المستقلة التى رأيناها فى القرون السالفة وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون والتهموا المنطقة بأسرها وسموها إفريقيا الاستوائية الفرنسية.

واذا كانت دولة صنغى قد شابهت دولة مالى من حيث تطورها العام فإنها قد شابهتها أيضا فى اتخاذها مظهرا إسلاميا واضحا ، بل فاقتها فى هذه الناحية فى بعض الأحيان، وهذا التطور طبيعي، فقد امتد سلطان صنغى إلى القرن السادس عشر الميلادي، وكان الاسلام قد قطع خطوات واسعة فى سبيل النمو والانتشار. وقد سعى ملوك سنغى كما سعى ملوك مالى من قبل إلى الاتصال بالقوى الاسلامية المعاصرة تحقيقا لروح الأخوة الاسلامية. وفى هذا المجال كانت للملوك صنغى اتصالات عديدة بملوك المسلمين فى الشرق والغرب.

فقد خرج أسكيا محمد الأول إلى الحج ومر بمصر عام ٨٩٩هـ/١٤٩٥م فى موكب حافل لا يقل عن موكب منساموسى فى روعته وأبهته وفخامته، وأغدق على الناس والفقراء أكثر مما أغدق سلفه، فقد روى السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان أنه تصدق مثلا فى الحرمين الشريفين بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين فى المدينة المنورة حبسها على أهل التكرور (أهل دولة

صنغي)، واجتمع فى موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه فى مصر من نظم فى الحكم راقية ومن ثقافة عربية مزد هرة فاتصل بالامام السيوطى وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدا من الخليفة العباسي، وعاد إلى بلده متأثرا بما رآه من روح إسلامية خالصة، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب شاهدها بنفسه.

ويقال إن هذا السلطان قلد فى تنظيماته الادارية النظم التى رآها فى مصر، وأمعن فى إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كل احترام وتقدير. فقد روى مؤرخو السودان أنهم كانوا إذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج ، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم، ويشير محمود كعت التمبكتى صاحب كتاب الفتاش فى تاريخ السودان إلى أن هذا السلطان كان له بعض الآراء الاصلاحية، فقال إنه « أبطل البدع والمنكر وسفك الدماء، وأقام الدين أتم قيام، وجدد الدين وأقام العقائد»، وأعطى جامعة تمبكت المزيد من عنايته فتفوقت فى عهده ووصلت إلى مالم تصل إليه من قبل، وكانت فى غربى السودان كجامعة الأزهرفى القاهرة، أو القرويين فى فاس، أو الزيتونة فى تونس أو النظامية فى بغداد.

وأصبحت هذه السياسة الاسلامية سياسة مقررة لخلفائه من بعده، فأسكيا إسحاق يسير فى نفس الطريق من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم، وأسكيا داود يتخذ خزائن الكتب وله نساخ ينسخون كتبه وربما يهادى بها العلماء، وقيل إنه كان حافظا للقرآن وله شيخ يعلمه، ويأتيه هذا الشيخ بعد الزوال ويقرئه حتى وقت الظهيرة. وهذا يدل على أن دولة صنغى قد شهدت تمكن الاسلام من أهل غرب إفريقيا، كما شهدت ازدهار الثقافة الاسلامية إلى أبعد الحدود.

وبذلك نكون قد انتهينا من الحديث عن الدول الاسلامية التى قامت فى بلاد السودان الغربي. أما السودان الأوسط فقد قامت فيه دول أهمها وأعظمها على الا طلاق سلطنة الكانم والبرنو الاسلامية وكذلك سلطنة البلالة وإمارات الهوسا الاسلامية.

ب ـ الاسلام والدول الاسلامية فى السودان الأوسط *

١ ـ سلطنة الكانم والبرنو الاسلامية

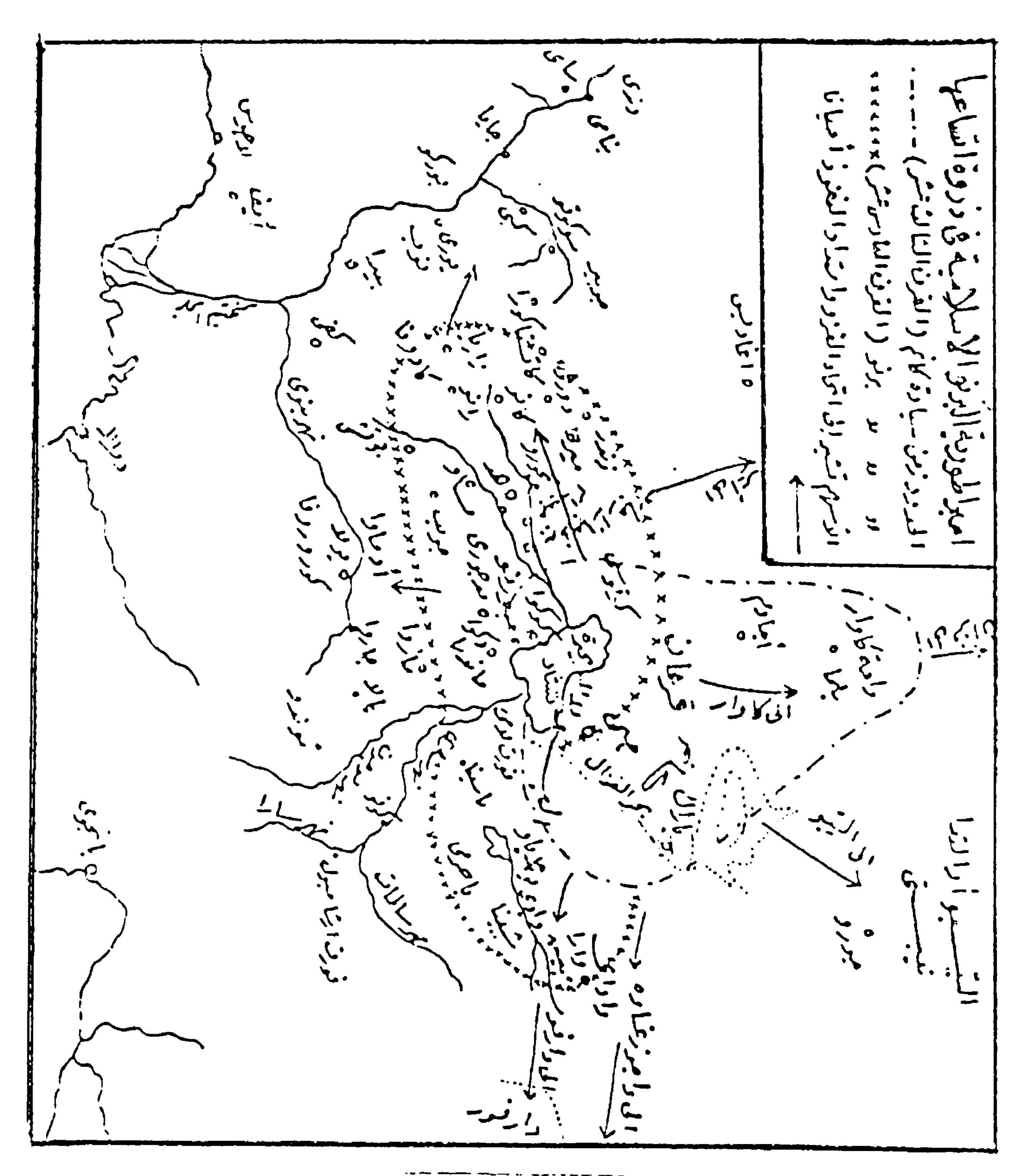
(٤٧٩ـ١٢٦٢هـ/١٠٨٦ـ١٨٤٦م)

قامت هذه السلطنة فى بلاد السودان الأوسط الذى يتكون من حوض بحيرة تشاد وما يقع حواليها من بلدان تمتد من نهر النيجر غربا إلى دار فور شرقا. وكانت منطقة بحيرة تشاد هى مهد سلطنة الكانم والبرنو التى قامت حول هذه البحيرة مما جعلها، مركزا هاما لالتقاء طرق القوافل المارة إلى جميع أنحاء القارة، وأدى هذا الأمر إلى ازدهار تجارتها وإلى قيام دولة فيها منذ القرن التاسع للميلاد، وهى الدولة التى نتحدث عنها.

وقد ضمت هذه الدولة عددا كبيرا من القبائل والعناصر، فهناك قبائل الصو ، وقبائل الكانمبو، وهى خليط من قبائل الصو والبربر المنحدرين اليها من الصحراء الكبرى التى تقع فى شمالها، وتضم أيضا قبائل الكانورى التى كانت تتكون من خليط من العرب والبربر والزنوج، وهؤلاء الكانورى يكونون أغلب سكان هذه السلطنة، يضاف إلى ذلك قبائل التبو (التدا) من البربر، وكذلك بربر الطوارق من سكان المناطق الشمالية الصحراوية، وكذلك قبائل العرب الذين كانوا يعرفون هناك باسم (الشوا) والذين قدموا إلى تشاد من وادى النيل ومن شمال القارة عبر الصحراء، والذين يتمثلون فى قبائل جذام وجهينة وأولاد سليمان. وقد أدى اختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين، الى ظهور عناصر جديدة منها التنجور والبولالا والسالمات وغيرهم.

---

* أ.د. رجب محمد عبد الحليم



المصدر : ابراهيم طرخان: امبراطورية البرنو الاسلامية ، ص ١٢٤ .

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين، عصر سيادة كانم، ثم عصر سيادة برنو: ويقع إقليم كانم الذى كان مهداً لقيام هذه الدولة فى الشمال الشرقى لبحيرة تشاد وبه العاصمة جيمي، أما إقليم برنو فإنه يقع غرب هذه البحيرة، وبه العاصمة بيرنى نجازر جامو التى انتقل الحكم اليها بعد انقضاء عصر سيادة كانم.

وقد قامت هذه الدولة فى القرن التاسع للميلاد فى إقليم كانم على يد أسرة من البربر البيض هى الأسرة الماغومية السيفية التى اتخذت النسب العربى وقالت إنها تنحدر من سيف بن ذي يزن الحميري، واستطاعت هذه الأسرة أن تسيطر على حوض بحيرة تشاد، وأن تتخذ من مدينة جيمى عاصمة لها، وبدأ الاسلام يطرق أبواب هذه الدولة منذ قيامها وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد. وتحكى المصادر عن قيام داعية إسلامى كبير يسمى الفقيه محمد بن مانى الذى عاش فى القرن الحادى عشرللميلاد وعاصر خمسة من ملوك الكانم الذين كانوا يعرفون باسم المايات (جمع ماي، وهو لقب بمعنى ملك)، أولهم الماى بولو الذى كان يحكم حوالى عام ١٠٢٠م، وآخرهم هو الماى أوم بن عبد الجليل الذى بدأ حكمه فى عام ١٠٨٦م، وهو الذى جعل الدين الاسلامى هو الدين الرسمى للدولة، وذلك نتيجة لجهود هذا الداعية العظيم الذى أسلم على يديه هؤلاء المايات الخمسة وأقرأهم القرآن والسيرة النبوية، وقام آخرهم وهو الماى أوم بن عبد الجليل (١٠٨٦-١٠٩٧) بجهد كبير فى نشر الاسلام فى بلاده، ثم اتجه إلى الشرق وذهب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولكن المنية وافته فى مصر أثناء عودته من أداء هذه الفريضة، فدفن فى مصر. ومنذ عهد هذا الماى لم يتول حكم دولة الكانم أى ملك وثني، وأصبحت منذ ذلك التاريخ دولة إسلامية.

خلف الماى دونمة بن أوم والده فى حكم البلاد لفترة طويلة (١٠٩٨ـ١١٥١م) وبلغت فى عهده دولة الكانم درجة كبيرة من القوة والاتساع، وطبقت شهرته الآفاق وحج ثلاث مرات، وفى عهده بنيت مدرسة ابن رشيق فى فسطاط مصر بأموال كانمية كى تكون موئلا للحجاج القادمين من كانم وبلاد التكرور بصفة عامة، وتابع خلفاؤه العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت امبراطورية كبيرة، وخاصة فى عهد الماى دونمه بن سالما بن بكر (١٢٢١ـ١٢٥٩) الذى اشتهر بقوة فرسانه حتى قيل إنها بلغت نحوا من ٤١ ألف فارس. ويعرف هذا الماى باسم دونمة دباليمى نسبة إلى والدته دابال حيث كانت النسبة إلى الأم شيئا مألوفا ومشهورا فى هذه السلطنة بالذات.

وقد حارب هذا الماى القبائل المتمردة مثل البولا لا الذين كانوا يعيشون فى حوض بحيرة فترى الصغيرة الواقعة إلى الشرق من بحيرة تشاد، وأخضعها وأقام علاقات مع الحفصيين فى تونس ، وتم تبادل الهدايا بينهما، واتسعت الامبراطورية فى عهده حتى وصلت شرقا إلى مشارف وادى النيل، وغربا قرب نهر النيجر مما يعنى أن بلاد الهوسا التى تشكل الآن نيجريا الشمالية كانت تحت سيادته وسلطانه، كما امتدت حدود بلاده شمالا حتى وصلت قرب فزان الليبية واقتربت مساحتها من مساحة امبراطورية صنغى الاسلامية التى سبق الحديث عنها ، والتى كان نفوذها يمتد عبر حوض نهر النيجر والسنغال حتى المحيط الأطلسى.

ولكن هذه الامبراطورية الكبيرة لم تلبث أن دب إليها الوهن نتيجة لعوامل كثيرة، منها الخلاف والانقسامات التى ظهرت بين أبناء الأسرة الحاكمة، ومنها ظهور خطر قبائل الصو التى كانت تسكن فى إقليم بورنو وقيامها بمهاجمة عاصمة الدولة وتمكنها من قتل أربعة من المايات: كذلك اشتد خطر البولالا

الذين ازدادوا ضراوة بعد أن تمكنوا من إقامة سلطنة صغيرة لهم فى حوض بحيرة فترى واتخذوها مركزا لمناوأة أبناء عموتهم من مايات الكانم والبرنو: وقد استطاعت سلطنة البولالا التى ظهرت قوتها فى عهد سلطانها عبد الجليل بن سيكوما تشن حربا شرسة ضد الأسرة السيفية الماغومية الحاكمة فى كانم، وتمكن عبد الجليل هذا من أن يقتل أربعة من المايات من هذه الأسرة وذلك بمساعدة القبائل العربية التى كانت تقيم فى فترى وكانم والتى كان سلطان البولاله يمت إليها بصلة النسب والقربي.

وقد انتهى أمر الصراع بين الفريقين إلى طرد الأسرة السيفية الحاكمة فى كانم إلى إقليم بورنو الذى يقع غرب بحيرة تشاد، وذلك فى عهد الماى عمر بن ادريس (١٣٨٦-١٣٩١م) وقد استأنف هذا الماى حكمه من اقليم برنو فيما يعرف بعصر سيادة برنو، هذا العصر الذى امتد حتى نهاية الدولة فى عام ١٨٤٦م. وقد ترك طرد الماغوميين السيفيين إلى برنو فراغا سياسيا فى كانم ملأه البولالا الذين أقاموا سلطنة كبيرة ضمت هذا الاقليم بالاضافة إلى إقليم بحيرة فترى والمناطق المحيطةبها فى حوض بحيرة تشاد ورغم ذلك فقد استمر الصراع بين البولاله وبين الماغوميين فى مقرهم الجديد الذى جعلوه مركزا لدولتهم وبنوافيه مدينة تسمى بيرنى نجازرجامو واتخذوها عاصمة لهم.

وقد تمكن مايات برنو أن يستردوا قواهم وأن يكونوا جيشا جراراً وأن يحاولوا استرجاع نفوذهم فى كانم . ولتحقيق هذا الهدف حدثت حروب هائلة بينهم وبين سلاطين البولاله ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة وخاصة فى عهد الماى إدريس بن عائشة (١٥٠٢-١٥٢٦م) الذى أنزل بهم هزيمة ساحقة واستولى على العاصمة جيمى وأقام فيها فترة ثم عاد إلى عاصمته بيرني. وتابع ابنه الماى على بن ادريس (١٥٤٥ - ١٥٤٦م) محاربة البولالا حتى لقب بحارق

البولالا ولم يلبث أن لقى حتفه فى إحدى معاركه معهم ولم يقمعهم ويقضى على خطرهم إلا الماى إدريس ألوما (١٥٧٠-١٦٠٣م) الذى كان قد أقام معهم علاقة ود وصداقة نتيجة لارتباط البيت البولالى بالأسرة الماغومية برباط المصاهرة، مماسهل على هذا الماى أن يقضى على خطر البولالا وأن يعيد نفوذ أسرته إلى إقليم كانم، ووصلت الامبراطورية فى عهده إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها الذى ظهرفى شتى الميادين، ويقارن عهد الماى إدريس ألوما فى كانم وبرنو بعهد السلطان منساموسى (ت١٣٣٧م) فى مالي، وبعهد السلطان أسكيا محمد الكبير (ت١٥٢٩) فى صنغي، فقد ظفر كل من هؤلاء السلاطين بكثيرمن المدح والثناء، نظرا لما قاموا به من جهود كبيرة فى إنشاء امبراطوريات ضخمة طورت الحياة ودفعت بالحركة الاسلامية دفعة كبيرة إلى الامام وصبغت غرب القارة الذى يعرف بالسودان الغربى والسودان الأوسط بالصبغة الاسلامية الواضحة.

وكما تكالبت عوامل الضعف على امبراطورية مالى وامبراطورية صنغى حتى سقطتا فى النهاية أمام عوامل الانهيار الداخلية والخارجية فقد تعرضت امبراطورية البرنو لنفس الظروف وشهدت نفس النتيجة، ذلك أن الماى إدريس ألوما الذى بلغت الامبراطورية فى عهده قمة الازدهار والعظمة والاتساع خلفه حكام ضعاف لم يكونوا فى مثل قوته وحزمه وعزمه وكفائته وتوالى الواحد منهم تلو الآخر حتى بلغوا خمسة عشر سلطانا على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان، حدث فى أثنائها الكثير من الوقائع التى أدت الى القضاء على هذه الامبراطورية الكبيرة، فبالإ ضافة إلى ضعف هؤلاء المايات أو السلاطين أصيبت البلاد بعدد من المجاعات المتلاحقة التى بلغت خمس مجاعات استمرت إحداها أربع سنوات، واستمرت أخرى سبع سنوات. ويدل تكرار حدوث هذه المجاعات على التدهور السريع والضعف العام الذى أصاب البلاد نتيجة لنقص المواد

الغـذائيـة، ولإهمـال الزراعـة وكـثـرة الفـتن والاضطرابات فـضـلا عن ظهـور أخطار جديدة.

وتتمثل هذه الأخطار فى ظهور قبائل وثنية فى منطقة جومبى تسمى قبائل كوارارافا، وهى قبائل اشتهرت بالقوة والشجاعة، وتمكنت من اجتياح الأقاليم الغربية فى برنو، واستطاعت أن تقتل أحد المايات فى عام ١٦١٨م، كما حدثت حروب أخرى بين برنو وجيرانها من إمارات الهوسا وخاصة إمارة كانو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر للميلاد. غير أن أخطر ما تعرضت له امبراطورية البرنو هو خطر الفولانيين، وهم قبائل بيضاء انحدرت من الشمال وأقامت فى غربى القارة ثم انحدرت الى الشرق واستقرت فى إمارات الهوسا التى تتكون منها نيجيريا الشمالية الآن، وقامت على يد زعيمها الشيخ عثمان بن فودى بحركة ضخمة لنشر الاسلام بين من كان على الوثنية فى هذه الامارات، وتمكنت أخيرا من ضم هذه الامارات فى دولة واحدة تحت زعامة هذا الداعية الكبير الذى أعلن قيام دولة الفولانى فى بداية القرن التاسع عشر للميلاد.

أما عن طابع الاسلام والحياة الاسلامية فى سلطنة الكانم والبرنو فإننا نستطيع القول بأن هذه السلطنة قد قامت بنفس الدور الذى قامت به سلطنتا مالى وصنغى فى مجال الحياة الاسلامية، فقد اتصلت بالقوى الاسلامية المجاورة والدول الاسلامية المعاصرة تأكيدا لروح الأخوة الاسلامية وللإفادة من الخبرات الثقافية والعلمية والإدارية والحضارية.

فقد اتصلت بمصر أثناء ذهاب أهلها وسلاطينها لبلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج. وقد سبقت الاشارة إلى قيام أول سلطان أقام الدولة الاسلامية فى كانم وهو أوم بن عبد الجليل بأداء هذه الفريضة وتوفى فى مصر عام ١٠٩٧م عند عودته متجها إلى بلاده عبر مصر التى كانت هى المعبر الوحيد لحجاج غرب

وشمال افريقيا . كما سبقت الاشارة أيضا إلى قيام ابنه دونمة بأداء هذه الفريضة ثلاث مرات مر أثناءها بمصرذهابا وايابا، وفى حجته الثالثة مات بمصر غريقا فى مياه البحر الأحمر عند مدينة عيذاب فى عام ١١٥١م. واستمر مايات (سلاطين) الكانم والبرنو فى أداء هذه الفريضة على مدى عمر هذه الدولة الطويل . وعلى سبيل المثال فقد أداها الماى إدريس ألوما (ت١٦٠٣م) كما أداها الماى على بن الحاج عمر (١٦٤٠ـ ١٦٨٥) ثلاث مرات ، والماى حمدون بن دونمه الذى حج ومات فى عام ١٧٣٨م.

يضاف إلى ذلك تلك الرسائل المتبادلة بين سلاطين مصر والبرنو. من ذلك رسالة وردت عند ابن فضل الله العمرى والقلقشندى وأشارت إلى استغاثة سلطان البرنوبسلطان مصر الظاهر برقوق فى عام ١٣٩٢م لمساعدته فى القضاء على تمرد القبائل العربية التى ساعدت خصومه السياسيين من البولالا الذين قضوا على حكم الأسرة الماغومية الحاكمة فى كانم وأجبروها على النزوح إلى إقليم برنو كما سبق القول وأسرهؤلاء العرب عددا من الأهالى أثناء هذه الفتنة وباعوهم الى تجار الرقيق، وفى هذه الرسالة يطلب سلطان البرنو المساعدة بإعادة هؤلاء الأسرى الأحرار ويصف بمصر بأنها «أم الدنيا»

كذلك كانت هناك علاقات ثقافية وتجارية بين مصر وسلطنه الكانم والبرنو، من ذلك ما ترويه لنا المصادر من أن الأزهر كان به رواق خصص للطلاب القادمين من هذه السلطنة يسمى رواق البرنوية كما سمحت مصر للكانميين بإنشاء مدرسة تسمى مدرسة ابن رشيق فى مدينة الفسطاط بمصر لتدريس الفقة المالكى وكى ينزل بها حجاج البرنو والتكرور عامة .

أما العلاقات التجارية فقد ازدادت بين مصر وبلاد الكانم والبرنو، يدل على ذلك أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر وأقامو فيها واشتركوا بنصيب

موفور فى تجارتها الخارجية وخاصة فى تصريف المحاصيل السودانية وتجارة البهار القادمة من اليمن والهند والصين، واتخذت من مدينة قوص بصعيد مصر مركزا لها واشتهرات باسم التجار الكارمية وكان لهؤلاء التجار الذين اشتهروا بالتقوى والورع فضل كبير فى نشر الاسلام فى بلاد الحبشة كما سبق القول حين حديثنا عن التجار وأثرهم فى نشر الاسلام. ويشير الحسن الوزان إلى قيام علاقات تجارية كبيرة بين الكانم والبرنو وبين مصرفى القرن السادس عشر للميلاد حيث استوردت كانم وبرنو من مصر الخيول والأسلحة وغيرها من السلع وصدرت كانم إليها الرقيق ومحصولات البلاد.

كذلك كان لسلطنة الكانم والبرنو علاقات تجارية وثقافية مع شمال افريقيا وخاصة تونس . فقد اتصل سلاطين الكانم بحكامها من بنى حفص وتبادلوا الرسائل والرسل والهدايا، منها سفارة أرسلها الماى عبد الله بن كادى الى السلطان الحفصى أبى يحيي المتوكل فى عام ١٣٢٧م، كذلك تبودلت السفارات والرسائل وعلاقات الود مع طرابلس بليبيا، منها رسالة بعث بها الماى إدريس بن على إلى طرابلس فى عام ١٥٠٢م، وسفارة بعث بها أيضا فى عام ١٥٣٤م وأخرى فى زمان الماى إدريس ألوما المتوفى عام ١٦٠٢ كذلك نشطت العلاقات التجارية بين برنو وهذه البلدان.

وقد بلغ انفعال هذه السلطنة بالاسلام أقصاه حينما اتبع سلاطينها طريق الجهاد كأحد الأساليب لنشر الاسلام بين الوثنيين الذين كانوا يتعرضون لهذه الدولة الاسلامية بالعدوان، وخاصة الوثنيون المقيمون فى الجنوب فقد حاربوهم وأد خلوا الكثيرمنهم فى الاسلام . هذا بالاضافة إلى اتباع أسلوب الاقناع وهى سياسة اتبعها بعض السلاطين وخاصة السلطان إدريس الوما الذى اشتهر ببناء المساجد الضخمة من الحجارة، وطبق الشريعة الاسلامية فيما

يختص بمعاملة الأسرى ، ونظم الجهاد بما يتمشى مع تعاليم الاسلام، فازداد الدخول فى هذا الدين وانتشر فى منطقة بحيرة تشاد كلهاوكذلك فى بلاد الهوسا التى كان يسيطر هؤلاء السلاطين على بعض إماراتها.

كذلك فقد شجع سلاطين الكانم والبرنو انتشار الثقافة العربية الاسلامية، فأكثروا من بناء المساجد والكتاتيب، وكانت اللغة العربية هى لغة التعليم ولغة الحكومة الرسمية فضلا عن كونها لغة المعاملات التجارية ولغة المراسلات الدولية كماكان الحال فى جميع الدول الاسلامية التى قامت فى بلاد السودان الغربي، وظل الحال على هذا النحو حتى عصر الاستعمار الأوربى الذى قضى على اللغة العربية ولم يعد لها إلا وجود بين قليل من الأهالى ووجود كبير فى المدارس الدينية الاسلامية.

وفى ظل تشجيع سلاطين الكانم والبرنو للثقافة الاسلامية ارتقى العلماء والفقهاء منزلة رفيعة فى هذه السلطنة التى كان سلاطينها حريصين على رعايتهم والإغداق عليهم ، وإصدار (المحارم) التى كانوايمنحونهم بمقتضاها كثيرا من الامتيازات المادية والاقطاعات ويحرمون على أى شخص مهما بلغت منزلته وقدره أن يسلبهم إياها أوبعضا منها، ولذلك ظهر فى هذه السلطنة كثيرمن العلماء والفقهاء، منهم الفقيه محمد بن مانى الذى سبق الحديث عنه ، والامام أحمد بن فرتو الذى كان معاصراً للماى إدريس ألوما ، والذى تعتبر كتاباته المرجع الرئيسى لتاريخ برنو، والعالم الكبير عمر بن عثمان بن إبراهيم، والعالم عبد اللاه ديلى بن بكر، وغيرهم من العلماء الذين صدرت لهم محارم (فرمانات) تشجيعا لهم على التفرغ للعلم والبحث والتدريس مما أدى إلى انتشار العلوم الاسلامية بين أهالى هذه البلاد.

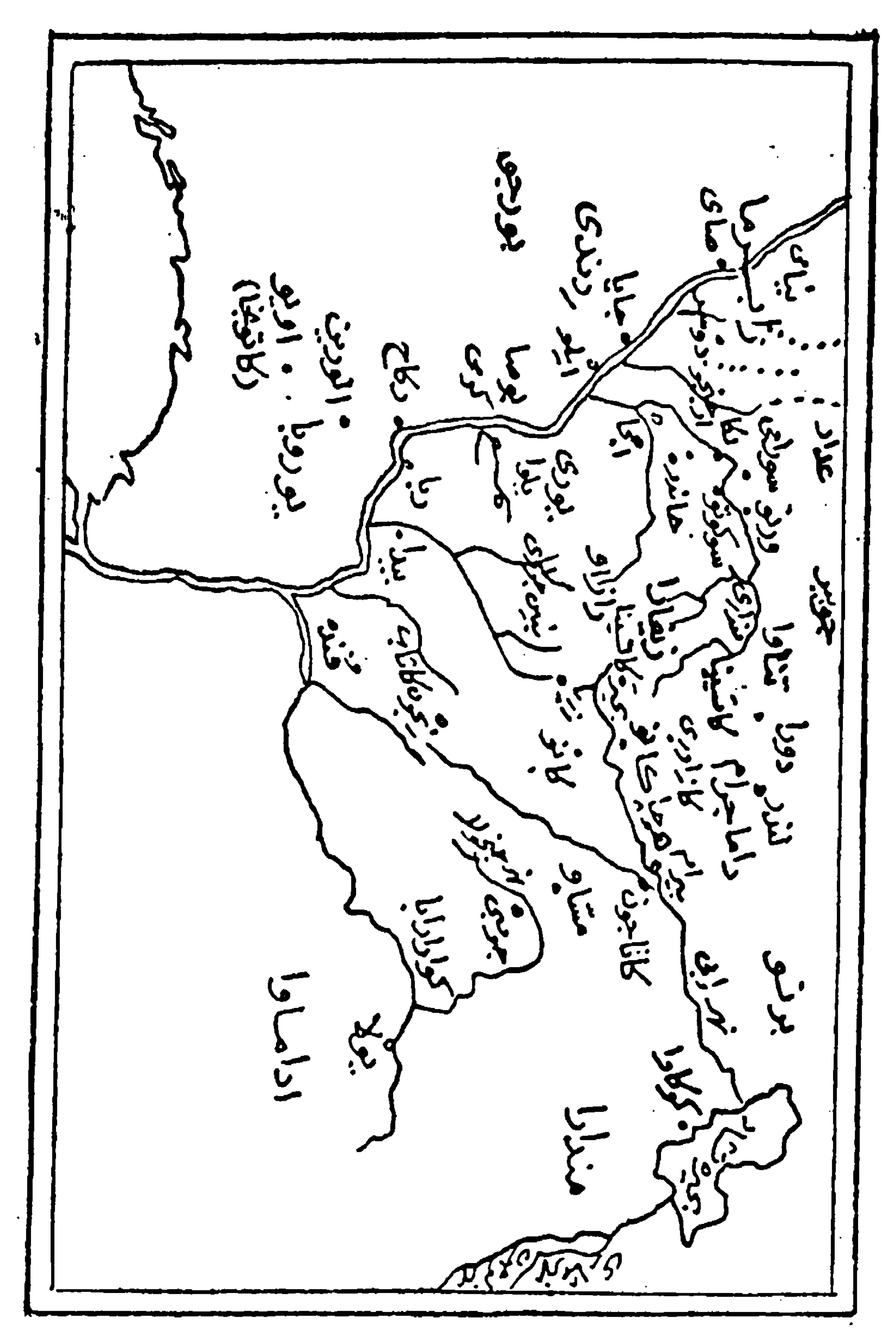
وفضلا عن ذلك فقد بلغ انفعال سلاطين الكانم والبرنو قمته بادعائهم النسب

العلوي. فقد ذكر القلقشندى المتوفى عام ١٤١٨م أن « سلطان الكانم من بيت قديم فى الاسلام، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن وتمذهب بمذهب الشافعى رضى الله عنه» . وقد سبقت الاشارة إلى أن سلاطين الكانم والبرنو الأوائل كانوا ينسبون أنفسهم إلى سيف بن ذى يزن الحميرى اليمنى وأيضا الى قريش ولذلك سميت الأسرة الحاكمة بالأسرة السيفية الماغومية، وعلى أية حال فإن سلاطين هذه السلطنة بادعائهم هذا النسب يبرهنون على شدة انفعالهم بالا سلام ورغبتهم الشديدة فى تقوية علاقاتهم بدول الاسلام وبالعرب الذين تم انتشار هذا الدين على أيديهم . وقد فعل سلاطين غانة ومالى وغيرهم نفس الشئ. ويعتبر هذا الأمر أبلغ رد على من يقولون الآن بوجود تناقض وصراع بين العروبة والزنوجة، وما هذا التناقض وذلك الصراع إلا من خلق الأوربيين وأتباعهم من المثقفين الأفارقة الذين تربوا على أيديهم وتشربوا أفكارهم وصاروا يرددون مثل هذه الأقاويل المغلوطة دون التفات إلى حقائق لتاريخ الناصعة الواضحة.

واذا كانت هذه فكرة موجزة عن تاريخ أكبر سلطنة إسلامية قامت فى السدوان الأوسط، فإن هناك دولا أخرى قامت فى هذا السودان لكنها لا ترقى إلى هذه السلطنة فى العظمة والقوة وعلو الشأن وهذه الدول تتمثل فى امارات الهوسا الاسلامية التى قامت فى غرب بورنو فى الجزء الذى يعرف الآن بنيجيريا الشمالية، وسلطنة البولالة الاسلامية التى قامت فى غرب كانم فيما يعرف بحوض بحيرة فترى . ونبدأ الحديث عن إمارات الهوسا الاسلامية.

٢ ـ امارات الهوسا الاسلامية فى شمال نيجيريا

تشمل بلاد الهوسا ما يعرف الآن بنيجيريا الشمالية وجزءا من جمهورية النيجر، وكانت تقع فى العصور الوسطى فى المنطقة المحصورة بين سلطنتى



إمارات الهوسا الاسلامية

المصدر : زاهر رياض: الممالك الإسلامية فى غرب افريقيا، ص ٢٥٧

مـالى وصنغى غربا، وسلطنة البـرنو شرقـا، وتحـدها من الشـمـال بلاد أهيـر والصـحراء الكبري، ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية. والـهوسا أو الحـوصا اصطلاح لغوى يطلق على الذين يتكلمون بلغة الهـوسا، ولذلك فليس هناك جنس يمكن أن يتسم بهذا الإسم، إذ أن الهـوسويين لا ينحـدرون من دم واحد، بل جاءأغلبهم نتيجة امتزاج حدث بين جماعات قبلية وعرقية كثيرة أهمـها السـودانيـون أهل البـلاد الاصليين، والطوارق من البـربر ، والفـولانيـون، وبعض العرب المهـاجـرين. ونتج عن هذا الامـتـزاج هذا الشـعب الذى أصبح يتكلم لغة واحدة وهى لغة الهوسا التى انتشرت انتشارا كبيرا فى افريقيا الغربية حتى أصبحت لغة الناس والمعاملات المالية والتجارية.

ورغم أن المتكلمين بلغـة الهـوسـا فى هذا الجـزء من القـارة الذى يعـرف بنيجيريا الآن كانوا يعيشون مـتجـاورين ويتكلمـون نفس اللغـة ويدين معظمـهم بالاسلام، إلا أنهم لم يعيشوا تحت سقف دولة واحدة، بل كونوا سبع إمـارات صـغيرة تعرف باسم إمارات أو ممـالك الهوسا، وهى كـانـو، وكـاتسينا، وزاريا، وجـوبيـر ودورا، ورانــو، وزمـفـرة. ويرى بعـض البـاحـثين أن (دورا) هـى أقـدم هـذه الامـارات وأن دماء أهلها وافدة من مـصر العليا والحـبشة وبلاد العـرب، وكانت كاتسينا تتوسط هذه الامارات، وكانت زاويا أوسعها أرضـا، وكانو أغناها، وجـوبيرأجـدبـهـا وتقع فى شـمـاليـهـا. وعلى ذلك فـقـد كـانت كل إمـارة من هذه الإمـارات مستقـلة عن الأخري، وكانت الحروب تندلع فيما بينها فى فترات كثيرة نتـيـجـة لأطمـاع حكامـهـا فـى فـرض سيطرتهم كل على الآخـر، أو نتـيـجـة لتـحـالف أحـدهـم ضـد جاره مع إحـدى القـوتين الكبـيـرتين المجـاورتين لبـلاد الهـوسـا، وهمـا دولـة البرنـو الاسـلامـيـة من الشرق، ودولـة مـالى ثـم دولة صنغى الإسلامية من الغرب.

وقد اشتهر الهوسويون بالمهارة فى الزراعة وبعض الحرف والصناعة وكذلك فى التجارة. وقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين السودان الغربى والسودان الشرقى ووقوعها عند الطرف الجنوبى لواحد من طرق القوافل التجارية الصحراوية وهو الطريق الذى يمتد من تونس مارا بمدينة غات وغدا مس وأهير ثم إلى بلاد الهوسا فى الاشتغال بالتجارة، ولذلك مهروا فى هذه الحرفة وكانوا من أكثر التجار مغامرة، وكانت قوافلهم تخترق الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام كى تزود طرابلس وتونس وغيرهما من بلدان شمال افريقيا بمنتجات بلاد السودان من ذهب وعاج ورقيق. كما اخترقت قوافلهم مناطق الغابات فى الجنوب حيث وصل نشاط تجارالهوسا إلى نوب وإلى وادى نهر بنوى حيث يوجد الكورارافا فى الجنوب. كما اتجه تجارهم شرقا إلى برنو حيث فتحوا طريقا للتجارة منذ عام ٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢م. كما توغلوا فى الجنوب حتى حوض فولتا الأوسط.

وقد أصبحت طرق التجارة الخارجية التى أشرنا إليها وخاصة التى تخرج من بلاد الهوسا متجهة شمالا إلى أهير والتى تتصل عندها بالطرق الرئيسية المتجهة إلى غات وغدامس وفزان وتكداوبرنو مفتوحة ومستعملة بطريقة كافية ومنظمة وأصبحت مألوفة جدا للمسافرين والتجار، مما شجع العلماء والباحثين على زيارة بلاد الهوسا بكل سهولة وارتياح، كما شجع التجار المغامرين على ارتيادها. وقد أدى هذا كله إلى انتشار الاسلام وإلى نمو الحركة الفكرية وازدياد تأثير الثقافة العربية الاسلامية، وإلى سيطرة تجار الهوسا على النشاط التجارى فى جميع أنحاء السودان الأوسط، وتضخمت جالياتهم فى كل المراكز التجارية المهمة وأصبحت لغتهم كما قلنا لغة التخاطب العا مة فى الأسواق والمعاملات المالية أو التجارية، وازدادت سيطرتهم على التجارة فى بلاد السودان بعد انهيار سلطنة صنغى الاسلامية أمام الغزو المراكشى فى عام ١٠٠٠هـ/

١٥٩١م. مما أدى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمال افريقيا شرقا إلى بلاد الهوسا، وقفزت كانو وكاتسينابصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة باعتباهما مركزين مهمين من مراكز التجارة والحضارة فى ذلك الحين، وخاصة بعد أن أصبحتا من أهم مراكز الاسلام فى تلك المنطقة من بلاد الهوسا.

وقصة إمارات الهوسا مع الإسلام إن دلت على شئ فإنما تدل على أن هذا الدين لا ينتشر فى أى مكان إلا بالدعوة السلمية والحكمة والموعظة الحسنة. فرغم وقوع بلاد الهوسا بين دولتين بل امبراطورتين إسلاميتين كبيرتين قديمتين فى الاسلام، إذا أسلمت كل منهما فى القرن الحادى عشر للميلاد، وهما امبراطورية البرنو شرقا وامبراطورية مالى ثم صنغى غربا، إلا أن إمارات الهوسا لم تتحول إلى الاسلام فى نفس الفترة، ولا فى وقت واحد، بل تأخر إسلامها بعض الوقت، وكان بعض أهلها لا زالوا على الوثنية حتى بداية القرن التاسع عشر للميلاد. وعندما دخلها الاسلام كانت إمارة كانو من أسبقها دخولا فى هذا الدين.

كانو والاسلام:

الشائع عند المؤرخين أن الاسلام دخل كانو فى القرن الرابع عشر للميلاد، غير أن قراءة متأنية فى وثيقة تاريخ كانو التى وردت عند بالمر تفيد بأن دخول الاسلام إلى كانو يمكن أن يكون فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد فى عهد الساركن (الملك) السادس، وهو ناجوجى بن تساراكى (٥٩٠ - ٦٤٥هـ/ ١١٩٤ - ١٢٤٧م). وتقول هذه الوثيقة أنه طارد الوثنيين فى بلاده وأعدم زعماءهم بعد أن وجدهم على حافة الثورة والتمرد إثر عودته من حملة حربية مهزوما. ولما أعلنوا الخضوع اشترط عليهم أن يطلعوه على أسرار إلاههم، مما يدل على أنه

لم يكن وثنيا مثلهم، وكذلك فعل ابنه الساركن السابع جوجوا (٦٤٥ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٤٧ ـ ١٢٩٠م). فقد حاول معرفة سر هذا الإله الوثنى وظل الأمر على هذا النحو حتى استطاع الساركن التاسع تساميا (٧٠٦ ـ ٧٤٣هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٤٣م) أن يعرف هذا السر بعد أن اقتحم المبنى الموجود بداخله الشجرة المقدسة على رأس قواته بعد أن فر الوثنيون وحراس الإله، ولم يبق منهم إلا ثلاثة أخبروه بالسر فعينهم حكاما على بعض المدن . وقد أتى بعده ملك يدل اسمه صراحة على أنه كان ملكا مسلما، وهو الساركن العاشر المسمى عثمانو زمنجاوا (٧٤٣ ـ ٧٥٠هـ/ ١٣٤٣ ـ ١٣٤٩م).

فعثمان التى حرفت إلى عثمانو هو اسمه، وزمنجاوا تعنى قاتل ، لأنه قتل الساركن السابق تساميا واستولى منه على الحكم. ثم جاء بعده ابنه الساركن ياجي، ويقول تاريخ كانو إن اسمه (علي)وأنه حكم فى الفترة (٧٥٠ ـ ٧٨٧ هـ/ ١٣٤٩ ـ ١٣٨٥م) وقد سمى ياجى لأنه كان صاحب طبع أو مزاج سيئ عندما كان صبيا وأن هذا الإسم أوهذه الصفة لصقت به فعرف بها.

وعلى ياجى هذا هوالذى تقول بعض التواريخ إن الإسلام انتشر بصورة كبيرة فى عهده، وذلك نتيجة لهجرة أربعين عالما قدموا من منطقة ونجارة فى دولة مالي وعلى رأسهم زعيمهم وشيخهم عبد الرحمن زيد، ووصلوا إلى كانو فى عهد (علي ياجي) فى عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. وبمجرد وصولهم أسسوا مسجدا وأخذوا يعلمون الناس، وأكثر هذا الملك من تشييد المساجد فازداد عدد الذين اعتنقوا الإسلام وتحمسوا لنشره فى المناطق الجنوبية فحملوه مع مليكهم إلى نهر بنوي، وأخذوا الجزية من الأهالى واستطاعوا أن يفتحوامدينة سانتولو التى كانت تتحكم فى الطريق إلى الجنوب وأن يحطموا أوثانها، ثم قاموا معه فى عام آخر بقتال أهل واراجى من الوثنيين ، وأطاعته جميع القبائل الوثنية عدا

الكورارافا التى تمكن من إخضاعها بأن دفعت له الجزية. ويلاحظ أن هذا الملك فى كل هذه الحروب كان محاطا بعلماء الونجارة الذين أشرنا إليهم، فكانوا يحمسون الجند ويبتهلون إلى الله كى يمن عليهم وعليه بالنصر، ومن ثم اتسمت حروبه بطابع الجهاد فى سبيل الله.

وظلت الحركة الاسلامية تمضى قدما فى إمارة كانو وازدادت تمكنا وعمقا فى عهد الساركن يعقوفو (يعقوب)بن عبد الله بورجا، وفى عهد الساركن محمد رمفا. ففى عهد يعقوب (٨٥٦ ـ ٨٦٧هـ/ ١٤٥٢ ـ ١٤٦٣ م) استقبلت كانو عددا كبيرا من علماء الفولانى القادمين من سلطنة صنغى بعد اضطهاد سلطان هذه الدولة المعروف باسم (سنى علي) للعلماء فى بلاده لخوفه من ازدياد نفوذهم، فوجد هؤلاء العلماء فى كانو الأمن والطمأنينة، فأحضروا كتبهم وخاصة فى علوم اللغة والأدب والتوحيد، كما رحب بهم حكامها، كما رحبوا بطوائف أخرى من العرب والبربر الذين جاءوا من ناحية الشمال فى أعداد كبيرة واستقروا فى كانو ، وانتعشت التجارة وخاصة تجارة الملح وازدهرت الأحوال الاقتصادية وعم السلم فلم تقع حروب فى أرض الهوسا فى عهد هذا الساركن ، مما أدى إلى انتشار الاسلام والثقافة العربيةالاسلامية فى البلاد.

وقد ازداد تألق هذه الثقافة فى عهد الساركن رمفا بن يعقوب (٨٦٧ ـ ٩٠٤هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م). وكان هذا الملك رجلا جيدا، عدالة وعلما وفضلا، استقدم العلماء والفقهاء ليستعين بهم فى إرشاد الناس وهديهم ،كماجاءه عدد من الأشراف من مصر والمشرق مثل الشريف عبد الرحمن الذى أقبل إلى كانو فى عدد آخر من الأشراف وأحضر معه كتبا كثيرة، واستقر فى هذه المدينة وطلب من أميرها محمد رمفا أن يبنى مسجدا جامعا وأن يقتلع الشجرة المقدسة ويبنى مئذنة فى موقعها، وأخذ هذا الشريف العالم فى تصحيح

العقيدة،وازداد عدد الرجال المتعلمين وقتها فى كانو بدرجة هائلة بعد أن تقبل جميع سكان الامارة الاسلام، حينئذ عاد عبد الرحمن إلى مصر تاركا (سيد ى مارت) ليحل محله فى الدعوة إلى الإسلام.

كذلك فقد وفد إلى كانو في عهد هذا الساركن عالم آخر وداعية إسلامى كبير هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى فقيه توات الشهير الذى رحل إلى كانو وكاتسينا ونشر فيهما عقيدة الاسلام الصحيحة. وقد استقر في كانو فترة يعلم الناس فاستجاب له الكثير حتى إنه عندما غادر هذه المدينة كان قد ترك فيها حوال ثلاثة آلاف معلم أو داعية. كما ألف للك هذه الامار ة رسالة بين فيها كيف يكون حكم الحاكم المسلم . وقد استجاب الملك لآراء المغيلى وحافظ باعتناء كبير على الشعائر والتقاليد الاسلامية وأمر الناس أن يتبعوا أساليب العرب والمسلمين فى حياتهم لدرجة أنه عرف باسم «الساركن العربي» ، وقد عرف أيضا بأنه مصلح اجتماعي،. فقد أصبحت البلاد فى عهده أكثر أمنا واطمئنانا، وأخذ فى بناء المساجد، وأزال الأحراش وأقام الدور مكانها، وشيد لنفسه قصرا جديدا وقسم كانو إلى مناطق ادارية ليسهل الاشراف عليها ، ثم شيد حول حاضرته سورا منيعا ذا سبعة أبواب . وقد اتسم حكمه بالعدالة والنزاهة مما أدى إلى انتشار الطمأنينة بين الناس، فازداد تمسكهم بالاسلام وازداد تفانيهم وإخلاصهم له، ويعتقد كثير منهم أن تراثهم الأدبى والدينى المدون باللغة العربية والموجود بين شعبهم نما أول ما نما فى عهد هذا الساركن الذى لم يكن هناك ساركن أقوى منه.

ازداد قدوم العلماء وبنا ء المساجد فى عهد الساركن محمد كيزوكى (٩١٤ ـ ٩٧٢هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥٦٣م) وكانت كانو فى بداية عهده قد تعرضت لغزو جاءها على يد أسكيا محمد الأول سلطان دولة صنغى الاسلامية حيث تمكن

هذا السلطان من إخضاع كانو وكذلك زاريا وكاتسينا وزمفرة. ولكن الصفاء لم يلبث أن حل محل الصراع وتزوج محمد كيزوكى من ابنة هذا السلطان واتسع نفوذه واستطاع أن يحكم كل بلاد الهوسا وشن حربا على برنو وانتصر عليها عندما هاجمته، وحقق لبلاده قدرا كبيرا من الطمأنينة والرفاهية، نتيجة لرواج التجارة بين بلده وجيرانها، مما مكنه من بناء كثيرمن المساجد، وجعله يفسح فى بلاده لكثير من العلماء الذين قدموا إليه مثل الشيهو (الشيخ) عبده سلام الذى أحضر معه كتب المدونة، والجامع الصغير، والسمر قندي. كما أتى الشيخ توبي، والشيخ يونس الذى طلب من هذا الساركن أن يبنى مسجدا جامعا فى منطقة روماوا فبناه، كما أقبل معلمون ودعاة آخرون مثل الشيهو كاراسكى وماجومي، وكابي، وزيت، وتاما ، وبوربورا، وكودا وغيرهم من علماء السودان مما يدل على مدى تقدم الحركة العلمية فى عصره، كما يدل فى نفس الوقت على انتشار الثقافة العربية الإسلامية إلى حد كبير.

وقد بلغ من شدة الحركة الإسلامية وتأثرملوك كانو بالإسلام أن الساركن يعقوفو (يعقوب) بن محمد كيزوكى الذى حكم لمدة أربعة أشهر وعشرين يوما من عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م، لم يلبث أن ترك الحكم وفضل المعيشة بين العلماء للبحث والدراسة، حيث كان اهتمامه بالإسلام ودراسة علومه أكثرأهمية لديه من أبهة الحكم والسلطة، ومن ثم ترك قصر الحكم ليعيش مع الباحثين والطلاب، وكرس نفسه لدراسة علوم الإسلام فى قريته التى انتقل إليها وحملت إسمه فسميت باسم يكوفاوا.

واستمرت نفس الروح الإسلامية المتدفقة فى نفوس ملوك كانو، فقدكان الساركن أبو بكر كانو بن محمد رمفا (٩٧٣ ـ ٩٨٠هـ/ ١٥٦٥ ـ ١٥٧٣م) من نفس هذه العينة الطيبة من الملوك المسلمين وكما يقول تاريخ كانو فانه كان أول

ساركن يقرأ كتاب الشفا وجعل الأمراء ورجال البلاط يتعلمون القرآن وفعل ذلك بأولاده السبعة حيث كان يجلس معهم بعد صلاة الفجر ويقوم كل منهم بقراءة سبع القرآن، وبذلك تكتمل قراءة القرآن على أيديهم وحدهم. كما بنى مكانا أو مركزاً لقراءة القرآن لعامة الناس يسمى جورون بوجاتشي، ثم أخذ هو شخصيا يقرأ «الجامع الصغير» واهتم بالصلاة هو ورجال بلاطه حتى أصبحوا يقضون كثيرا من وقتهم فى أدائها، كما شجع الأشراف والعلماء على القدوم إلى بلاده، فقدم الشريف تاما وعدد آخر من لاجونى أو من باجرمى ، مما أدى إلى ازدياد انتشار الآداب والثقافة والتعاليم الاسلامية فى عقول وقلوب أهل كانو. كما ازدادت شهرة هذه الإمارة من الناحية العملية لدرجة أنه عندما سقطت دولة صنغى الاسلامية على يد المراكشين فى عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م لم يجد علماؤها وطلابها وفقهاؤها المأوى إلا فى هذه البلاد، فهاجروا إليها التماسا للأمن والطمأنينة، مما زاد من علو قدرها فى نفوس المعاصرين.

غير أن الحروب الأهلية التى اندلعت بين أمراء كانو طمعا فى الحكم، والحروب الخارجية التى اندلعت بين كانو وكاتسينا ،وبينها وبين قبائل الكورارافا، وقيام هؤلاء بالهجوم على مدينة كانو وتدميرها، كل ذلك أدى إلى ضعف هذه الامارات وفقدان استقلالها ووقوعها فى النهاية فى يد الفولانيين فى بداية القرن التاسع عشر للميلاد، وذلك بعد أن أدت دورها كاملا فى نشر الاسلام والثقافة العربية الإسلامية فى أراضيها وفى غيرها من بلاد الهوسا.

وإذا كانت هذه هى قصة الاسلام فى إمارة كانو، فما قصته فى امارة كاتسينا وبقية امارات الهوسا؟ وفى هذا الصدد يمكن القول بأن الظروف التى تعرضت لها كانو من حيث هجرة العلماء والتجار ورواج التجارة والاشتغال بها وأثر ذلك فى نشر الاسلام، تعرضت لها أيضابقية إمارات الهوسا وإن اختلفت الدرجة أو التوقيت فى بعض الأحيان، مما جعل إسلام بعض هذه الإمارات يتأخر عن إسلام كانو. وأول الامارات التى أسلمت بعد كانو هى كاتسينا.

كاتسينا والاسلام:

وفى الحديث عن كاتسينا والاسلام نستطيع القول بأنه ليس صحيحا أن الاسلام لم يدخل هذه الامارة إلا فى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد بفضل بعثة تبشيرية قدمت من مصر فى عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م كما قال بذلك أحد المؤرخين المحدثين. والصحيح أن الاسلام دخلها فى النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد، فى عهد ملكها محمد كورو (٧٢٠ ـ ٧٥٤هـ/ ١٣٢٠ ـ ١٣٥٣م). وقد أسلم هذا الملك قبل مجئ الونجارة الذين كانت هجراتهم إلى بلاد الهوسا مستمرة بدءا من القرن الرابع عشر للميلاد، وكان إسلام أهل كاتسينا على أيديهم بعد أن استمر حكم البربر الوثنيين فيها حتى ذلك الحين.

وتسلسل حكم الملوك المسلمين فى كاتسينا منذ ذلك الوقت . فقد حكم بعد محمد كورو ملك مسلم هو ابراهيم سورا (٧٥٤ ـ ٧٥٦هـ/ ١٣٥٣ ـ١٣٥٥م). وقد اتبع هذا الملك سياسة سلفه فى نشر الاسلام، وتلاه ملك يلقب بلقب المرابطى وهو على مورابوس، أى المرابطي، مما يوحى بقيامه بحركة جهاد لنشر هذا الدين بين الوثنيين، مما جعل مؤرخ وثيقة تاريخ كانو يترحم عليه ويقول «رحمه الله . آمين ». وتتابع الملوك المسلمون على كاتسينا حتى جاء ماجى ابراهيم (٩٠٠ ـ ٩٢٦ هـ/ ١٤٩٤ ـ ١٥٢٠م) الذى صبغ الدولة كلها بصبغة إسلامية واضحة. فقد أمر جميع السكان أن يبنوا أماكن للصلاة ، وإلا فالسجن جزاء من عصي، كما أمر أتباعه بعدم التخلف عن تأدية الصلوات الخمس فى الجماعة.

ويلاحظ أن فترة حكم هذا الملك هى الفترة التى قدم فيها الشيخ المغيلى إلى كانو وكاتسينا، وقد أتى بعده عدد آخر من العلماء إلى كاتسينا منهم الشيخ القاضى محمد بن أحمد بن أبى التانختى الذى عرف باسم أيد أحمد ، بمعنى

ابن أحمد. وكان هذا الرجل فقيها عالما رحل من أجل طلب العلم، فلقى فى تكدا الإمام المغيلى وأخذ عنه،ثم رحل إلى مصر وبلاد الحجاز وأخذ عن علمائها، ورجع إلى بلاد السودان واستوطن كاتسينا، فأكرمه صاحبها وولاه قضاءها، وتوفى بها فى حدود سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م. كما هاجرا إليها الشيخ مخلوف البلبالى المتوفى عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م. ونتيجة لتأثيره فقد بنيت مدرسة هامة فى كاتسينا، وبدأتطور لغة الهوسا وكتابتها باستعمال شكل محسن من الحروف العربية سمى (بالعجمي) بتشجيع من هؤلاء العلماء الذين استقروا فى كاتسينا وكانو، والذين كانوا يعلمون الناس الآداب والثقافة الاسلامية باللغة والحروف العربية. وهكذا أدى وجود هؤلاء العلماء إلى توطن هذه الثقافة فى هذه البلاد إلى حد كبير، ومنها وصلت إلى المناطق الجنوبية حتى كانونا، وغربا إلى النيجر حيث كان لكاتسينا نفوذ فى هذه المناطق منذ منتصف القرن الخامس عشر للميلاد.

لكنه برغم أن المجتمع المسلم فى كاتسينا كان كبيرا وقويا الا أنه لم يظهر قوته للتغلب على المقاومة التى أبداها الوثنيون الذين أرادوا مقاومة سياسة نشر الاسلام بين الجميع. ولذلك لجأ حكام كاتسينا كما لجأ حكام كانو أيضا إلى نوع من السماح لأصحاب الأديان التقليدية بممارسة شعائرهم حتى يقتنعوا بالدخول فى الاسلام من تلقاء أنفسهم.

زاريا والإسلام:

تقع زاريا فى جنوبى بلاد الهوسا، ورغم هذا الموقع المتطرف إلا أن ملكها محمد رابو اعتنق الاسلام وكان أول ملك مسلم يحكمها فى القرن الخامس عشرللميلاد وليس السابع عشر كما يقول البعض. أما الأهالى فقد انتشر بينهم الإسلام منذ القرن الرابع عشر للميلاد ، وذلك نتيجة لموقع زاريا . فهى تقع

على الطريق بين بلاد الهوسا الشمالية مثل كانو وكاتسينا وبين بلاد فولتا فى الجنوب. وقد فتحت طرق التجارة بين بلاد الهوسا ومنطقة فولتا التى كانت إحدى بلدان السودان المنتجة للذهب على يد تجارالونجارة الذين تاجروا فى هذا المعدن ونقلوه من فولتا إلى شمال القارة عبر جوبير. ومعروف أن هؤلاء التجار القادمون من برنو ومن شمال القارة كانوا دعاة للإسلام فى زاويا وفى بلاد الهوسا التى تحدثنا عنها من قبل مثل كانو وكاتسينا . ويتحدث البروفيسور موراى عن التجارة التى قامت بين زاريا وبين المناطق الشمالية مما جعل «سكانها أغنياء يتعاطون التجارة فى المنطقة كلها» كما يقول الحسن الوزان، وأدى هذا الأمر إلى انتشار الاسلام فيها. ولم تأخذ زاريا الإسلام فقط من هؤلاء التجار، ولكنها أخذت منهم أيضا لغة الهوسا التى أصبحت تتكلم بها. ونتيجة لذلك فقد أصبحت زاريا إمارة إسلامية ناهضة وسط محيط وثنى منذ القرن الخامس عشر للميلاد، ولم تصبح مملكة إسلامية كبيرة الا فى القرن السابع عشر للميلاد بعد أن ضعفت كانو وكاتسينا نتيجة للحروب العديدة التى قامت بينهما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد.

جوبير والاسلام:

وإذا كان للتجار المسلمين كل هذا الأثر فى نشر الإسلام فى إمارات الهوسا التى تحدثنا عنها حتى الآن، فقد كان لهم نفس الأثر فى إمارة جوبير. فقد انتشر الإسلام على أيديهم منذ وقت مبكر يعود إلى القرن الرابع عشر للميلاد وإن كان أهل هذه الإمارة يقولون إن حكامهم قبلوا الإسلام الوافد إليهم من سلطنة صنغى بين عامى ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م و ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م فى عصر أسكيا محمد الأول سلطان هذه السلطنة فى تلك الفترة. ومعروف أن هذه الإمارة كانت تقع فى شمالى بلاد الهوسا، أى فى الشمال من كاتسينا

وكـانو، وفى الجنوب من أهيـر والصـحـراء الكبـري. ولذلك يقـول البـعض إن الأسرة الحاكمة فيها أتت من الشمال من أهير نتيجة لضغط الطوارق الذين تحركوا جنوبا ونجحوا فى فرض سلطانهم على السكان المحليين.

وكانت جوبير مرتبطة بالشمال أيضا عن طريق التجارة والطرق التجارية. ويذكر ابن بطوطة الذى زار مدينة تكدا فى عام ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م أن هذه المدينة كانت تصدر إلى جوبير النحاس الذى يوجد فيها بكثرة، وكان أهلها يسبكونه على شكل قضبان تحمل وتباع فى مختلف البلاد ومنها جوبير التى يقول إنها فى ذلك الوقت كانت «من بلاد الكفار» وأن سلطانها لم يكن على دين الإسلام حينذاك. ولما كانت تكدا من المراكز الإسلامية التى تقع فى الصحراء وكانت مركزا لنشر الإسلام فى المناطق التى تقع فى جنوبها، فإنه من المعقول أن نؤكد أن هذه البلدة لم تصدر قضبان النحاس فقط إلى جوبير، ولكنها صدرت إليها أيضا الأفكار والثقافة الاسلامية، ولابد أن بعضا من المسلمين من أهل تكدا قد وجدوا طريقهم جنوبا إلى هذه الإمارة حيث استقروا هناك وتزوجوا من نساء محليات ، ولذلك فمن الممكن بل من الأرجح وجود مسلمين فى جوبير أثناء زيارة ابن بطوطة لها، مما يدل على أن الإسلام عرف طريقه إلى هذه الامارة منذ منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، بل وربما قبل ذلك بكثير، نتيجة للنشاط التجارى الذى كان موجودا ومستمرا منذ قرون سابقة ، والذى أشار إليه الحسن الوزان فى بداية القرن السادس عشر للميلاد وقال إن سكان جوبير كانوا قديما يحققون أرباحا تجارية طائلة قبل أن يغزوهم أسكيا محمد الأول سلطان صنغى فى عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، وأنهم كانوا متحضرين جدا، وفيهم عدد يشتغلون بنسج القماش وصنع الأحذية التى كانت تصدر إلى تمبكت وجاو عاصمة صنغي، ويشير إلى عاصمة جوبير التى كانت مزدحمة بالتجار الجوبريين والأجانب ويقول إن تجارتها واسعة إذ كان يوجد فيها ستة آلاف منزل.

ولا شك أن غزو أسكيا محمد لهذه الامارة قد أدى إلى وصول مهاجرين من العلماء والفقهاء إليها وإلى غيرها من بلاد الهوسا، وساهم هؤلاء العلماء فى عمليات التحول إلى الإسلام فى هذه البلاد مع إخوانهم القادمين من البلدان الإسلامية الأخري. غير أن الإسلام لم ينتشر بين كل السكان، فقد ظل بعضهم على الوثنية حتى بداية القرن التاسع عشر للميلاد، ولم يتحول هؤلاء الوثنيون إلى الإسلام الا بعد استيلاء المصلح الكبير الشيخ عثمان بن فودى الفولانى على هذه الإمارات وعلى غيرها من الإمارات الأخرى فى تلك الفترة وضمها فى دولة واحدة.

وعلى أى حال فقد كان لجهود العلماء والتجار القادمين إلى بلاد الهوسا والمحليين منهم أثرها الكبير فى نشر الإسلام فى هذه البلاد منذ القرن الثالث عشر للميلاد، وأصبحت كانو وكاتسينا وزاريا وغيرها من بلاد الهوسا مراكز للإسلام فى هذه البقعة من القارة، وتألقت فيها الثقافة الإسلامية، وكان لها فضل كبير فى نشرها بين سكانها وغيرهم فى البلاد المجاورة. فإمارة كانو يرجع الفضل إليها فى نشر الإسلام شرقا حتى حدود برنو، وامارة زاريا يرجع الفضل إليها فى نشر الإسلام فى أواسط بلاد الهوسا وجنوبها فى حوض نهر فولتا، وظهرت كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الاسلامية منذ القرن الخامس عشر للميلاد فصاعدا، وكان علماء تمبكت التى تقع على نهر النيجر يرحلون إلى هذه الامارات، واتصلت الرحلة بعد ذلك. كذلك رحل إليها علماء من مصر، من أبرزهم جلال الدين السيوطى الذى نشأت علاقة بينه وبين أمير كاتسينا. وهناك مايد ل على أن هذا الامام العظيم رحل إلى هذه الامارة وعاش فيها زمنا يعلم الناس ويفتيهم، وعاد إلى مصر فى عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، واتصلت المراسلات بينه وبين علماء هذه البلاد، كما اتصلت بينهم وبين غير السيوطى من علماء مصر وبلاد الحجاز وغيرها كما سبق القول، مما يدل على التواصل الاسلامى

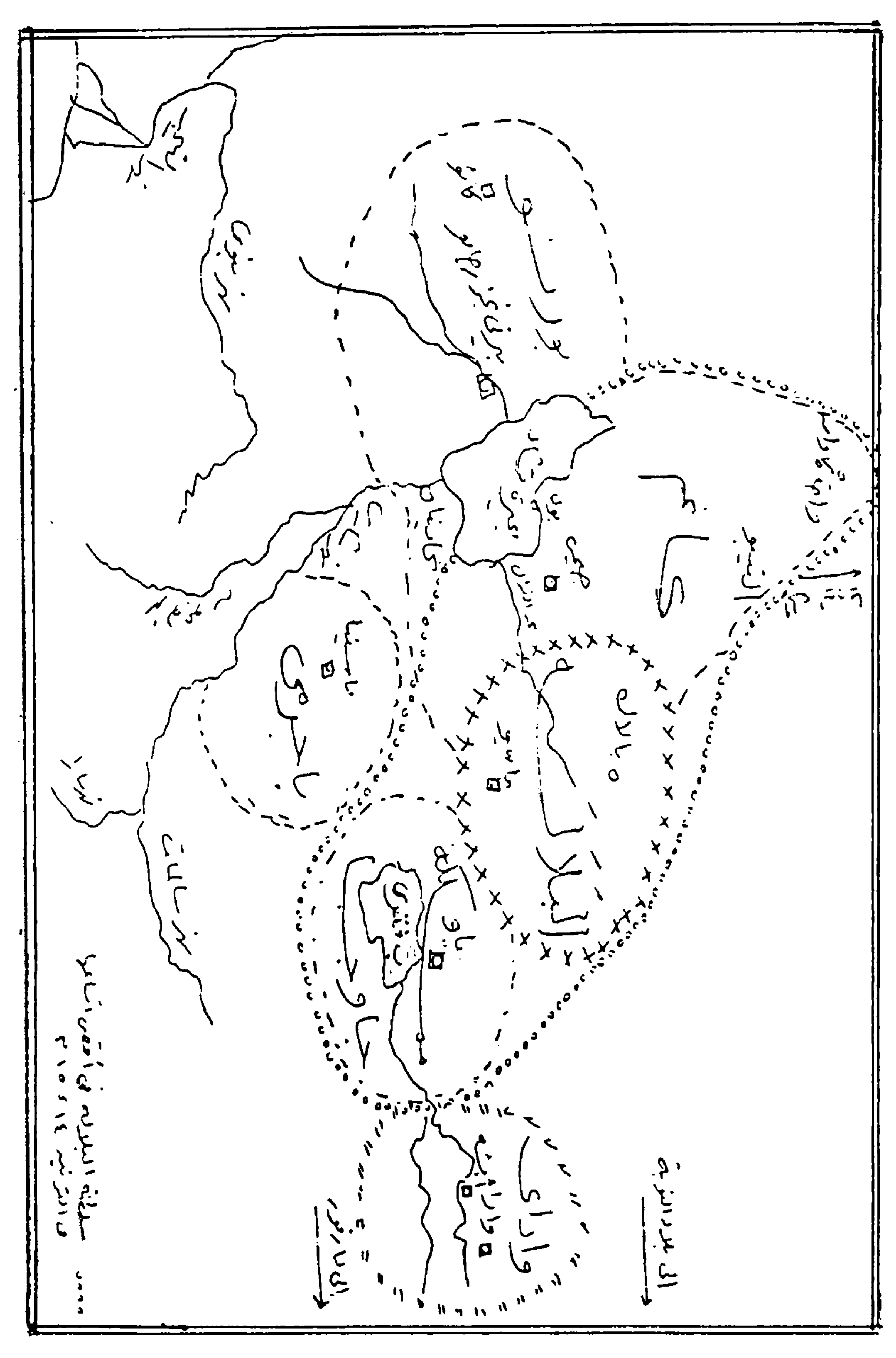
وعلى أن بلاد الهوسا كانت على صلة بالعالم الاسلامى الأوسع سواء في إفريقيا أو في غيرها من القارات.

٣ ـ سلطنة البلالة الاسلامية فى حوض بحيرة تشاد

(٧٦٦ ـ ١٣١٨هـ/ ١٣٦٥ ـ ١٩٠٠م)

قامت هذه السلطنة فى حوض بحيرة تشاد، أى فى بلاد السودان الأوسط وعلى وجه التحديد فى حوض بحيرة فترى وإلى الشمال منها حتى بحيرة تشاد، وظهرت كدولة يمكن التحقق من تاريخها منذ عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، واستمرت حتى بداية القرن العشرين عندما سقطت المنطقة كلها فى يد الاستعمار الفرنسي. ورغم طول مدة بقاء هذه السلطنة إلا أن المؤرخين لم يذكروها كثيرا ولم يهتموا بها لسبب بسيط وهى أنها كانت دولة تابعة لسلطنة الكانم والبرنو فى كثير من فترات حياتها ، وبذلك لم تدخل فى المجرى الرئيسى لتاريخ المنطقة ولم يكتب عنها أحد من غير أهلها عدا ابن سعيد المغربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد وأشار إليها تحت اسم مدينة جاجه، وقال إن هذه المدينة «كرسى مملكة مفردة. ولها مدن وبلاد، وهى الآن لسلطان الكانم» كما ذكرها أيضا الحسن الوزان الذى عاش فى النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد وأشار إليها تحت إسم مملكة جاوجا.

ويعود اسم البلالة إلى أول زعيم لهم ويدعى بولال أو بلال أوجيل أوجليل، ومنه جاء اسم أول زعمائهم وهو عبد الجليل. وربما جاء اسم بلاله أو بولاله من (بولو) الذى كان ابنا لقبائل البيوما التى كانت تسكن منطقة بيو Biyo ، ثم أضيف إليها المقطع التماشكى Ilalla فجاء اسم بولالا أو بلاله، وهى كلمة تعنى الأحرار النبلاء . وربما جاء الإسم أيضامن اسم ميناء كان ولا يزال يقع على الساحل الشرقى لبحيرة تشاد ويسمى بول Bol ثم أضيف إليه المقطع



الحدود التقريبية للسلطنات الإسلامية التى كانت موجودة فى حوض بحيرة تشاد (السودان الأوسط) حتى نهاية القرن الماضى (الخريطة من عمل المؤلف)

التماشكى السابق الذكر فصار بولالا أو بلالة كما ينطقه البلاليون أنفسهم فى هذه الأيام ، وهو ما جعلنا نكتبه على هذا الشكل.

أما أصل قبائل البلالة فقد جاء نتيجة اختلاف عناصر متعددة سكنت هذه المنطقة وهى عناصر البربر والعرب والسودان والزنج، وقد تصاهرت هذه العناصر فيما بينها وأدى ذلك إلى امتزاجهم وتغير فى صفاتهم فظهرت عناصر جديدة مثل التنجورالذى رحل معظمهم إلى دارفور وأنشأوا فيها سلطنة دارفور الإسلامية فى القرن الخامس عشر للميلاد، والبلالة الذين أقاموا فى بلادهم ولم يرحلوا عنها كما فعل التنجور وأنشأو ا هذه السلطة التى نتحدث عنها.

وقد كان البلالة وثنيين حتى القرن الثانى عشر للميلاد عندما أسلموا عقب إسلام بنى عمومتهم الذين يتمثلون فى الأسرة السيفية الماغومية الحاكمة فى سلطنة كانم فى القرن الحادى عشر للميلاد، وكان لا يمكن أن يتأخر إسلام البلالة كثيرا بعد أن أسلم السيفيون فى كانم، لأن الإسلام امتد منذ ذلك الحين من كانم واتجه شرقا إلى دارفور، ولا يمكن أن يمر على بلاد البلالة التى تقع فى منتصف الطريق دون أن يدخل أهلها فيه.

أما من الناحية السياسية فقد ظهر خطر البلالة على سلاطين دولة كانم منذ وقت مبكر رغم صلة القرابة التى تربط بينهما. ويعود ذلك إلى أن البلالة كانوا يحاولون التخلص من تبعيتهم لأقربائهم من حكام كانم. وقد ظهر هذا الخطر منذ عهد أول سلاطين كانم الاسلامية وهو الماى أوم بن عبد الجليل (١٠٨٦ - ١٠٩٧م) الذى حاربهم وانتصر عليهم وقتل منهم ثلاثة آلاف، فأعلنوا الطاعة والخضوع، وظلوا يتقلبون بين التبعية والتحرر من سلطان كانم حتى ظهر زعيمهم الموصوف بالقوة والشجاعة والدهاء، وهو عبد الجليل سيكومامى الذى

حقق لهم الاستقلال التام فى عام ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، واتخذ من مدينة ماسيو التى تقع بين بحيرة فترى وكانم عاصمة له.

ولم يحقق هذاالزعيم استقلال بلاده إلا بعد أن قام أولا بتوسيع دولته تجاه الجنوب حتى استطاع القضاء على السلطان (على ندينا) الذى كان يحكم مملكة جاوجا التى كانت تقع فى حوض بحيرة فترى والتى كانت عاصمتها مدينة (ياو) التى انتقل إليها سلطان البلالة واتخذها عاصمة لدولته الكبيرة. ولم يحقق عبد الجليل سيكومامى هذا التوسع الا بفضل العرب الموجودين فى هذه المنطقة والذين كانت مضاربهم تمتد حتى شمال بلاد كانم وجنوبها. فقد قدموا له العون والمساعدة وانضمواإليه وخاصة حينما أراد أن يتوسع شمالا وغربا تجاه دولة الكانم نفسها.

وبفضل مساعدة هؤلاء العرب وخاصة عرب جذام، ونتيجة لعوامل كثيرة أدت إلى ضعف سلطنة كانم فى تلك الفترة تمكن هذا السلطان من التغلب على أربع سلاطين كانميين وقتلهم وأجبر الأسرة الماغومية السيفية الحاكمة فى كانم إلى الهرب فى عهد زعيمها الماى (السلطان) عمر بن ادريس (١٣٨٦ ـ ١٣٩١م) إلى إقليم برنو الذى يقع فى غرب بحيرة تشاد. وبذلك وقع إقليم كانم بأسره فى قبضة البلاله، مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود دارفور الغربية وبلاد النوبة حتى شواطئ بحيرة تشاد الشرقية.

حكم البلالة إقليم كانم منذ استيلائهم عليه حوالى قرن من الزمان، وهى فترة كانت كافية كى يستعيد حكام برنو قوتهم، ولم يلبثوا أن تطلعوا لاسترداد كانم وتهيئوا للصراع مع البلاله. وقد بدأ هذا الصراع منذ عام ١٤٧٢م على يد حاكم قوى ظهر فى برنو هو الماى على جاجى بن دونمة بن زينب الملقب بالغازي، نظرا لغزوه إقليم كانم. وكان هذا الماى قد قضى على الفتن داخل

برنو، وبنى عاصمة جديدة ، ونظم الجيش وزوده بالأسلحة اللازمة، ومن ثم أصبح فى حالة تسمح له بالهجوم على البلالة وإخراجهم من كانم. وبالفعل وقعت بين الفريقين معارك عديدة استطاع ماى برنو أن يدمر فيها جيش البلالة ،لكنه لم يتمكن من دخول مدينة نجيمى عاصمة كانم وعاد إلى بلاده.

وقد قام خلفاؤه بالسير على منواله حتى تمكنوا من دخول نجيمى فى عهد ماى برنو على بن إدريس (١٥٤٥ ـ ١٥٤٦م) المعروف باسم حارق البلاله لأنه تمكن من هزيمتهم، ووقع سلطانهم وثلاثة من أبنائه أسرى فى يده فى معركة استمرت خمسة أيام. وقد أحسن هذا الماى إلى هؤلاء الأسرى وصاهرهم بأن تزوج من أميرة بلالية. وهذه الأميرة هى التى أنجبت له ابنه الماى ادريس ألوما الذى أخضع البلاله وأنهى عصيانهم إلى حد كبير، ووقع مع ابن خاله سلطان البلاله المعروف باسم (محمد عبد الجليل كبير) اتفاقية سلام، واتفقا على ترسيم الحدود بين كانم وبرنو بحيث تأخذ برنو بعض المقاطعات التى كانت لها من قبل فى اقليم باجرمى وضمها البلاله لدولتهم ،وتترك بقية كانم تحت سلطان البلاله وموضوع ترسيم الحدود بين البلدين على هذا النحو يعتبر أول ظاهرة من نوعها فى تاريخ هذه البقعة من إفريقيا.

ومع ذلك فقد بدأالضعف يدب فى جسد الدولتين خاصة بعد موت (إدريس ألوما فى عام ١٦٠٣م) فلم يكن خلفاؤه فى نفس مستواه من الناحية السياسية أو العسكرية. وبالنسبة لدولة البلاله بدأت الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية والصراع الطويل الذى كان بينها وبين حكام برنو والذى أشرنا إليه يظهر أثره فأخذت الدولة تسير فى طريق الضعف خاصة وأن سلطنات أخرى كانت قد ظهرت منذ القرن السادس عشر للميلاد مثل سلطنة واداى التى تقع فى الشمال الشرقى لدولة البلاله، وسلطنة باجرمى التى تقع فى جنوبها الغربى

وأخـذت هــاتان السلطنتـان تغـيران على سلطنة البـلاله وتصطدمـان بهـا مما أضعفها.

ورغم مظاهر الضـعف التى انتابت هذه السلطنة إلا أنهـا ظلت قـائمـة حتى بداية القرن العـشرين حينمـا سقطت فى عام ١٩٠٠م فى قـبضـة الاسـتـعمـار الفرنسى مثلما وقعت بقية السلطنات الأخرى التى كانت قائمة فى حوض بحيرة تشـاد. ومع ذلك حكم بعض سـلاطين البـلاله تحت راية هذا الاسـتـعمـار وظلوا كذلك حـتى نالت البـلاد اسـتـقـلالها فـى عام ١٩٦٠، ودخلت بلاد البـلاله ضـمن حـدود جـمـهورية تشـاد الحـديثـة منذ ذلك التـاريخ، وإن كـان البـلاله لازال لهم سلطان يـحكمـهم فى إطار هذه الجمـهورية ، وهو فى ذلك أشـبه بمحـافظ إقليم من الأقاليم.

وفى النهـاية نستطيع القـول بأن هذه السلطنة التى لم يكتب المؤرخـون من المشـارقـة والمغاربة عنها كلمـة واحدة عدا ابن سـعيـد المغربى و الحسن الوزان الذى ذكرها فى بعض فقرات تحت اسم مملكة جاوجا التى كانت فى الحـقيـقة جـزءا من سلطنة البـلاله، نقـول بأن هذه السلطنة أدت دورا اقـتـصـاديا وعلمـيـا ودينيـا هامـا فى تاريخ المنطقـة. إذ كـانت نظرا لموقـعـهـا بين دارفـور والنوبة فى الشـرق، وكـانم وبحـيـرة تشـاد ومـا وراءهـا من بلاد الهـوسـا ومـالى فى الغـرب، وليبيا فى الشمـال مركزا هامـا من مـراكز التجارة التى تأتى من هذه البلدان، مما انعكس أثره على مسيرتها التاريخية إذ دعم اقتصادها وربط بينها وبين دول تقع خارج منطقة تشاد وجعلها تتعامل بالدينار، وتتسع تجارتهـا حتى تصل إلى مصـر وغيرهـا من البلدان، كما زادت مـحـصـولاتهـا الزراعية حتى وصفـهـا ابن سـعيـد المغـربى بالخـصب وكثـرة الخـيرات، ووصـف الحسن الوزان أهلهـا بأنهم أغنيـاء. كمـا قام حكامهـا بدورهم فى حركة الجهـاد ضد الوثنيين منذ وقت مبكر.

إذ أشار ابن سعيد المغربى إلى أن حاكمها كان « يغزو فى أسطوله بلاد الكفار التى على جوانب هذه البحيرة» التى هى فى الواقع بحيرة فترى التى تمركزت حولها سلطنة البلاله كما سبق القول.

أما الحياة العلمية فقد سارت فى نفس المسار الذى سارت فيه بقية بلدان السودان الأوسط والغربي. فقد كانت هناك المدارس والعلماء والفقهاء والأشراف الذين كانوا يعاملون بكل تبجيل واحترام، كما ظهرت الطرق الصوفية وخاصة التيجانية والقادرية. وكان لهذه الطرق أثر كبير فى نشر الإسلام فى هذه البلدان. أما اللغات التى كانت منتشرة بين البلالة فهى عديدة، فقد كانوا يتكلمون لغة كوكا، وهى قبيلة كانت تسكن مملكة جاوجا وذلك بجانب اللغة العربية التى كانت لغة العلم ولغة الحكومة الرسمية والتجارة والمراسلات، حتى جاء الاستعمار الفرنسي وقضى عليها وعلى استخدام الحروف العربية فى الكتابة وحولها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وإن كان الأهالى حتى الآن يحافظ الكثير منهم على التحدث والكتابة باللغة العربية، وجلهم بما لا يقل عن ٨٥٪ منهم يدينون بالاسلام.

حـ- الاسلام والعروبة فى سودان وادى النيل*

(السودان الشرقي)

لم تكن بلاد السودان الشرقى (النيلي) أو سودان وادى النيل مجهولة للعرب قبل الاسلام فقد مخرت سفنهم مياه البحر الأحمر حتى وصلوا الى الشاطئ الإفريقى ومنه إلى السودان والحبشة، فضلا عن الطريق البرى عبر سيناء إلى مصر ومنها جنوبا إلى السودان، والطريق البحرى عبر باب المندب الى الحبشة ومنها إلى السودان ، كل ذلك بهدف التجارة بين هذه البلدان وبين عرب اليمن والحجاز وبخاصة تجارة العاج والصمغ والذهب واللبان وبظهور الاسلام وانتشاره فى مصر أصبح وادى النيل معبرا جديدا للعرب والإسلام إلى بلاد السودان النيلي، سلكته الجيوش والقبائل العربية إما بقصد الغزو المسلح أو بقصد التسرب السلمى بغرض الإقامة ونشرالاسلام بين أهالى هذه البلاد.

وكانت هناك مملكتان مسيحيتان فى السودان النيلي، هما مملكة مقرة أو دنقلة أو النوبة فى شمالى هذا السودان، ومملكة علوة فى وسطه وكانت هذه الممالك بالطبع تقف فى وجه انتشار الاسلام وأمام جهود العرب للدخول الى السودان النيلى من ناحية مصر. وكان انتشار الاسلام من هذه الناحية متعلقا بضعف هذه الدول أو بالقضاء عليها.

ويدأ اللقاء الأول بين هذه الدول المسيحية وبين العرب المسلمين منذ وقت مبكر. فعمرو بن العاص والى مصر يرسل بعض جنده إلى بلاد النوبة عام ٢١هـ/ ٦٤١م لكنه لا يتمكن من فتحها وانتهى الأمر بعقد صلح مع أهلها كان

---

* أ.د. رجب محمد عبدالحليم

أشبه بمعاهدة اقتصادية ولما نقض النوبيون هذا الصلح وأغاروا على صعيد مصر ، غزاهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح عام ٣١هـ / ٦٥٢، ووصل فى زحفه حتى دنقلة عاصمة مملكة مقرة المسيحية وعقد معهم صلحاعرف باسم (البقط)، ونصوص هذا الصلح تبين أنه كان صلحا يقوم على التسامح الدينى وحسن الجوار، ولا يعكس تبعية دنقلة إلى مصر الاسلامية، ولم يكن فى حقيقته إلا تأمينا للنواحى الاقتصادية والتجارية والدينية، وتشجيعا للتبادل التجارى وإقرارا للسلام على الحدود المشتركة.

ولذلك ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة، وهى تبين لناطبيعة انتشار الاسلام فى د نقلة: إذ ما يلفت النظر فى هذه المعاهدة هو اشتراط عبد الله بن سعد على النوبيين أن يحافظوا على المسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة، وحماية التجار وغيرهم من المسلمين الذين يطرقون بلادهم، مما يؤكد حرص عبد الله بن سعد على أن يظل الطريق مفتوحا خلال مملكة مقرة إلى الجنوب حيث توجد مملكة علوة، حيث يتسرب الاسلام إليها عبر التجار والمسافرين من المسلمين.

وأثناء انصراف عبد الله بن سعد من النوبة تجمع له البجة أو البجاه. ويبدو أنه لم يصطدم بهم لهوان شأنهم فى نظره، لانه لم يكن لهم ملك يمكن الرجوع اليه،وكانت أوطان هذا الشعب تمتد فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر من حدود مصر فى الشمال إلى حدود الحبشة فى الجنوب، وقد أغاروا على صعيد مصر سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٥م فصالحهم عبيد الله بن الحبحاب والى مصر وكتب لهم عقدا بذلك.

وعندما أغاروا على أسوان بعد ذلك جرد عليهم الخليفة المأمون عام ٢١٦هـ/ ٨٣١م جيشا بقيادة عبد الله بن الجهم، وانتهى الأمر بعقد صلح جديد بينه وبين

ملكهم كنون بن عبد العزيز، ومن أهم شروطه أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى حد ما بين دهلك ومصوع ملكا للخليفة، وأن يكون البجة وملكهم أتباعا له، مع بقاء هذا الملك فى منصبه، وأنهم لا يمنعون أى مسلم من دخول بلادهم بقصد التجارة أوالاقامة أو الحج، وأن يؤدى ملك البجة ما عليه من الخراج أو البقط.

نرى من ذلك أن معاهدة البقط فتحت الباب أمام الهجرات العربية لاجتياز مملكة مقرة - دون الإقامة بها - فى طريقها إلى وسط السودان النيلى أو ما عرف باسم مملكة علوة، بينما مع البجة سمحت للهجرات العربية بالاستقرار والاقامة فيما بين حدود مصر الجنوبية وحتى مصوع وبهذا أصبح الباب مفتوحا للاسلام والثقافة العربية للتوغل فى وسط السودان النيلى وحتى حدود الحبشة الشماليةدون انتظار لسقوط مملكة مقرة المسيحية فى شمالى هذا السودان.

وقد أثرت أحداث العالم الاسلامى وخاصة الصراع بين الأمويين والعباسيين ثم انخفاض شأن العرب وظهور العناصر الأخرى من الفرس والأتراك والأكراد وغيرهم على المسرح السياسى واستبدادهم بالسلطة والنفوذ، وإسقاط العرب من ديوان الجند وقطع العطاء عنهم فى مصر، كان لذلك كله أثر كبير فى هجرة الكثير من القبائل العربية إلى الجنوب. وقد انتهزت تلك القبائل فرصة الحملة التى أعدها أحمد بن طولون والى مصر إلى أرض النوبة والبجة فاشترك فيها كثير من العرب وخاصة من ربيعة وجهينة، وترك هذا الجيش وراءه فى هذه النواحى عربا من بنى ربيعة وجهينة.، حيث أكثروا العمارة والاستقرار ونشروا الاسلام واختلطوا بالنوبة والبجة.

استفاد العرب هنا وهناك من نظام الوراثة عن طريق الأم، فحرص رؤساؤهم على التزوج من بنات البجة والنوبة، مما أدى إلى انتقال الرئاسة إلى العرب

الذين استطاعوا أن يقيموا أول إمارة إسلامية عربية كان مقرها فى أسوان فى عهد الخلافة الفاطمية، وخلع الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى على أميرها لقب «كنز الدولة» فعرف بنو ربيعة فى أسوان والنوبة ببنى كنز، واستطاع بنوكنز هؤلاء أن يصهروا إلى البيت المالك النوبى فى دنقلة فانتقل الحكم هناك إلى بنى كنز وأعلنوا استقلالهم عن الدولة المملوكية فى مصر سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م. وبذلك قامت دولة عربية إسلامية فى هذا الجزء من السودان النيلي، كما قامت بعد ذلك سلطنة عربية إسلامية أخرى فى وسط هذا السودان تعرف بسلطنة الفونج الإسلامية، وسلطنة عربية إسلامية ثالثة فى غربيه تعرف باسم سلطنةدارفور الإسلامية، ولكل من هذه السلطنات حديث مستقل.

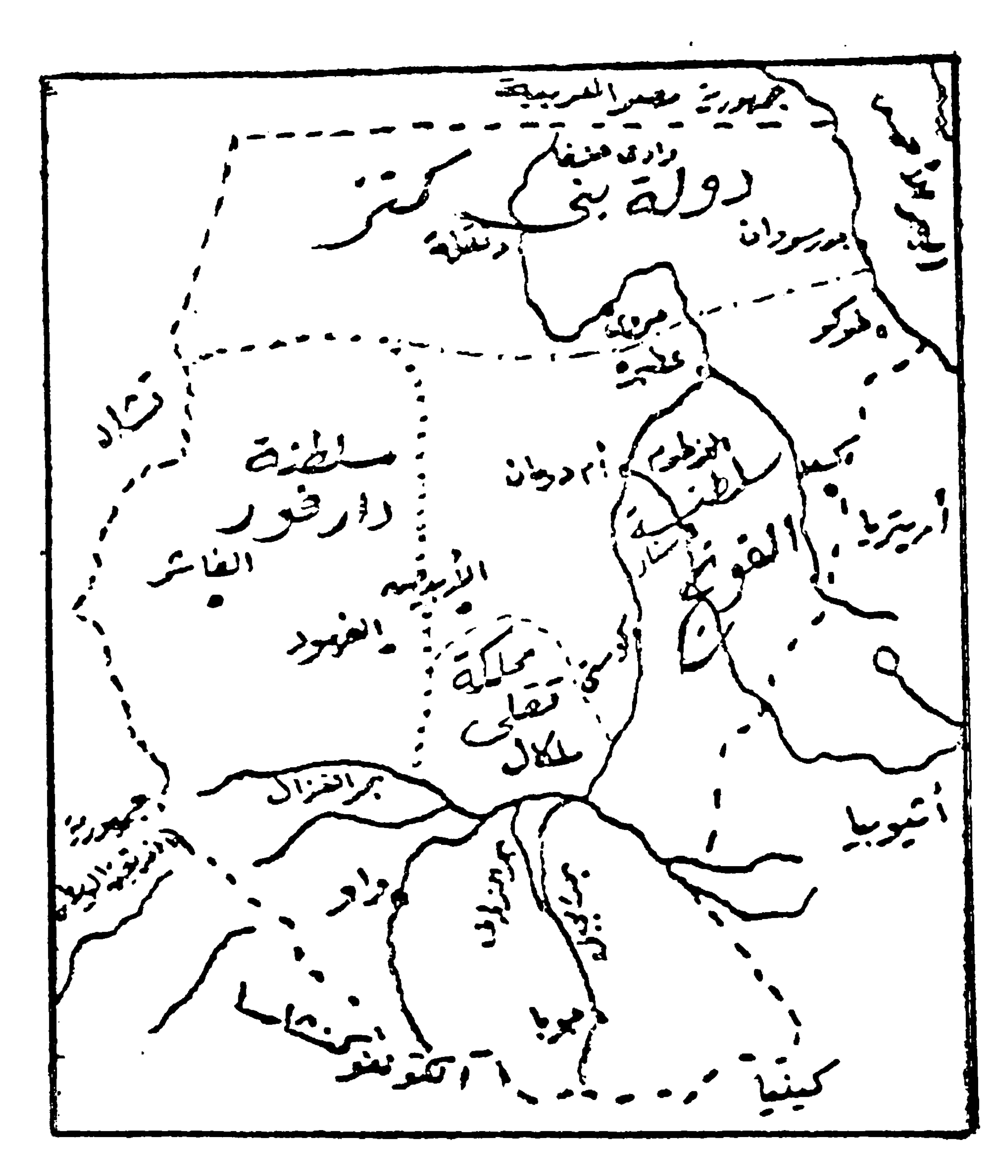
١ ـ دولة الكنوز الإسلامية فى بلاد النوبة

(٧٢٣ ـ ٩٢٦ هـ/ ١٣٢٣ ـ ١٥٢٠م)

أقام هذه الدولة فى بلاد النوبة الشمالية التى تمتد من جنوب أسوان حتى جنوب دنقلة عرب الكنوز، وهم بنو كنز، من قبيلة ربيعة العربية. وكانت هذه القبيلة تسكن بلاد نجد وتهامة فى شبه الجزيرة العربية حتى وقعت الحرب بين بطونها مما كاد يؤدى إلى هلاكها فتفرقت داخل شبه الجزيرة العربية. وبعد ظهور الإسلام ارتحلت أعداد كبيرة منها وخاصة من بنى حنيفة وبنى يونس إلى مصر فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله فى عام ٢٣٨ هـ/٨٥٢م، فنزل بنو حنيفة فى وادى العلاقى الذى يقع فى الصحراء الشرقية بين أسوان والبحرالأحمر، واستقر بنو يونس فى ثغر عيذاب جنوب حلايب الحالية، كما نزلت جماعة أخرى من بنى حنيفة بظاهر أسوان فى بلدة بنوها عرفت باسم المحدثة.

وقد ظهرت إمارة لربيعة التى نزلت فى وادى العلاقى نتيجة لزواج رؤساء ربيعة من بنات رؤساء البجة سكان هذه المنطقة بين الصحراء، مما أدى إلى

السودان



المصدر: أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية..

جـ ٦، ص ٦٢٦ (بتصرف).

انتقال حكم بلاد البجة فى هذه المنطقة إلى زعماء ربيعة حسب النظام المحلى الذى يجعل وراثة الحكم لابن البنت أو ابن الأخت. ولذلك ليس غريبا أن تشير المصادر إلى أن صاحب بلاد البجة فى وادى العلاقى فى عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م هو أبو مروان اسحاق بن بشر الذى استمر حاكما لإمارة ربيعة فى العلاقى حتى قتل نتيجة لنزاع نشب بين رجالها، وانتقل حكم هذه الإمارة إلى إبن عمه أبى عبد الله محمد بن على بن يوسف المعروف بأبى يزيد بن إسحاق. وقد آثر أبو يزيد هذا أن ينقل مقر رياسة ربيعة إلى مدينة أسوان حيث عظم مركز هذه القبيلة فيها وزادت ثروتها، وأصبحت تسيطر على المنطقة الممتدة من عيذاب إلى أسوان حوالى منتصف القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

وقد اتسعت هذه الإمارة العربية كثيرا فى عهد أبى المكارم هبة الله الذى يعرف بالأهوج المطاع بعد أن تولى حكم ربيعة بعد موت والده أبى يزيد. ويعتبر أبو المكارم هبة الله هو المؤسس الحقيقى لإمارة ربيعة الكبرى فى أسوان وبلاد النوبة. فقد اتسعت حدود الإمارة فى عهده حتى أصبحت تضم صعيد مصر الجنوبى من قوص إلى أسوان، كما ضمت جزءا كبيرا من بلاد النوبة الشمالية وهى المنطقة التى تعرف باسم مريس التى تقع جنوب وادى حلفا، كما ضمت وادى العلاقى بالصحراء الشرقية. وقد عاد هذا الاتساع على هذه الإمارة بشئ كثير من القوة والرخاء ومكنها من أن تلعب دورا سياسيا هاما فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي. فقد ساعد أمير ربيعة أبو المكارم هبة الله هذا الخليفة فى القضاء على أبى ركوة الذى كان قد ثار على الحاكم بأمرالله فى عام ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م، ولجأ إلى الصعيد ثم إلى بلاد النوبة، فظفر به أبو المكارم وأرسله إلى القاهرة، فأكرم الحاكم بأمر الله زعيم ربيعة هذا إكراما عظيما وخلع عليه لقب كنز الدولة وصارت ربيعة فى أسوان والنوبة تعرف منذ ذلك الحين باسم بنى كنز أو الكنوز، وصار هذا اللقب علما على جميع أمرائها حتى انتهت دولتهم.

ورغم ازدياد نفوذ بين كنز على هذا النحو، فإنهم لم يتمكنوا من تكوين دولة مستقلة تماما عن مصر إلا بعد ذلك الحادث ببضع قرون. وقد تم ذلك على وجه التحديد فى عام ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣م، وقبل ذلك التاريخ كان بنو كنز يتقلبون بين التبعية لحكام مصر من الفاطميين ثم الأيوبيين فالمماليك وبين الثورة عليهم رغبة فى الاستقلال بأنفسهم وبما يحكمونه من بلاد. وعلى سبيل المثال فقد أعلن كنز الدولة محمد استقلال إمارته التام عن الدولة الفاطمية فى عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م مستغلا فى ذلك حالة الفوضى والخراب والدمار التى حلت بمصر أثناء الشدة العظمى التى حلت بالبلاد نتيجة لانخفاض مياه النيل سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٤هـ) . ولكن بدر الجمالى الذى استقدمه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وجعله وزيرا فى مصر،قضى على الفوضى فيها ثم رنا ببصره إلى بنى كنز فحاربهم وقضى على استقلالهم الذى أرادوه، وذلك فى عام ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م، وفر أميرهم إلى ملك النوبة الذى سلمه بدوره إلى مصر فى عام ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م، فقتله بدر الجمالي، ولم يلبث هذا الوزير أن عفا عن بنى كنز بعد توسط ملك النوبة بشأنهم حتى يكونوا قوة حاجزة بينه وبين خلفاء مصر وحكامها، فأعادهم بدر الجمالى إلى وحكامها فى أسوان تحت إشراف الدولة، وظلت العلاقات طيبة بين الفريقين فى مجملها حتى انتهى عصر الدولة الفاطمية وقام حكم الأيوبيين فى مصر.

وفى عصر الأيوبيين نجد تطورا للعلاقة بين بين كنز وصلاح الدين الأيوبى أول سلاطين بنى أيوب فى مصر . فقد أيده بنو كنز وتعاونوا معه فى بداية حكمه، فساعدوه فى القضاء على هجوم الجند السودانيين من أعوان الفاطميين الذين كانوا قد فروا إلى بلاد النوبة وأرادوا إعادة الخلافة الفاطمية فهاجموا أسوان فتصدى لهم بنو كنز وتعاونوا مع جند صلاح الدين فى مطاردتهم فى أرض مريس فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، كما اشتركوا بأعداد كبيرة فى الحملة

التى أرسلها صلاح الدين بقيادة تورانشاه لغزو بلاد النوبة، تلك الحملة التى وصلت إلى بلدة إبريم واستولت عليها وأسرت عددا كبيرا من أهلها، ثم عادت إلى مصر.

ولم تلبث هذ العلاقة الطيبة بين بنى كنز وصلاح الدين أن تحولت إلى عداء وصراع وذلك إثر قيام صلاح الدين بتعيين أحد أمرائه فى حكم أسوان بدلا من بنى كنز حتى يضمن سيطرته على كل أنحاء مصر ، فتمرد هؤلاء على صلاح الدين فى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م وقتلوا هذا الأمير واتصلوا ببقايا الشيعة والجند الفاطميين الذين كان صلاح الدين قد نفاهم إلى أقاصى الصعيد وشكلوا تمردا خطيرا ضد صلاح الدين الذى لم يتوان عن مواجهة هذا التمرد، فأرسل حملة كبيرة على رأسها أخوه العادل الذى تقابل مع كنز الدولة فى قوص فى معركة عنيفة انتهت بمقتل كنز الدولة والقضاء على معظم جنده، حتى قيل أن من قتل منهم ثمانون ألفا، مما أدى إلى خراب هذه المنطقة من صعيد مصر.

والواقع أن هذه الضربة العنيفة التى وجهها صلاح الدين لبنى كنز حددت مصير إمارتهم فى أسوان. إذ لم يبق أمامهم إلا مواصلة القتال ضد صلاح الدين أو النزوح جنوبا والتوغل فى مملكة النوبة الشمالية التى كانت تعرف وقتذاك باسم مملكة مقرة المسيحية. واختار بنو كنز الحل الأخير فغادرت غالبيتهم العظمى أسوان إلى النوبة الشمالية وتركزوا فى منطقة مريس واختلطوابالنوبيين واندمجوامعهم بمرور الزمن، وتكلموا لغتهم، واستفادوا من نظام الوراثة السائد عندهم والذى يمنح ابن البنت أو ابن الأخت حق وراثة الحكم دون ولد الصلب. فانتقل الحكم إليهم فى منطقة مريس ، وتمتعوا بفترة سلام طويلة عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى فى عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٢م، فلم يحدث بينهم وبين الأيوبيين مايعكر الصفو حتى انتهى عصر الأيوبيين وبدأ عصر جديد هو عصر سلاطين المماليك.

وفى هذا العصر استطاع بنو كنز أن يقيموا إمارتهم الثانية هذه المرة فى بلاد النوبة وليس فى وادى العلاقى أو فى أسوان كما حدث من قبل، بل إنهم أقاموا مملكتهم فى هذه البلاد منذ عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م. وبطبيعة الحال لم يرض الحكام الجدد فى مصر من سلاطين المماليك عن قيام أى حكم عربى مجاور لهم فى بلاد النوبة، فقد كانت سياستهم هى اضطهاد العربان فى مصر والنوبة بصفة عامة، ومطاردتهم والقضاء على أى أمل فى قيام دولة يستقلون بهاعن حكم هؤلاء المماليك المشترين أصلا بالمال، أى غير الأحرار، والذين كان عربان مصر يأنفون من أجل ذلك أن يكونوا رعية لهم، ومن ثم ثار بين الفريقين صراع كبير امتد من صعيد مصر إلى بلاد النوبة، حيث نزح إليها كثير من هؤلاء العربان هربا من هذا الاضطهاد الذى لاقوه على أيدى الجيوش المملوكية. وكانت هذه الجيوش تهدف أيضا إلى غزو مملكة مقرة المسيحية عقابا على اعتداءات ملوكها على صعيد مصر وقيامهم بكثير من السلب والنهب والتدمير والقتل، دعما للنشاط الصليبى الأوربى الذى كان يهدد مصر فى ذلك الحين.

ولتحقيق هذين الهدفين تعددت الحملات التى أرسلها سلاطين المماليك إلى مملكة مقرة، فالقضاء عليها هو قضاء فى نفس الوقت على إمارة بنى كنز فى مريس . من هذه الحملات ثلاث أرسلها الظاهر بيبرس تمكنت الأخيرة منها فى تعيين ملك نوبى يدعى شكندة على عرش دنقلة بعد فرار الملك السابق داود، وأقسم الملك الجديد يمين الولاء لسلطان مصر وتنازل عن منطقة مريس نهائيا للدولة المملوكية، وذلك فى عام ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥م.

ومعروف أن منطقة مريس كانت منطقة نفوذ بين كنز منذ أن رحلوا عن أسوان فى عهد صلاح الدين الأيوبى وأقاموا فيها . ويبدو أن بنى كنزأرادوا أن يستفيدوا من هذا الصراع الذى اندلع بين الظاهر بيبرس وملوك دنقلة

المسيحيين، فتعاونوا مع سلاطين مصر فى تلك الفترة لأنهم أحسوا بأن كفتهم الراجحة، وحتى لا تقضى عليهم جيوش هؤلاء السلاطين أثناء زحفها إلى دنقلة، وكافأتهم الدولة على هذا العمل بأن أقرت أميرهم على ما كان تحت يده من بلاد نوبية كانت تشمل حوالى نصف مملكة مقرة التى كانت تعرف أيضا باسم مملكة دنقلة أو النوبة الشمالية.

وقد ظهر تعاون بنى كنز مرة أخرى فى الحملة التى أرسلها المنصور قلاوون فى عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م لحسم الأمور بالنوبة بعد أن خرج ملوكها عن طاعة سلطان مصر. ولما وصلت هذه الحملة إلى دنقلة فر ملكها المدعو سيمامون إلى الجنوب، وعندما علم بعودة الحملة إلى مصر عاد إلى عرشه فى دنقلة، مما جعل المنصورقلاوون يرسل حملة أخرى انضم إليها حوالى أربعين ألفا من عربان الوجهين القبلى والبحري.كما انضم إليها فرقة من قوات بنى كنز عند وصول هذه الحملة إلى منطقة مريس. ويرجع الفضل الأكبر فى نجاح هذه الحملة وفى تحقيق أهدافها إلى بنى كنز وفرقتهم تلك، فقد كان أمراؤهم يتقدمون الحملة المملوكية ويقومون بطمأنة أهل البلاد وتأمينهم ، وبتقديم الإمدادات والمؤن للجيش المهاجم الذى وصل إلى دنقلة وعين عليها ملكا نوبيا مواليا لمصر.

وظل الأمر على هذا النحو حتى لجأ الناصر محمد بن قلاوون إلى تعيين ملك نوبى مسلم يدعى عبد الله برشمبو فى عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م على عرش دنقلة، مما يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد أدت من غير شك إلى سقوط مملكة مقرة النوبية المسيحية، وأدت إلى زيادة انتشار الاسلام فى هذه المملكة وازدياد العنصر العربى فيها، هذا العنصر الذى كان قد انتشر هناك إلى حد كبير منذ أن اتبع حكام مصر من الترك مثل الطولونيين والإخشيديين ثم

المماليك سياسة الصدام مع عربان مصر، ففضل كثير منهم الهجرة إلى الصعيد ثم إلى منطقة مريس النوبية، ومنها إلى بقية بلاد النوبة والسودان، بل إن كثيرا منهم كان يصحب الحملات التى أرسلها حكام مصر إلى بلاد النوبة، وكان بعضهم يفضل عدم العودة ويبقى فى هذه البلاد، مما ساعد فى القضاء على دولة مقرة المسيحية وقيام دولة بنى كنز العربية الإسلامية.

ذلك أن ملك النوبة كرنبس الذى فر عدة مرات أمام الحملات المملوكية عندما علم بعزم سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون على تعيين ملك مسلم على النوبة، رشح ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز لهذا المنصب، ولكن السلطان المملوكى رفض تعيينه لأنه عربى وله أتباع كثيرون من العرب المقيمين فى بلاد النوبة، مما يخشى منه استقلاله عن السلطنة المملوكية، وعين عبد الله برشمبو فى حكم دنقلة كما سبق القول.

غير أن كنز الدولة رأى أنه صاحب الحق الشرعى فى تولى عرش مملكة النوبة طبقا لما هو متبع فى نظام الوراثة عند النوبيين، إذ لم يكن الملك النوبى المسلم الذى عينه الناصرمحمد من بيت الملك، ولا يمت بصلة القرابة لملك النوبة الشرعى المدعو كرنبس، ولذلك حاربه كنز الدولة وقتله واعتلى أريكة الحكم فى دنقلة متحديا سلطان مصر الذى أسرع بإرسال حملة إلى النوبة فى عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م أعادت كرنبس لعرش البلاد بشرط أن يقبض على ابن أخته كنز الدولة ويرسله إلى مصر. ولكن كنز الدولة استطاع أن يعود إلى الظهور فى دنقلة ويسترد عرشها من خاله بعد عودة الحملة المملوكية إلى مصر، فلم يجد الناصر محمد مفرا من الاعتراف به ملكا على دنقلة، نظرا لما كان يتمتع به ذلك الملك العربى من حب الرعية سواء كانوا نوبيين أم عربا ولذلك يعتبر عام ٧٢٣هـ/ ٣٢٣ هو العام الذى انتهت فيه مملكة مقرة النوبية المسيحية، وقامت

فيه دولة بنى كنز الإسلامية المستقلة. وقد ظل بنو كنز هؤلاء ملوكا على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية أيضا على جزء كبير من أقاصى الصعيد حتى الفتح العثمانى لمصر فى عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م.

وكان استقلال بنى كنز فى دنقلة عن سلاطين مصر تاما أو على الأقل شبه تام، فلم يكن يربطهم بهؤلاء السلاطين سوى رابطة الولاء الروحى حسبما ذكر ابن بطوطه أثناء رحلته إلى مصر فى عام ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م، أى بعد قيام مملكة بنى كنز فى دنقلة بثلاثة أعوام. وكان بنو كنز من الذكاء بحيث أنهم لم يقطعوا صلتهم بمصر وسلاطينها مرة واحدة، فكانوا يحرصون على إرسال بعض الرقيق وتقديم الهدايا لسلطان مصر، مما دفع الناصر محمد إلى الصفح عنهم، وأرسل لهم مكاتبات تعترف بهم ملوكا على عرش دنقلة.

وبعد عهد الناصر محمد ومرور مصر بفترات من الفتن والاضطرابات نتيجة حدوث نوبات من القحط ترتب عليها غلاء فاحش وموجات من الأوبئة والأمراض أصبح بنو كنزمستقلين تماما عن سلاطين مصر ولم يعودوا يرسلون ما كانوا يرسلونه من مال أو هدايا، وأصبحت مملكة النوبة العربية الإسلامية مملكة مستقلة تماما حسبما ذكر القلقشندى الذى أورد مكاتبة صاحبهاضمن المكاتبات التى كانت تخرج من مصر للملوك. وبذلك وصلت هذه الدولة الكنزية النوبية الإسلامية إلى قمة سلطانها وعلو شأنها وحاولت استعادة نفوذها فى أسوان، فاقتحمتها فى عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م وسيطرت على ميناء عيذاب وضمته إلى سلطانها. وقد أثار هذا الأمر سلاطين المماليك فى مصر وأتاح لهم الفرصة للتدخل فى شئون بنى كنز والاعتداء عليهم، ساعدهم على ذلك انقسام الكنوز على أنفسهم فى بعض الأحيان منذ الثلث الأخير من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر للميلاد، كما ساعدهم أيضا اتجاه الطامعين منهم فى العرش إلى

سلاطين مصر طلبا للمساعدة لتحقيق هذا الغرض، وأيضا للتصدى للقبائل العربية المهاجرة إلى بلاد النوبة والمناوئة لهم. ومن هنا بدأت الاحتكاكات بين سلاطين مصر وبين ملوك بنى كنز.

من ذلك ما ترويه المصادر من حدوث انقسام بين الأسرة الكنزية الحاكمة فى عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م تدخل فيه عرب بين جعد ، ولكن بنى كنز تصالحوا فيما بينهم وأرسلوا سفارة إلى مصر يطلبون من سلطانها الأشرف شعبان مساعدته فى التصدى للقبائل العربية النازحة إلى بلادهم والتى يمكنها أن تتدخل فى شئون الحكم كما حدث من بنى جعد. فأرسل الأشرف شعبان حملة عسكرية قدم لها بنو كنز كل عون ومساعدة، ولكن قائد الحملة غدر بهم عندما وصل إلى مدينة أبريم فى بلاد النوبة وقبض على زعمائهم وأرسل فرقة حاربت بنى جعد عند جزائر ميكائيل وقتلت منهم الكثير، وعادت الحملة إلى أسوان ومعها أسرى بنى كنز وبنى جعد حيث قام والى أسوان الأمير حسام الدين المعروف بالدم الأسود بقتلهم بعد أن سمرهم فى ألواح من خشب ، وشهر بهم فى شوارع أسوان وأرسل رءوسهم إلى القاهرة لتعلق على أبوابها.

كان سلطان مصر وأميره على أسوان يهدفان من وراء هذا العمل إلى استعادة نفوذ مصر على أسوان وإضعاف دولة بنى كنز، ولكن الغدر والمبالغة فى العنف من تشهير وقتل أثارت بنى كنز وبنى جعد وغيرهم من القبائل العربية الأخري، فانضموا جميعا تحت لواء بنى كنز وانقضوا على أسوان وأنزلوا هزيمة ساحقة بأميرها حسام الدين وقتلوه قصاصا على ما فعله بزعمائهم ، ومالوا على أسوان فخربوها وأشعلوا فيها النيران، وقتلوا جمعا من أهلها ونهبوا ما فيها وأسروا نساءها . وهكذا فشل الأشرف شعبان فى قمع بين كنز والقضاء على استقلالهم، فقد ردوا على تحديه لهم بتحد أشد عنفا وقسوة، إذ

قتلوا واليه وأجروا مذبحة رهيبة فى أسوان، وأصبح نفوذ ولاة المماليك فيها لا يتعدى حدود أسوارها بعد أن ضيق بنو كنز عليها المنافذ من جميع الجهات عدا الجهة الشمالية التى تصل هذه المدينة بمصر.

وطبيعى أن الأمور لا يمكن أن تستقر على هذا الحال بين سلطنة المماليك وبنى كنز، إذ انتهز والى المماليك على أسوان الأمير قرط بن عمير فرصة حدوث انقسام بين أمراء بنى كنز فأغار عليهم فى عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م وتمكن من القبض على أحد عشر زعيما من زعمائهم وقتلهم.، كما أرسل مائتين من بين كنز حيث بيعوا فى أسواق الرقيق. وقد استنكر المؤرخون المعاصرون هذه المبالغة فى الانتقام والقسوة والعنف من سلاطين المماليك وولاتهم على أسوان ضد بنى كنز الذين ردوا على ذلك واقتصوا لأنفسهم بتكرار الإغارة على أسوان فى محاولة منهم لاستردادها حيث أنها كانت عاصمة لهم حتى عهد صلاح الدين الأيوبي. ولذلك نسمع أن بني كنز أغاروا على أسوان فى عام ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م واستولوا عليها أثناء ولاية الأمير حسين بن قرط، ثم هاجموها واستولوا عليها مرة أخرى فى عام ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٦م بالاشتراك مع عرب هوارة الذين كانوا قد ثاروا على سلطان مصر لحبسه أميرهم وأولاده وإخوته وأقاربه. وتمكن الكنوز وهوارة من اقتحام المدينة بعد أن فر واليها المذكور ونهبوها، ولم يتمكن الوالى الجديد عمر بن إلياس من استعادتها، ولم يتمكن من ذلك أيضا وال آخر تولى بعده يسمى إبراهيم الشهابى وكان نصيبه القتل فى المحرم من عام ٨٠١ هـ/ سبتمبر ١٣٩٨م مما يدل على أن بنى كنز استعادوا نفوذهم تماما فى أسوان ، ساعدهم على ذلك تلك المحن التى حلت بمصر فى عهد السلطان فرج وحتى عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م ونتج عنها خراب شمل الصعيد بأسره، مما أضعف حكم المماليك فيه « وارتفعت يد السلطنةعن ثغر أسوان،ولم يبق للسلطان فيه وال» ، مما أكد نفوذ بنى كنز فى هذه المدينة إلى حد كبير.

ورغم ذلك فإن عوامل داخلية وخارجية أدت إلى ضعف دولة بين كنز والقضاء عليها فى النهاية. من هذه العوامل ذلك الصراع الذى كان يندلع بين الفينة والفينة داخل الأسرة الكنزية الحاكمة بسبب الطمع فى كرسى العرش وخاصة منذ بداية القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد. وقد أعطى هذا الصراع الفرصة لسلاطين المماليك كى يتدخلوا فى شئون دولة بنى كنز الداخلية ويعملوا على إضعافها أملا فى استعادة نفوذهم فيها كما كان الحال فى عصر دولة المماليك البحرية. من ذلك ما حدث فى عام ٨٠٠هـ/١٣٩٥م عندما لجأ نصر الدين ملك النوبة الكنزى إلى القاهرة مستنجدا بالسلطان المملوكى الظاهر برقوق ضد ابن عمه، فأمر سلطان مصر والى أسوان بإرسال حملة لمساعدته .

كما أن الصراع الذى استمر فترة طويلة وإن كانت متقطعة بين سلاطين المماليك فى مصر وبنى كنز فى أسوان والنوبة والذى أشرنا إلى شئ منه أضعف الأخيرين واستنزف قواهم إلى حد كبير وأدى فى النهاية إلى إضعافهم. وعندما كان سلاطين المماليك يشعرون أن بنى كنز قد عادت لهم قوتهم لسبب أو لآخر، كانوا لا يتوانون فى توجيه ضربة لهم حتى يعودوا إلى حالة الضعف من جديد. من ذلك تلك الحملة العسكرية التى أرسلها ضدهم السلطان جقمق والتى منيت بالهزيمة، فأرسل حملة أخرى فى عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م حققت بعض أهدافها وعادت بعد ثلاثة أشهر برءوس جماعة من عرب الكنوز على أسنة الرماح.

يضاف إلى ذلك منافسة القبائل العربية التى هاجرت إلى أسوان والنوبة لبنى كنز ومنازعتها لهم فى النفوذ والسلطان. من ذلك ما حدث من هوارة التى زحفت جنوبا سنة ٨١٥ هـ/ ١٤١٢م حتى وصلت أسوان وتحالفت بادئ الأمر

مع بنى كنز، غير أنها نقضت حلفها بعد ذلك وناصبتهم العداء واشتبكت معهم فى معركة حامية عند أسوان انتهت بتخريب هذه المدينة وهزيمة بنى كنز، مما أضعف من نفوذهم الذى تقلص إلى منطقة مريس وما وراءها.

وقد جاءت الضربة القاضية لدولة بنى كنز على يد الأتراك العثمانيين فبعد أن فتحوا مصر فى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أرادوا أن يدعوا نفوذهم فى بلاد الصعيد والنوبة، فأرسل السلطان سليم الأول العثمانى فى عام ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م حملة على رأسها أحد قواده ويدعى حسن قوسى لفتح هذه البلاد. وقد نجح هذا القائد فى إنزال الهزيمة ببنى كنز، وبنى قلاعا فى أبريم، والدر وجزيرة ساى ، وأنزل بها حاميات من الأتراك (الغز) عرف رجالها باسم الكشاف، وحاول الفونج حكام سنار أن يضموا هذه البلاد إلى حكمهم بعد وفاة حسن قوسي، وأرسلوا جيشا لتحقيق هذا الهدف، ولكن رئيس الغز المدعو ابن خانبلان هزمهم فى معركة حامية وقعت عند بلدة (حنك)، فانسحب الفونج إلى بلادهم فى وسط السودان ولم يعد لبنى كنز دولة يمكن أن يؤرخ لهامنذ ذلك التاريخ، وإن كان وجودهم كقبائل ومشيخات صغيرة ظل مستمرا حتى تم فتح هذه البلاد على يد اسماعيل بن محمد على فى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، هذا الفتح الذى أزال معظم الكيانات السياسية العديدة التى كانت قائمة وقتذاك ، ومن ثم ظهر السودان بشكله السياسى الذى نراه حتى اليوم.

وعلى أى حال فقد كان لبنى كنز دورهم السياسى والحضارى فى بلاد النوبة والسودان، فهم أول من استقلوا بها عن سلاطين المماليك فى مصر، وهم أول من أنشأوا فيها دولة عربية إسلامية ، بعد أن قضوا على الدولة المسيحية التى كانت تحكمها تحت اسم مملكة مقرة، وظلوا يناوئون سلاطين المماليك حتى نالوا استقلالهم فى بلاد النوبة، واستعادوا أيضا نفوذهم فى أسوان، ذلك

النفوذ الذى كانوا قد فقدوه منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. وأهم من ذلك كله جهودهم فى نشر الإسلام والعروبة بين قبائل البجة الوثنية وقبائل النوبة الوثنية والمسيحية. وكانت أراضى البجة فى الصحراء الشرقية وحول وادى العلاقى بالذات هى أول ما استقر فيها الكنوز، وأقام بنو كنز هؤلاء هناك أول إمارة عربية فى هذه المنطقة بعد أن صاهروا رؤساء البجة ونشروا بينهم الإسلام، وبمرور الوقت ومع تزايد هجرات العرب إلى هذه البلاد تحولت قبائل البجة جميعها إلى الإسلام.

كذلك كان الحال فى منطقة مريس التى تحول إليها بنو كنز بعد فقد نفوذهم فى أسوان. فقد تحول كثير من أهلها إلى الإسلام على أيديهم مع بداية قيام الدولة الفاطمية فى مصر، وتأكد هذا الإسلام وازداد انتشارا بعد أن نقل بنو كنز مقر حكمهم إليها فى عهد صلاح الدين الأيوبي. ويعود الفضل لبنى كنز أيضا فى القضاء على مملكة مقرة النوبية المسيحية التى كانت تتخذ مدينة دنقلة عاصمة لها بعد أن اعتلى بنو كنزعرش هذه الدولة فى عام ٧٢٣هـ /١٣٢٣م. وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الإسلام والعروبة كى تعم ليس بلاد النوبة الشمالية فقط، بل أيضا بلاد النوبة العليا التى كانت تعرف باسم مملكة علوة المسيحية، والتى تم إزالتها هى الأخرى فى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م نتيجة لهجرات عربية تحالفت مع قبائل الفونج السودانية، وأقامت دولة إسلامية تعرف باسم سلطنة الفونج الإسلامية.

٢ ـ سلطنة الفونج الاسلامية فى سنار

(٩١٠ ـ ١٢٣٦هـ/ ١٥٠٥ ـ ١٨٢٠م)

اختلفت الباحثون فى أصل الفونج فقيل إنهم من سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين، وأنهم جاءوا الى الحبشة أولا ومنها إلى السودان الشرقى

(النيلي) حيث تصاهروا مع ملوك السودان، وظهرت نواة لامارة الفونج بعد انتهاء القرن الثالث عشر للميلاد عقب القضاء على مملكة دنقلة المسيحية وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة علوة المسيحية. واتسع نطاق هذه الامارة غربا ووصل الى أطراف منطقة الجزيرة وصاقب أملاك علوة من الشرق، ثم تم التحالف بين هذه الامارة النامية فى عهد أميرها عمارة دونقس (١٥٠٥ ـ ١٥٣٤م) وبين عرب القواسمة الذين ينتمون الى مجموعة الكواهلة فى عهد زعيمهم عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة.

وقد كان لهذا التحالف نتائج هامة فى تاريخ سودان وادى النيل، وأولى هذه النتائج هى تمكن الحليفين من القضاء على مملكة علوة المسيحية عام ١٥٠٥م. وثانى هذه النتائج هى أن هذا التحالف أدى إلى قيام مملكة العبد لاب التى ـ اتخذت مدينة قرى حاضرة لها، ثم انتقلت إلى حلفاية وشاركت الفونج فى السيطرة على القسم الشمالى من البلاد، وامتد ملكهم من مصب دندر الى بلاد دنقلة ، لكنهم كانوا يدينون بطاعة اسمية إلى سلطنة الفونج، ثم استقلوا عنها سنة ١٧٧٠م حينما ضعف الفونج وتغلب عليهم الهمج. (الهمق).

وثالث هذه النتائج أن هذا التحالف أدى أيضا إلى قيام ملمكة الفونج الاسلامية، وكان عمارة دونقس أول سلطان لها. اتخذ هذا السلطان مدينة سنار عاصمة له وامتد نفوذه من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض بما يضمان من أرض الجزيرة، وامتد نفوذه الاسمى على البلاد حتى دنقلة فى الشمال وعلى حكام هذه البلاد من مشايخ قرى الذين كانوا يعترفون لسلطنة الفونج بالسيادة الاسمية ويدفعون لها الإتاوة كما سبق القول.

وبلغت هذه السلطنة أوج مجدها فى عهد السلطان بادى الثانى أبودقن (١٦٤٢ ـ ١٦٧٧م) إذ امتدت رقعتها من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ومن

البحر الأحمر إلى كردفان. واستمر توسع هذه الدولة طيلة القرن الثامن عشر في عهد الملك بادي الرابع.

غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف في هذه السلطنة عندما تصدعت عرى التحالف بين سلاطين الفونج وعرب القواسمة الذين استقلوا عام ١٧٧٠ كما سبق القول، كما كان لاستبداد الوزراء والقواد أثره في القضاء على هذه الدولة. فقد استطاع محمد بن أبي لكيلك كتمور (ت١٧٧٦م) أن يعزل السلطان بادي الرابع ويولي غيره وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية تزيد في انحلال الأسرة المالكة حتى ابتلعهم الفتح المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر في عهد محمد علي.

ويهمنا من أمر هذه الدولة مدى مساهمتها في النشاط الإسلامي في سودان وادي النيل، ومدى تشجيعها ودفعها للاسلام والثقافة العربية الاسلامية. فقد ظهرت هذه الدولة أول ما ظهرت في مظهر إسلامي واضح، إذ أنها استهلت حياتها الأولى بالمساهمة في حركة الجهاد الإسلامي بمشاركتها للعرب في القضاء على مملكة علوة المسيحية. وبذلك تدفق الاسلام في وسط السودان ومنه الى الجنوب والغرب. كما شارك الفونج في حركة الجهاد في شرقي افريقيا حينما شاركوا في حركة أحمد القرين وجهاده في بلاد الحبشة، كما أسهموا في محاربة الوثنيين في داخل السودان نفسه. فقد حاربوا أهل جبال النوبا بسبب غاراتهم على كردفان، واستمروا في حربهم زمنا طويلا حتى انتشر الاسلام في كثير من مناطق هذه الجبال في غربي السودان.

كما حارب الفونج الشلك أو الشلوك لنفس الغرض، بل شاركوا في حركة الجهاد الاسلامي ضد الأحباش في القرن الثامن عشر. فقد قضوا على بعثة فرنسية كانت قادمة إلى الحبشة لمساندتها في حربها ضد المسلمين عام ١٧٠٥م

واشتبكوا مع الأحباش فى عهد الملك بادى الرابع أبو شلوخ سنة ١٧٤٤م، وكانت جيوش الفونج يقودها ود مسمار ود عجيب شيخ قرّى، وكان أمير قرى هو الشيخ محمد أبو اللكيلك كبير الهمج الذى قضى على دولة الفونج فيما بعد، وانتصر هؤلاء القواد على جيش الحبشة، وكان لانتصارهم هذا دوى هائل فى العالم الاسلامى المعاصر فى مصر والشام والحجاز وتونس واستانبول والهند.

لم يسهم الفونج فى نشر الاسلام عن طريق الجهاد فحسب إنما استعانوا بالوسائل السلمية التى كانت غالبة فى أغلب الأحوال. وكان لرواد الدعوة الذين وفدوا من الحجاز والمغرب ومصر والعراق إلى جانب الدعاة الوطنيين فضل كبير فى هذا السبيل، فالحج والتجارة بين الحجاز والسودان كانا من أكبر ما هيأ للسودان نشر الدعوة. وكان حجاج السودان يشجعون علماء الحجاز علي الرحلة الي بلاد الفونج، كما أن كثيراً من السودانيين كانوا يتلقون العلم فى مكة والمدينة. أما المغرب فكان منبعا آخر للثقافة الاسلامية، ويذكر ود. ضيف الله عددا من علماء الفونج يرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس.

أما العراق فنجد ذكره قليلا فى ذلك العصر، ومن أوائل من نشر الصوفية فى بلادالفونج شيخ قدم من العراق يسمى تاج الدين البهاري. وقد اعتنق - طريقته عدد من الوجهاء، ولم تلبث أن عمت تلك الطريقة جميع بلاد سنار. أما مصر فكانت علاقة السودان بها فى ذلك الحين أقل من تلك التى كانت بينه وبين الحجاز والمغرب، ومع ذلك تطلع ملوك الفونج إلى الأزهر الشريف وعلمائه ورحبوابهم. وكان بعض السودانيين يذهبون إلى الأزهر ثم يعودون، وكان لهم أثر واضح فى نشر الثقافة الاسلامية فى السودان.

وقد رحل أحدهم وهو الفقيه محمد الجعلى إلى منطقة جبال النوبا التى تقع جنوب كرد فان مع مجموعة من الفقهاء للدعوة إلى الاسلام فى أوائل القرن

السادس عشر للميلاد وإستطاع أن يتزوج أميرة من البيت الحاكم هناك، فانتقل الحكم الى ابنه المسنى قيلى أبو جريدة. وقد أسس هذا الإبن أول أسرة إسلامية حاكمة فى جبال النوبا وأقام مملكة عرفت باسم مملكة تقلى فى هذه الجبال فى عام ١٥٢٠م وكان هو أول سلاطينها.

كذلك كان لسلطنة الفونج اتصال بدارفور التى كانت تستعين بفقهاء دولة سنار فى نشر الدعوة فيها، وكان للفونج اتصال أيضا بالباشا التركى فى موانى البحر الأحمر فى سواكن ومصوع حيث كان له وكلاء فى سنار وأربجي، وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية، مما يدل على عمق الروح الإسلامية التى تغلغلت فى سلطنة الفونج.

وتظهر هذه الروح الاسلامية فى معاملتهم لرجال العلم وفى احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم، حتى صار لهؤلاء نفوذ كبير وسلطات زمنية وروحية، ويظهر أن مملكة سنار كانت المركز العلمى الذى تطلعت إليه جميع مناطق السودان النيلى شرقا وغربا. ويظهر أن كثيرا من العلماء من المناطق النائية كانوا يرحلون إلى ملوك الفونج وزعمائهم ويعيشون فى جوارهم وينالون الاقطاعات الواسعة مماد فع الحركة الاسلامية دفعا كبيرا فى عهد هذه السلطنة إلى الأمام.

٣ ـ سلطنة دار فور الإسلامية

(٨٤٩ ـ ١٢٩٢ هـ/ ١٤٤٥ ـ ١٨٧٥م)

بلاد دارفور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى وتتخللها بعض المرتفعات مثل جبل مرة، ويتألف سكانها من العنصر الزنجى والعنصر الحامي. وكانت هذه البلاد مستقرا لشعب يسمى شعب الداجو وفد عليها من الشرق أو من

جبال النوبا الواقعة غرب النيل الأبيض قبل القرن الثانى عشر للميلاد وأسس فيها ملكا. وفى القرن الثانى عشر للميلاد دخل هذه البلاد عنصر مغربى من تونس يتمثل فى شعب التنجورأوعرب التنجور، وربما كان هؤلاء مغاربة تركوا بلادهم هربا من غارات بنى هلال فى شمال إفريقيا، فهم عنصر من البربر أو العرب خالط شعب الداجو وصاهروهم ووثبوا إلى الحكم عن طريق هذه المصاهرة، لأن شعب الداجو يجعل للبنات حقا فى الوراثة، ونتج عن هذا الاختلاط جنس مختلط يسمى شعب الفور.

كان أول هؤلاء السلاطين المولدين من الداجو والتنجور أحمد المعقور الذى تزوج من ابنة ملك دارفور الوثنى بعد أن كان أحمد هذا قد أثبت جدارته كما سبق القول عند الحديث عن عوامل انتشار الاسلام فى القارة فى الإشراف على شئون بيت الملك الذي اتخذه مستشارا فى أمور دولته، فعمل على استرضاء المتمردين ، واستتب الأمن ونعم الناس بالهدء والسلام. ولما لم يكن للملك ابن فقد عين زوج ابنته أحمد المعقور خليفة له، فتأسست أول سلطنة إسلامية فى دار فور.

وقد اقترنت إصلاحات أحمد وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ فى نشر الدعوة الاسلامية. على أن دارفور لم تدخل فى الاسلام حقا إلا نتيجة جهود أحمد ملوكها ويدعى سليمان سولون الذى جاء نتيجة لإحدى الهجرات العربية التى وفدت على دارفور منحدرة من وادى النيل فى القرن الخامس عشر للميلاد. وأصهر هؤلاء العرب إلى سلاطين الفور مثل إصهارهم إلى ملوك النوبة من قبل.

وكان سليمان سولون وليد هذه المصاهرة وتمكن من اعتلاء عرش دارفور (١٤٤٥ ـ ١٤٧٦م)، وفتح البلاد للهجرات العربية، فوفدت قبائل الحبانية

والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنوهلبة والزيادية والماهرية والمحاميد وبنو حسين وغيرهم مما سبق أن أشرنا إليه عند حديثنا عن الهجرات وأثرها فى نشر الاسلام. فانتشر الإسلام فى ركاب هؤلاء العرب المهاجرين إلى دارفور، واصطبغت السلطنة بالصبغة الاسلامية الواضحة، وعمد السلطان سليمان سولون إلى تثبيت ودعم الحركة الاسلامية فاستقدم الفقهاء من الشرق ليعلموا الناس أصول دينهم، كما شجع التجارة وأسس المساجد والمدارس واستخدم الأسلحة النارية ، وأخذ الناس يدخلون فى الاسلام أفواجا.

وعلى ذلك فإن الدور الذى قام به سليمان سولون فى تاريخ دارفور لايكاد يختلف عن دور منسا موسي، وأسكيا محمد، وأوم بن عبد الجليل فى غربى إفريقيا، أو دور عمارة دونقس فى سنار ، ففى عهده برزت هذه السلطنة فى سماء الحياة الإسلامية، وتاكيدا لذلك نسب سلاطين الفور من أحفاد سليمان أنفسهم إلى بنى العباس ، كما نسب الفونج أنفسهم إلى بنى أمية.

وبدأت الدولة تتسع، فامتد سلطانها على كرد فان فى عهد السلطان تيراب (١٧٦٨ ـ ١٧٨٧م). وقد استعان هذا السلطان بعرب البادية من أبالة وبقارة، وبدأ يحتك بالقوى الإسلامية الأخرى فى السودان، فأوقع بجيش العبدلاب قرب أم درمان، وبلغت الدولة فى عهده أقصى اتساعها، فكان حدها من الشمال بئر النترون فى الصحراء الكبري، ومن الجنوب بحر الغزال، ومن الشرق نهر النيل، ومن الغرب منطقة واداي.

وقد اكتمل هذا السلطان الفعلى والرسمى فى عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٧٧٨ ـ ١٧٩٩م) الذى نقل العاصمة إلى مدينة الفاشر، واتصل بالسلطان العثمانى واعترف بسيادته، فمنحه لقب الرشيد، وقد امتد نفوذ سلطنة دار فور إلى مملكة واداى فى عهد محمد الفضل حين هزم السلطان آدم

وحمله إلى الفاشر أسيرا ، وكان من الممكن أن تتسع السلطنة إلى آفاق أوسع لولا التوسع المصرى فى القرن التاسع عشر الميلادي، ذلك التوسع الذى قضى على هذه السلطنة فى عام ١٨٧٥ فى عهد عاهل مصر الخديوى إسماعيل.

وكما حدث فى السلطنات الأخرى التى تعرضنا لها بالحديث حتى الآن، فقد انفعلت هذه السلطنة بالحياة الاسلامية واصطبغت بالصبغة الاسلامية الواضحة. فقد عمل سلاطينها على ربط بلادهم بالعالم الاسلامى المعاصر فى الناحيتين الثقافية والدينية، فوصل طلاب دارفور إلى مصر لطلب العلم بالأزهر حيث أنشئ لهم رواق مثلما كان لأهل الفونج رواق السنارية. ولا بد أن علماء من مصر قد رحلوا إلى دارفور أو الفاشر لمتابعة رسالتهم العلمية. كذلك اتصل أهل دارفور بالسلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين.

وكان سلاطين دارفور رغم ندرة أخبارهم ينهجون نهجا إسلاميا واضحا، فكانوا يلتزمون بأحكام الكتاب والسنة ويلتزمون بالعدل فى أحكامهم، كما عملوا على تشجيع العلماء وتقديم الهدايا لهم حرصا على نشر العلم فى بلادهم، ويذكر التونسى أخبارا كثيرة عن العلماء والفقهاء الذين وفدوا على دار فور لما وجدوه فيها من تشجيع وعدالة وكرم واحترام.

ومن مظاهر ذلك أن الداخل على السلطان مهما كان شأنه حتى لو كان أخاه فانه يلقى نفسه على الأرض ثم يحبو على ركبتيه ويديه كالسلحفاة إلى أن يكون على بعد حوالى أربعة أمتار من السلطان، فيقف جاثيا على ركبتيه منكس الرأس ويدعو للسلطان. وكان هذا الأمر يلتزم به جميع الداخلين على السلطان كما قلنا عدا العلماء، فإن الداخل منهم عليه كان يحنى رأسه ويسير حتى يقترب من السلطان فيجلس على الأرض جلسة المصلي، ثم يرفع كفيه ويفعل السلطان

مثل ذلك ويقرآن الفاتحة معاً. ثم يأخذ العالم أو الفقيه فى الدعاء للسلطان وهو يصفق بيديه والسلطان يؤمن على دعائه إلى أن يتم الدعاء.

ومن مظاهر ارتفاع مكانة العلماء أيضا فى سلطنة دارفور الاسلامية أن مجلس السلطان كان لا يتم إلا بحضورهم، وكانوا يجلسون عن يمينه ويجلس الأشراف وعظماء الناس عن يساره. وعند موت السلطان واختيار سلطان جديد كان هؤلاء العلماء يدخلون ضمن مجلس الشورى الذى كان ينعقد لهذا الغرض، وإذا حدث تنازع كان لا يتم حسمه إلا على أيديهم. مما يدل على مكانتهم الرفيعة فى هذه السلطنة، ولذلك كان السلاطين يكثرون من الإنعام عليهم، فكانوا يقطعونهم الاقطاعات الواسعة حتى يتفرغوا للعلم والدرس. ولم يكن هذا التشجيع وقفا على السلاطين وحدهم فقد شارك فيه الأهالى حيث كان سكان الحلة (القرية) يسارعون لمقابلة العلماء الوافدين ويستضيفونهم، كما كانوا يستضيفون الطلبة الغرباء فى بيوتهم ويعاملونهم كأبنائهم أوذوى قرباهم. ورغم ذلك فإن العلماء الوافدين إلى هذه البلاد كانوا قلة بالمقارنة لما وفد منهم على سنار أو دنقلة، ربما بسبب بعد دارفور عن الطريق النيلى الذى كان يساعد كثيرا على الاتصال والانتقال.

ومن المظاهر الاسلامية الأخرى التى وضحت فى سلطنة دارفور أن سلاطينها كانوا يتلقبون بألقاب إسلامية مثل أمير المؤمنين، وخادم الشريعة. والمهدى والمنصور بالله، كما كانوا يحرصون على الانتساب إلى نسب عربى شريف كعادة الحكام فى كافة ممالك السودان رغبة منهم فى إضفاء الصبغة العربية والإسلامية عليهم وعلى دولتهم وزيادة فى ربط أنفسهم بالعالم الاسلامي، فانتسب هؤلاء ـ أقصد سلاطين دارفور ـ إلى بنى العباس. يضاف إلى ذلك أن أختامهم التى كانوا يختمون بها كتبهم ورسائلهم كانت تحمل آية

من القرآن ، كما كانوا يحرصون على إرسال محمل وصرة الحرمين الشريفين كل عام إلى مكة والمدينة، فكانت قافلة المحمل ترسل إلى مصر محملة بالبضائع مثل ريش النعام وسن الفيل والصمغ وغير ذلك من خيرات البلاد، فتباع فى مصر ويتمم بثمنها نقود الصرة، وتحمل هذه الصرة بواسطة القافلة التى كانت تصاحب قوافل الحجاج المصريين إلى الأراضى المقدسة. ونتيجة لذلك كله نرى حياة إسلامية زاهرة قامت فى سلطنة دارفور الإسلامية.

ثالثا ـ الإسلام والعروبة فى إفريقيا الشرقية*

بعد أن تحدثنا طويلا عن الإسلام والعروبة فى سودان وادى النيل، وعن الإسلام فى بلاد غرب افريقيا. نود الآن أن نتحدث عن تاريخ الاسلام فى شرق إفريقيا، ونقصد بذلك السلطنات الاسلامية التى ظهرت فى بلاد الحبشة والزيلع فى العصور الوسطى مثل سلطنة شوا وأوفات وعدل، وتلك التى ظهرت على طول الساحل الشرقى من القارة جنوب الحبشة حتى نهر زمبيزى فى موزمبيق. مثل سلطنة مقديشيو وبات وكلوا. وفى هذا الحديث سوف نتناول تاريخ هذه السلطنات بإيجاز ثم نتحدث عن مدى انتشار الإسلام فيها ومدى انفعالها بالحياة الإسلامية كما فعلنا من قبل.

١ـ الإسلام والسلطنات الاسلامية فى بلاد الحبشة والزيلع (منطقة القرن الافريقي)

كان للحبشة صلات قديمة مع بلاد العرب قبل الاسلام. وهى صلات تجارية وسياسية وحربية تتمثل فى التجارة وفى غزو الأحباش لبلاد اليمن ، ولم يقطع الإسلام هذه العلاقات وإنما زادها قوة. فاتصال الإسلام بالحبشة يرجع إلى السنة الخامسة من البعثة حين هاجر بعض المسلمين إلى النجاشى اعتصاما بعدله ونجاة من أذى قريش وعدوانها. غير أن هذه الهجرة لم تكن بقصد الإقامة لكنها تركت أثرا فى حياة البلاد ولفتت أنظار الناس إلى ذلك النبع الروحى الجديد. ثم بدأت الدولة الاسلامية تحتك بالحبشة فى عهد عمر بن الخطاب فأرسل إليها هذا الخليفة فى عام ٢٠هـ/٦٤١م سرية من المسلمين بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي، كان نصيبها الفشل. ويقول الدكتور حسن

---

* أ.د. رجب محمد عبدالحليم

محمود إن أخبار هذه الحملة لا تتفق مع علاقات الود التى سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول ، ولم يكن عمر بالرجل الذى يخرج على أمر قرره الرسول. بل قيل إن الخليفة قضى بألا تعتبر أرض الحبشة دار جهاد. والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد عادية قرصان البحر من الأحباش الذين كانوا قد أغاروا على ساحل بلاد الحجاز مرة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. ومرة أخرى فى عهد عمر بن الخطاب نفسه. وذلك بعد أن مات ذلك النجاشى الذى استقبل المهاجرين واعتنق الإسلام سرا، وأعقبه نجاشى آخر لم يرع هذه العلاقات الطيبة بين المسلمين والحبشة.

ويبدو أن هذا الرأى معقولا ومقبولا بدليل أن الأحباش عاودوا الإغارة على جدة عام ٨٣هـ فى عهد بنى أمية، فلم يجد العرب بدا من الحصول على قاعدة بحرية قريبة من الشاطئ الأفريقى تمكنهم من رد عادية هؤلاء الأحباش فاستولوا على جزر دهلك وأقاموا فيها. وقد وجدت فيها نقوش عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادي. ويبدو أن الدولة الاسلامية انسحبت من هذه الجزر بعد ذلك لكنها تركت فى هذه الجزر جالية من المسلمين من أهل البلاد. فكانت جزر دهلك أول رأس جسر يقيمه المسلمون على الساحل الشرقى لأفريقيا. ويبدو أن هذه كانت آخر محاولة للتدخل الرسمى فى شرقى إفريقيا. فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسربا سلميا بطيئا فى ركاب المهاجرين إلى إفريقيا من التجار والدعاة عبر المسالك البحرية المعهودة.

وقد سبق أن تعرضنا لوسائل انتشار الإسلام فى القارة وفى نواحيها المختلفة. وعرفنا أثر التجارة فى هذا الميدان، وكانت عودة العلاقات التجارية بين الحبشة وبلاد العرب واتساع أفقها وخاصة فى تجارة الرقيق بسبب إقبال الإمارات العربية المستقلة فى الأمصار الإسلامية المختلفة على الاستعانة

بالجنود السودانيين عوضا عن جنود العرب الذين تفرقوا فى الأمصار. كان لذلك أثر كبير فى نمو المدن الساحلية الزيلعية التى ازدحمت بهؤلاء الوافدين من تجار المسلمين المشتغلين بتجارة الرقيق وغيرها من التجارات، وظهرت فى هذا العصر جاليات إسلامية قوية فى دهلك وسواكن وباضع وزيلع وبربرة.

وقد أجمع كتاب القرن العاشر الميلادى مثل المسعودى وابن حوقل وغيرهما على ازدهار الحياة الاسلامية فى تلك المدن وتوطد النفوذ الإسلامى على طول السهل الساحلي. وقد ظهرت مدن إسلامية على ذلك الساحل كأنها العقد أو الطراز فى الفترة بين القرن العاشر والثالث عشر الميلادي. ولم يكن يعنى هذه المدن أن تخضع للأحباش وأن تدفع لهم الجزية، أو تخضع لليمن إذا أرادت، منتهزة فرصة ضعف للأحباش وانصرافهم إلى مشاكلهم الداخلية . لكن هذه المدن الإسلامية الساحلية كان لها أثرها القوى فى أنها أصبحت مراكز وثب منها التجار والدعاة إلى المناطق الداخلية فى بلاد الزيلع والحبشة، إذ كان هؤلاء يرحلون إلى المناطق الداخلية التماسا للتجارة ويقيمون بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد، وفى أثناء إقامتهم يخالطون الناس وينشرون الإسلام ويوطدون صلتهم بالطبقة الحاكمة.

ويبدو أن الاسلام نفد إلى الداخل فى وقت مبكر. ربما فى القرن الثالث الهجرى حين تطرق إلى منطقة شوا حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على توطيد العقيدة الإسلامية فى جنوب وشرق الحبشة. وقد ألقى ضوء جديد على تاريخ هذه السلطنة حينما عثر تشيرولى المستشرق الإيطالى على مختصر لتاريخها يؤرخ لها فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

١ـ سلطنة شوا الاسلامية : (٢٨٣ ـ ٦٨٤ هـ/٨٩٦ ـ ١٢٨٥م)

ظهرت هذه السلطنة على يد أسرة عربية تسمى بأسرة بنى مخزوم أسستها فى سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦م. وليس من شك فى أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا مهاجرين عربا نفذوا إلى هذه الجهات فى ذلك الوقت المبكر، وليس بعيدا أن يكونوا قد نزلوا اول الأمر فى ضيافة امارة محلية، ثم اختلطوا بالأمراء عن طريق المصاهرة حتى آل إليهم الملك آخر الأمر.

وأيا كان الأسلوب الذى انتقل به الحكم فى شوا إلى هذه الأسرة العربية المخزومية. فقد أدى ذلك إلى قيام سلطنة شوا الاسلامية واستمرت هذه السلطنة فى الوجود أربعة قرون من الزمان فى الفترة (٢٨٣ ـ ٦٨٤هـ/٨٩٦ ـ ١٢٨٥م) تمتعت فى معظمها بالأمن والاستقرار وازدهار العمران وكثرة المدن والقرى والنواحى حتى أن وثيقة تشير وللى ذكرت أكثر من خمسين اسما للمواقع كانت موجودة فى هذه السلطنة، وهى فى الغالب أسماء لمدن ونواحى وأقاليم وقعت على أرضها أحداث هامة، أو شارك أصحابها أو حكامها فى هذه الأحداث فاستحقت واستحقوا أن تذكر أسماؤها وأسماؤهم فى هذه الوثيقة الهامة.

ومن أمثلة هذه المدن أو النواحى مدينة (ولله) العاصمة، ومدن هكلة (هجلة). وجداية. ودجن. وأبت، ومورة وحدية (لعلها مملكة هدية الاسلامية) والزناتير، وهوبت ، وحيب، والمحررة. وعدل التى أصبحت عاصمة لمملكة اسلامية فى القرن الخامس عشر للميلاد، مما يدل على هذه السلطنة اتسمت بسعة المكان وازدهار العمران وكثرة المدن والبلدان.

وفى القرن السادس عشر للميلاد، أى فى عصر عرب فقيه صاحب كتاب

خريطة رقم (١)



المصدر : رجب محمد عبد الحليم : العلاقات السياسية بين ملسمى الزيلع ونصادى الحبشة فى العصور الوسطى، ص ٢٦٥.

فتوح الحبشة، نرى هذا المؤرخ المجاهد يضيف إلى هذه المدن عددا آخر مثل مدينة (أندقبطن) التى توجد عندها البحيرة التى يخرج منها نهر عواش التى تعرف حاليا باسم بحيرة كوكا، ومدينة دار دينى وبها كنيسة الملك وناج سجد (لبنادنجل) الذى حكم الحبشة فى النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد، ومدينة دبرا ليبانوس ذات الكنيسة الشهيرة. ومدينة دبرا برهان. ومدينة أنكوبر و هذه المدن ذات الكنائس لم توجد إلا بعد استيلاء ملوك الحبشة على هذه البلدان الاسلامية.

وهذا الازدهار العمرانى الحضارى لم يوجد فى سلطنة شوا الاسلامية إلا لما كانت تتمتع به الأسرة الحاكمة من ثروة ونفوذ ، ولما كانت تملكه شوا من أرض غاية فى الخصوبة استغلها السكان وزرعوا فيها ما يكفى حاجتهم ويسد مطالبهم ويجعلهم يعيشون فى أمان، خاصة وقد استمر توافد جماعات إسلامية هاجرت إليهم فى أعداد يسيرة وعلى دفعات كثيرة لم تلفت النظر واستطاعت أن تتجمع وتدعم كيان هذه السلطنة الإسلامية بزعامة هذه الأسرة العربية التى اتخذت من مدينة (ولله) عاصمة لها. والتى يصعب تحديد موضعها الآن خصوصا فى هذه المنطقة التى شهدت كثيرا من التغيير بسبب كثرة تعرضها للغزو سواء من جانب الأحباش أم المسلمين.

ونتيجة لهذا الازدهار لم تكن الدولة المخزومية فى شوا إمارة أو مملكة صغيرة، بل كانت سلطنة كبيرة توالى على حكمها كثير من الحكام الذين اتخذوا لقب سلطان كما أشارت إلى ذلك وثيقة تشنير وللي. ومن أسف فإننا لم نستطع العثور على ما يوضح تسلسل هؤلاء السلاطين وتعاقبهم واحدا إثر الآخر إلا فى المائة عام الأخيرة من عمر هذه السلطنة بدءا من حكم السلطان حسين الذى قالت الوثيقة إنه تولى الحكم فى عام ٥٧٥ هـ/١١٨٠م وانتهاء بحكم السلطان دلمارة الذى قتل فى عام ٦٨٢ هـ/١٢٨٣م.

هذا وقد ظهر فى سلطنة شوا الإسلامية الوظائف السياسية والدينية المعروفة وقتذاك فى بقية الدول الإسلامية مثل الوزراء والقضاة .فقد كان بها منصب الوزير ومنصب قاضى القضاة. يتضح ذلك من الوثيقة المذكورة التى عنى المؤرخ فيها بتسجيل وفاة الفقيه ابراهيم بن الحسن قاضى قضاة شوافى رمضان سنة ٦٥٣هـ/١٣ اكتوبر ١٢٥٥م، مما يدل على وجود حياة علمية ودينية ومساجد ومدارس وعلماء وفقهاء وطلاب علم، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة العلمية والثقافية ، شأنها فى ذلك السلطنات الإسلامية الأخرى مما يجعلنا نقول إن هذه السلطنة عاشت عصرا زاهرا كبيرا وأنها عاشت مستقلة عن جيرانها سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين.

وليس هناك من سبب أتاح لهذه السلطنة ذلك الاستقلال وهذا الهدوء والسلام مع دولة الحبشة إلا ظروف دولة الحبشة نفسها والعصر نشأت فيه سلطنة شوا، وظروفها التى جعلتها تتمتع بذلك السلام وتعيش كل هذا العمر العديد. من ذلك ما حظيت به تلك السلطنة من موقع كان غاية فى الحصانة والمنعة. فقد كان يحيط بها جبال وعرة تحف بمجرى تكازى الأعلى من ناحية اليمين. والنيل الأعلى من جهة اليسار، وهى جبال جعلت من شوا حصنا أمنا يوفر الحماية لمن يسكنه، بينما وفرت الطبيعة لأهلها القوت والغذاء بسبب توافر المياه والأرض الخصبة اللازمة للزراعة والرعي، زد على ذلك بعد شوا عن لاستا عاصمة مملكة الحبشة فى ذلك الحين مما وفر لها قدرا من الطمأنينة صرفته فى العناية بشئونها الزراعية والتجارية اتساقا مع الطبيعة والظروف التى نشأت فى ظلها . وكانت هذه الظروف لاتسمح بأى صدام بينها وبين جيرانها . لأنها نشأت نشأة سلمية على يد أسرة عربية من تلك الأسرات التى تسربت تسربا سلميا إلى تلك المنطقة. واشتغلت كما قلنا بالتجارة واستقرت هناك وصاهرت السكان المحليين وتبوأت بينهم مكان الصدارة ووصلت إلى

كرسى الحكم بسبب تلك المصاهرة، لأن ابن البنت أو ابن الأخت يحق له وراثة العرش، بل هو وارثه الوحيد عند معظم القبائل والشعوب الإفريقية . ودولة هذه طبيعة نشأتها لايمكن أن تصطدم بدولة الحبشة .

ودولة الحبشة نفسها كانت تعيش حياة مليئة بالاضطراب السياسى وعدم الاستقرار فى ذلك الوقت . فقد كانت مملكة اكسوم القديمة فى أواخر أيامها عندما نشأت سلطنة شوا الإسلامية، ولذلك لم تتمكن أكسوم من التصدى لتلك الدولة أو تمنع قيامها فى جزء من الهضبة الحبشية ذاتها لبعد أكسوم التى كانت تقع فى أقصى الشمال فى إقليم التيجري. بينما كانت دولة شوا على مسافة كبيرة منها ناحية الجنوب. ونتج عن ذلك أننا لم نسمع عن أى نوع من أنوا ع العلاقات بينهما ـ سواء كانت علاقات ودية أو عدائية، رغم أن الأحباش كانوا يكنون العداء للإسلام والمسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين، ويتعصبون لدينهم أشد تعصب ويمقتون ما عداه من الأديان والمذاهب ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويقتلون من خالفهم من المسيحيين فى مذهبهم الذى يعتنقونه وهو المذهب اليعقوبى الذى انحدر إليهم من الكنيسة المصرية. ولكن دولتهم الأكسومية كانت فى النزع الأخير وقامت أسرة الأجويين فى حكم الحبشة بعد أن قضت على مملكة أكسوم الضعيفة فى عام ٣٢٩ هـ/٩٤٠م.

ومن حسن الحظ أن الأسرة الحاكمة الجديدة كان صدامها بالدرجة الاولى مع المسيحيين وليس المسلمين، لأن أول ملك من ملوك هذه الأسرة كان امرأة يهودية أرادت أن تكرس الحكم لنفسها ولأهل عقيدتها أو لقبيلتها من الأحباش الذين كان معظمهم يدين بالوثنية، فأمرت بهدم الكنائس واضطهاد المسيحيين الذين كانوا كثرة بالنسبة لليهود فى ذلك الحين.

أضف إلى ذلك أن دولة الأجويين كانت دولة إقطاعية قام أمراء الأقاليم

والنواحى بفرض سلطانهم على ما يقع تحت أيديهم من سكان وبلاد، وصار نفوذ ملك الحبشة لا يتعدى أسوار عاصمته مدينة لاستا. وعندما صار ضعف الأسرة الأجوية أمرا ظاهرا للعيان قام النزاع والحروب المحلية بينها وبين الأمراء وحكام الأقاليم، وصار هذا الأمراء طابع ذلك العصر، خاصة وأن النزاع قام بين الأمراء الأحباش فيما بينهم وصار كل واحد منهم يتطلع إلى منصب الملك، فاضطرب حبل الأمن وانتشرت الفوضى فى كل مكان، وصار كل إقليم من أقاليم الحبشة كأنه مملكة قائمة بذاتها، وصار الناس لا يعترف أى واحد منهم بسلطان عليه إلا لحاكمه المباشر فقط.

وقد أعطت هذه الظروف السياسية السيئة التى مرت بها دولة الحبشة فى عصر الأجويين الذى امتد إلى عام ١٢٧٠م الفرصة لسلطنة شوا الإسلامية المعاصرة لها كى تعيش فى هدوء واستقرار حوالى أربعة قرون من الزمان.

وقد استغل بنو مخزوم هذا الهدوء وهذا السلام اللذين تمتعوا بهما حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان فى تنمية قدرات السلطنة الاقتصادية والسياسية والدينية، فنتج عن ذلك أن صارت سلطنة شوا المخزومية الإسلامية لها نفوذها فى المناطق المجاورة وخاصة المناطق الإسلامية التى تقع فى الشرق منها حيث قامت ممالك إسلامية ظهرت إلى الوجود فى القرن الثالث عشر للميلاد، وهى سبع ممالك ذكرها العمرى والمقريزي. وطبيعى أن هذه الممالك السبع ظهرت قبل ذلك بكثير وبنفس المواصفات وفى نفس الظروف التى ظهرت فيها سلطنة شوا الإسلامية، خاصة وأن هذه الممالك السبع أقرب منها إلى مواطن العروبة والاسلام وأكثر اتصالا بهما منها، فهى تقع على ساحل البحر الأحمر وفى السهول التى تليه، وتمتد إلى الداخل حتى تجاور هضبة الحبشة حيث توجد سلطنة شوا. ومن المرجح أن هذه السلطنة كانت تفرض نفوذها على

ماجاورها من هذه الممالك الإسلامية السبع أو على كبراهن على الأقل وهى سلطنة أوفات المجاورة لها. وقد تدعم هذاالنفوذ بالصلات العديدة التى كانت قائمة بينهما وخاصة صلات المصاهرة التي تعرضت لها وثيقة تشير ولي، حيث أشارت إلى زواج بنت (والى أسمع) أول حكام سلطنة أوفات الاسلامية من سلطان شوا الاسلامية المسمى دلماره بن مالزره بن محمد بن حسين، وكلهم سلاطين تولوا حكم شوا كأسرة مالكة حاكمة. ولكن سيطرة شوا على جيرانها المسلمين لم تستمر طويلا أمام اضطراب أحوالها وكثرة الفتن التى جعلتها تسير فى طريق الضعف وخاصة فى الخمسين عاما الأخيرة من عمرها. ولذلك انتهز حكام أوفات الاسلامية الفرصة وأغاروا عليها وأسقطوها وضموها إلى دولتهم التى صارت تمتد من ساحل البحر الأحمر حتى قلب الهضبة الحبشية وكان هذا الضم خوفا من وقوع شوا فى يد ملك الحبشة.

وعلى أى حال فقد كان لسلطنة شوا رغم عزلتها دورها السياسى فى المحيط الملاصق لها، كما كان لها دورها الدينى أيضا. ذلك أننا نسمع - وكما أشارت وثيقة تشير ولى أن أحد سلاطينها ويسمى (حربعر) بذل جهودا كبيرة لنشر الاسلام صوب الداخل وخاصة فى جبله Gablah فى عام ٥٠٢ هـ/١١٠٨م، وفى بلاد أرجبه Argobba، وأن هذه البلاد بعد إسلامها أضيفت إلى أملاك سلطنة شوا المخزومية كما ذكر ترمنجهام. وعلى ذلك فقد كانت هذه السلطنة مركزا لنشر الإسلام وثقافته فى تلك المنطقة من الهضبة وما جاورها، مما جعلها تأمن على نفسها فى هذا المحيط الاسلامى وهيأ لها فرصة العيش أربعة قرون من الزمان بأكثر مما عاشته أى سلطنة إسلامية أخرى معاصرة لها أو أتت بعدها فى منطقة القرن الإفريقى فى العصور الوسطي. وقد حافظ الأهالى من الأحباش على إسلامهم الذى اعتنقوه سواء كانوا من أحباش شوا أو من أحباش المناطق المجاورة لها مثل جبة وأرجبة اللتين أشرنا

اليهما، رغم الاضطهاد الشديد المستمر الذى تعرضوا له وتعرض له المسلمون جميعا فى القرن الإفريقى على يد ملوك الحبشة وخاصة منذ عام ١٢٧٠م. وحتى منتصف القرن العشرين ، والدليل على احتفاظهم بإسلامهم ماقاله أحد الباحثين المحدثين من أنه لازال فى إقليم شوا حتى الآن جماعات إسلامية كثيرة.

ونتيجة لهذا الدور السياسى والدينى والثقافى الذى لعبته سلطنة شوا الإسلامية، ونتيجة لمتانة وضعها الاقتصادى وما حبتها به الطبيعة من موقع جغرافى وجبال جعلتها كأنها الحصن المنيع، لم تستطع جارتها المجاورة لها والتى تعيش معها فى نفس الهضبة فى الجزء الغربى منها والذى يعرف باسم شوا الغربية، نقول لم تستطع هذه الجارة التى كان على رأسها بقية الأسرة السابقة التى كانت تحكم فى أكسوم وفرت منها إلى شوا الغربية عقب انقضاض الأسرة الأجوية على هذه العاصمة. لم تستطع هذه الجارة المسيحية أن تقود عملية الهجوم والقضاء على سلطنة شوا الإسلامية رغم أن حكام شوا الغربية المسيحيون أقاموا دولة مسيحية كبرى فى الحبشة بل فى منطقة القرن الإفريقى منذ عام ١٢٧٠م أى قبل سقوط سلطنة شوا الإسلامية بخمسة عشر عاما، وهو سقوط لم يأت إلا على أيد إسلامية، هى أيدى سلطنة أوفات الإسلامية كما سبق القول، وذلك فى عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م.

وطبيعى أن هذا السقوط لسلطنة شوا الإسلامية كانت له أسبابه ودوافعه والعوامل التى أدت اليه وهى عوامل يمكن إيجازها فى ثلاث : عوامل اقتصادية لادخل للناس فيها، وأحوال سياسية داخلية سيئة، وأطماع خارجية استغلت هذه الأوضاع وقضت على هذه السلطنة.

أما العوامل الاقتصادية فقد كانت عوامل متعلقة بظروف خارجة عن إرادة

أهل شوا، وتتمثل هذه العوامل فى ظروف طبيعية جغرافية حدثت فى الثلاثين عاما الأخيرة من عمر الدولة، وأدت إلى نقص مياه الأمطار بدرجة نتج عنها حدوث مجاعات وطواعين فتكت بالسكان فتكا ذريعا وأدت إلى ضعف الدولة وضعف سكانها أمام أية هزة داخلية أو خارجية.

فإذا أضفنا إلى هذه المجاعات والطواعين سوء الأحوال السياسية الداخلية فى الخمسين عاما الأخيرة من عمر هذه السلطنة والتى حدثت فيها هذه المجاعات والطواعين لأصبحت الكارثة متوقعة والطامة كبري.

وتتمثل سوء الأحوال السياسية الداخلية فى الصراع الداخلى بين أمراء الأسرة المخزومية على الحكم - وتولى النساء الملك فى بعض الأحيان، وكثرة المتمردين والمغتصبين لعرش السلطنة من أصحابه الشرعيين، وكثرة الحروب الأهلية وماكان ينتج عنها من إحراق المدن وتدميرها ونهبها وإفنائها وقتل كثير من حكامها وأهلها.

أما الصراع الداخلى بين أمراء الأسرة المخزومية على الحكم فلم يظهر حسبما جاء فى وثيقة تشير وللى إلا فى المائة عام الأخيرة من عمر السلطنة وخاصة منذ عصر السلطان حسين الذى قالت هذه الوثيقة أنه تولى الحكم فى عام ٥٧٥هـ/١١٨٠م، ولا تذكر شيئا عن الأحداث التى وقعت فى عصره إلا تولى السلطان عبد الله سنه ٥٩٠ هـ/١١٩٤م.

وواضح أن السلطان عبد الله كان مغتصبا للعرش وأنه كان أميرا من أمراء الأسرة المخزومية الحاكمة استطاع أن يزيح صاحب الحق الشرعى عقب وفاة السلطان حسين وتولى الحكم بدليل أن السلطان التالى له لم يكن ابنه، بل كان ابنا للسلطان حسين، ويسمى محمد بن حسين الذى تتابع أولاده وأحفاده فى

الحكم، والذين تخللهم بعض المغتصبين. وقد طالت فترة حكم هذا المغتصب وهو السلطان عبد الله إذ أنه حكم فى العاصمة (واله) مدة بلغت اثنين وأربعين عاما(٩٥٠ ـ ٦٣٢هـ/١١٩٤ ـ ١٢٣٥م) قامت فى أواخرها ثورة ضده أدت إلى وقوع قتال فى مكان يسمى مدجة (بفتح الميم وسكون الدال وفتح الجيم) فى المحرم من عام ٦٢٩هـ/ نوفمبر ١٢٣١م.

وبعد موت هذا السلطان تولى بعده السلطان محمد بن حسين فى شوال سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٢م ثم تولى بعده ابنه السلطان مالزره بن محمد بن حسين فى شهر ذى الحجة من عام ٦٣٢هـ/١٢٣٢م واستمر حكمه أربعة عشر عاما ثم أعقبه عدد من المغتصبين غير الشرعيين، ثم عاد الحكم إلى صاحبه الشرعى وهو ابنه السلطان دلمارة بن مالزره فى شهر صفر من عام ٦٦٨هـ/ أكتوبر ١٢٦٩م وفى عهد هذا السلطان نرى الصراع يشتد بين أمراء الأسرة الحاكمة.

ويبدو أن هذا الصراع على العرش هو الذى دفع السلطان دلمارة إلى مصاهرة (عمر ولشمع) سلطان أوفات كى يشد أزره بهذه المصاهرة، فتزوج ابنته فى عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م. ولكن الطامعين فى العرش ازدادوا شراسة حتى انتهى الأمر بمقتل السلطان دلمارة فى عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م رغم استعانته بملك الحبشة. وقد أجبرت هذه الظروف السياسية السيئة التى أحاطت بهذه السلطنة إلى تدخل (عمر ولشمع) سلطان أوفات فدخل شوا وانتقم من القتلة وأخرجهم من السلطنة وأحرق عددا من المدن التى ساهمت فى هذه الفتنة التى انتهت بمقتل السلطان دلمارة زوج ابنته. وبذلك استطاع عمر ولشمع أن يعيد الأمن والوحدة لسلطنة شوا من جديد بعد أن كانت قد تمزقت على أيدى الطامعين الذين صار كل منهم أميرا أو ملكا على ما استولى عليه منها عقب مقتل دلمارة

آخر سلاطين بنى مخزوم. وبهذا العمل حافظ عمر ولشمع على هذه السلطنة من أن تقع فى قبضة الأحباش فى تلك الفترة بعد أن ضمها لسلطنته، مما أثار نزاعا حادا بينه وبين ملوك الحبشة، سوف نعرض له فى شئ من التفصيل عند حديثنا عن سلطنة أوفات الإسلامية

٢ ـ سلطنة أوفات الإسلامية

(حوالى ٦٤٨ ـ ٨٠٥ هـ/ حوالى ١٢٥٠ ـ ١٤٠٢م)

كانت الحركة الإسلامية قد ازدادت قوة فى بلاد الزيلع منذ القرن العاشر للميلاد. وبلاد الزيلع هى البلاد التى تحيط بهضبة الحبشة من الشرق والجنوب الشرقى وتتمثل الآن فيما يعرف بأريتريا وجيبوتى وقسمين من أقسام الصومال الكبير الثلاثة وهما القسم الشمالى والغربى المعروف باسم إقليم أوجادين. يضاف إلى ذلك كل المناطق الاسلامية التى ضمتها الحبشة بالغلبة والقوة قرب نهاية القرن الماضى مثل سلطنة أوسا وسلطنة هرر، وغير ذلك من الأقاليم الإسلامية الأخرى مثل أوجادين وغيره.

فى هذه البقعة الواسعة التى تنحصر بين ساحل البحر الأحمر وخليج عدن وبين هضبة الحبشة قامت مراكز تجارية عديدة على الساحل وانتشرت أيضا فى الداخل، وتحولت فى النهاية إلى إمارات وممالك إسلامية نامية تحدث عنها المؤرخون القدمى وقالوا إنها كانت سبع ممالك هى أوفات وهدية وفطجار ودارة ومالى وأرابينى وشرخا. وامتدت هذه الممالك إلى هرر وبلاد أروسى جنوبا حتى منطقة البحيرات مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق. وقد وجدت نقوش عربية ببلاد أروسى ترجع إلى عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م. وعام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م. وامتد التيار الاسلامى فدخل الهضبة الحبشية نفسها، فأبو صالح الأرمنى يذكر أنه قد أسلم كثيرون فى بلاد الحبشة فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادي. وكان

المسلم يدفع الجزية، وقد اكتشفت قبور بها نقوش عربية في جنوب تجراى الحبشية ترجع إلى عام ٣٩٦ هـ/١٠٠٦م.

غير أن هذه الممالك والسلطنات التى قامت فى شرق الحبشة وجنوبها تختلف عما رأيناه فى أقطار إفريقية أخرى فى نفس هذه المرحلة من التطور، إذ لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة، أسستها أسرات من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا كما حدث فى مالى وصنغى وكانم وبرنو، إنما أسستها أسرات عربية الأصل. فسلاطين أوفات وسلاطين شوا وغيرهما من السلطنات الاسلامية التى قامت فى هذه المنطقة يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة ، استقرت فى هذه الجهات ونمت ثروتها وازداد نفوذها وكثر أتباعها واستولت على حكم البلاد، وكانت الرعية مسلمة ومن أهل البلاد الأصليين سوء كان هؤلاء من الأعفار والصوماليين أو من قوم خليط من العرب وأهل البلاد الأصليين هؤلاء.

كما أن هذه الإمارات كانت غير مترابطة، ولم يكن يربط بينها سوى الصلة الروحية فقط، وكانت المنافسات بين كل منها والأخرى تسود علاقاتها، ولذلك كانت ضعيفة إلا فى فترات محدودة، ولو اتفقت هذه الممالك السبع واجتمعت كلمتها، لقدرت على التماسك، لكنها كانت على حالة من الضعف أدت إلى التماسها القربى من ملك الحبشة والخضوع له، فكان أمراؤها لايتولون العرش إلا بأمر ملك الحبشة المسيحى وموافقته فى كثير من الأحيان، وليس معنى ذلك أن مسلمى تلك الإمارات قنعوا بالخنوع والخضوع للأحباش، ولكنهم مارسوا حياتهم مستقلين فى أحيان كثيرة ومناوئين لملك الأحباش وغازين له فى عقر داره كما سنري.

وكان السبب فى ضعف هذه الإمارات أو السلطنات الاسلامية أنها ما كاد يكتمل نموها وتزداد قوتها حتى واجهت حربا صليبية ضروسا استنزفت

مواردها وشغلتها عن التفرغ للدعوة الاسلامية، ولذلك فإن الانتاج الثقافى لتلك الامارات محدود جدا، إذ أن الصراع مع الأحباش أخذ كل وقتها ولم يترك لها فرصة للإبداع والابتكار ولم تنج سلطنة واحدة من الاشتباك مع هؤلاء الأحباش ومدافعتهم عن بلادهم. وقد قامت سلطنة أوفات (حوالى ١٢٥٠ ـ ١٤٠٢م) بعبء المقاومة والدفاع ضد هذا الخطر الصليبى الواضح الذى تعاون مع خطر البرتغاليين فى القضاء على المراكز الإسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقيا، ولذلك كان من الواجب أن نخص هذه السلطنة بحديث .

كانت سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت فى بلاد الزيلع أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب. ومدينة أوفات هى نفسها مدينة جبرة أو جبرت من أكبر مدن بلاد الزيلع وتقع غربى مدينة زيلع. وكانت أوفات تتحكم فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع على البحر الأحمر. ولم يتضح تاريخ أوفات إلا فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد حينما ظهر أحد أمراء المسلمين وكان يسمى عمر ويعرف بولشمع، وأقام هذه السلطنة التى نمت وازدادت قوتها حتى استطاع صاحبها عمر ولشمع أن ينتهز فرصة ضعف سلطنة شوا المخزومية وأن يهاجمها عام ١٢٨٥، وأن يقضى عليها قضاء مبرماو أن يستولى على أملاكها بعد أن تمكن الطامعون فى عرشها من قتل سلطانها المسمى دلمارة الذى كان زوجا لابنة عمر ولشمع، وأدى صراع هؤلاء الطامعين إلى اضطراب الأحوال السياسية فيها مما هيأ الفرصة لسلطان أوفات من مهاجمتها والاستيلاء عليها ومعاقبة القتلة، مما جعل لبنى ولشمع هيبة فى نفوس الناس، وأدى إلى اتساع سلطانهم السياسي، واستطاعت أوفات فى عهدهم أن تبسط نفوذها على بقية هذه الامارات الصغرى التى أشرنا اليها، وأن يصل هذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر وحتى منطقة زيلع وسهل أوسا، ودان لها الأعفار بالطاعة والولاء .

ويقول ترمنجهام أن الأراضى التى سيطرعليها المسلمون بزعامة أوفات كانت مساحتها تفوق مساحة أراضى مملكة الحبشة المسيحية نفسها، وكانت هذه الرقعة الإسلامية تحيط بالحبشة من الجنوب والشرق، فضلا عن إحاطة الاسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب، مما أدى إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجي، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع. ولذلك لاندهش من أنه عندما تولت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠م رسمت لنفسها خطة لدعم سلطان الحبشة وتوسعه على حساب جيرانها من المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الموانى وبالتالى على التجارة الخارجية.

وبذلك بدأت أولى مراحل الجهاد والصراع بين أوفات وتوابعها من الإمارات الإسلامية الأخرى وبين ملوك الحبشة منذ ذلك الحين، وكانت البداية المبكرة على أيام الملك ياجبيا صيون (١٢٨٥ ـ ١٢٩٤م) الذى شن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدل التابعة لأوفات. وكان هذا الملك قد استشعر خطر التكتل الإسلامى الذى كانت تدعو إليه سلطنة أوفات، فضلا عن أن تلك السلطنة أعلنت زعامتها على الممالك الإسلامية المجاورة لها فى بلاد الزيلع، وكان هذا أمراً يتعارض مع مشاريع ملوك الحبشة الجدد، فقاموا بحملتهم تلك التى أشرنا اليها، وانتهت بانتصارهم.

ويعود هذا الانتصار إلى أن حركة المقاومة التى تزعمتها أوفات لم تكن منبعثة عن وحدة وتعاون فعال بين أوفات والممالك الاسلامية الزيلعية المجاورة، ولذلك هزمهم الأحباش من أول لقاء، بل يقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة فى هجومه الناجح الذى انتهى بنهب عدل وعقد هدنة بين الطرفين. وكان من الممكن أن تكون هذه الحرب هى القاضية لولا تدخل سلطان مصر المملوكى

الذى هدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين المطران الذى طلبه الأحباش. وأثمر هذا التدخل فعقد الأحباش الهدنة مع أوفات وأعادوا فتح بلادهم للتجار المسلمين، وأرسل لهم سلطان مصر مطرانهم الجديد، وكان مطران الحبشة يعين من قبل بطرك مصر حتى وقت قريب.

استطاع المسلمون تقوية مركزهم ودعم سلطانهم على طول منطقة الساحل، وكانوا يرتقبون فرصة ضعف أو تخاذل فى صفوف أعدائهم من الأحباش. وعندما علموا بوفاة ملك الحبشة عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م. قام شيخ مجاهد يدعى محمد أبو عبد الله بحشد طائفة كبرى من قبائل الجلا والصومال وأعدهم للجهاد، وقام بغزو الحبشة، ولم تعمد الحبشة إلى المقارمة بسبب بعض المتاعب الداخلية، واضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود نظير هدنة بينه وبينهم. ولم يكن سلاطين أوفات ليقنعوا بالهدنة، وخاصة أن قوتهم قد ازدادت، فلم يستطع الملك الحبشى ودم أرعد (١٢٩٩ ـ ١٣١٤م) أن يرد هجماتهم.

ورأت أوفات أن تظهر قوتها للحبشة بل وتتوسع فى أملاكها وتقضى على عدوانها، فتقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة وغزا بعض الولايات المسيحية وأحرق بعض كنائسها وأجبر نفرا من المسيحيين على الدخول فى الاسلام، وقبض على أحد سفراء الأحباش وكان منحدرا فى طريقه إلى بلاده وقتله، مما جعل ملك الحبشة يقوم بغزو أوفات فى عام ١٣٢٩م وهاجمها من جميع نواحيها حتى فرق شعل الدفاع الاسلامى وأسر حق الدين ووضع يده على مملكته وعلى مملكة فطجار الاسلامية وجعلهما ولاية واحدة، وعين عليها صبر الدين وهو شقيق حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة.

غير أن صبر الدين لم يطق صبرا على هذه التبعية وكون حلفا إسلاميا من إمارتى هدية ودوارو، ثم تقدم لغزو الحبشة واستولى على كثير من الغنائم،

وهدد ملك الحبشة الذى خرج على رأس جيشه وهاجم الحلفاء منفردين بادئا بأمارة هدية، فحطمها قتلا ونهبا وأسرا، وأرغمها على الخروج من الحلف، وحمل ملكها أسيرا إلى عاصمته، ثم تقدم إلى أوفات ودخلها ودمرها ونهب معسكر المسلمين فيها، ثم تقدم إلى فطجار واستولى عليها وعلى مملكة دوارو.

وعلى ذلك يمكن القول بأنه فى هذه الفترة انتهى استقلال الممالك الاسلامية فى أوفات وهدية وفطجار ودوارو ، وعين عليها ملك الحبشة جلال الدين أخا صبر الدين حاكما ، فقبل على أن يكون تابعا للحبشة، وأن يدفع لملكها الجزية، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين نتيجة لتفرقهم وعدم وحدتهم وحدة تجمع شمل الممالك الإسلامية الزيلعية كلها، إذ لايكفى أن تتحد إمارتان ويتخاذل الباقون.

وفى غمرة هذاالصراع الدموى اتفقت كلمة المسلمين بين عامى ١٣٣٢ و١٣٣٨م على الاستنجاد بالمماليك فى مصر، وذلك بإرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاون برئاسة عبد الله الزيلعى ليتدخل السلطان فى هذا الأمر لحماية المسلمين فى بلاد الزيلع. فطلب الناصر محمد من بطرك الاسكندريةأن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة فى هذا الصدد. غير أن ملك الحبشة لم يكف عن مهاجمة المسلمين الذين لم يتوانوا عن انتهاز الفرص للثأر منه. وتحالفت إمارتا مورا وعدل مع بعض القبائل البدوية للنيل من ملك الحبشة، وأخذوا يشنون حربا أشبه بحرب العصابات، وأخذ ملك الحبشة فى مطاردتهم، وتقدم فى أراض مورا الاسلامية، وعرف بخطة المسلمين فى مهاجمته، فازدادت حميته فى قتالهم، وتقدم فى أراضيهم حتى وصل إلى مدينة عدل وقبض على سلطانها وذبحه، فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهرين الخضوع.

ويصور ابن فضل الله العمرى أسباب ضعف المسلمين فى تلك الفترة (١٣٤٢ ـ ١٣٤٨م) فيقول : «وجميع ملوك هذه الممالك ـ يقصد الإمارات والسلطنات الإسلامية بالزيلع الإسلامية والحبشة المسيحية) وإن توارثوها لايستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمحرا (أمهرة الحبشية المسيحية). وتقربوا إليه جهد الطاقة، فيختار منهم رجلا يوليه، فإذا ولاه سمع البقية له وأطاعوا، فهم له كالنواب.... وهذه الممالك السبعة ضعيفة البناء قليلة الغناء لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط الحطى عليهم (الحطى سلطان الحبشة) مع ما بينهم من عداوة الدين وما بينهم وبين النصارى والمسلمين، وهم على ماهم عليه من الذلة والمسكنة للحطى سلطان أمحرا، عليهم قطائع مقررة تحمل اليه فى كل سنة من القماش والحرير والكتان.....».

وفى تلك الأثناء انتاب إمارة أوفات بعض الفتن الداخلية بسبب النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة على العرش ، وانتهى النزاع بانفراد حق الدين الثانى وإعلان استقلاله عن الحبشة، فهزم جيوشها وظل على خطة الجهاد فترة طويلة حتى هزم ومات عام ١٣٨٦م، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته وأخيه سعد الدين واستأنفوا حركة الجهاد وبحروا الأحباش واستولوا على زمدوه وبالي، وتوغلوا فى أرض أمهرة (مملكة النجاشي). لكن سعد الدين هزم فى معارك تالية، واضطر إلى الفرار إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقتل عام ١٤٠٢م نتيجة لخيانة رجل دلهم على مكمنه.

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات التى احتلها الأحباش نهائيا، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى دورها فى الجهاد، وتفرق أولاد سعد الدين العشرة مع أكبرهم صبر الدين الثاني، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية حيث نزلوا فى جوار ملك اليمن الملك الناصر أحمد بن

الأشرف الذى أجارهم وجهزهم لاستئناف الجهاد ضد الحبشة، فعادوا إلى أفريقيا حيث انضم اليهم من بقى من جنود و الدهم، فقوى أمرهم واستأنفوا النضال واتخذو لقبا جديدا هو لقب سلاطين عدل.

٣ ـ سلطنة عدل الاسلامية

(٨١٧ ـ ٩٨٥هـ/١٤١٤ ـ ١٥٧٧م)

ورد ذكر عدل (أو عدال) للمرة الأولى فى أخبار سلطنة شوا المخزومية وكيف أنها فتحت عام ١٢٨٥م. فتحها بنو ولشمع موسسو سلطنة أوفات بعد قضائهم على سلطنة شوا. وعلى ذلك كانت عدل إقليما من الأقاليم التى خضعت لسلاطين أوفات، وليس ببعيد أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية تدين بالولاء لبنى ولشمع. ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعد على نجاتها من التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات السابقة. وكان طبيعيا أن يأوى بنو سعد الدين إلى إقليم قريب من البحر يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيدا عن مناطق النفوذ الحبشي. وكانت حدود تلك السلطنة تضم البلاد الواقعة بين ميناء زيلع وهرر وتشمل ما يعرف بالصومال الشمالى والغربى وإقليم أوجادين. وسميت هذه البلاد بر سعد الدين تخليداً لسعد الدين الذى مات بزيلع ودفن بها.

استأنف سلاطين عدل الجهاد مرة أخرى فى عهد صبر الدين الثانى الذى اتخذ مدينة (دكر) عاصمة له واستطاع الاستيلاء على عدة بلاد حبشية فيما يعرف بحرب العصابات. وبعد وفاته عام ١٤٢٢م خلفه أخوه منصور (ت ١٤٢٥م) الذى بدأ عهده بحشد عدد كبير من مسلمى الزيلع فى جيشه وهاجم بهم ملك الحبشة وقتل صهره وكثيرا من جنده، وحاصر منهم نحوا من ثلاثين ألفا مدة تزيد عن شهرين، ولما طلبوا الأمان خيرهم بين الدخول فى الإسلام أو العودة إلى قومهم سالمين، فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقون إلى

بلادهم. لم يقتلهم منصورولم يستعبدهم كما كان يفعل ملوك الحبشة بجنود المسلمين الذين كانوا يقعون فى أسرهم.

لم يستطع ملك الحبشة إسحاق بن داود صبرا على هذا النصر الكبير الذى حققه سلطان عدل، فأعد جيشا كبير العدد وهجم به على منصور وقواته وهزمها هزيمة شنيعة، لدرجة أن السلطان منصور وقع هو وأخوه الأمير محمد فى أسر إسحاق عام ١٤٢٥م.

ولكن راية الجهاد ضد عدوان الأحباش لم تسقط بهذه الهزيمة الكبيرة. فقد قام أخ للسلطان الأسير وهو السلطان جمال الدين برفع راية الجهاد من جديد وصمم على ملاقاة ملك الحبشة إسحاق بن داود الذى «عزم على ألا يبقى بالحبشة مسلم قط».

وانتصر جمال الدين على هذا الملك فى مواقع كثيرة. ولكن أبناء عمه حقدوا عليه ربما رغبة فى النفوذ والسلطان الذى حرموا منه، فاغتالوه فى عام ١٤٣٢م. فتولى الحكم بعده أخوه السلطان شهاب الدين أحمد بدلاى الذى عاقب القتلة وحارب الأحباش واسترد إمارة بالى الإسلامية من أيديهم، ولكنه وقع صريعا أمام الأحباش فى عام ١٤٤٤م نتيجة لخيانة أحد الأمراء الذين أظهروا التحالف معه، ومن ثم تمكن الأحباش من اجتياح سلطنة عدل وبقية الممالك الزيلعية الأخري، وأصبحت الحبشة امبراطورية كبيرة امتدت شمالا حتى مصوع وسهول السودان وضمت أوفات وفطجار ودوارو وبالى وهدية، ومنحت هذه الامارات استقلالها الذاتي، وولت عليها عاملا يسمى الجراد ينحدر من البيت المالك القديم.

ويبدو أن الرغبة الصادقة فى الجهاد التى عرف بها الجيل الأول من سلاطين

أوفات قد فترت عند أحفادهم سلاطين عدل، فقد سئموا القتال وجنحوا إلى المسالمة، فأرسل السلطان محمد بن بدلاى عام ١٤٤٥م بعثة لملك الحبشة فى مستهل عهده يعرض دفع جزية سنوية وعقد هدنة بين سلاطين عدل والأحباش، وسار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة. وإذا كان سلاطين عدل الأواخر قد جنحوا إلى الراحة ومالوا إلى المسالمة فان الشعب المسلم لم يتخل عن سياسته التقليدية فى مقاومة الأحباش ومدافعتهم. وكان تخاذل سلاطين عدل الأواخر وتحمس الشعب للجهاد مؤذنا ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد وهو دور هرر. ذلك لأن هذه المدينة كانت مركز المقاومة ومؤتلف الجهاد.

وتميز هذا الدور بظهور طائفة من الأمراء الأئمة أشربت قلوبهم حب الجهاد وصارت لهم السلطة الفعلية فى البلاد، وبذلك أصبح المجتمع العدلى به حزبان : هذا الحزب الدينى الشعبى الذى يتزعمه الأمراء الأئمة، وذلك الحزب المحافظ الذى يريد أن يسالم الأحباش ويتكون من الطبقة الأرستقراطية والتجار وعلى رأسه سلاطين عدل التقليديون. ويصور هذا الوضع الجديد المؤرخ عرب فقيه فيقول : «وعادة بر سعد الدين أن كل أمير يكون له التقديم والتأخير والغزو والجهاد وأكثر العساكر إلى وجهه... ولم يكن للسلطان غير خرج البلد يأكله» وكان أول هؤلاء الأئمة ظهورا هو الداعى عثمان حاكم زيلع الذى أعلن الجهاد بعد وفاة السلطان محمد بن بدلاى مباشرة عام ١٤٧١م. ثم ظهر فى هرر الأمام محفوظ الذى تحدى السلطان محمد بن أزهر الدين واشتبك مع الأحباش.

غير أن البرتغاليين ظهروا على مسرح الأحداث وفاجأوا زيلع وأغاروا عليها وانتهى الأمر بفشل حركة محفوظ، واغتيال السلطان محمد سنة ١٥١٨م. وظهرت فى بداية ذلك القرن وهو القرن السادس عشر الميلادى تطورات أخرى سيكون لها تأثيرها على مسرح الأحداث بين المسلمين والأحباش.

هذه التطورات تنحصر فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشوف الجغرافية بزعامة الملاحين البرتغاليين، كذلك أدخلت الأسلحة النارية إلى منطقة الأحداث فى بلاد الزيلع والحبشة، وأهم من هذا كله إسلام قبائل البدو من الأعفار والصومالى ودخولها ميدان الجهاد ووقوفها وراء الإمام الذى رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الاسلامى فى ذلك الدور. وهو الإمام أحمد بن ابراهيم الغازى الملقب بالقرين.

اتبع الامام أحمد القرين بعد أن سيطر على مقاليد الأمور فى سلطنة عدل وبعد أن اتخذ هرر مقراً له سياسة موفقة جمعت الناس حوله. فقد طبق الشريعة الاسلامية فى حكمه وخاصة فى توزيع أموال الزكاة على مستحقيها وكان السلاطين قبله يجمعونها ويحتجزونها لأنفسهم وبطانتهم. كما طبق الشريعة بالنسبة لأموال الغنائم والفئ. فكان يخرج الخمس ويوزعه فى مصارفه الشرعية، ويوزع الباقى على الجند، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضا محبة الشعب. فقد كان «يجلس ويلطف بالمساكين ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه، ولا تأخذه فى الله لومة لائم» كما قضى على قطاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه ونسجوا حوله الأساطير وقالوا عنه «لاتسموه السلطان ولا الأمير ولكن سموه إمام المسلمين».

بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام أحمد القرين أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم، وعزم على رد عادية الأحباش فى عقر دارهم وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية فى تجراي، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك كان أولها فى عام

١٥٢٧م حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد. وفى عام ١٥٢٨م أحرز الإمام أحمد نصرا حاسما على الأحباش فى موقعة شنبر كوري، ثم بدأ فى غزو بلاد الحبشة نهائيا. ففى سن ١٥٣١م دخل دوارو شوا وأمهرة ولاستا. وفى سنة ١٥٣٣ استعاد الإمارات القديمة : بالى وهدية وشرخة. وفى سنة ١٥٣٥م سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزوا تجراى للمرة الأولى وأصبح مصير الأحباش فى كفة الميزان.

وفى هذا الوقت كان الزحف البرتغالى قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام ١٥٣٥م. فأرسل لهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت البلاد عام ١٥٤١م. وتقابل المجاهدون بقيادة أحمد القرين مع الأحباش والبرتغاليين فى عدة مواقع عام ١٥٤٢م. لكنه هزم وتكررت هزيمته فى العام التالى حيث استشهد وتفرقت جموعه، ونجت الحبشة من كارثة محققة، ولم يعد المسلمون مصدر خطر جدى يهدد الأحباش. لكن هرر وحركة الجهاد لم تمت بموت أحد القرين، بل استأنفها خلفاؤه من بعده وخاصة فى عام ١٥٥٩ بقيادة أميرها نور الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، وسلطانها الاسمى المسمى (علي) سليل أمراء عدل السابقين، لكن هذه الجهود باءت بالفشل.

وكانت انتفاضة هرر الأخيرة عام ١٥٧٧م حينما تحالفت مع أحد ثوار الأحباش للنيل من ملك الحبشة، وحدثت موقعة انتهت بمقتل محمد الرابع آخر أمراء هرر عند نهر ويبى ، وانتهت هرر كقوة سياسية ذات شأن، فى الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن يقضوا على خطر الأتراك العثمانيين أيضا بهزيمتهم للقائد العثمانى وقتله، وانتهت المعارك بين الطرفين بعقد هدنة بينهما عام ١٥٨٩م، واكتفى العثمانيون بالسيطرة على مصوع وسواكن، ولم يدسوا أنوفهم فى شئون الحبشة مرة أخرى وبدأوا طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ينشغلون عن البحر الأحمر وشئونه.



المصدر : على أحمد أنور : النزاع الصومالى الأثيوبى، ص ٥٠.

وبذلك انتهى الصراع فى الحبشة لصالح الأحباش. لكن حركة أحمد القرين التى استمرت مالا يقل عن خمس عشرة سنة كان لها أثرها البالغ فى نشر الإسلام فى الهضبة الحبشية نفسها، إذ كان الإسلام ينتشر فى ركاب جيوش هذا المجاهد العظيم. وعرب فقيه الذى أفرد كتابه كله للتأريخ لحركة أحمد القرين وفتوحاته يذكر أن غالبية سكان الهضبة اعتنقوا الإسلام اقتناعا أو رهبة. وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائيا الا أنها أثبتت عمق الشعور الإسلامى فى نفوس أهل شرق إفريقيا وعمق تمسكهم بالإسلام ، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة أربعة قرون، وظهر أثر العلماء والفقهاء والمسلمين وأصبحت لهم الزعامة فى المجتمع فى ذلك الوقت.

ورغم هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون فى منطقة القرن الافريقى بمقتل الإمام أحمد بن ابراهيم القرين، وانصراف العثمانيين إلى شئونهم فى منطقة الشرق الأدنى وأوربا الشرقية، إلا أن المسلمين الزيالعة بقيت لهم بعض سلطناتهم وبلادهم. ذلك أن الصراع الذى اندلع بينهم وبين الأحباش أنهك الطرفين معا مما هيأ الفرصة لدخول قبائل الجلا الوثنية القادمة من الجنوب، فاحتلت هرر واستقرت فى النصف الجنوبى من دولة الحبشة، ثم أسلمت هذه القبائل أخيراً ، ولكن أوربا الغربية أعانت الأحباش على المسلمين فى القرن التاسع عشر للميلاد، وخاصة فى عهد منليك الثانى الذى استولى على سلطنة هرر فى عام ١٨٨٥م وعلى غيرها من البلدان الاسلامية، ثم استولى الأحباش على سلطنة أوسا ، ثم على أريتريا وإقليم الأوجادين الصومالى فى القرن العشرين، وظل الأمر على هذا النحو حتى نالت هذه البلاد استقلالها وتحررت من نير الأحباش وإن كان بعضها لايزال تحت سيطرتهم حتى الآن.

ب ـ الاسلام والسلطنات الاسلامية فى منطقة الساحل الشرقى لافريقيا*

كما واجه المسلمون والسلطنات الإسلامية السابقة الخطر الصليبى الحبشى فى منطقة القرن الافريقي، واجه المسلمون والسلطنات الإسلامية فى مقد شو وعلى طول الساحل الجنوبى الشرقى من القارة خطرا صليبيا آخر لايقل خطرا، وهو خطر البرتغاليين. ولذلك تميزت الحركات الاسلامية سواء هنا وهناك بأسلوب الجهاد الذى اتبعته حتى تحافظ على كيانها. ولا شك أن هذا الأسلوب كان من العوامل التى أذكت الحماسة الدينية فى نفوس المسلمين وعمل على نشر الاسلام فى تلك المناطق. وخير دليل على ذلك هو إسلام قبائل الأعفار والصومال والجلا وغيرها من القبائل الزنجية فى بداية العصر الحديث، ثم قيام هذه القبائل بتولى عبء الدفاع عن الإسلام سواء ضد الخطر الحبشى فى الشمال أو الخطر البرتغالى القادم من الجنوب.

أما وقد تحدثنا عن السلطنات الإسلامية التى قامت فى بلاد الزيلع أو فى منطقة القرن الإفريقى وتولت عبء الدفاع عن الاسلام فى هذه المنطقة، فقد آن الأوان كى نتحدث عن السلطنات الإسلامية التى قامت على طول الساحل الشرقى لإفريقيا بدءا من مقدشو وحتى نهر الزمبيزى فى موزمبيق. وتتمثل هذه السلطنات فى ثلاث : هى سلطنة مقدشو، وسلطنة كلوة. وسلطنة بات،

١ـ سلطنة مقدشو الاسلامية (الصومال الجنوبي)
(٢٩٢ ـ ١٠٦٧ هـ / ٩٠٥ ـ ١٦٥٦ م)

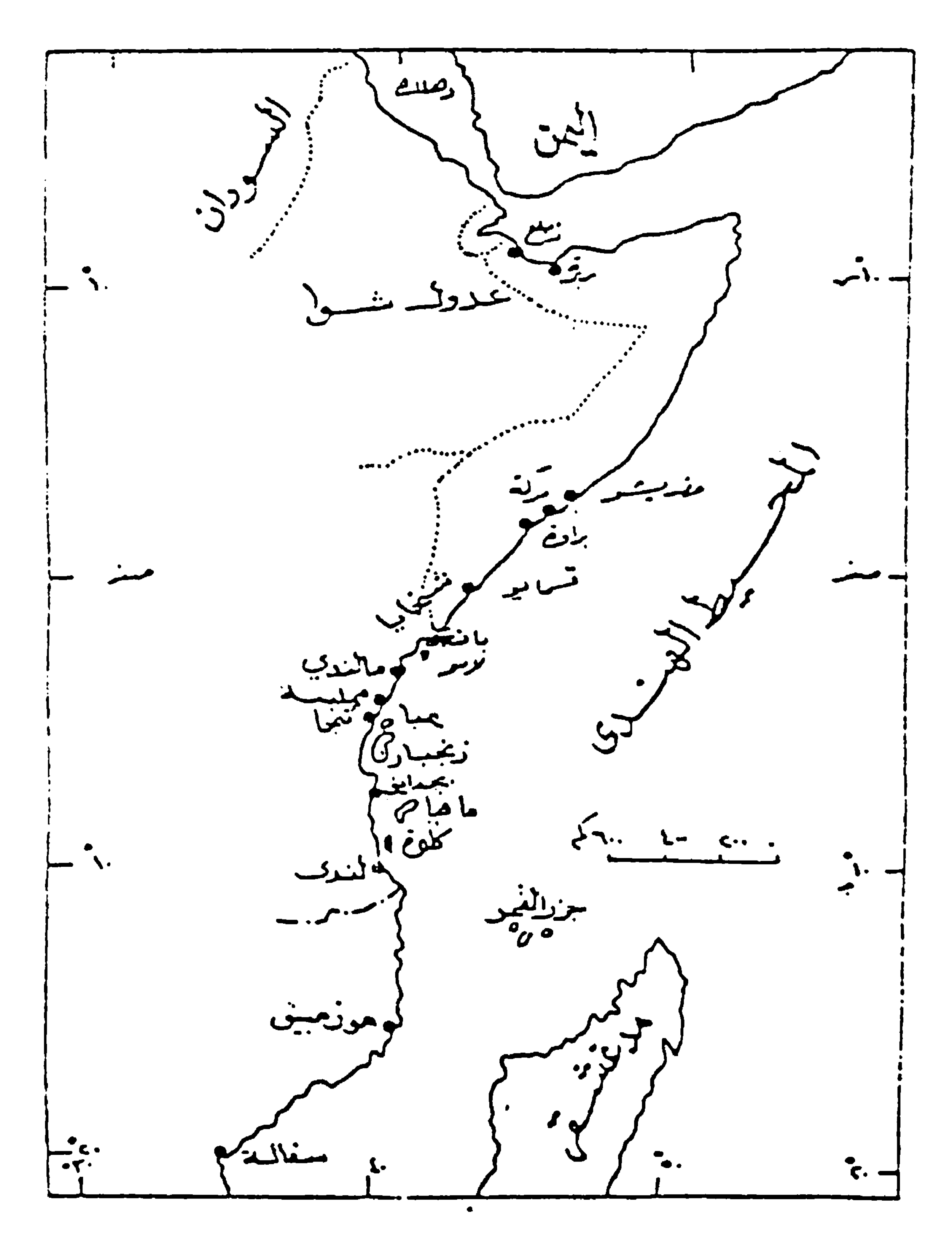
كانت بلاد الصومال الجنوبى تعرف فى العصور الوسطى باسم سلطنة مقدشو وهذه المدينة ـ أقصد مقدشو ـ لازالت هى عاصمة الصومال كله حتى الآن.

---
* أ.د. رجب محمد عبدالحليم.

وقد جاء أول ذكر لكلمة الصومال فى أنشودة حبشية خلدت انتصارات النجاشى إسحاق (١٤١٤ ـ ١٤٢٩م) على سلطنة أوفات الاسلامية التى كانت تقع شرق الحبشة. ولم يصل أحد من علماء اللغات الكوشية إلى تفسير واضح لكلمة صومال، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الكلمة مأخوذة من اسم «سوماين نرسوما» الذى كان يحكم الإقليم الممتد من زيلع إلى حفون. ويدعى بعض أهالى الصومال أن «صومال» هو الجد الأكبر للصوماليين وانحدرت منه جميع القبائل التى كونت الأمة الصومالية.

وينتمى الصوماليون إلى العنصر الكوشى الحامي، ومنهم قبائل الجلا والدناكل، وهؤلاء اختلطوا بالعناصر السامية التى هاجرت من جنوب بلاد العرب قبل الميلاد، وبالزنوج البانتو، وتكون منهم شعب الصومال. وبعد ظهور الإسلام تدفقت القبائل العربية والتجار العرب والدعاة على تلك المنطقة ، إما بهدف التجارة أو بهدف نشر الاسلام أو بهدف الإقامة فرارا من الانقسامات السياسية والخلافات المذهبية فى الدولة العربية الاسلامية كما سبق القول أثناء الحديث عن عوامل انتشار الاسلام فى القارة، وأقام هؤلاء المهاجرون العرب مراكز تجارية استقرارية على طول الساحل الشرقى الأفريقى فى مقدشو وبراوة وقسمايو، وبات وممبسة ومالندى وكلوة وسوفالة، وهم الذين أنشئوا معظم هذه المدن.

وقد سبقت الاشارة عند الحديث عن الهجرات العربية إلى ساحل شرق افريقيا إلى هجرتين وصلتا إلى ساحل الصومال وهما هجرة الزيدية التى أقبلت إلى الصومال بعد مقتل زعيمهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، ثم هجرة الأخوة السبعة من بنى الحارث ومن معهم من العرب إلى بلاد الصومال فى عام ٢٩٢هـ/٩٠٣م.



الساحل الشرقى لأفريقيا فى العصور الوسطى

المصدر : عبد الرحمن على السديس: تطور حركة انتشار الاسلام فى شرق افريقية فى ظل دولة البوسعيدين، ص ٢٤٦.

والهجرة الأخيرة كانت أبقى أثرا فى تاريخ الصومال، إذ أنها أقامت سلطنة مقدشو الإسلامية.

وقد كانت مقدشو أول مدينة عربية بناها الحرث على ساحل بنادر عام ٢٩٥ هـ/٩٠٧م وتلتها مدينة براوة حوالى عام ٣٦٥هـ/١٩٧٥م. وبنوا أيضا مدينة ثالثة هى مركة ، وتشير بعض المصادر إلى مواضع ومدنا أخرى مثل قرفاوة. والنجا وبنونة، وماندا فى جزيرة ماندا، وأعوزي، وشاكة قرب دلتا نهر تانا، كما ظهرت فى عهدهم مدن جليب وبندر شيخ وجزيرة دار شيخ. بنى الحرث هذه المدن فى سنوات متفاوتة وأسسوا فيها دولة لهم أو سلطنة استمروا فى حكمها طوال معظم فترات العصور الوسطي. فكان حكام سلطنة مقدشو عند قدوم البرتغاليين من سلالة الإخوة السبعة الذين أسسوها، بل إن براوة كانت فى القرن السادس عشر للميلاد يحكمها اثنا عشر شيخا يعودون بأصولهم إلى هؤلاء الإخوة السبعة أيضا.

وفى عهد هذه الأسرة الحاكمة صارت مقدشو سلطنة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان الساحل وعلى المدن التى تحيط بها، كان تجارها أو سكانها أول من وصلوا إلى بلاد سفالة بسفنهم واستخرجوا منها الذهب، مما در عليهم كثيرا من الأموال التى استفادوا منها فى تطوير مقدشو، فحلت المنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربى محل المبانى الخشبية ومحل المساكن المتخذة من القش المغطى بجلود الحيوانات والتى كانت من صناعة المهاجرين الأولين من الزيديين. وقد تعددت الطوابق التى تكونت منها المنازل التى بناها الحرث حتى أصبحت أربعا أو خمس طوابق فى عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م، كما نمت ثروة مقدشو فى عهدهم نموا محسوسا حتى أصبحت هذه المدينة بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة ومركزا للأقاليم العربية الصغرى التى كانت تمتد وتنتشر على

طول الشاطئ، فكانت جموع الناس ترد على مقدشو من المدن التى أنشئت على الساحل فيجتمعون فى مسجدها الجامع حيث يؤدون صلاة الجمعة. مما يدل على أهمية مركز مقدشو الدينى والثقافى عند سكان السواحل جميعا حتى اعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج كله، وسيدة على كل عرب هذا الساحل نتيجة لما وصلت إليه من قوة ونفوذ، ولما قامت به من دور هام فى نشر العروبة والإسلام، فقد كانت هذه المدينة فى الجنوب وزيلع الصومالية فى الشمال أهم منفذين لتيارى العروبة والإسلام اللذين اخترقا الصومال إلى بقية منطقة القرن الإفريقى ، حيث ساد الإسلام معظم هذه المنطقة منذ أمد بعيد.

ظلت مقدشو منذ إنشائها أقوى مدينة على الساحل. وعندما وصل الشيرازيون المهاجرون بقيادة على بن حسن بن على إلى هذا الساحل بعد حوالى سبعين عاما من بنائها، لم يستطيعوا أن ينزلوا فيها، ولم يستطيعوا أن يحطموها، فاتجهوا جنوبا إلى كلوة، ولم يفعلوا ذلك لأن أهل مقدشو كانوا يختلفون عنهم فى المذهب، فهم شافعية والوافدون الجدد الشيرازيون كانوا شيعة، بل لما كانت عليه هذه المدينة من قوة وتحصين جعلها صعبة المنال على هؤلاء الوافدين الجدد وعلى غيرهم من الذين أتوا بعدهم من البرتغاليين.

وبعد ازدهار سلطنة كلوة التى أقامها هؤلاء الشيرازيون فى الجنوب والتى أطلق عليه الكتاب الأوربيون اسم امبراطورية الزنج فى مبالغة مقصودة. احتفظت سلطنة مقدشو بقوتها. فكانت هى وكلوة أهم مدينتين على الساحل من القرن العاشر إلى الخامس عشر للميلاد. ولم تستطع كلوة فى أوج عظمتها أن تتسلط على مقدشو، ولم يستطع سليمان أعظم حكام كلوة الذى مد سلطانه على كثير من بقاع الساحل أن يتسلط على مقدشو، بل إنه لم توجد مدينة نافست كلوة فى الغنى والقوة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد إلا

مقدشو التى احتفظت بقوتها بعد ذلك، بينما هوت كلوة سريعا منذ ذلك التاريخ، ولم تستعد مركزها حتى قدوم البرتغاليين، فى الوقت الذى كانت فيه مقدشو أكبر وأعظم مركز استقرار على الساحل فى القرن الخامس عشر للميلاد.

ورغم ما تعرضت له سلطنة مقدشو من سيطرة قبيلة الأبجل الصومالية قبل قدوم ابن بطوطة إليها حيث كان سلطانها عندما زارها ينتمى إلى هذه القبيلة. ويسمى أبابكر بن الشيخ عمر، إلا أنه يبدو أن سيطرة هذه الأسرة كان أمرا عارضا بدليل أن البرتغاليين عندما قدموا وجدوا حكامها من أسرة المظفر من بنى الحارث الذين أسسوها كما سبق القول.

ونظرا لطول مدة حكم هذه الأسرة فقد بذلت جهدها فى تعريب كثير من القبائل الصومالية وخاصة الساحلية التى دخلت فى الإسلام على أيديهم. ذلك أن هذه القبائل وخاصة قبيلة الأجران التى كانت من أهم قبائل الهوية الصومالية والتى كانت تقيم فى الأراض الكائنة بين مجرى الجب الجنوبى والبلاد المعروفة الآن باسم شيلة، كانت تربطها بأسرة المظفر الحارثية صلات حسنة، نتيجة لما كانت تستفيده هذه القبيلة من اتساع نطاق تجارتها مع مقدشو التى كانت أسواقها مفتوحة لهم. وكان الأجران هم العنصر الفعال فى جلب البضائع الواردة عل الأسواق العربية الساحلية، إذ كانوا يمتلكون الجمال التى كانت تسهل لهم الانتقال وتقرب المسافات البعيدة.

ولا شك أن هذه العلاقات التجارية لابد أن تؤتى ثمارها فى نشر الاسلام والعروبة بين هذه القبيلة وغيرها من القبائل الصومالية التى اتصلت بسلطنة مقدشو الاسلامية التى أكثرت من إنشاء المساجد والجوامع التى بقى لنا منها مساجد عدة، منها مسجد عليه كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، أى قبل مرور ابن بطوطة بها بنحو قرن من الزمان، ولعل هذا

المسجد هو مسجد عبد العزيز الذى بنى فى مقدشو منذ حوالى سبعمائة عام كما أخبرنى بذلك بعض أهالى مقدشو حينما زرتها فى ١٩٨٩/٦/٢٨م للمشاركة فى أعمال المؤتمر الدولى للدراسات الصومالية بدعوة من سفارة الصومال بالقاهرة تقديرا منها لما قمت به من تأليف كتاب عن علاقات الصومال والزيلع بالحبشة. والملفت للنظر أنه يوجد بجوار هذا المسجد بعض المقابر التى تعلوها شواهد مكتوب على إحدها : «هذا قبر المرحوم حاج على محمد شوله المخزومى ، وعمره ٩٠ سنة . كان وفاته شهر جمادى الأولي. يوم ربوع ١٣٨٩هـ موافق يولية ١٩٦٩م» ويلاحظ من هذه العبارة الحرص على ذكر أداء فريضة الحج، والحرص على ذكر النسب العربي، مما يدل على مدى تعلق الصوماليين دائما بالعروبة والاسلام.

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن بلاد الصومال بفضل ماكتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب. منهم المسعودى والإدريسى وابن بطوطة الذى أمدنا بوصف عدد كبير من المدن الافريقية وأحوال سكانها المسلمين، لا سيما مقدشو، وكان قد زارها عام ١٣٣٢م وزار زيلع قبلها وقال عنها أنه «يسكنها طائفة من السودان شافعية المذهب، لكن أغلبية أهلها سود الألوان رافضة، وهى مدينة كبيرة، لها سوق عظيمة لها رائحة غير مستحبة بسبب كثرة السمك ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة والطرقات».

ثم أقلع ابن بطوطة إلى مقدشو واستقر بها أسبوعا، وأتيح له أن يتصل بقاضيها وعلمائها وسلطانها الشيخ أبى بكر بن الشيخ عمر الذى استضافه مدة إقامته، وقد أمدنا هذه الرحالة المغربى بوصف طعام أهلها وفاكهتها وملابس شعبها وتقاليد سلطانها فى مواكبه ومجالسه، فقد كان سلطان مقدشو كما يقول ابن بطوطة يحرص على الخروج فى موكب رائع إلى المسجد الجامع للصلاة أيام الأعياد والجمعة. فكان يخرج وهو محاط بوزرائه وقضاته وجنده،

وقد رفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون يعلو كلا منها طائر مصنوع من الذهب الخالص، بينما تضرب الطبول والأبواق والأنفار بين يديه، ويسير الموكب على هذا النحو المنظم غاية التنظيم حتى يصل إلى المسجد فيؤدون الصلاة، ثم يخرج السلطان ومن معه على هذا النظام ويسير حتى يدخل مشوره (دار الشوري)، ثم يصف ابن بطوطه جلوس السلطان فى مشوره بقوله : «ويدخل إلى مشوره وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هناك وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه عليه غيره، والفقهاء والشرفاء معه، ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر. فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم، ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق إيذانا بخروج السلطان إلى داره». ثم يتحدث عن جلوس الفقهاء والعلماء وذوى الرأى وعن كيفية نظرهم فى شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية.

بعد ذلك يصف ابن بطوطة الازدهار الاقتصادى الذى كانت تنعم به سلطنة مقدشو الاسلامية فيقول إن هذه المدينة مدينة واسعة كبيرة يمتلك أهلها عددا وافرا من الجمال والماعز ينحرون منهامئات كل يوم، كما أنهم تجار أغنياء أقوياء، كما أن بعضهم يقوم بصناعة ثياب جميلة لانظير لها تصدر إلى مصر وغيرها من البلادد. وكى يشجعوا التجار على القدوم إلى بلادهم كان من عادتهم أنه متى وصل مركب أو سفينة محملة بالتجار والبضائع إلى ميناء مقدشو. يركب شباب هذه المدينة فى قوارب صغيرة ويحمل كل منهم طبقا مغطى فيه طعام، فيقدمه لتاجر من التجار القادمين على هذه السفن ويقول «هذا نزيلي» فينزل معه هذا التاجر إلى داره، ويساعده هذا الشاب فى عمليات البيع والشراء. وكذلك يفعل كل شاب من شباب مقدشو مما أدى إلى رواج التجارة بين مقدشو والأقطار الخارجية إلى حد بعيد. وقد أدى هذا الأمر إلى ثراء السلطنة وازدهار مقدشو.

وقد استمر ازدهار مقدشو فى القرن الرابع عشر، واستمرت لها السيادة على ساحل بنادر وإقليم الصومال حتى القرن السادس عشر الميلادى حينما انحطت منزلتها كمركز تجاري، وانتشرت التجارة بين عدة مدن ساحلية أخرى منافسة لمقدشو، كما تعرضت للخطر البرتغالي، فقد ضرب فاسكودى جاما مقدشو بالمدافع فى أثناء عودته من الهند عام ١٤٩٨م ثم استولى أحد قواد البرتغال على مدينة براوة عام ١٥٠٧م وحاول الاثنان الاستيلاء على مقدشو لكنهما فشلا، وغزا (لوبى سواريز) زيلع عام ١٥١٥م وأضرم فيها النار، كما حاصر غيره من قواد البرتغال بربرة ونهبها عام ١٥١٦م واستمر البرتغاليون يحاولون غزو المدن الساحلية للصومال، مما أدي الي استنجاد الصوماليين بسلطان عمان الذي أرسل في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م قوة بحرية استطاعت أن تبعد البرتغاليين عن الصومال وتجعله يدخل في اتحاد ظل قائماً مع سلطنة عمان حتي القرن التاسع عشر للميلاد، إنقاذاً له من البرتغاليين الذين كانوا قد شنوا حربا صليبية ضد المسلمين فى شرق افريقيا والصومال.

ومن المدهش حقا أنه كان من نتائج تلك الحملة الوحشية أن انتشر الاسلام. ذلك لأن السكان المسلمين تركوا الساحل أمام نيران المعتدين البرتغاليين ولجأوا إلى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل الصومالية ونشروا الإسلام بينها، وأدى ذلك إلى وجود شعب الصومال المسلم. وبسبب كثرة الهجرات العربية من بلاد اليمن والحجاز إلى تلك البلاد انتشرت اللغة العربية والدم العربى بدرجة كبيرة بين السكان، وأصبحت لغة التخاطب بجانب اللغة المحلية، مما أعطانا شعب الصومال العربى المسلم. وكانت قبائل الصومال بعد اعتناقها الاسلام هى السند والحصن الذى لجأ إليه أحمد القرين فى صراعه ضد ملوك الحبشة، مما يدل على انفعال شعب الصومال بالاسلام انفعالا قويا واضحا . ولا غرو فالصومال الآن كما هو معروف إحدى دول الجامعة العربية.

٢ ـ سلطنـة كلـوة الاسـلامية

(٣٦٥ ـ ٩١١هـ / ٩٧٥ ـ ١٥٠٥م)

انتشرت المراكز التجارية العربية بطول الساحل الشرقى لأفريقيا جنوب مقدشو؛ ومن أشهر تلك المراكز لامو ومالندة وممبسة ولندى وكلوة وسفالة، وجزر زنجبار وبمبا وجزر القمر ومدغشقر فى المحيط الهندي. وقامت فى هذه المراكز التجارية عدة سلطنات من أصل عربى أو فارسى تحدثنا عن سلطنة عربية منها هى سلطنة مقدشو، ونتحدث الآن عن سلطنة أنشأها فرس، لكن الطابع العربى غلب عليها فى النهاية، وسوف نتحدث عن سلطنة عربية أخرى هى سلطنة بات النبهانية.

وفيما يختص بسلطنة كلوة الاسلامية، فالمعروف أنها قامت نتيجة هجرة قامت من شيراز بفارس كان على رأسها على بن حسن بن على وأبناؤه الستة على متن سفنهم بما فيها من بضائع بقصد التجارة، ولما وصلوا إلى جزيرة كلوة التى تقع أمام الساحل الشرقى لأفريقيا وهى ضمن دولة تنزانيا الآن ـ استقروا فيها فى عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م ، ووفد عليهم كثير من العرب، وكان هؤلاء الوافدون يفضلون المعيشة فى الجزر لسهولة الدفاع عنها والاعتصام بها إذا ماحاول الأهالى الساكنون فى البر الافريقى الاعتداء عليهم. وعند وفاة على بن حسن بن على الشيرازى كان نفوذه يمتد إلى مدينة سوفالة فى الجنوب وإلى ممبسة فى الشمال. وكان لسوفالة أهمية باعتبارها مرفأً يصدر منه الذهب المستخرج من داخل البلاد. وبعد وفاة على بن حسن بن على اعتدى الأهالى على ابنه واضطروه إلى الفرار إلى زنجبار فى عام ١٠٢٠م.

وبعد قليل جمع السلطان المطرود حوله بعض الجند وعاد بهم واحتلوا كلوة ثانية، وازدهرت المدينة فى خلال القرن التالى بسبب تجارة العاج والذهب الذى

كان يصدر من سوفالة التى تقع جنوب نهر الزمبيزى أى جنوب كلوة بكثير، وحرمت مقدشو من تلك التجارة التى كانت تحصل علها من سوفالة وخاصة فى عهد السلطان داود بن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ ـ ١١٧٠م) . وبذلك صارت الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة، ويعتبر القرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلادى هما العصر الذهبى لتلك السلطنة الزنجية الإسلامية، فقد أصبحت كلوة عروس الشاطئ الأفريقي، وقام سلطانها بسك النقود، وقد عثر فى كلوة ومافيا وزنجبار على حوالى ١٠٠٠٠ قطعة نحاسية منها.

ولما كان مؤسسو كلوة الأوائل من الشيرازيين الفرس، فلا غرو أن يكون لهم تأثير كبير على أسلوب الحضارة الذى ازدهر هناك خلال القرون ١٠، ١١، ١٢، ١٣ للميلاد. وكانت حضارة ذات مظاهر فارسية قديمة. فظهر الأسلوب الفارسى فى البناء بالحجارة، وفى صناعة الجير والأسمنت واستخدامهما فى البناء، وفن النقش عل الخشب، ونسج القطن، وشيدوا عدة مساجد ومبان جميلة الطراز ما زال بعض مخلفاتها باقيا إلى اليوم، ولكن الأثر العربى تغلب بعد ذلك بسبب تدفق الهجرات العربية واستقرارها وكثرتها كما سبق القول.

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن هذه السلطنة بفضل ماكتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب، ومن الوثائق التاريخية الهامة. فالمسعودى زار ساحل الزنج فى القرن العاشر ووصف أحوال البلاد وأهلها، كما وصفه الإدريسى وزاره ابن بطوطة وخاصة مدينة كلوة وممبسة. وقال عن المدينة الأخيرة إنها «جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين فى البحر، وأشجارها الموز والليمون والأترج، وأكثر طعام أهلها السمك والموز، والقمح يأتى لهم من الخارج لأنهم لايزرعون. وهم شافعيون يعنون بأمور دينهم ويشيدون المساجد من الأخشاب المتينة». وبعد أن قضى ابن بطوطة ليلة فى ممبسة ركب

البحر إلى مدينة كلوة وقال عنها إنها « مدينة كبيرة بيوتها من الخشب وأكثر أهلها زنوج مستحكمو السواد فى وجوههم، وهم شافعيون، ويحكمها السلطان أبو المظفر حسن ، وقد كان فى قتال دائم مع السكان المجاورين وعرف بتقواه وصلاحه كما كان محسنا كريما».

ولم يكن السلطان أبو المظفر حسن الذى زار ابن بطوطة كلوة فى عهده فارسى الأصل، بل كان من أصل عربى صميم، فهو نفسه أبو المواهب الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المهدلى اليمنى الأصل. وقد انتقل الحكم من البيت الفارسى إلى هذا البيت العربى منذ عام ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م ، وظل هذا البيت يحكم هذه السلطنة حتى جاء البرتغاليون وقاموا بغزوها فى عام ١٥٠٥م. وقد ازدادت الهجرات العربية فى عهد هذا البيت العربى الحاكم فى كلوة، مما جعل الطابع العربى يتغلب على الطابع الفارسى فى مظاهر الحياة المختلفة. فاللغة الغالبة هى اللغة العربية وليست الفارسية، فقد كانت تكتب بها سجلات كلوة بجانب السواحلية، كما كان المذهب الدينى السائد هو المذهب الشافعى السنى وليس المذهب الشيعى الذى أتى به البيت الحاكم الأول على يد على بن حسن بن على الشيرازي. ولازالت أغلبية المسلمين فى هذه المنطقة من السنة الشافعية حتى الآن.

وعلى أية حال فقد انفعل سلاطين هذه السلطنة سواء كانوا من الفرس أم من العرب بالحياة والتقاليد الإسلامية كل الانفعال، فأكثروا من بناء المساجد والمدارس واهتموا بالعلوم الإسلامية واستقدموا العلماء ورحبوا بالأشراف والصالحين، كما شاركوا فى معركة الجهاد ضد الزنوج الوثنيين الذين كانوا يقيمون فى الداخل، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة كما سبق القول، وقال إن سلطانها «كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج

خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالي، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم. وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ... وكان هذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف».

ويقول ابن بطوطة أنه حضر صلاة الجمعة مع السلطان. ولما خرج السلطان من المسجد قاصدا داره تعرض له أحد فقراء اليمن وطلب منه أن يهب له ملابسه، فتنازل عنها السلطان بكل سماحة. وهذا قول هام لأنه يبين مدى انفعال سلاطين كلوة بالحياة الأسلامية، ويبين مدى احترامهم لحدود الشريعة وللفقهاء ورجال الدين وعملهم على نشر الاسلام فى بلاد الزنوج داخل القارة.

غير أن ازدهار كلوة لم يتجاوز منتصف القرن الرابع عشر، إذ أخذ نجمها فى الأفول بسبب تعرضها لبعض الاضطرابات الداخلية، وبدأت مدينة بات فى شمالها تقوى وتثرى لانتقال تجارة الذهب إليها، وأخذت فى التوسع صوب كلوة فى عهد أسرة بنى نبهان العربية التى أسست سلطنة قوية فى مدينة بات فرضت سلطانها على كثير من بلاد الساحل الشرقى لأفريقيا. كذلك قام حاكم سوفالة بالتخلص من سيادة كلوة وأعلن استقلاله عنها، وانتهى الأمر إلى نزوح بعض العرب من مالندة (مالندي) إلى كلوة وتولوا مناصب الوزراء والأمراء وأبقوا على السلطان الذى لم يكن له من النفوذ إلا ظله، وقام الصراع بين أفراد البيت الحاكم على منصب السلطان فى القرن الخامس عشر الميلادي، وتعاقب على العرش الواحد بعد الآخر، وقل المال حتى أن الحكومة لم تجد ماتنفقه على إصلاح المسجد الكبير بعد أن أصابة الخراب.

وقد أعطى كل هذا الفرصة للبرتغاليين للسيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، ففى عهد فضيل بن سليمان آخر سلاطين كلوة الذى بلغ عددهم ٢٩

سلطانا تم احتلال البرتغاليين لمدينة كلوة عام ١٥٠٥م. وفى أخريات القرن السابع عشر وقعت كلوة تحت سيادة سلاطين عُمان بعد أن قضوا على النفوذ البرتغالى فى بلادهم ثم فى شرق افريقيا. ولما فصل هؤلاء السلاطين ممتلكاتهم الآسيوية عن ممتلكاتهم فى إفريقية فى عام ١٨٥٦م آلت كلوة إلى سلطان زنجبار العُماني، ثم استولى عليها الألمان عام ١٨٨٥م ، وفى عام ١٩١٩ أصبحت جزءا من تنجانيقا (تنزانيا الآن) تحت الوصاية.

٣ ـ سلطنة بات النبهانية الاسلامية

(٦٠٠ ـ ١٢٧٨هـ / ١٢٠٣ ـ ١٨٦١م)

ظهرت هذه السلطنة على مسرح التاريخ نتيجة لهجرة عربية وفدت من عمان إلى ساحل شرقى إفريقيا فى أوائل القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد حيث كونت سلطنة إسلامية تولت حكم شطر كبير من هذا الساحل وأقامت سلطنة نبهانية فى بات ظلت موجودة حتى عام ١٨٦١م. والنباهنة قوم من العتيك من الأزد فى عُمان كانوا قد استولوا على مقاليد السلطة هناك بعد أن بدت الفوضى فى البلاد وانقسم العُمانيون إلى طائفتين متخاصمتين، وحكم النباهنة عُمان مدة تبلغ حوالى خمسمائة عام حيث قامت دولتهم هناك عام ٥٠٠هـ ١١٠٦ أو عام/ ٥٠٦هـ / ١١١٢م واستمرت حتى نهاية القرن العاشر للهجرة عندما قامت دولة اليعاربة فى حكم عُمان منذ عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م.

ويبدو أن الدولة النبهانية فى عمان قد مرت بأطوار من القوة والضعف بسبب الصراع الداخلى على الحكم، وكان الطور الأول يشمل مدة قرن من الزمان انتهى بهجرة أحد ملوك النباهنة، وهو على أرجح الأقوال سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهانى إلى ساحل شرقى افريقيا فى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م

واستقر هو من هاجر معه فى مدينة بات التى تقع فى أرخبيل لامو (فى كينيا الآن)، وأقام سلطنة هناك لم تكن أولى السلطنات الاسلامية، فقد سبقتها سلطنات أو إمارات أخرى تحدثنا عنها من قبل. المهم أن النبهانيين حكموا جزءا كبيرا من الساحل متخذين من بات مقرا لسلطنتهم وحكمهم بعد أن استطاع أول سلطان لهم هناك، وهو سليمان بن سليمان بن مظهر النبهاني، أن يتزوج أميرة سواحيلية، ليست فارسية، هى ابنة اسحاق حاكم بات فى ذلك الحين، وعن طريق زوجته ورث الملك، كما يقال أن والدها تنازل له عن الحكم فأصبح الحاكم الشرعى لبات، ومن ثم نقل بلاطه من عُمان إلى شرق افريقيا، وفى بات ألقى مراسيه حيث رحب به الأهالى الذين كان معظمهم من عُمان، ولذلك قابلوه بكل حفاوة وتكريم.

وقد نمت هذه السلطنة واتسعت فى عهد أبنائه وأحفاده. ففى عهد السلطان محمد الثانى بن أحمد (٦٩٠-٧٣٢هـ / ١٢٩١ - ١٣٣١م) توسعت شمالا حيث قام هذا السلطان بعدة حملات ناجحة أخضع فيها كل المدن الساحلية التى تقع شمالى بات حتى مقدشو وعين حاكما لكل منها، وان كنا نعتقد أن مقدشو لم تخضع لسلطانه. لأن ابن بطوطة حينما زارها عام ٧٣١هـ / ١٣٣١م وجد فيها شيخا أو سلطانا مستقلا لايخضع لأحد، وكان يدعى أبابكر بن الشيخ عمر، ويقول ابن بطوطة أنه كان فى الأصل من البرابرة أى من الصوماليين، وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربي.

كما توسعت السلطنة النبهانية جنوبا فى عهد ابنه السلطان عمر الأول (٧٣٢ - ٧٦٠هـ / ١٣٣١ - ١٣٥٨م) حيث حارب المدن الساحلية بما فيها كلوة حتى وصل إليجزر كيرمبا Kirimba جنوب رأس دلجادو، وخضعت له كل هذه المنطقة ماعدا جزيرة زنجبار التى لم تكن فى ذلك الوقت قطرا مهما بدرجة

تجذب انتباهه إليها. كذلك فإن حكام مالندى أتوا إلى بات ليعطوا ولاءهم لسلطانها، كما حارب هذا السلطان جزر ماندا الثلاثة، وهى ماندا وتاكا وكيتاو، ودخلت أيضا مدينة ممبسة والمستوطنات القريبة منها ضمن منطقة نفوذه، وهكذا أصبح السلطان عمر بن أحمد فى غاية القوة والنفوذ بعد أن أصبحت معظم المدن الساحلية تحت سيطرته.

وقد استمرت سيطرة النباهنة على هذه المدن وعلى كثير من أجزاء الساحل الشرقى لافريقيا بصفة عامة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، واستطاعت كلوة أن تحقق مثل هذا النفوذ فى القرن الخامس عشر، وإن كنا نرجح أن هذا النفوذ لم يكن إلا بعد منتصف ذلك القرن، لأن بات كان لازال لها سلطانها على النصف الجنوبى من الساحل.

نخلص من ذلك كله إلى أن سلاطين بات النبهانيين استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على معظم مدن الجزء الجنوبى من ساحل شرقى افريقيا، وكان لهم فى كل مدينة خضعت لهم عامل أو قاض يعرف باسم ماجومب Majumbe بمعنى الخاضع لليمب أو للقصر الملكى فى بات. وكانت دار الشورى Jumbe فى بات مقرا للحكومة المركزية التى كانت تحكم كل البلاد التى خضعت لهؤلاء السلاطين الذين اتخذوا اللقب السواحيلى بوانا فومادى أو فومولوتى أو فوم لوط، بمعنى ملك أو سلطان، حيث نمت فى عهدهم سلطنة بات نموا سياسيا واقتصاديا كبيرا.

فقد أصبحت هذه السلطنة تتمتع بنظم إدارية وتقاليد سياسية واضحة، وانفردت بتقاليد جديدة فى الملائمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للأهالي، إذ فرضت ضريبة إنتاج لايتعدى مقدارها ١٠٪، ذلك أن الدولة كانت تتقاضى وسقين أو حملين من كل عشرين وسقا تنتجها كل جماعة من العبيد

مشتغلة بالزراعة، وهى الضريبة المعروفة بالعشور فى الفقه الاسلامي، كما دخلت الزراعة فى بقاع كثيرة من ساحل الزنج فى فترة الحكم النبهاني، وظهر كثير من النباتات التى زرعها العرب هناك مثل القرنفل وقصب السكر، كما اهتم العرب بالرعى وتربية الماشية والأغنام كما أدخلوا تربية الإبل فى هذه المناطق.

وقد نشطت الحركة التجارية فى عهد ازدهار سلطنة بات النبهانية إلى حد كبير فى الشرق الافريقي، وتوافد على الساحل التجارى العرب من عمان وغيرها، وكذلك تجار الهند المسلمون، وقد عمل هؤلاء التجار بنقل الحاصلات المتوافرة فى شرق افريقيا إلى البلدان المطلة على المحيط الهندى وإلى الأسواق العربية فى مصر والشام والعراق. وينقل زو مارش Zoe Marsh عن ستيجاند Stigand صاحب كتاب The Land of Zinj الذى استند فيه إلى سجلات بات القديمة، أن أحد سلاطين بات الذى حكم بعد السلطان أبى بكر الذى مات عام ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م كان عظيم الثراء والغنى نتيجة لاشتغاله بالتجارة، كما أصبحت الدولة وسكانها على جانب كبير أيضا من الثراء.

وقد نتج عن هذا الثراء تطور حضارى كبير، فقد أنشأ أهل بات منازل كبيرة واسعة، وضعوا فيها لمبات نحاسية جميلة، كما صنعوا سلالم أو درجات مزينة بالفضة يتسلقونها أو يصعدون عليها إلى فرشهم أو سررهم، كما صنعوا سلاسل فضية تزين بها الرقاب، وزينوا أعمدة المنازل بمسامير كبيرة من الفضة الخالصة، وبمسامير من الذهب على قمتها. وقد تجلت مظاهر هذه الحضارة العربية أيضا فى المبانى المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والنوافذ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية والفسيفساء المتناسقة مع الرخام الملون.

وفى مجال الثقافة واللغة والعلوم والفنون ظهر فى تلك الفترة من القرون

الوسطى ما يعرف باللغة السواحيلية حسبما يقول رويش، وهى الفترة التى كانت فيها سلطنة بات النبهانية صاحبة السيطرة والنفوذ على معظم أجزاء الساحل الشرقى لافريقيا كما سبق القول، مما أدى إلى وجود تاثير عربى قوى على اللغة السواحيلية حتى فى المناطق الجنوبية التى تقع فى تنجانيقا وزنجبار، حيث ظهرت أنقى أنواع اللغة السواحيلية.

ونتيجة لذلك ظهرت نظرية تقول بأن الشعب السواحيلى ولغته نشأ كل منهما حول لامو حيث توجد بات، وأن المهاجرين العرب الذين أقاموا فى لامو وأنشأوا هذه الامارة، تزوجوا من نساء البانتو واضطروا لاستخدام عدد من الكلمات البانتوية بحكم معيشتهم اليومية مع زوجاتهم، ونشأ أولاد مولدون أى نصف عرب ونصف بانتو، مزجوا بين اللغة العربية لغة آبائهم، وبين لغة البانتو لغة أمهاتهم، ومع استمرار التزواج والاختلاط والمصاهرة تكون الشعب السواحيلى وظهرت اللغة السواحيلية التى أصبحت لغة التجارة واللغة الدراجة أو لغة الحياة اليومية، وسرعان ما انتشرت هذه اللغة فى شرق ووسط افريقيا نظرا لغناها ومرونتها.

ولاشك أن انتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين، بجانب اللغة العربية التي كانت لغة الأرستقراطية العربية الحاكمة، كان له أثره الكبير فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين القبائل الإفريقية التى تقيم على الساحل، وتلك التى تقيم حول طرق القوافل الرئيسية الممتدة من الساحل إلى بحيرة نياسا وإلى المدن أو القرى الداخلية الواقعة على بحيرة تنجانيقا أو التى تقع بعيدا فى الداخل، مما جعل اللغة السواحيلية عاملا قويا فى توحيد السكان فى هذه المنطقة من القارة على اختلاف ألوانهم وتباين لغاتهم وتعدد قبائلهم وشعوبهم وأجناسهم، مما أدى إلى ظهور ثقافة مشتركة هى الثقافة السواحيلية

وهى ثقافة غلبت عليها السمة العربية حيث كانت النغمة العربية للحياة أقوى من غيرها، لأن هذه النغمة تعود إلى أزمنة قديمة قبل ظهور الإسلام بل وقبل الميلاد، ومن ثم فقد ساعد ذلك كثيرا على انتشار الإسلام بين السكان المحليين وإلى تطعيم ثقافتهم بعناصر عربية كثيرة، خاصة وأن هذه اللغة كتبت بحروف عربية واستمرت كذلك حتى جاء الاستعمار الأوروبى الحديث وحوّلها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بهدف إيجاد فاصل بين الثقافة العربية وبين الثقافة السواحيلية الحديثة. وعندما كانت السواحيلية تكتب بحروف عربية تسرب إليها كثير من الألفاظ العربية. وقد قدر عدد هذه الألفاظ بحوالى عشرين فى المائة فى لغة التخاطب، وثلاثين في المائة فى السواحيلية المكتوبة، وخمسين فى المائة فى لغة الشعر السواحيلى القديم. كما أن العرب غرسوا فى السواحيليين حب الأدب وفنون الشعر وخرج منهم شعراء وخطباء مفوهون، وأصبح لهم أدب يعتزون به، وتكون تراث كبير من الشعر والنثر السواحيلى مكتوب بالحروف العربية يشتمل على أعمال دينية ودنيوية. فعرفوا الشعر الغنائى (المشاري) منذ زمن بعيد يعود إليما قبل عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م. ومازالوا ينظمونه، كما كتبوا شعر الملاحم المعروف باسم التندي.

واذا كانت اللغة السواحيلية وثقافتها قد مهدت السبيل أمام انتشار الثقافة الإسلامية والإسلام على هذا النحو، فإنها مهدت السبيل أيضا أمام ظهور شعب جديد هو الشعب السواحيلي. وقد ساعد فى تكوين هذا الشعب ميل المستوطنين العرب إلى السلم وحبهم للسكون وتجردهم من نقيصة الطمع، فإن مستوطناتهم وإماراتهم وسلطناتهم لم تقم على الفتح بل على التجارة، والتجارة كما هو معروف لاتنشط إلا فى جو من السلام والأمن والعلاقات الطيبة. ونتيجة لهذه العلاقات الطيبة توثقت عرى المودة والوئام بين العناصر المختلفة التى كانت تسكن الساحل، فاتحدت واندمجت فى شعب واحد هو الشعب السواحيلي.

وكـان انتـشـار الإسـلام من أهم البـواعث أو العـوامل التى سـاعـدت على هذا الاندمـاج. كمـا أن أخلاق الافـريقى وطباعـه كانت قريبـة من طبـاع العربى الذى اعتاد الأفارقة رؤيته ورؤية أحفاده يوغلون فى البلاد ويعملون بالتجارة وينشرون الاسـلام والمحبـة والوئام بينهم وبين الناس، فظهـر التـآلف واتحـدت الأهواء والميول، وظهر ما يعرف بالشعب السواحيلي.

وقد حمل هذا الشعب عقيدة الإسلام وتشرب كثيرا من أسلوب العرب فى الحيـاة، واجـتذب كـثيـرا من العرب الذين هـاجـروا على مـر القرون إلى سـاحل شرقى إفريقيـا وأدمـجـهم فى خـلاياه، فـصـاروا جـزءا من نسـيجـه فـيمـا عـدا الأسرات الحاكمة وقليل من الأسر العريقة. وعلى ذلك فقد أصبح المسلم المحلى غير عربى تماما وإنما أصبح سواحيليا. وكان على المستقرين الجدد من العرب مثلهم فى ذلك مثل كثير من الأفارقة القادمين من الداخل أن يعتنقوا الثقافة السواحيلية حتى يصبحوا أعضاء فى هذا المجتمع السواحيلى الجديد.

وقـد دعم النبـاهنة هذه الثـقـافـة السـواحـيليـة ذات الطابع الاسـلامى والتى ازدهرت وتآلقت بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر للميلاد، وذلك بالعمل على نشر التعليم الدينى فى المساجد والمدارس والكتاتيب التى وفد إليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا الكتابة بالحروف العربية، بل ويتعلموا اللغة العربية ذاتها، حتى يتمكنوا من التعمق فى فهم عقيدة الاسلام وتراثه الدينى واللغوي. وقد أخذ كثير منهم من ذلك بحظ كبير نتيجة للتزاوج كلما قلنا، ونتيجة للمشاركة فى العلاقات والتقاليد والحياة الاجتماعية من مسكن ومأكل وملبس وعادات وأعياد ومناسبات وغير ذلك من مظاهر الحياة مما دفع بالحركة الإسلامية إلى الإمام بخطوات واسعة.

وهكذا ترى أن سلطنة بات النبـهانيـة قـد تمكنت منذ القـرن الرابع عـشـر

للميلاد أن تفرض نفوذها على معظم أنحاء الساحل لاشرقى لافريقيا وأن تصبح القوة الكبرى المهيمنة على ذلك الساحل منذ ذلك الوقت، وأن تنشئ حضارة إسلامية تغلغلت جنوبا وحملها المهاجرون والتجار العرب معهم لا إلى الساحل فقط، بل إلى الجزر المواجهة له مثل جزر كلوة وزنجبار وبمبا ومافيا، مكونة بذلك دولة كبيرة تعدد سلاطينها حتى بلغ عددهم اثنين وثلاثين سلطانا. وقد ظلت هذه السلطنة موجودة رغم الضربات التى كالها البرتغاليون لها. وبعد انتهاء هذه المحنة برز العُمانيون فى الميدان بعد أن طردوا البرتغاليين من شرق افريقيا ووضعوا أيديهم على هذا الساحل بما فيها سلطنة بات. وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الإنجليز واحتلوا هذه البلاد قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، حتى تحررت وصارت ما تعرف اليوم باسم جمهورية كينيا.

٤ ـ الاسلام فى الجزر الافريقية والمناطق الداخلية:

هذا عن الاسلام فى بلاد الساحل الشرقى لافريقيا. وفى هذا الصدد لا يفوتنا الحديث بإيجاز شديد عن الإسلام فى الجزر الإفريقية والمناطق الداخلية. ففى المناطق الداخلية انتشر الإسلام فى كينيا، ويقدر عدد المسلمين فيها بحوالى ٥٠٪ من عدد السكان ويسكن هؤلاء المسلمون فى المناطق الساحلية فى ممبسة ولامو ومالندى وفى وسط كينيا فى نيروبى ونيرى ونيوكي، وفى غرب كينيا فى نيانزا، لكنه فى المنطقة الأخيرة يقل عدد المسلمين.

ولا ننس أن كينيا قام على أرضها فى العصور الوسطى وقبل مجئ البرتغاليين والاستعمار الأوربى الحديث سلطنات إسلامية أهمها سلطنة بات النبهانية التى تحدثنا عنها، مما أدى إلى انتشار الإسلام فى هذه البلاد سواء فى الساحل أم فى الداخل. واستمر الحكم العربى لهذه البلاد فى ظل العمانيين الذين طهروا هذه البلاد من البرتغاليين. وظل الأمر على هذا النحو حتى قسم

الأوروبيون شرق القارة فيما بينهم في مؤتمر برلين في عام ١٨٨٥م، وتمكنت انجلترا من بسط نفوذها على كينيا منذ عام ١٨٩٥م وأخذت هي وغيرها من الدول الأوروبية تحارب الإسلام في هذه المنطقة من القارة. ولما جاء عصر الاستقلال نصبت عليها حاكما مسيحيا هو جومو كينياتا حتى تضمن السيطرة في هذه البلاد لغير الاسلام. ورغم ذلك فالاسلام ينتشر بين الأهالى وهناك الكثير من المدارس والمساجد.

وفى أوغندا تعتبر الوثنية هى الديانة الشائعة، وتبلغ نسبة عدد المسلمين حوالى ٢٥٪ من مجموع السكان، وهؤلاء يكثرون فى المقاطعات الغربية التى يوجد بها ثمانية سلاطين من المسلمين. وقد دخلها الاسلام على يد العرب عن طريق ساحل إفريقيا الشرقي، ثم عن طريق السودان من الشمال. وقد سبق الحديث عن تشجيع ملوك أوغندا للتجار العرب ومنحهم حرية الاستيطان، وبهذه الوسيلة أمكن للإسلام أن يصل إلى قلوب بعض الأهالى حتى أن «أمبوجا» شقيق الملك اعتنقه فى القرن التاسع عشر. ويسود المذهب الشافعى فى كينيا وأوغندا وفيهما تنتشر بعض الطرق الصوفية وعدد من المراكز والجمعيات الاسلامية، لكن هذه المراكز لاتستطيع مقاومة الإرساليات التبشيرية المسيحية التى تزودها الجمعيات الدينية الأوروبية بالمال.

أما تنزانيا فقد انتشر الإسلام فى الساحل والداخل منذ قرون عديدة، وازداد انتشارا بعد القضاء على تجارة الرقيق ومد الخطوط الحديدية وإنشاء الطرق التجارية فانتشر الاسلام حتى وصل إلى منطقة البحيرات، وامتد شمالا من أوسمارا إلى منطقة كليمنجارو جنوبا وإلى بحيرة نياسا غربا، ولم يكن فى الجزء الغربى الجنوبى سوى أقلية من المسلمين، وفى عام ١٩٤٥ تحول ٥٠٪ منهم على الأقل من الوثنية إلى الإسلام.

ومعروف أن تنزانيا التى كانت تعرف قبل ذلك باسم تنجانيقا كانت مهداً لسلطنة إسلامية عظيمة هى سلطنة كلوة الإسلامية التى تحدثنا عنها، وقد ازداد طابعها الاسلامى بعد أن ضمت إليها جزيرة زنجبار بعد منتصف القرن العشرين وكونت معها اتحادا عرف باسم تنزانيا أغلبية سكانه من المسلمين الذين لا تقل نسبتهم عن ٧٠٪ من جملة السكان.

ورغم ذلك فقد فرض عليها الاستعمار الأوروبى حاكما مسيحيا عندما نالت استقلالها بعد منتصف القرن العشرين، ولكن الطابع الاسلامى لازال غالبا على الناس، والإسلام يسير هناك فى حركة دافقة رغم المعوقات التى تقف فى سبيله.

وفى مالاوى قامت قبيلة ياو تبشر بالإسلام فى المنطقة التى يرويها نهر لوخندا. وقد أشار إلى سرعة انتشار الاسلام فى مالاوى حاكمها البريطانى عام ١٩١٠م وقال إن الحركة الإسلامية نمت فى غرب البلاد وأن جميع أراضى الياو الممتدة من بحيرة نياسا إلى الساحل الأفريقى الشرقى تحتوى كل قرية فيها على مسجد وتاجر مسلم.

أما الجزر الافريقية المواجهة للساحل الشرقى الأفريقى فقد كانت مراكز تجارية وإسلامية هامة، زخرت بالحياة الإسلامية وانتشر فيها الإسلام بصورة قوية، فمعظم سكان زنجبار من المسلمين ويتبعون المذهب الشافعي، واللغة التى تسود البلاد هى السواحلية وهى لغة إفريقية فى مبناها، عربية فى كثير من مفرداتها. وقد عرف العرب زنجبار قبل الاسلام بأعوام طويلة واستمر ترددهم عليها ولاسيما منذ القرن الثامن الميلادي، فقد هاجر إليها كثير من العرب خاصة أيام النزاع على الخلافة الاسلامية، وكانت تحت سيطرة حكام كلوة

الاسلامية، ثم وقعت تحت حكم البرتغاليين منذ عام ١٥٠٣م فشيدوا كنيسة كبيرة فى مدينة زنجبار، وقضوا على حكم دولة الزنج.

ولما ازدهرت سلطنة عُمان فى جنوب شبه الجزيرة العربية وقضت على حكم البرتغاليين هناك وفى شرق افريقيا، انتقل حكم زنجبار إلى العُمانيين وأصبحت جزءا من سلطنة عُمان، ثم نقل السطان سعيد بن سلطان مقر حكمه إليها عام ١٨٣٢ ثم أصبحت محمية بريطانية عام ١٨٩٠م، وظل سلاطين آل بوسعيد يتولون حكمها تحت النفوذ والسيطرة البريطانية حتى نالت زنجبار استقلالها عام ١٩٦٣م ثم انضمت إلى تنجانيقا فى اتحاد عرف باسم تنزانيا.

والإسلام هو الدين السائد فى زنجبار، ويقدر عدد أتباعه بحوالى ٩٠٪ من مجموع السكان، منهم الشافعية ومنهم الشيعة الاسماعيلية والأباضية. وفى كل من زنجبار وبمبا محكمة شرعية لكل منها قاضيان أحدهما سُنى والآخر أباضي، والمساجد كثيرة ولكل طائفة من الطوائف مساجدها الخاصة بها، وجمعياتها التى ترعى شئونها، ومدارسها ومكاتبها لتحفيظ القرآن. ويوجد فى زنجبار بعض الآثار العربية والشيرازية، وأهمها بعض المساجد الكبيرة وخاصة مسجد كان فى قرية كيز مكازى شيد عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م على الطراز الشيرازى .

أما جزيرة ملجاش التى كانت تعرف باسم مدغشقر، وهى أكبر الجزر الأفريقية، فقد عرفها العرب منذ القرن التاسع الميلادى على الأقل واختلط سكانها الأصليون بالمهاجرين العرب الذين جاءوا إليها من زنجبار وجزر القمر وغيرها، واعتنق الإسلام عدة قبائل ملجاشية بالساحل الشمالى الغربى وفى الجنوب الغربى من الجزيرة، ويزداد عدد المسلمين تدريجيا ويقدر عددهم الآن

بحوالى ٢٠٪ من السكان تقريبا. وقد كانت من قبل مقرا لسطنة عربية اسلامية تسمى سلطنة مسلج أشار إليها (جيان) وقال إن أهلها كانوا يتكونون من جالية عربية وفدت من شرق إفريقيا. وقد أشار المسعودى والادريسى إلى هذه الجزيرة وقالا إن فيها «خلائق من المسلمين ويتوارثها ملوك من المسلمين» وأن الاسلام غلب عليها.

والحقيقة أن مظاهر الإسلام فى هذه الجزيرة قبل الغزو الأوربى لها كانت واضحة وبارزة، منها وجود المساجد الكثيرة وقيام أهلها بالحفاظ على أداء الشعائر والعبادات الإسلامية. فقبيلة الساكلافا على سبيل المثال يصوم كل أفرادها حتى الآن مسلمون ومسيحيون ووثنيون شهر رمضان، على اعتبار أن الصوم من التقاليد الموروثة عندهم، وهم لا يأكلون لحم الخنزير، ولا تزال أسماء زعمائهم أسماء إسلامية. وجميع المدغشقريين حتى الذين دخلوا المسيحية على أيدى الأوربيين اعتادوا أن يختنوا أولادهم، ولا يزالون حتى الآن يتلون عند الزواج آيات من القرآن الكريم على اعتبار أن ذلك من التقاليد الموروثة أيضا. ولازال أهالى ثغر ماجنقا وجميعهم مسلمون يكتبون لغتهم بالأحرف العربية، وبعضهم يتكلمون العربية. وكان أهل السواحل جميعا يكتبون بنفس الطريقة ويزعمون أنهم عرب، وذلك قبل احتلال فرنسا لهذه الجزيرة التى تعتبر الفردوس المفقود، مثلها فى ذلك مثل بلاد الأندلس.

أما جزر القمر التى تقع شمال غربى مدغشقر فيقدر عدد المسلمين فيها بأكثر من ٩٥٪ من مجموع السكان، والبقية مسيحيون من أصل فرنسى أو ملجاشي. وقد نزل العرب فى هذه الجزر فى القرن العاشر الميلادي، والمسلمون فيها يتبعون المذهب الشافعى ولغتهم ا لسواحلية. وقد اعتنقوا الاسلام منذ القرن العاشر الميلادي، وقد غزاهم أمراء كلوة فى القرن الحادى عشر الميلادى

واستولوا على بلادهم، حتى جاء الاستعمار البرتغالى فى أوائل القرن السادس عشر. ولم يلبث الأهالى أن ثاروا على البرتغاليين. وهم شديدو التمسك بالإسلام، وتنتشر هناك الطرق الصوفية لاسيما القادرية والنقشبندية.

والمؤرخون لايزالون يتحدثون عن حسن تمسك أهل هذه الجزر بالاسلام تمسكا شديدا، وعن كثرة المساجد التى وصل عددها إلي٦٧٠ مسجدا فى المدن والقري، ويشيرون إلى انتشار الكتاتيب والمدارس التى تعلم الدين واللغة العربية بجانب اللغة السواحيلية. واللغة العربية هناك هى لغة الدواوين والدين، وبها تصدر الأوامر السلطانية وأحكام القضاة؛ أما السواحيلية فهى لغة التجارة. وكذلك فإن عادات الأهالى فى الزواج والختان والولادة والوفاة وفى الاحتفال بالأعياد الإسلامية وبصوم شهر رمضان وبليلة القدر وبليلة الاسراء والمعراج وغيرها من المناسبات الاسلامية لا تبعد عن العادات والتقاليد التى يتبعها المسلمون فى بلدان العالم الاسلامى الأخري، مما يدل على مدى عمق العقيدة الإسلامية فى نفوس الناس هناك، وعلى مدى الجهد الكبير الذى بذله الدعاة والتجار من العرب وغيرهم فى نشر الاسلام فى هذه الجزر، حتى أصبح معظم أهلها يدينون بهذا الدين. ولذلك لا عجب أن انضمنت هذه الجزر إلى الجامعة العربية منذ بضع سنين.

أهم مصادر ومراجع التاريخ الاسلامي والوسيط للقارة

١ـ المصادر العربية

١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ، حـ ٣ ـ ١٠ دار صادر بيروت سنه ١٩٨٢م.

٢ ـ أحمد بابا التمبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، ليبيا ١٩٩م.

٣ ـ الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزان عالم دار الكتب بيروت ١٨٩١م.

٤ ـ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق مصطفي زيادة، جـ١ ، جـ٢، ص طبعة القاهرة ١٩٦٣، نشق الأزهار في عجائب الأمطار، باريس ١٨٠٧م.

٥ ـ بزرك بن شهريار الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند، ليدن ١٨٨٦م.

٦ ـ ابن بطوطة: تحفة النظار، دار احياء العلوم، بيروت ط ١ سنه ١٩٧ .

٧ ـ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

٨ ـ البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.

٩ ـ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة باريس ١٩٢٨

٩ ـ التجاني: رحلة التجاني، طبعة تونس سنة ١٩٥٨م.

١٠ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦، ـ ٩القاهرة سنه ١٩٧٢م.

١١ ـ التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، القاهرة سنه ١٩٦٥م.

١٢ ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير، طبعة ليدن سنة ١٩٠٧م.

١٣ ـ الجزنائي: زهرة الآس في بناء مدنية فاس، نشر ألفردبل، الجزائر ١٩٢٢م

١٤ ـ ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، جـ٤، القاهرة.

١٥ ـ الحسن الوزان: وصف أفريقيا: دار الغرب الاسلامي، بيروت طـ٢، سنه ١٩٨٣م.

١٦ ـ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٤م.

١٧ ـ ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة بيروت سنه ١٩٧٩م.

١٨ ـ الحيمي: سيرة الحبشة، القاهرة، طـ٢ سنة ١٩٧٢

١٩ ـ ابن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تونس ١٩٢٩م. أعمال الأعلام، نشر أحد مختار العبادي والكتاني، حـ٣ ، طبعة الدار البيضاء سنه ١٩٦٤م.

٢٠ ـ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤، جـ٦، جـ٧ مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٢١ ـ ابن أبي دينار: المونس في تاريخ أفريقية وتونس، تحقيق محمد تمام.

٢٢ ـ الإدفوي: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، القاهرة سنه ١٩٦٦م.

٢٣ ـ الذهبي: تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق عمر عبد السلام جـ٢، طبعة بيروت ١٩٩٣م.

٢٤ ـ الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي وآخرون، طبعة بيروت سنة ١٩٩١م.

٢٥ ـ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينه فاس، الرباط سنة ١٩٧٣م.

٢٦ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، طبعة تونس، ١٩٦٠م.

٢٧ ـ السعدي: تاريخ السودان، باريس سنة ١٨٩٨م.

٢٨ ـ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط ١ سنه ١٩٧٠م.

٢٩ ـ ابن سعد: الطبقات الكبري، جـ٢، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ.

٣٠ ـ سعيد المغيري: جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، مصر ١٩٨٩م.

٣١ ـ السلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي، جـ٢، جـ٤، الدار البيضاء سنه ١٩٥٤.

٣٢ ـ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بولاق ١٢٨٧هـ .

٣٣ ـ أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، جـ٢، طبعة بيروت بدون تاريخ، الذيل علي الروضتين، نشر عزت العطار القاهرة ١٩٤٨

٣٤ ـ ابن الشماع: الأدلة البينة النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية، طبعة تونس ١٩٣٦م.

٣٥ ـ ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، نشر مونيلكسي سنة ١٩٧٠.

٣٦ ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، طبعة القاهرة سنه ١٩٧٢

٣٧ ـ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن سنه ١٩٣٠م.

٣٨ ـ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، جـ١، جـ٣ طبعة بيروت سنه ١٩٨٣م.

٣٩ ـ عرب فقيه: فتوح الحبشة (تحفة الزمان) القاهرة سنة ١٩٧٢م.

٤٠ ـ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة سنه ١٩٤م. مسالك الابصار في ممالك الأمصار، مخطوط بدار المكتب المصرية.

٤١ ـ أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس سنة ١٩٤٠م.

٤٢ ـ القلقشندي: صبح الأعشي في صناعة الإنشا، جـ٥ جـ٨، بدون تاريخ، نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، القاهرة ١٩٥٩م.

٤٣ ـ ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

٤٤ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم جـ١١، طبعة بيروت.

٤٥ ـ الكندي: كتاب الولاة والقضاة، طبعة بيروت سنه ١٩٠٨م.

٤٦ ـ مارمول: افريقيا، جـ٣، الرباط سنة ١٩٨٩م.

٤٧ ـ المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، جـ١ نشر د. حسين مؤنس، القاهرة سنة ١٩٥١م.

٤٨ ـ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة سنه ١٩٦٣م.

٤٩ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ أجزاء، بيروت سنة ١٩٨٧

٥٠ ـ محمد بلو: إنفاق الميسور في فتح بلاد التكرور، القاهرة سنه ١٩٧٤

٥١ ـ محمد ضيف الله: كتاب الطبقات، المكتبة الثقافية، بيروت، بدون تاريخ

٥٢ ـ محمود كعت التمبتكي: تاريخ الفتاش، باريس سنه ١٩١٦م.

٥٣ ـ مجهول: السلوة في أخبار كلوة، مسقط سنة ١٩٨٥م.

٥٤ ـ مجهول: وثيقة تشير ولي، في كتاب الاسلام في اثيوبيا، للدكتور زاهر رياض.

٥٥ ـ المطوي: السلطنة الحفصية، طبعة بيروت ١٩٨٦م.

٥٦ ـ المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٣م. الالمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الاسلام، القاهرة سنة ١٨٩٥م.

ـ البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٩٦١م.

ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مكتبة الخانجي، القاهرة سنه ١٩٥٥م.

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفي زيادة، جـ١، ٢، ٣ طبعة القاهرة سنه ١٩٥٧م.

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١، جـ٢، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.

٥٧ ـ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ١ المطبعة الازهرية، القاهرة جـ١ سنه ١٣٠٢هـ.

٥٨ ـ ناصر خسرو: سفر نامه، القاهرة سنه ١٩٤٥م.

٥٩ ـ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، جـ ٢٤، القاهرة سنه ١٩٨٣م.

٦٠ ـ النيسابوري: استتار الإمام، مخطوط بدار الكتب المصرية.

٦١ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، القاهرة ١٩٥٥.

٦٢ ـ ياقوت: معجم البلدان، ٦ أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنه ١٩٧٩م.

٦٣ ـ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت سنه ١٩٦٠م.

٢ ـ المراجع العربية والمعربة

١ ـ الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، بيروت سنة ١٩٦٥م.

٢ ـ ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، جـ١

٣ ـ ابراهيم طرخان: امبراطورية البرنو الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م.

- امبراطورية غانة الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، سنة ١٩٧٠م.

- دولة مالي الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.

٤ ـ أحمد حمود المعمري : عمان وشرق افريقية، مسقط سنة ١٩٨٠م.

٥ ـ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جـ ٤، جـ٦ مكتبة النهضة المصرية طـ٤، سنة ١٩٨٧.

٦ ـ برنشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة حماد الساحلي جـ١، بيروت سنة ١٩٨٨م.

٧ ـ بازل دافدسون: إفريقيا تحت اضواء جديدة، دار الثقافة للتوزيع والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٨ ـ بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، القاهرة سنة ١٩٥٩م.

٩ ـ ترمنجهام: الاسلام في شرق إفريقيا، الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٣م.

١٠ ـ توماس أرنولد: الدعوة إلي الاسلام، مكتبة النهضة المصرية طـ٣ سنة ١٩٧٠م.

١١ ـ جيان: وثاق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية. القاهرة، ط ١ سنه ١٩٢٧م.

١٢ ـ حسن ابراهيم حسن: انتشار الاسلام في القارة الافريقية، مكتبة النهضة ط٣ سنه ١٩٨٤م. الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨م، المعز لدين الله، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٣م

١٣ ـ حسن أحمد محمود: الاسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٦م، مصر في عصر الطولونيين، الأنجلو المصرية، سنه ٩٦٠م.

١٤ ـ حسن عيسي عبد الظهر: الدعوة الاسلامية في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي ط١، القاهرة ١٩٩١م.

١٥ ـ حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، جـ١، جـ٢، بيروت سنة ١٩٩٢م.

١٦ ـ حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ .

١٧ ـ رجب محمد عبد الحليم: العروبة والاسلام في دارفور في العصور الوسطي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة سنه ١٩٩١م.

- العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصاري الحبشة في العصور الوسطي، دار النهضة العربيه القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

- مصر ورحلات الحج لبلاد الحجاز في العصور الوسطي، بحث قدم لندوة مصر والجزيرة العربية عبر العصور، كلية الاداب القاهرة سنه ١٩٨٣م.

- العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الاسلام منذ ظهوره إلي قدوم البرتغاليين، مسقط ١٩٨٩م.

- دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصي، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١م.

١٨ ـ زاهر رياض : الاسلام في إثيوبيا، دار المعرفة، القاهرة سنة ١٩٦٤

١٩ ـ سالم السيابي: العنوان عن تاريخ عمان، مسقط، بدون تاريخ.

٢٠ ـ ستودارد: حاضر العالم الاسلامي، جزءان، ترجمة شكيب أرسلان، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

٢١ ـ سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ١، جـ٢، جـ٣

٢٢ ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الأولي، القاهرة ١٩٦٥، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م، مصر في العصور الوسطي، القاهرة سنه ١٩٩٧م

٢٣ ـ السيد الباز العريني : الأيوبيون، القاهرة سنة ١٩٦٧م.

٢٤ ـ سيدة الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٦٠، مصر في فجر الاسلام، الطبعة الثالثة، بيروت سنة ١٩٦م.

٢٥ ـ الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة ١٩٧٢م،

ـ تاريخ سودان وادي النيل، القاهرة، ط١ سنه ١٩٥٥م.

٢٦ ـ صلاح العقاد: المغرب العربي، جـ٢، القاهرة سنة ١٩٦٦م.

٢٧ ـ عبد الله العروي: تاريخ المغرب، ترجمة نوقان قرقوط، جـ١، لبنان، ١٩٧٧م.

٢٨ ـ عبد الله حسين: السودان القديم والجديد، القاهرة ١٩٤٥، السودان من التاريخ القديم الي رحلة البعثة المصرية، القاهرة ١٩٣٥م.

٢٩ ـ عبد الرحمن زكي: الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا، القاهرة، بدون تاريخ،

ـ الاسلام والمسلمون في شرق إفريقيا القاهرة، بدون تاريخ .

٣٠ ـ عبد الرحمن الماحي: تشاد من الاستعمار حتي الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠) القاهر ١٩٨٨م،

٣١ ـ عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافه العربية في السودان منذ نشأتها إلي العصر الحديث، مكتبة الخارنجي، القاهرة ط١ سنه ١٩٥٣م.

ـ بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة بدون تاريخ .

٣٢ ـ عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الاسلامية، القاهرة ط٢، سنة ١٩٨١م.

٣٣ ـ فتحي غيث : الاسلام والحبشه، ودار النهضة المصرية، القاهرة بدون تاريخ .

٣٤ ـ محمد أحمد الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والاسلام في إفريقيا الشرقية، دار الفتح، القاهرة ط١ سنة ١٩٧٣.

٣٥ ـ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٧٩، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده، القاهرة سنه ١٩٣٨م.

٣٦ ـ محمد خيري فارس: تاريخ الجزائر الحديث، جـ١، طبعة بيروت سنه ١٩٧٩م.

٣٧ ـ محمد عوض محمد: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة جـ١ سنه ١٩٥١.

٣٨ ـ محمد عيسي الحريري: تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني، جـ٢، طبعة الكويت سنه ١٩٨٧م.

٣٩ ـ محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت ١٩٨٢م.

٤٠ ـ محمد ناصر العبودي: مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين، الرياض سنة ١٩٨١م.

٤١ ـ محمد عبد المنعم يونس: الصومال وطناً وشعباً، دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٢.

٤٢ ـ محمد النقيرة: التأثير الاسلامي في غرب افريقيا، الرياض، سنة ١٩٨٨م،

ـ انتشار الاسلام في شرقي افريقيا الرياض، سنة ١٩٨٢م.

٤٣ ـ محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطي، القاهرة جـ١ سنة ١٩٨٠م

٤٤ ـ محمود الشرقاوي: واثيوبيا، القاهرة سنة ١٩٥٩.

٤٥ ـ مصطفي حسن محمد: حملة لويس التاسع الصليبية في تونس، طبعة الاسكندرية سنه ١٩٨٥م.

٤٦ ـ مصطفي مسعد: الاسلام والنوبة في العصور الوسطي، القاهرة سنه ١٩٦٠م.

٤٧ ـ مكي شبيكة: السودان عبر القرون، بيروت ١٩٦٤، مملكة الفونج الاسلامية، القاهرة سنه ١٩٦٤م.

٤٨ ـ نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جزءان، القاهرة ١٩٠٣م

٤٩ ـ نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، كوناكري، سنه ١٩٦٠م.

٥٠ ـ هوبير ديشان: الديانات في افريقيا السوداء، القاهرة بدون تاريخ .

٣ ـ المراجع الاجنبية

1 - Ahmed ibn Fartua:

-History of first twelve years of the Reign of Mai Idris Alooma, London 1962.

2- Arkell, A J: - History of the Sudan, London 1953

-Chad area between 800 - 1200 D.A., London (1461),

- History of the Sudan from the earliest times to 1821, London 1953).

3 - Barth H. :

- Travels and discoveries in North and central Africa, London 1875.

4 - Burns / A. S.

- History of Nigeria, London (1978).

5 - Budge : Ahistory of Ethiopia, London, 1928

- The Egyptian Sudan, its history and Monuments, London 1967.

6 - Coupland: East Africa and its Invaders, Oxford 1938.

7 - Carbou:

- La Region du Tchad et du Quadai; Paris 1912.

8 - Cheikh; Anta Diop:

- L, Afrique Noire Pre - Coloniale, Paris, 1952

9 - Clarke:

- West Africa and Eslam, London 1982.

10 - Denham: Clapperton:

- Narrative of travels and Discoveries in North and central Africa, London 1826

11 - Fage :

- An introduction to the History of West Africa, Cambridge: 1959.

12 - Freeman - granville:

- The East African Coast, Oxfond, 1962.

13 - Gouilly, A

- L, Islam dans L, Afrique Ocidentale Francaise, Paris, 1952.

14 - Gray :

- History of Zanzibar from the Middle Ages to 1850, London 1969.

15 - Hamilton: J. A:

-The Anglo - Egyption Sudan from Within A.E. S.W, London 1935.

16 - Hiskett:

- The development of Eslam in West Africa, London 1984.

17 - Hogben S J:

-The Mohammadan Emirates of Nigeria: Londo 1930

18 - Hogben ; s.t:

- An introduction to the history of the Eslamic States of Northern Nigeria. London 1967.

19 - James and Monroe:

- A history of Abyssinia, Oxford 1935.

20 - Lappie P.P:

- My Travels through Chad; London 1943.

21 - Mac Michael H :

- A history of the Arabs in the Sudan, 2 Vols Cambridge; 1922.
- The Coming of the Arabs to the Sudan, A.E.S.W, London 1935.

22 - Marsh; Kingsnorth:

- An introduction to the history of East Africa, Cambridge 1961.

23 - Meek . C.K:

- The Northern Tribes of Nigeria; London 1925.

24 - Manteil; ch :

- Les Empires du Mali; Paris 1930

25 - Niven ; C.R:

-The land and peoples of West Africa ; London 195

26 - Palmer; H.R:

- Sudanese Memoirs; lagos 1928
- the Bornu Sahara and Sudan; London 1936

27 - Oliver .R (edit)

- The Middle Ages of African history ; London 1976.

28 - Okafor: A :

- History of Mali ; Paris 1953:

29 - Rouich; J:

- Les Songhay: Paris 1954:

30 - Trimimgham; J.S:

- Islam in Ethiopia, London 1952.
- Eslam in West Africa; Oxford, 1959.
- Islam in the Sudan, London 1949.

31 - Urvoy .Y. :

- Histoire de L" Empire du Bornu; Paris 1949.

32 - Wiedner .P.L

- A History of africa South of the Sahara ; London 1947.

33 - Wells, c.:

- Introducing Africa, New york, 1954

الفصل الثالث

تاريخ افريقيا الحديثه والمعاصر

اولاً- تاريخ القارة فى عصر الاستعمار الاوربى الحديث

١- حركة الكشوف الجغرافية *

بالرغم من أن أفريقيا من قارات العالم القديم فحتى أوائل القرن التاسع عشر لم يكن معروفاً من القارة الأفريقية للعالم الخارجى إلا سواحلها ويرجع السبب فى ذلك لعدة عوامل نجملها فيما يلي: -

١ - قصر سواحل القارة بالنسبة لمساحتها:

وبالطبع كلما زاد طول الساحل أعطى فرصة أوسع للتغلغل للداخل.

٢ - قلة الرؤس والخلجان، وقلة تعاريج السواحل.

وقد ترتب على هذا قلة الموانى الطبيعية، والموانى هى المنافذ التى تطل منها القارة على العالم الخارجي.

٣ - قلة الجزر القريبة من الساحل:

والجزر هى المناطق التى يستقر فيها المستكشفون قبل أن يقفزوا للسواحل وبإستثناء جزر أزوروس، وكناريا قرب الساحل الشمالى الغربى - هناك جزيرة مدغشقر قرب الساحل الشرقى - لكن تيار موزمبيق جعلها منعزلة عن اليابس الأفريقي، وجزر زنجبار، وبمبا، وما فيا التى تواجه الساحل الشرقى تبعد عنه بمسافات ليست قليلة.

---

* أ.د شوقي عطا الله الجمل

٤ ـ السواحل الأفريقية فى جملتها ظهيرها فقير، فهى إما مناطق صحراوية أو شبة صحراوية أو غابات كثيفة.

٥ ـ قلة أهمية الأنهار الأفريقية كشرايين تؤدى للداخل، وذلك لأنها تنتهى الى البحر بدالات كثيرة الفروع، ومستنقعات وسدود.

٦ ـ عوامل مناخية ـ فقارة أفريقيا تقع فى المناطق المدارية والإستوائية وهى غير مشوقة للأوربي.

٧ ـ الأمراض الأفريقية ـ مثل الملايا، ومرض النوم، لم تكن قد كُشفت وسائل مقاومتها.

٨ ـ إهتمام الدول الأوربية ـ حتى حين وضعت أقدامها على القارة ـ كان موجهاً للشرق ومنتجاته التى كانت تحتكر تصديرها لأوربا دولة المماليك.

٩ ـ وقوف الأوفارقة فى وجه الأوربيين ومقاومته لهم.

معرفة المصريين القدماء والعرب بأجزاء من القارة قبل الأوربيين:ـ

عرف المصريون القدماء بلاد النوبة الواقعة جنوب مصر، كما عرفوا بلاد بُنت (الصوال)، ورحلة الملكة حتشبسوت التى أرسلتها لبلاد بونت لإحضار البخور وغيرها والتى سجلت أخبارها على معبد الدير البحرى تدل على ذلك.

كذلك يعتقد البعض أن التشابه فى بعض العادات، والأدوات المستخدمة حتى الآن عند بعض قبائل غرب أفريقيا ـ ترجع للعلاقات بينهم وبين المصريين القدماء. كما أن بعض الآثار التى عُثر عليها فى زيمباوى (روديسيا الجنوبية) يُرجعها البعض كتأثيرات فرعونية.

أما عن العرب ـ فقد عرفوا الساحل الشرقى لأفريقيا من قديم الزمان، وإستقر بعضهم على هذا الساحل وتكونت مدُن على هذا الساحل الشرقى كانت لها صلات تجارية مع عرب شبه الجزيرة العربية، وساعدت الرياح الموسمية على الرحلات التجارية. وقد أعطى العرب المهاجرون لهذا الساحل الشرقى حضارتهم ولغتهم للسكان الأصليين، ولذا وُجدت (اللغة السواحيلية) وهى خليط من اللغة والتأثيرات العربية واللغات الأفريقية الإصلية هنا.

وقد دهُش إبن بطوطه الذى زار الإمارات العربية بشرق أفريقا فى عام ١٣٣٢ مما كانت عليه مدن كلوه، ومنبسه، ومالندى وبمبا، وزنجبار، ومقديشيو من حضارة ورخاء، وشهد نفس الشهادة ـ الأجانب الذين جاءوا بعد ذلك الى هذه الجهات.

وبعد فتح العرب لمصر فى عام ٦٤١م مدوا سلطانهم الى شمال أفريقيا، ومنها الى غرب القارة، حيث قامت ـ قبل الإستعمال الأوربى ـ إمبراطوريات عظيمة وإنتشرت اللغة العربية والدين الإسلامى فى هذه الجهات.

الحركة الكشفية الكبرى فى افريقيا فى العصر الحديث:ـ

بدأ البرتغال هذه الحركة بكشفهم عن بعض المناطق الساحلية فى شمال غرب أفريقيا حيث بنوا الحصون على هذه المناطق الساحلية خاصة قرب الروس البارزة فى الساحل الغربى (حصن ارجيوم Arg ium)، وحصن سينتاجو(Santiago) قرب الرأس الاخضر ـ وحصن ساتومي (Saotome) فى الجزيرة التى عرفت بهذا الاسم.

وفى عام ١٤٨٤م وصل الرحالة البرتغالى ديجو كام (Diego Cam) الى الكنغو، وحاول البرتغال ـ لأول مرة منذ بدأوا حملاتهم الكشفية الإستعمارية

التـوغل للداخل وفـرض سـيطرته على ممالك الكنغـو لكن باءت هذه المحـاولات بالفـشل، وتـركـزت جـهـودهـم فى هذه الجـهـات ـ عند مـيناء لواندا (Luanda) وكانت هذه هى نواة مستعمرة (أنجولا) البرتغالية.

وفى عام ١٤٩٧ قام فاسكود اجاما برحلته البحرية بطول الساحل الغربى للقارة ووصل الى نهاية القارة، وعبر رأس العواصف الذى غُير إسمها الى رأس الرجاء الصـالح ووصل الى السـاحل الشـرقى للقارة، وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال لشرق أفريقا، وإصطدموا بالامارات العربية فى شرق أفريقيا، واستولوا فى عام ١٥٠٧ على (موزمبيق) وتوسعوا فى المناطق المحيطة بها، فأصبحت مستعمرة برتغالية بشرق القاهرة كما كانت أنجولا مستعمرة بجنوب غرب القارة.

وقد ترتبت على كشف طريق رأس الرجاء الصالح عدة نتائج منها:.

١ ـ نتائج سياسية:.

فقد حقق البرتغال نجاحاً سياسياً منقطع النظير وتصدوا للأسطول المملوكى وفى عام ١٥٠٩ حققوا نجاحاً بحرياً ساحقا بهزيمتهم للاسطول المملوكى فى موقعة ديو (Diu) البحرية. وكان ذلك إيذاناً بسقوط دولة المماليك فى يد العثمانيين الذين استولوا على الشام فى ١٥١٦، ومصر ١٥١٧.

٢ ـ نتائج اقتصادية:.

فقد حول البرتغال تجارة الشرق الى الطريق الجديد (طريق رأس الرجاء الصالح) واحتكروا هذه التجارة كما كان يفعل المماليك.

٣ ـ نتائج دينية:.

كان من أهداف البرتغال الوصول الى الحبشة (إثيوبيا) المملكة المسيحية

الوحيدة فى شرق القارة، وإن كانوا لم ينجحوا فى تحويل الإثيوبيين للمذهب الكاثوليكى ـ لكنهم خاضوا معهم عدة حروب ضد المسلمين فى شرق القارة، بل وفى مناطق الخليج العربى ـ حتى أن بعض المؤرخين يعتبر هذه الحروب بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية ـ إمتداداً للحروب الصليبية التى كانت قد قامت فى الشرق العربي.

٤ـ نتائج ثقافية:ـ

أدى تحول التجارة من مصر والشرق العربى الى الطريق الجديد ـ الى عزل هذا الجزء عن العالم الأوربى مما أى الى ركود شمل العالم الإسلامى كله

الجهود المبذولة لكشف أحواض الانهار الافريقية:ـ

وإن كانت الحركة الكشفية الكبرى فى أفريقيا فى العصر الحديث ـ قد بدأت بجهود البرتغال التى نتج عنها كشف سواحل القارة، وكشف طريق رأس الرجاء الى شرق القارة ـ وهذه يمكن أن نطلق عليه مرحلة الكشف الساحليه والجزريه ـ لكن التوغل فى داخل القارة جاء فى مرحلة لاحقة. وسنقصر الحديث على الجهود لكشف أحواض الأنهار الأفريقية الكبرى (النيل، الزمبيزي، النيجر، الكنغو)، والحقيقة إن هذه الأنهار لم تسهم هى نفسها فى أن تؤدى الى داخل القارة ـ لكن الجهود التى بُذلت للكشف عن أحواض هذه الأنهار أدت فى النهاية للكشف عن القارة كلها.

١ـ كشف منابع النيل:ـ

من أهم من ساهم فى العصر الحديث فى حل مشكلة النيل والكشف عن منابعه :ـ

أ ـ جيمى بروس (James Bruce): فقد وصل الى القاهرة فى عام ١٨٧٤ ومنها سافر الى قنا ثم القصير على البحر الأحمر، وعبر البحر الأحمر الى جده ومنها فى البحر الأحمر الى مصوع، وقد خدمته معرفته بالطب إذ قربته من حاكم الحبشة، وفى منتصف ١٧٧٠ زار منطقة النيل الأزرق وتتبع مجراه من خروجه من بحيرة (تانا) الى ملتقى البلن، وقد أشاع بروس أن المنابع الحبشيه التى أكتشفها هى المنابع الوحيدة للنيل ونشر رحلاته هذه فى سبع مجلدات.

ب ـ البكباشى سليم قبطان: من رجال البحرية المصرية فى عهد محمد على قام بثلاث رحلات فى لفترة من ١٨٣٩ الى ١٨٤٢ ـ بعد زيارة محمد على للسودان وأمره بالإعداد لهذه الرحلات، وقد وصل الى قرب غند كرو عند خط عرض ٤٢° شمال خط الاستواء وكان معه بعض الأُجانب من أشهرهم فيرن (Verne)، وقد نشرت مشاهدات هذه الرحلات، وقد أثبتت هذه الرحلات أن ما ذكره جيمس بروس عن أن المنابع الحبشية هى المنابع الوحيدة للنيل غير صحيح وبذا فتح المجال لرحلات أخرى كشفت المنابع الإستوائية للنيل.

جـ ـ برتون وسبيك (Burton & Speke): قاما فى عام ١٨٥٦ برحلة من جزيرة زنجبار الى بحيرة تنجانيقا، وتخلف برتون، لكن أكمل سبيك الرحلة الى بحيرة فيكتوريا، وقد أثار هذا الكشف الإهتمام بمعرفة الحقيقة كاملة عن هذه البيحرات التى ينبع منها النيل .

د ـ سبيك وجرانت (Speke & Grant): أرسلتهما الجمعية الجغرافية البريطانية فى عام ١٨٦٣ فى رحلة لتتبع نهر النيل من مخرجه من بحيرة فكتوريا، وقد وصل لبيحرة فكتوريا، وسمعا عن بحيرة أخرى للغرب منها ـ لكنهما لم يستطيعا كشفها لكنهما إفضيا بسرها لصموئيل بيكر الذى كان قد أرسل للبحث عنهما .

هـ ـ سير صموئيل بيكر (S.Baker): أرسلته الجمعيه الجغرافيه البريطانيه فى عام ١٨٦٢ للبحث عن سبيك وجرانت. وقد قابلهما فى غندكرو وعلم منهما بخبر البحيرة الواقعة للغرب فوصل إليها وأطلق عليها اسم (البرتنيانزا).

وقد اسهم غوردون، وإدوارد شنيتزر (أمين باشا) ثم ستانلى فى إعطاء صورة كاملة وواضحة عن منابع النيل الإستوائيه.

١ ـ كشف نهر الزمبيزي:ـ (١).

يرتبط كشف هذا النهر بإسم الرحالة لفنجستون (David Living-stone) وقد قام بعدة رحلات فى جنوب افريقيا ومنطقة نهر الزمبيزى ـ منها رحله فى الفترة من ١٨٤١ الى ١٨٥٦ حيث أكتشف بحيرة نجامي.

وفى الفتره من ١٨٥٨ الى ١٨٦٤ ـ عينته إنجلترا قُنصلاً عاماً لها بالساحل الشرقى لأفريقيا، فقام بعدة رحلات بين بحيرتى نياسا وتنجانيقا وعادل للشاحل الشرقى ثم أبحر للهند فانجلترا.

وفى الفترة من ١٨٦١ الى ١٨٧٣ ـ كلفته الجمعيه الحغرافيه بالقيام بجوله أخرى فى المنطقة، وقد بدأ رحلته من زنجبار. وقد إنقطعت أخباره فأرسلت الجمعيه الجغرافيه البريطانيه ستانلى للبحث عنه والتقى به ستانلى ـ لكنه رفض العودة معه، وقد توفى فى أول مايو ١٨٧٣ قرب قرية تشينامبو وحمل خدمه الأفارقه مخلفاته وجثته الى زنجبار حيث نقلت الى انجلترا ودفنت جثته فى وستمتسنز أبى فى مقابر العظماء ويكتسب لفنجستون احترام وتقدير الكثيرين بسبب كتاباته ضد تجارة الرقيق، وحين نشرت مذكراته بعد وفاته كان لها أثر بالغ فى الرأى العام العالمى حتى أن بعض المعلقين ذكروا إن لفنجستون وهو ميت لم يكن أقل منه وهو حى فى مقاومة تجارة الرقيق.

٣ ـ كشف نهر النيجر: (١).

يمتـد النيـجـر بغـرب القـارة على شكل قـوس من الجنوب الغـربى الى الشمال الشرقي. وقد حـدث تضارب كبيـر بين الرحالة والكتاب فيما يتعلق بمنابعه وإتجاهه.

فمع أن إبن بطوطه ذكر فى القرن الرابع عشر أن النيجر يتجه الى الشرق لكن الحسن ابن الوزان (ليو الأفريقي) فى القرن السادس عشر قام برحلة من فاس عبر الصـحراء ووصل الى نهر النيجـر وأبحر فيه ـ لكنه ذكر فى كتابه (تاريخ ووصف أفريقيا) أن النيجر يتجه للغرب.

وظلت مشكلة النيجر قائمة حتى القرن الثامن عشر حيث قامت عدة رحلات كشفت حقيقة النهر وأثبتت أنه يتجه للشرق، ومن هذه الرحلات:

ـ رحـلات منجوبارك (Mungo Park) الذى قـام برحلـه فى ١٧٩٦ من غرب القارة تجاه شواطئ النيجر، كما قام برحله ثانية ـ لكن أخباره إنقطعت ولا ندرى ماذا جرى له.

ـ رحلات كلابرتون (Clapperton): قام بها فى عام ١٨٢٢ من طرابلس بشمال أفريقيا، بهدف الوصول الى سوكوتو.

كـمـا قـام برحله ثانيـة فى عـام ١٨٢٥ من خليج غـانا للداخل، وقـد توفى كلابرتون فى هذه الرحله.

ـ رحلة لاندر (الثـانيـه) قـام بهـا من نفس الطريق السـابق وذلك فى عـام ١٨٣٠. وقد أثبتت هذه الرحلات أن النيجر يتجه للشرق وليس للغرب.

---

(١) أنظر الخريطة المرفقـة

كشف نهر الكنغو:ـ(١)

يرتبط كشف هذا النهر باسم ستانلى (Stanley) وقد كلفته الجمعيه الجغرافيه الملكيه بلندن فى ١٨٧٤ بالقيام برحلة لمعرفة حقيقة المجارى المائية فى وسط القاره.

وقد إستعان استانلى بالرحاله العربى حميد بن محمد المرجبى (Tippo Tip) وقد تتبع نهر اللوالابا وأثبت إنه متصل بالكنغو ولا علاقة له بالنيل، وإنه يجرى عبر أفريقيا الى المحيط الأطلنطي.

وقد وصل ستانلى الى مدينة (بوما) قرب مصب الكنغو وعاد عن طريق رأس الرجاء الصالح الى زنجبار.

وقد أرسل مذكراته لصحيفة النيويورك هيرالد الأمريكية التى كان يعمل لحسابها.

على أن ما كتبه عن الثروات الضخمه التى يزخر بها حوض الكنغو ـ أسال لعاب الأوربيين وأدى للتطاحن بين الدول الإستعمارية لوضع أيديها على هذه المناطق الغنية، وأنتهى الامر بعقد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥ لوضع قواعد عامة تلتزم بها الدول الأوربيه حتى لا تصطدم مصالحها ـ وكانت هذه هى الشرارة التى أدت للتكالب الإستعمارى على القارة.

ويقسم الكتاب المراحل التى مرت بها عمليات الكشف عن القارة الأفريقية الى أربع مراحل: ـ

---

(١) أنظر الخريطة المرفـ

١ ـ المرحلة الجزريه والساحلية:ـ

وقد بدأ البرتغال هذه المرحلة ثم تبعتها الدول الأوربية الأخرى ـ وتم فى هذه المرحلة كشف السواحل الأفريقيه ـ وإنتهت بكشف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى شرق القارة.

٢ ـ مرحلة الكشف الجغرافي:ـ

وقد أسهمت فى هذه المرحلة ـ الجمعيات الجغرافيه، وتبدأ هذه المرحلة برحلة بروس فى عام ٨١٦٩ وتنتهى بوفاة لفنجستون فيما ١٨٧٣.

٣ ـ مرحلة الكشف السياسي:ـ

كانت من نتائجها تطاحن الدول الإستعماريه لبسط نفوذها على أكبر مساحة ممكنه من القارة.

وتبدأ برحلة ستانلى الى الكنغو عام ١٨٧٤ وتنتهى بتقسيم القارة الى مناطق نفوذ للدول الكبرى بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥.

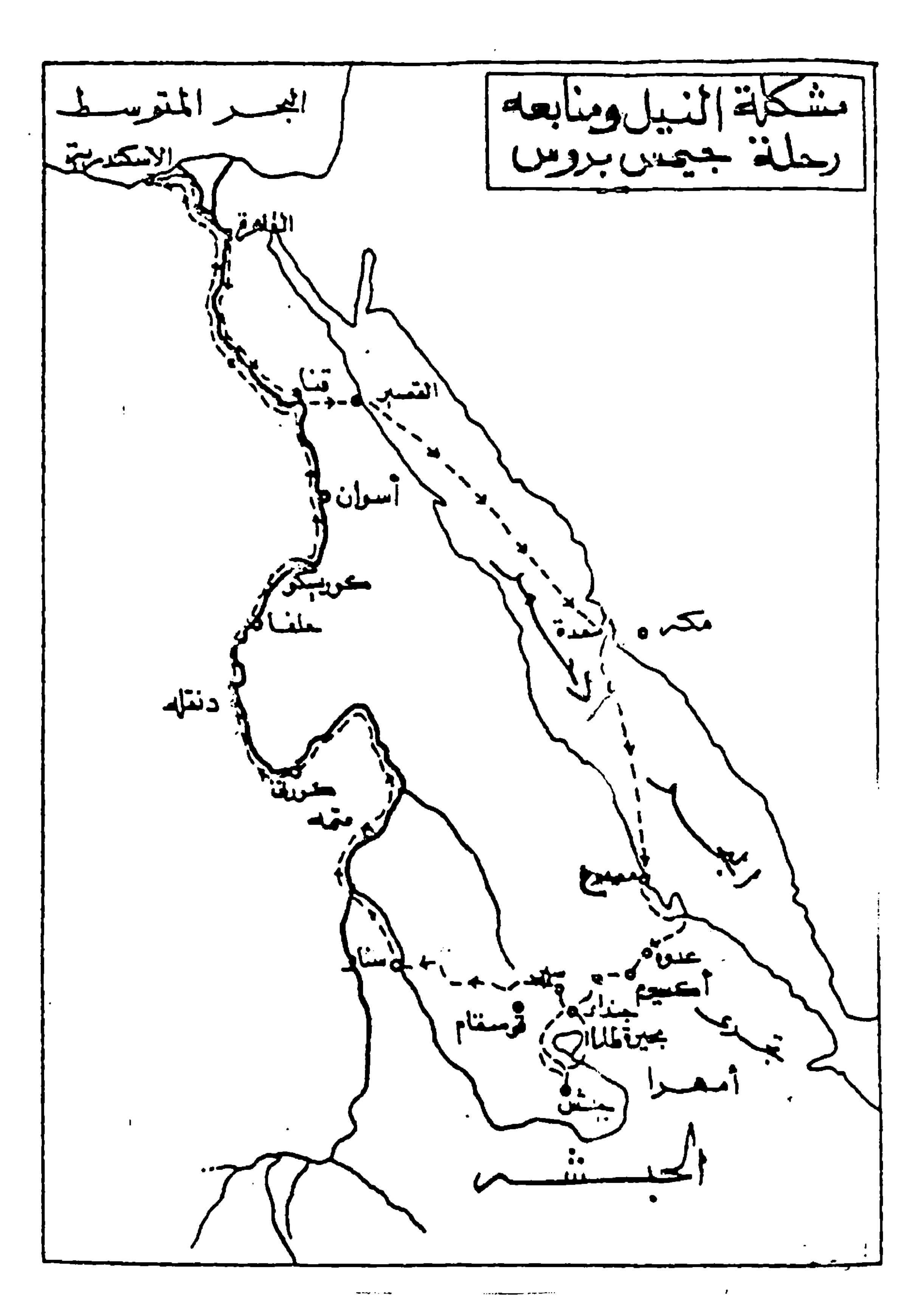
٤ ـ مرحلة الكشف العلمى:ـ

وتتمثل فى جهود العلماء والمتخصصين فى الدول الأوربيه لدراسة المناطق التى أمتد إليها نفوذ دولهم الإستعارى ـ دراسة علميه دقيقه.

هذا ونشير الى أن كشف القارة ومعرفة الأوربين بما فى داخلها من ثروات وغيرها أدى الى صراع الدول الأوربية من أجل إستعمار أكبر مساحة ممكنة من القارة، وأدى ذلك الى عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى دعا اليه الزعيم الألمانى بسمارك لبحث النزاع على الكنغو ولوضع قواعد تلتزم بها الدول

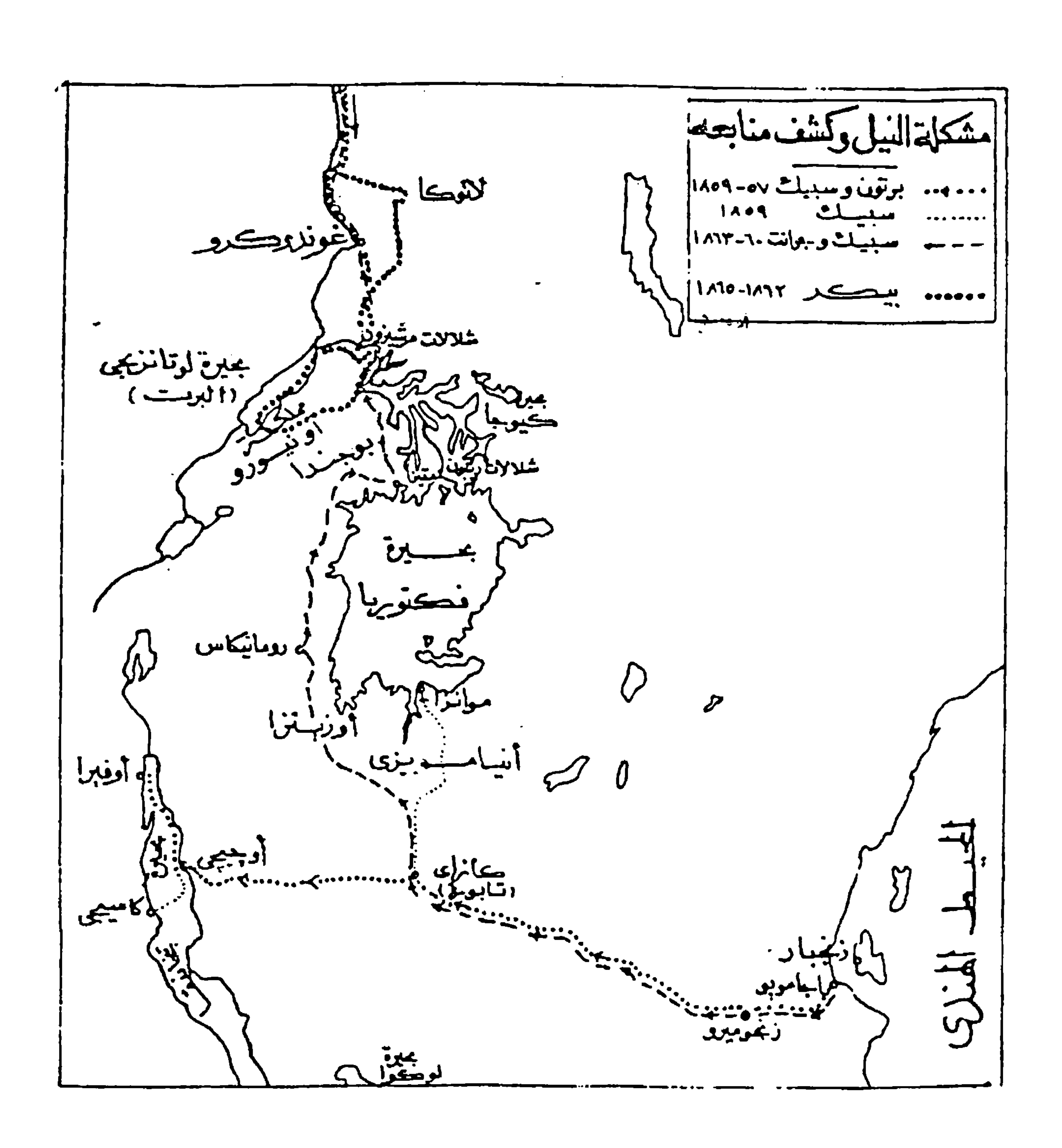
الأوربية فى نشاطها فى القارة الأفريقية حتى لا تتضارب مصالحها، ويؤدى الأمر لحروب ونزاعات بينها، وقد ترتب على هذا المؤتمر أن سارعت كل دولة لوضع يدها على المناطق التى ترغب فى إستعمارها وإعلان الدول الاخرى بذلك ولذا يطلق بعض الكتاب على المرحلة التى أعقبت مؤتمر برلين ـ مرحلة التكالب على القارة (Scramble For Africa).

فقد كان المستعمر من القارة حتى ١٨٨٥ حوالى ١٠٪ من مساحة القارة ـ وارتفع الأمر بعد حوالى ٢٠ عاماً من إنتهاء هذا المؤتمر الى أن أصبح المستقل الذى لم تمتد إليه أيدى الدول الإستعماريه من مساحة القارة لا يتعدى ١٠٪ من مساحتها الكليه.

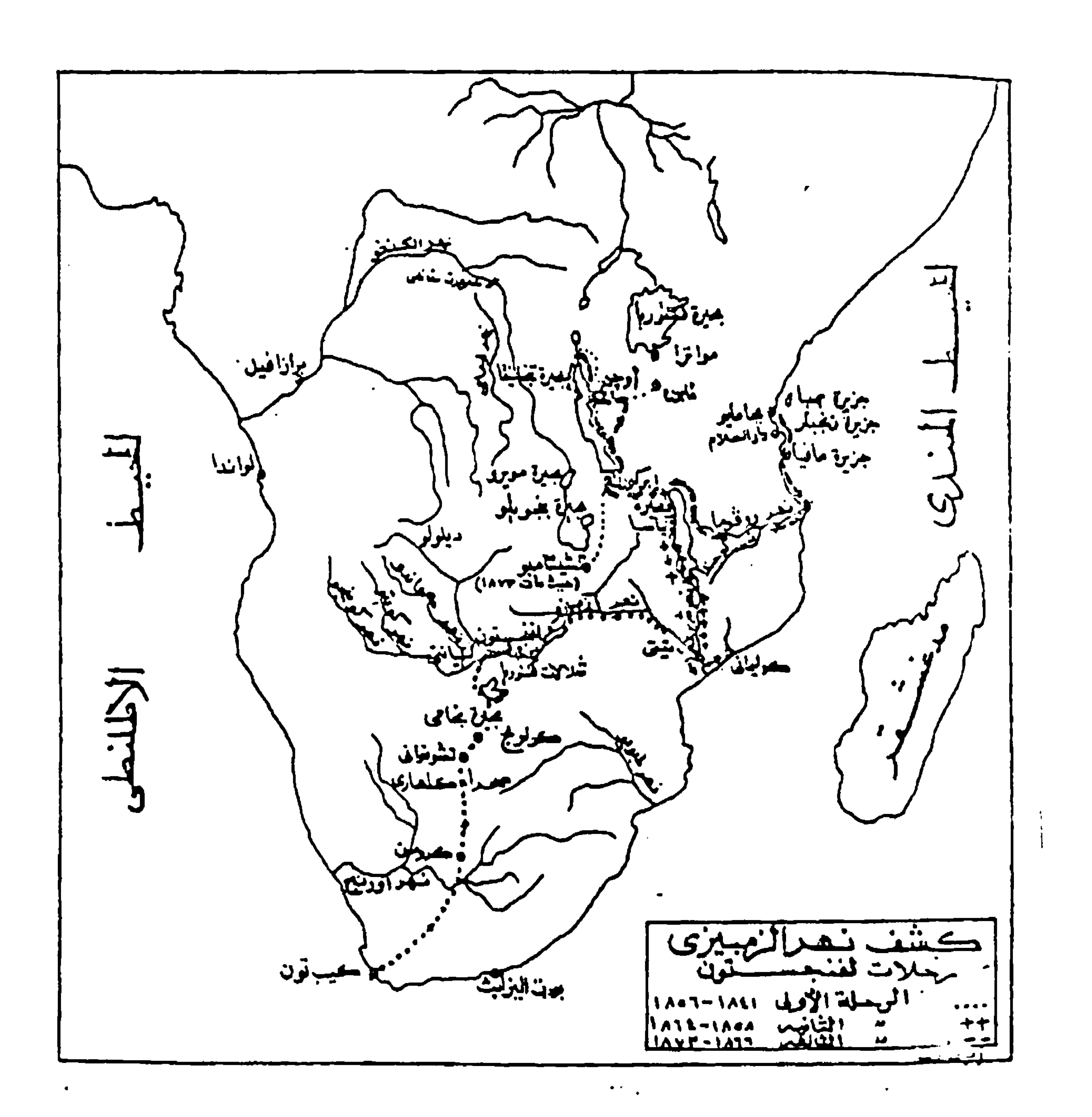


مشكلة النيل ومنابعه
رحلة جيمس بروس
البحر المتوسط
القاهرة
قنا
القصير
أسوان
جدة
مكة
دنقلة
أمهرا
الحبشة

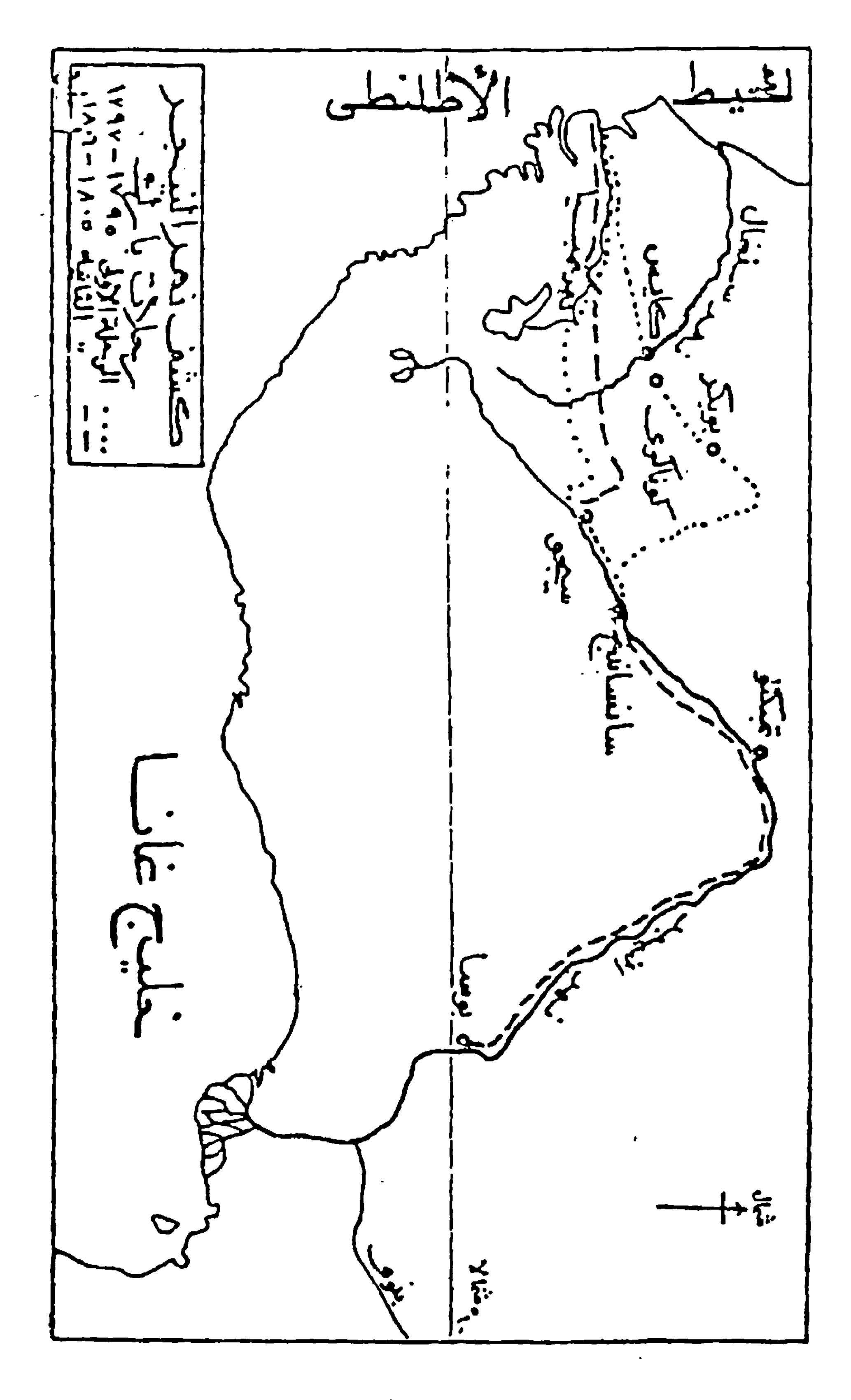
الشكل رقم ١


مشكلة النيل وكشف منابعه
برتون وسبيك ٥٧-١٨٥٩
سبيك ١٨٥٩
سبيك وجرانت ٦٠-١٨٦٣
بيكر ١٨٦٢-١٨٦٥
لاتوكا
غوندوكرو
شلالات مرشيزون
بحيرة لوتانزيجي
(ألبرت)
بحيرة كيوجا
أونيورو
بوجندا
شلالات ريبون
بحيرة
فكتوريا
روماينكاس
موانزا
أوزينزا
أنياميزي
أوفيرا
أوجيجي
كازيه
(تابورا)
كاسيجي
زنجبار
باجاموبو
زنجوميرو
بحيرة
لوكوا
المحيط الهندي

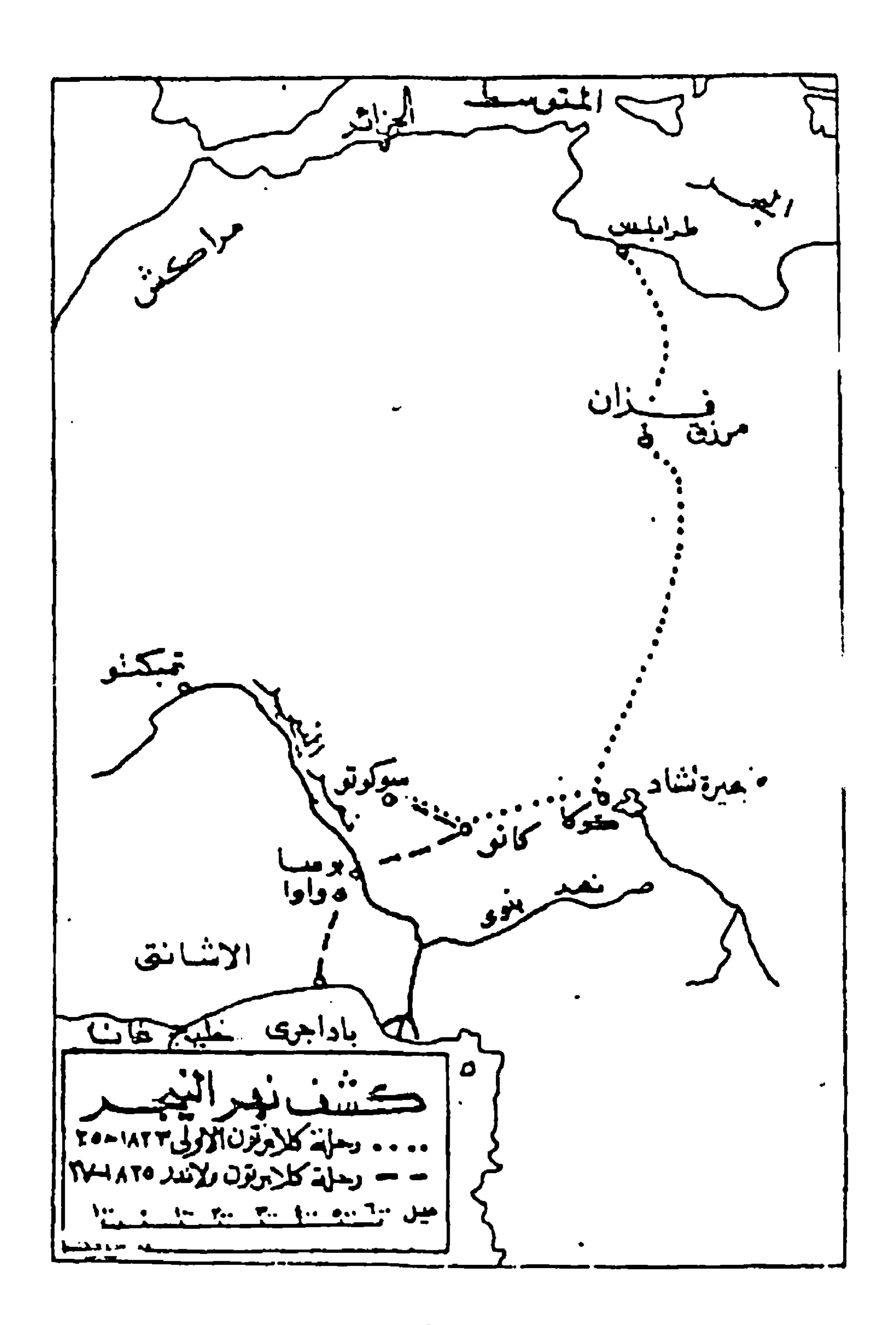
الشكل رقم ٢


كشف نهر الزمبيزي
رحلات لفنجستون
.... الرحلة الأولى ١٨٤١-١٨٥٦
++ " الثانية ١٨٥٨-١٨٦٤
" الثالثة ١٨٦٦-١٨٧٣
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
مدغشقر
نهر الكنغو
برازافيل
لواندا
بحيرة فكتوريا
موانزا
بحيرة تنجانيقا
أوجيجي
بحيرة مويرو
بحيرة بنجويلو
ديلولو
(حيث مات ١٨٧٣)
شلالات فكتوريا
بحيرة نجامي
كولوبنج
شوشونج
صحراء كلهاري
كيب تون
بورت اليزابث
نهر أورنج
جزيرة بمبا
جزيرة زنجبار
دار السلام
جزيرة مافيا
نهر روفوما
تيتي
كوليمان

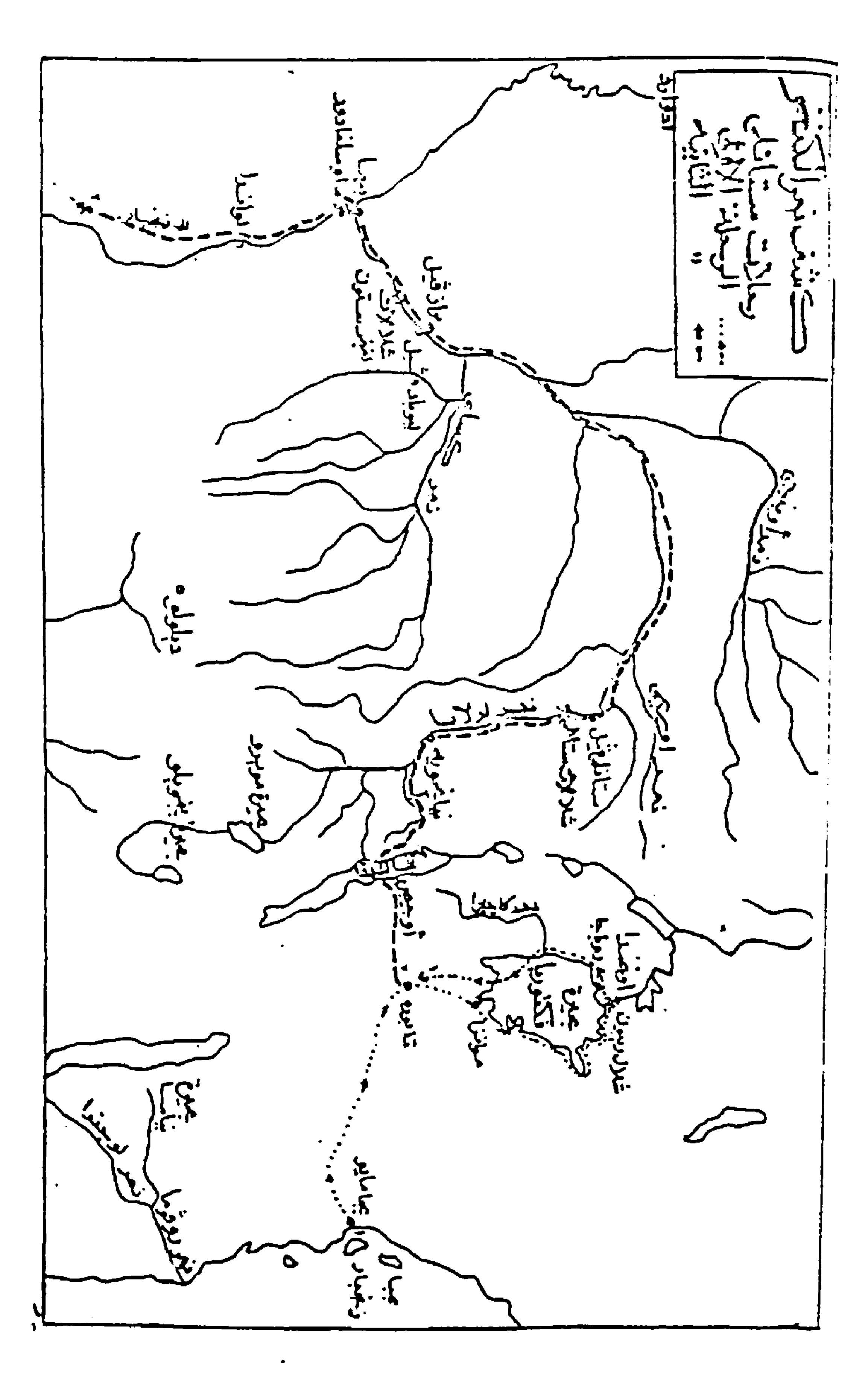
الشكل رقم ٣



الشكل رقم ٤


المتوسط
الجزائر
طرابلس
مراكش
فزان
مرزق
تمبكتو
النيجر
سوكوتو
بحيرة تشاد
كوكا
كانو
بوصا
واوا
نهر بنوى
الاشانتي
باداجري
خليج غانا
كشف نهر النيجر
رحلة كلابرتون الاولى ١٨٢٣-٢٥
رحلة كلابرتون ولاندر ١٨٢٥-٢٧
ميل

الشكل رقم ٥


كشف نهر الكنغو
رحلات ستانلي
الرحلة الأولى
الثانية
نهر أويلي
نهر أروويمي
ستانلي فيل
شلالات ستانلي
نياغوي
أوجيجي
بحيرة فكتوريا
أوغندا
شلالات ريبون
تابورا
موانزا
زنجبار
باغامويو
بحيرة موبرو
بحيرة بنغويلو
بحيرة نياسا
نهر روفوما
دبلولو
نهر كساي
ليوبولد فيل
برازفيل
شلالات لفنغستون
بوما
لواندا
إدوارد

الشكل رقم ٦

٢ ـ الإستعمار الأوربى لافريقيا والدوافع التي دفعت الدول الأوربية للإستعمار*

إختلف الإسلوب الذى تم به الإستعمار الاوربى فى أفريقيا عن أساليب الإستعمار القديمة المعروفة والتى أدت لتكوين الإمبراطوريات العظيمة قديماً.

ففى أفريقيا لم تكن العمليات الإستعمارية التى تمت من عمل ونشاط الحكومات الأوربية فى كثير من الأحيان ـ ففى كثير من الأحيان سبقت الشركات التجارية الحكومات فى ميدان الإستعمار حتى أن النظرية القديمة المعروفة والتى عبر عنها: «التجارة تتبع الاستعمار السياسي» "The Trade Follows the flag" كثيراً ما إنقلبت، ومن المعروف أن الرأسماليين الأوربيين كونوا العديد من الشركات التى اشتهرت منها (شركات الهند الشرقية) للإتجار، وقد ضغطت هذه الشركات على حكوماتها للإسرا ع بإمتلاك مناطق مبنه من أفريقيا ليمكنها بيسر ممارسة نشاطها التجاري، وقد سبقت هذه الشركات الحكومات فى الإرتباط مع رؤساء أفارقة وقعوا مع هذه الشركات إتفاقات وضعت الشركات بموجبها أيديها على مناطق من القارة قبل أن تمد الحكومات فيما بعد نفوذها إليها.

وقامت الجمعيات التبشيرية ـ التى كثرت أعدادها ـ بعد الحروب الدينية فى أوربا ـ بنفس العمل، وساهم عدد من رجال الدين من المنتمين لهذه الجمعيات فى هذا النشاط الإستعمارى فى أفريقيا ـ ومن امثله ذلك شركة روباتينيو الايطاليه (Robatinio Comp.) وجهود الأب سابيتو (Sapeto) فى

---

* أ.د. شوقى عطالله الجمل

تسهيل مهمة ارتباط الشركة بزعماء ورؤساء أفارقة فى شرق أفريقا مما مهد لقيام مستعمرة إرتريا الإيطالية.

أما أهم الدوافع التى دفعت الأوربين لإستعمار أفريقيا فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ الدافع الديني:

فقد حمل البرتغال لواء حركة دينية لتبع العرب الذين طردوهم من شبة جزيرة إيبريا ـ الى شمال أفريقا ـ فاستولوا على ميناء سبته (Ceuta) الغربى فى ١٤٦٥ مفتتحين حركة الإستعمار الأوربى فى أفريقيا ـ وقد باركت البابوية جهود البرتغال فى هذا المجال

كما أن الجمعيات التبشيرية اتجهت بعد الحروب الدينية فى أوربا ـ الى أفريقيا ونذكر فى هذا المجال جهود الدكتور موفات (Moffat)، ولفنجستون (Livingstone)،والاب سايبتو،والكاردنال الفرنسي لا ڤيجيرى (Lavigerie)، وقد كثر الحديث فى أوربا عن الدور الذى يجب أن يقوم به الأباء البعض (The White Fathers) فى أفريقيا ـ وكما ذكرنا فإن الجمعيات التبشريية كثيراً ما سبتقت الحكومات فى الإرتباط بمناطق محددة فى القارة ـ وقد اشار لين متهكماً الى دور هذه الإرسالبات الدينية فيذكر «إن الإرساليات الدينية أوهمت المواطنين بأن يكنزوا كنوزهم فى السماء حيث لا يفسد سوس ويأكل صدأ ـ وإنتهز التجار وزصحاب الامتيازات ورجال الإدارة ـ الفرصة لينهبوا النزوات الطبيعية للافارقة».

٢ ـ الـرق:

كان هدف البرتغال فى بداية عصر الكشوف الجغرافية الوصول الى بضائع الشرق التى كان يحتكر الإنجار فيها ـ المماليك ولذا أطلق على الاستعمار البرتغالى فى ذلك الوقت تعبير (إستعمار البهار) ـ لكن الأمر تحول بسرعة فأصبحت السلعة المتداولة والمطلوبة هى (العاج الأسود).

وقد إفتتحت البرتغال صفحة الرق فى أفريقيا ـ وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال تحتكر تجارة الرقيق ـ وكان الجلابة فى البداية يقومون بهذا العمل لحساب البرتغال، وقد احتكرت البرتغال التجارة فى الرقيق ـ فكانت تمتد الدول الاخرى بحاجتها من الرقيق وأضطرت البرتغال لتزويد أتباعها من الجلابة بالبنادق النارية وتدربهم على إستخدامها ليمكنهم أقتناص أكبر عدد من الرقيق ـ لذا أطلق على القرن السادس عشر فى أفريقيا (عصر البنادق) ـ ورغم ذلك لم تستطع البرتغال سد حاجة كل الدول الأوربية الأخرى من الرقيق خاصة بعد كشف الأمريكتين وماتطلبه إستثمار هذه المناطق الشاسعة من أيد عاملة رخيصة

ولذا تنافست الدول الأوربية على إستعمار مناطق فى غرب القارة والتوغل للداخل للحصول على الرقيق.

وقد بلغت أرباح الإتجار فى الرقيق مبالغ مذهلة ـ فالسفن الإنجليزية مثلاً كانت تقوم فى الجولة الواحدة بعدة عمليات تجارية فتنقل فائض المصنوعات الإنجليزية لغرب أفريقيا، وتستبد لها بشحنات من الرقيق تنقلها الى أمريكا ثم تعود لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من المحاصيل الأمريكية.

وقد قدر ما فقدته القارة من ثروتها البشرية فى قرن واحد (من منتصف القرن ١٧ الى منتصف الثانى عشر) بأكثر من مليون أفريقي، وقد وصل الأمر الى أن وزير المستعمرات البريطانية اللورد دارموت (Darmot) هاجم الذين دعوا لوضع حد لهذه التجارة البشعة بقوله .(إننا لا نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط التجارى الذى ثبت انه عظيم الفائدة لشعبنا).

وقد علَق بعض الكُتاب على هذا بأنه «إذا كان الهولنديون يذكرون إن مدينتهم العظيمة أمستردام قد بنيت على عظام الرنجة التى اشتهروا بالإتجار بنيها فإنه ليس بعيداً عن الصواب أن نقول إن لشبونه فى البرتغال، وليفربول فى انجلترا قد بنيت على عظام الرقيق الأفريقى ودمائه.».

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر بدأت صيحات تنادى لوضع حد لتجارة الرقيق (Anti Slavery Movement)، وقد اتخذت بعض الدول الإستعمارية من هذه الحركة والقوانين التى صدرت ضد تجارة الرقيق ذريعه للتدخل فى شئون الدول الأفريقية ـ كما فعلت بريطانيا فى زنجبار متذرعة برغبتها فى التحقق من عدم إنتهاك الحكومة هناك لقوانين حذر الإتجار فى الرقيق.

٣ ـ دوافع استراتيجية:ـ

كان لموقع بعض الأماكن وأهميتها الإستراتيجية أثره فى التطاحن الإستعمارى عليها ـ فطنجه فى المغرب وقناة السويس فى مصر، ومنطقة القرن الأفريقى من المناطق التى دفع موقعها الهام على الصراع الإستعمارى عليها.

٤ ـ عوامل تتعلق بأوضاع بعض الدول الأوربية:

فأوضاع فرنسا بعد هزيمة بونابرت وعودة الملكية إليها كانت من الأسباب

التى دفـعت للتفكير فى غزو الجزائر ـ كما صرح بذلك رئيس وزراء فرنسا بوليناك (Polynac) عند مناقشة موضوع الحملة على الجزائر.

كذلك الأوضاع الداخلية فى المانيا وإنتشار حركة التذمر، والمبادئ الاشتراكية، وإنشغال الرأى العام بهذه المواضيع ـ جعلت بسمارك يُغير رأيه بعد أن كان محجماً عن الزج بالمانيافى ميدان الإستعمال ـ إندفع الى الإستعار، ونادى بعقد مؤتمر فى برلين لبحث كيف تمارس الدول الأوربية نشاطها الاستعمارى فى أفريقيا دون أن يصطدم مبعضها بالبعض الآخر.

٥ ـ عوامل نفسية (دوافع نفسية) وراء الاستعمار:

الدول كالأفراد ـ تحكمها وتتحكم فى توجيهها ظاهرات نفسية ـ كشهوة الامتلاك، وحب الظهور، والتقليد ومحاكاة الغير وحب العظمة.

وقد أثرت هذه العوامل فى دفع الدول الأوربية التى كانت متردده فى الدخول فى ميدان الإستعمار الى محاكاة غيرها من الدول التى سبقت فى هذا الميدان.

وتصريحات (سالازار) الدكتاتور البرتغالى بأن المستعمرات ضرورة للبرتغال مهما كلفتها من تضحيات لأن البرتغال بمستعمراتها إمبراطورية ضخمة لكنها دون مستعممراتها دويلة أوربية صغيرة ـ دليل على هذا الواقع.

كذلك ضغط الرأى العام الألمانى على الحكومة الألمانية لتحذو حذو فرنسا وإنجلترا كان من دوافع تغيير بسمارك لسياسته تجاه الخروج بألمانيا الى ميدان الإستعمار.

٦ ـ الثورة الصناعية فى أوربا:

أوجدت حاجة ماسة للمواد الخام، والأسواق بعد النشاط الصناعى والإنتاج الكمي، وقد توفرت هذه المطالب فى أفريقيا ـ أكثر من غيرها ولذا برز ما عُرف باسم الإستعمار الإقتصادى (Economic Imperialism) وترتب على هذا قيام الشركات التجارية الضخمة التى تعمل لامتصاص زبد الإقليم (Skim the cream) وكثر الحديث عن العقل الابيض (White Brain) الذى يجب أن يتعاون مع الفصل الأسود (Black Brawn).

وأدت هذه النظرية وتلك الأهداف الاستعمارية لأن حرصت الدول الإستعمارية بعد إستعمارها للمناطق الغنية من أفريقا علي:

أ ـ التحكم فى أسعار المواد الخام بحيث لا ترتفع بل تصل الى الدول الإستعمارية بأقل سعر ممكن.

ب ـ لا يكتسب أبناء المستعمرات الخبره الفنيه اللازمة التى تجعلهم بغنى عن المستعمر.

جـ ـ أن تبقى الأيدى العاملة الوطنية رخيصة ومتوفرة دائماً.

د ـ وضع قيود على النشاط التجارى للمستعمرة فلا تتاجر إلا مع الدولة الأم وفى حدود السياسة الاستغلالية التى ترسمها هذه الدولة.

وقد عُبرت عن ذلك جريدة (Christian Science Mentor) فذكرت إن رأس المال الأمريكى إكتشف فى أفريقا قارة من ١٥٠ مليون مستهلك، ومصادر لا تنضب من المواد الخام.

ولذا فبعد أن إستقلت الدول الأفريقية ـ مازالت تعانى من قلة الخبرة الفنية ـ

وهن إعتماد إقتصادها على الإقتصاد الأوربي، ومن إنخفاض أسعار المواد الخام الأفريقية التى لا تزال تُصدر كما هى للدول الاروبية ـ على الرغم من تضاعفت أسعار المواد المنتّجة المصنعة.

وقد تكتلت الدول الإستعمارية لضمان بقاء أسعار المواد الخام منخفضة وأنشأت فيما بينها إتحادات وإتفاقات فى هذا الشأن.

٧ ـ تكوين المستعمرات السكنية:

إدعت بعض الدول الإستعمارية كفرنسا، وألمانيا ـ بأن لديها فائض من السكان، وأن هجرة هؤلاء السكان لأستراليا، وغيرها من الدول المكتشفة حديثاً تنتهى بقطع صلاتها بالأم الأصلية مما ترتب عليه خسارة أبنائها بإستمرار.

لذلك عللّت هذه الدول حاجتها لمستعمرات ترتبط بها لحاجتها لتصريف الفائض من السكان ولذا وجد نوعان من المستعمرات.

أ ـ مستعمرات سكنية لها مواصفات خاصة.

ب ـ مستعمرات إستغلاليه ـ لأغراض تجارية واستغلالية.

وقد ثبت أن هذا الإدعاء باطل ـ فالثورة الصناعية فى أوربا إمتصت أغلب الأيدى العاملة الأوربية ـ ولم تجد الدول الاوربية راغبا فى السفر والهجرة للمستعمرات بإرادته فأضطرت لتهجير المجرمين وغيرهم من الطبقات الدنيا من المجتمع للعمل فى المستعمرات.

٨ ـ دوافع ظاهرية ـ تذرعت بها الدول الإستعمارية:

إدعى بعض الكتاب فى الدول الإستعمارية بأن هناك رسالة على الرجل

الأبيض عليه أداؤها وهى تتلخص فى تخليص الأفريقى مما هو فيه من جهل ونقله نقلة حضارية.

وقد عبّر عن ذلك بعض المستعمرين من أمثال سيسبل جون رودس الذى ذكر إن «خير الإنسانية لن يتحقق إلا بسياده الجنس الأنجلو سكسونى وسيطرته على أكبر مساحة ممكنة من أفريقيا.»

وفى ظل هذه المبادئ التى تقوم على فكرة أن الأفريقى لا حضارة له وأن واجب الأوربى أن يلقنه مبادئ الحضارة الأوربية ـ داس الأوربيون على الحضارة الأريقية وسعوا لمحو اللغات الأفريقية

٣ ـ التقسيم الاوربي لافريقيا *

(١٨٨٢ ـ ١٩٠٢)

مقــدمة:

تم تقسـيم القـارة الافـريقيـة بين الدول الاوربيـة الكبـرى فى الفـتـرة الزمـنيـة الممتدة بين عامى ١٨٨٢، ١٩٠٢ أى نحو عشرين عاماً فهذه الفترة كانت حاسمة فى تقسيم القارة وإتخاذها هذا الشكل الحالى تقريباً. ولقد شهدت هذه الفترة إنعقـاد مـؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥، وكـان السـبب المبـاشـر فـى عـقـده تسـوية النزاع على حـوض الكونغـو بين ليوبولد الثـانـى ملك البلجـيك وبين البـرتغـال، واقرار ضوابط الاستيلاء على الاراضـى الافريقية.

وكان من نتيجة هذا المؤتمر وما صدر عنه من قرارات ازدياد عملية التقسيم لتكون بمثـابة «تخـاطف» إسـتـعـمـارى بعـد أن تضـمنت تلك القـرارات ضـرورة الاحتـلال الفعلي، فسارعت كل دولة الى وضع يدها على منطقة من المناطق أو إثبات أن لها وجودا فعلياً فيها.

ومن يطلع على خريطة أفـريقيا عام ١٩٠٢ يجدها تختلف إختلافاً واضـحا عنهـا فى عـام ١٨٨٢، فبـعد أن كـانت الدول الأوربيـة تحتل شـريطا ضـيـقـا على الساحل الافريقى نجد القارة وقد تقاسمتها سواء على السـاحل أم فى الداخل ثمانية دول إستعمارية عظمى هي: بريطانيا والمانيا والبرتغال وبلجيكا وايطاليا، وفرنسـا، وأسبانيا. وإذا أمعنا النظر فى خريطة عام ١٩٠٢ لما وجدنا من دول القـارة من نال اسـتـقـلاله سـوى كل من المغـرب وإثيـوبيـا وليـبيـريا، وظلت هذه

(*) د. فوزي درويش ـ رئيس قسم التاريخ جامعه عمر المختار ـ ليبيا

الخريطة على حالها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى التى أدت الى أيلولة المستعمرات الالمانية الاربعة (التوجو والكميرون، وجنوب غرب أفريقيا وشرق أفريقيا الالمانية) الى كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا، ولم تتغير هذه الصورة الا من عام ١٩٥٦ باستقلال السودان وتونس والمغرب.

ولقد تضمنت عملية التقسيم وما تم فى اطارها من وحدات سياسية بطريقة تحكمية أن صارت القبائل مقسمة هى الاخرى بين مستعمر أوروبى وآخر فنجد مثلا قبائل «الايوي» فى غرب أفريقيا التى كانت تعيش فى كنف قبائل الاشنتى (فى غانا) التابعة لبريطانيا فى حين أن غالبية هذه القبائل كانت تابعة للتوجو الالمانية، وكذلك صار تجزئة اتحاد قبائل الفولانى والهوسا بين كل من المانيا وفرنسا وبريطانيا مما عمل على انهيار هذا الاتحاد وهز بنيانه المعتاد من أساسه سواء فى مجال التجارة أو فى العلاقات الاجتماعية الموروثة.

ويقتضى الأمر بشرح دواعى التقسيم بين الدول الاوروبية واسباب تطورها من التقسيم الى «التخاطف». غير أن حوض الكونغو وقيام دولة الكونغو الحرة ودور الملك ليوبولد ومهارته الدبلوماسية سوف تستأثر بقدر كبير فى إشعال شرارة التخاطف الاستعمارى فى القارة. ثم يقتضى الاشارة الى كيفية نشوء فكرة عقد مؤتمر برلين والقوى التى وقفت وراء انعقاده ودورها وأهدافها القريبة والبعيدة مع الاشارة الى أهم مواد الوثيقة الصادرة عن المؤتمر لأهميتها كفترة طويله كوثيقة اضجاج بين الدول الموقعة على الوثيقة وأسفر المؤتمر عن سيطرة الملك ليوبولد الثانى على دولة الكونغو الحرة بمباركة المستشار الالمانى بسمرك الذى كان قد دعا لانعقاد المؤتمر فى بلده وكان يهدف الى تجنيب المنطقة مطامع فرنسا التى اكتفت بالكونغو (برازافيل) وتخلت البرتغال رائدة الاستعمار فى لمنطقة عن دعاواها التاريخية فى مصب نهر الكونغو أما انجلترا

فانها قبلت بأخف الضررين حتى لايقع الكونغو فى قبضة فرنسا فيتعذر انتزعه منها فضلا عن امكانية توغل فرنسا الى منابع النيل واثارة المتاعب لانجلترا من هناك.

وكان للملك ليوبولد مطامع أخرى بخلاف سيطرته على الكونغو تمثلت هذه المطامع فى السعى ليكون له موطئ قدم عند منابع النيل ليمكنه تصريف منتجات الكونغو عن طريق نهر النيل بدلا ممن المحيط الاطلسي. لذلك دخل فى مناورة سياسية مثيرة مع العملاقين الاستعماريين الاكبر (بريطانيا وفرنسا) وحارب الثورة المهدية فى السوادا فى استرضاء لبريطانيا نظير حصوله على منطقة من بحر الغزال وجيب لاد وعلى النيل الاعلي. ولكن بريطانيا ما لبثت ـ بعذ أن تمكنت من استرداد السودان باسم مصر ـ أن قلبت له ظهر المجن فأوقفت توغله فى أعالى النيل.

ويلاحظ أن منطقة غرب أفريقا على وجه الخصوص قد تلقت المؤثرات الاوربية فى مرحلة مبكرة نسبيا وسوف تجرى الاشارة الى ذلك كما أن أحوال التنافس الاستعمارى فى شرق القارة قد تجلت فيها استناد بريطانيا الى محاربة الرقيق كذريعة لتوطيد نفوذها فى هذا الجزء من أفريقا. ولما قدم الالمان الى شرق أفريقيا فى مرحلة متأخرة ـ بعد ١٨٨٤ ـ بقيادة الرحالة كارل بيترز فان ذلك أشعل شرارة التنافس بين المانيا وانجلترا وما لبثت بريطانيا أن تخلت عن حليفها سلطان زنجبار لكى تقسم ممتلكاته بينها وبين الالمان.

وفى جنوب القارة كانت عملية التنافس بين الهولنديين والبريطانيين. وكان للبريطانيين حلم استعمارى فى مد خط حديدى من منطقة الكاب فى الجنوب الى القاهرة فى الشمال تزعم الدعوة آليه اسطون السياسة الاستعمارية سيسل رودس.

اولا: دوافع عملية التقسيم وتطورها:

أ) إنعكاس الأوضاع الأوربية على افريقيا

لقد كان للاوروبين اتصالات قديمة مع أفريقا منذ أوائل القرن الخامس عشر، ولكن لم تكن هناك جهود جادة للتوغل فى قلب القاهرة وانشاء متسعمرات بها حتى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر وكانت هناك أسباب لعدم التوغل منها أن الدول الاستعمارية كانت منشغلة تماما بمتلكاتها فى أمريكا وآسيا، ولم تكن تجارة الذهب أو العاج أو الفلفل تعادل بحال من الاحوال ما كانت تجنيه أوروبا من جزر الهند الشرقية، ورغم أن استيراد الرقيق كان عاملا أساسيا فى ازدهار المزارع الاقتصادية فى أمريكا فلم يتوغل تجار الرقيق الاوروبيون لاكثر من الساحل الافريقى وكانوا يحصلون على الرقيق من تجار الرقيق الافارقة الذين كانوا يتركزون عند الشاطئ كوسطاء فى هذه التجارة البشرية، أضف الى ذلك توافر العقبات الطبيعية كصعوبة المناخ وانتشار الامراض الفتاكة مثل الملاريا والدوسنطاريا، فضلا عن ندرة الموانئ الصالحة للانطلاق منها نحو الداخل.

والواقع أن النزعة الاستعمارية الاوربية مرت بفترتين متباينتين تماما بالنسبة للعملية الاستعمارية: الفترة الاولى تمثلت فى عدم اهتمام الاوروبيين بافريقيا، ثم تلتها فترة بلغ الاهتمام فيها حد «التخاطف» الاستعماري. ولقد استمرت فترة الإعراض هذه حتى أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر، لكن أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر شهدت اهتماما متزايدا باقامة المستعمرات نتيجة عدة عوامل متكاتفة اقتصادية وسياسية ظهرت جميعها فى البلاد الصناعية فى وقت متقارب وهي:

١ ـ أنه صار من العسير على هذه الدول العثور على أسواق لفائض

منتجاتها الصناعية بعد الثورة الصناعية التى أخذت بريطانيا فيها دور الريادة منذ منتصف القرن الثامن عشر.

٢ ـ أن الصناعة بطبيعتها تحتاج الى وفرة من المواد الخام التى لا يمكن تدبيرها محليا بالكامل.

٣ ـ صار من غير الممكن إعادة استثمار فوائض رؤس الاموال مرة أخرى محليا.

٤ ـ تزايد السكان بعدل اكبر جعل من المتعين البحث عن متنفس لفوائض السكان يمكن تحركهم تجاهه.

ولقد أسهم تزايد الوعى لقومى دون شك فى عودة الامبريالية وتبدل الموقف الاوربى فحين كان بنيامين د زرائيلى يصرح «بأن حيازة المستعمرات هو بمثابة قيد يلتف حول عنق بريطانيا وأن قيمتها الاقتصادية أمر خادع «أصبح يقول» أن الشعب البريطانى قد صار تواقا للانغماس فى عملية عاطفية ترمى الى بناء أمبراطورية يحيط بها جو رومانسى بهيج». وبمجرد نجاحه فى انتخابات عام ١٨٧٤ عمل على الاستيلاء على جزر فيجى ثم سعى جاهدا لشراء أسهم قناة السويس وضم اقليم الترانسفال فى جنوب أفريقا.

ب) التحول فى طبيعة التقاسم الاستعماري

من المعروف أن القارة الافريقية شهدت فى الفترة من ١٨١٥ ـ ١٨٨٠ تقريبا نوعا من الثبات النسى فيها يتعلق بقيام الاوروبيين بغرو واقتطاع اجزاء من القارة ـ هذا اذا اغفلنا طرفيها الشمالى والجنوبى غير أن هذا الثبات انهار بعد عام ١٨٨٠ بطريقة فجائية للغاية لتوافر ثلاثة عناصر رئيسية هي: ـ

أ) تقلد بريطانيا الزعامة البحرية خلال تلك الفترة.

ب) عدم اهتمام الدول الاوروبية الكبرى ـ باستثناء دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا ـ بالقارة الافريقية.

جـ) وجود صيغة مقبولة للتعايش الانجليزى ـ الفرنسى دامت على مدى الفترة من ١٨٤٥ ـ ١٨٧٥.

ثم أن فترة الثبات التى أشرنا اليها أصابها الخلل فبحلول عام ١٨٨٥ كانت عناصر التوازن الثلاثة قد انهارت أركانها، فالزعامة البحرية البريطانية بدأت تأخذ فى التدهور، الامر الذى شجع فرنسا على التخلى عن صيغة التعايش التى ظلت قائمة بينها وبين بريطانيا وبدأت بالمبادرة بسياسة التنافس فى غرب أفريقيا فى عام ١٨٧١ حمل الجنود والمستكشفون الفرنسيون العلم الفرنسى فى غرب أفريقا وأصبحت المنطقة الغنية بالغابات بين ليبريا وساحل الذهب (غانا) تسمى بجمهورية ساحل العاج الفرنسية قبل حلول عام ١٨٩٣. كذلك أصبحت داهومى عام ١٨٩٢ تحت السيطرة الفرنسية من سباتها التى كانت تنادى بانتصار حقوق الإنسان والمواطن وسيادة مبادئ المساواة اذا اكتشفت هذه البرجوازية أن القوة يمكن أن تسود على الحق.

وكانت بريطانيا تكتفى باتخاذ سياسة «التفوق فى النفوذ» فى الفترة من ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨ تجنبا للمنازعات الداخلية المحلية وكانت سياسة تفوق النفوذ هذه مهربا من التورط فى تلك المنازعات والدليل على ذلك أن انجلترا لم تكن لها أية ممتلكات فى النيجر ومع ذلك كانت مصالحها مصونة بتفوق نفوذها البحري. على أنه لم يكد يحل عام ١٨٨٢ حتى كان هذا العنصر من عناصر التوازن قد اعتراه الخلل وأصبح مجموع سفن الاسطولين الفونسى والالمانى يضارع ما لدى بريطانيا منها.

غير أن التوزان قد انهار انهيارا كاملا حين دخلت المانيا على وجه التحديد حلبة التنافس الافريقى وبدأت سياسة التقارب مع فرنسا عام ١٨٨٤ ــ الامر الذى أنهى ما كان يطلق علية تعبير «التحادث الثنائي» بين فرنسا وبريطانيا دون سواها. وبذلك دخل عنصر مهم فى معادلة التوازن سوف تكون له آثار بعيدة المدى على التنافس على القارة ككل وعلى تمكين الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك من انشاء وحيازة دولة الكونغو الحرة.

وكان عداء بسمرك لانجلترا فى القارة الافريقية ١٨٨٤/ ١٨٨٥ نتيجة مباشرة للعمل الاستفزازى المتمثل فى رد الفعل غير الودى من جانب بريطانيا لطلبه المتواضع الحصول على مجال لنفوذه فى منطقة جنوب غرب افريقيا، وحقيقة الامر أن البريطانيين حاولوا منذ نوفبر ١٨٨٣ استبعاد المانيا من مجال الاستعمار فى تلك المنطقة بالتأكيد على مبدأهم القديم وهو «تفوق النفوذ» وكان رد فعل بسمرك أن طلب من بريطانيا سند الملكية البريطانية لمنطقة جنوب غرب أفريقيا ولاذت بريطانيا بالصت لنحو ستة أشهر، وفى النهاية فى يونيو ١٨٨٤ وافق كل من جلادستون رئيس الوزراء وجرانفيل وزير خارجيته على عدم الوقوف فى وجه بسمرك.

ب) مؤتمر برلين وعملية التقسيم:

فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ تم عقد مؤتمر دولى ضم ١٤ دولة حضرته كافة الدول الاوروبية ما عدا سويسرا وكان هذا المؤتمر ينصب على أفريقيا فى المقام الاول حتى أن بعض الكتاب يسمونه مؤتمر أفريقيا وشاركت فيه «الجمعية الدولية للكونغو» التى كان قد أنشأها الملك ليوبولد الثاني. وكانت طبيعة هذه الجمعية غير مفهومة لغالبية أعضاء المؤتمر. اذ تظاهرت الجمعية أنها مؤسسة خيرية وكان غرض الملك المعلن هو وضع حد لتجارة الرقيق واحلال هذه

التجارة الآدمية بتجـارية مشـروعة فـى حـوض الكونغـو ولكن هذه الجمعية لم تكن فى حقيقة أمرها سوى أداة تعمل لخدمة احلام امبراطورية راودت ذهن ملك البلجيك. ورغم أن هذه الجمعية لـم يكـن لها وضـع قـانونـى للسيـادة فـانه قد تم الاعتـراف بها مـن جانب الولايات المتحدة الامريكية كحكـومة أمـر واقـع (De Facto) ولم تكن هناك دولة افريقية واحدة ممثلة فى المؤتمر.

بيد أن تاريخ إنعقاد مؤتمر برلين كان يؤكد المشاغل الاوروبية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر والتى أوحت بعقده فالدول الاوربية لم يكن يشغلها مناطق الكونغو أو النيجر. ولكن كلما تزايدت أهمية كل من العاج والمطاط وزيت النخيل سواء فى التبادل الدولى أو فى المجالات الصناعية كلما زادت جهـود المستكشفين وزادت حدة حماس الحكومات الاوربية. فالبرتغال لعبت دورها رائدا فى مجـال الاستشكاف والاستـعمـار لكن دورا تضـاءل تدريجيا بسبب تضـاؤل قـوتها الذاتية الامـر الذى أدى الى سعيـها لتـاكيـد سيطرتها على مصب نهـر الكونغو فبادرت فى عام ١٨٨٤ الى التفاوض مع بريطانيا لعقد معاهدة تضمن لبريطانيا حرية الملاحة فى الكونغو مقـابل سيطرة البـرتغـال على مصبه ولكن هذه المعاهدة البريطانيـة ـ البرتغالية آثارت معـارضـة كافة الدول تقريبا. وزاد هذه الامور تفاقما تبدل اهتما بسمرك من تركيز السيطرة الالمانية على أوروبا الى الاهتمام نحو العملية الاستعمارية تحت ضغط أصحاب المصالح التجارية الالمان. وهكذا كان انعقاد مؤتمر برلين خطوة فى عملية التقسيم . وسوف نعود الى المؤتمر بتفصيل أكبر فيما بعد.

ثانيا: الكونغو البلجيكى والتخاطف الاستعمارى :

لقد كـانت المنافسة حول حوض الكونغو وسيطرة ليوبولد الثـانى على هذه المنطقة من افريقيا فى حقيقة الامر الشرارة التى ولدت عملية التخاطف التى

أشرنا اليها ويقتضى النظر فى كيفيية وصول هذه الدولة حديثة الاستقلال بالنسبة لاوروبا صغيرة المساحة ضئيلة الموارد - وصولها الى هذه المنطقة وسط القارة حصلت بلجيكا على استقلالها من هولندا منذ ١٨٣٠ وانتخب البلجيكيون الملك ليوبولد الاول. ولقد رأى الملك ليوبدلد الثانى فى بحثه عن مستعمرة - رغم عدم تأييد الحكومة البلجيكية له - ومن ثم فقد كان مشروع الملك ليوبولد الثانى شخصيا بحتا واتخذ منه وسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية فى الداخل بين صفوف الشعب المنقسم على نفسه ومنذ ١٨٦٩ كان الملك ليوبولد يتابع أعمال رجال الاستكشاف الجغرافى الى أن توطدت صلته بالمستكشف هنرى مورتون ستانلى من مواليد مقاطعة ويلز عام ١٨٤١ والذى تجنس فيما بعد بالجنسية الامريكية. ولأهمية رحلة ستانلى الكشفية فى مشروع ليوبولد فسوف نشير اليها بشئ من الإيجاز.

أ- رحلة ستانلى (١١نوفمبر ١٨٧٤-٢٦نوفمبر١٨٧٧)

كان لهذه الرحلة أكبر الاثر فى بلورة فكرة تكوين مستعمرة فى الكونغو لدى الملك ليوبولد كما أنها كانت التمهيد اللازم الذى فتح الباب أمامه وشجعه على الخطوة العملية الاولى فى هذا السبيل وهى عقد مؤتمر جغرافى دولى فى بروكسل عام ١٨٧٦ . وكانت هذه المنطقة لم يتم استكشافها من قبل، لذلك فقد استفاد الملك من هذه المبادرة ايما استفادة.

لقد كانت رحلة شاقة مضنية فقد فيها ستانلى منذ بدئها حتى نهايتها ٢٣٤ رجلا من جملة من كان معه من الرجال وعددهم ٣٤٦ رجلا. وقد بدأ ستانلى رحلته من بجامايو المقابلة لجزيرة زنجبار وامتد طابور قافلته الى مسافة نصف ميل حتى بلغ بحيرة فيكتوريا عند منابع النيل بعد أن كان قد قطع مسافة طولها ٧٢٠ ميلا فى ١٠٣ يوما وطاف ستانلى بسواحل هذه البحيرة العظيمة ثم تابع

مسيرته جنوبا يرقب بإهتمام قوة تيار نهر كاجيرا، ثم تابعت القافلة مسيرتها جنوبا فوصل ستانلى فى أبريل ١٨٧٦ الى منطقة تقسيم المياه من الروافد التى تصب فى بحيرة فيكتوريا ومنابع نهر مالاجارازى وهو الرافد الرئيسى لبحيرة تنجانيفا الى أن انحدرليدخل فى حوض نهر الكونغو.

وفى السادس من نوفمبر ١٨٧٦ دخلت القافلة غابة الكانغو الضخمة وعند تلاقى نهر الاروويمى بالنهر الرئيسى استهدفت الحملة لهجوم شديد الخطر من جانب القبائل أكلة لحوم البشر (Cannaibaies) التى تسكن هذه المنطقة غير أن الجوع إستبد برجال الحملة فى ٩ أغسطس جعله يقصد منطقة بوما وكان ستانلى قد تمكن من جمع كمية هائلة من العاج تبلغ قيمتها نحو ١٨,٠٠٠ دولار فعمد الى تكديسها فى احدى القرى المجاورة.

ولاجدال فى أن ملك البلجيك كان يتابع أمر هذه الرحلة باهتمام بالغ - اذ كان ستانلى قد عمل على اذاعة هذه المعلومات بهدف اثارة انتباه بريطانيا لكنه أصيب بخيبة أمل فى موقفها المتحفظ ازاء استكشافاته الرائعة الامر الذى جعله يقبل عرضا من الملك ليوبولد بأن يكون أحد وكلاء ما أسماه « لجنة دراسة أعالى الكونغو» وكانت هذه «اللجنة» تحت الرئاسة المباشرة ليوبولد شخصيا.

ب - مؤتمر بروكسل الجغرافى ١٨٧٦:

قام الملك ليوبولد بزيارة لندن ١٨٧٦ واجتمع باكبر عدد ممكن من الجغرافيين والمستكشفين وقام بعد هذه الزيارة بتوجيه الدعوة من بروكسل لعقد المؤتمر الجغرافى الدولي، ولكى يتم اثارة مشاعر الصحفيين والكتاب قام بتدبير حملة دعائية واسعة النطاق فى الصحف البلجيكية لترويج قيام الملك البلجيكى بعمل شخصى هام، وانعقد المؤتمر فى بروكسل فى الفترة من١٢ - ١٩ سبتمبر

١٨٧٦ وحضر مندوبو ست دول هي: المانيا، والنمسا ـ المجر، وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا كما حضر بصفته الشخصية: الدكتور شوينفورث من المانيا وكميرون فى انجلترا، ودى لها رونسيير- كى نورى من فرنسا.

وكانت الوسيلة الاولى لتحقيق أهداف هذا المؤتمر هو انشاء محطات دائمة تنتشر على بضعة نقاط من القارة الافريقية لتوفير اسباب الراحة للمسافرين، لتحقيق أهداف العلم والمدينة، ولتحقيق استتبا الامن والسلم فى تلك المناطق. وكذلك تم اقتراح أن تحتوى هذه المحطات على مستودعات للخرائط والالات والادوية والملابس الى غير ذلك مما يلزم المستكشفين من أدوات. وقد اقترح إزاء للدور الذى تقوم به هذه المحطات فى مكافحة الرق أن يجرى ترتيب مواقعها لتكون ملاصقة بقدر الامكان للطرق المنتظمة لتجارة الرقيق حتى يتسنى مناهضة هذه التجارة، وأنه يكفى تزويد الافارقة بالاسلحة النارية لسحق التفوق الوحيد الذى يتوافر بين أيدى تجار الرقيق. وأخيرا تم ظهور «الجمعية الدولية الافريقية» كنتيجة ملموسة لاعمال المؤتمر.

ولكن بعد انفضاض المؤتمر سرعان ما تكشفت نوايا الملك الاستغلالية وبدأت تطغى على النواحى الانسانية والحظارية التى نادى بها فى مؤتمر بروكسل. وعمد الملك بهدوء الى تحويل هذه الجمعية الى ماسمى لجنة دراسة أعالى الكونغو (Le Comite d Etudes du Haut- Congo) لتكون هذه اللجنة نواة هيئة لاستغلال هذه المنطقة.

ج ـ رحلة ستانلى فى ظل لجنة دراسة اعالى الكونغو:

كان هناك لقاء فى باريس بين الرحالة ستانلى والملك ليوبولد تمت فيه بين الرجلين اتفاقات هامة أبرزها كيفية الملاحة فى نهر الكونغو وامكانية مد خط

حديدى لتفادى منطقة المساقط الوعرة. وفى ظل هذا الاتفاق قام ستانلى فى ٢٣ يناير ١٩٧٨ بالذهاب الى زنجبار لتجنيد من سيرافقونه من أهل زنجبار وذلك فى اطار لجنة دراسة أعالى الكونغو وكان على اللجنة أن تستأجر سفينة تم تصديرها الى ميناء بنانا على المحيط الاطلس بالقرب من مصب الكونغر. وبلغ عدد أعضاء هذه الحملة ١٣ شخصا يتألفون من أربعة من البلجيك وثلاثة من الانجليز وثلاثة من الامريكيين واثنين دانماركيين وشخص فرنسى واحد. وبدأت الحملة علمها من منطقة فيفى (vivi) من ناحية مصب النهر ومرض ستانلى وهو يتخير أفضل مواقع العمل فاضطر الى الرجوع الى مدينة ليوبولد قيل وعاد بعدها الى آوروبا وكانت عودته هده الى أوروبا نقطقة تحول هامة فى مسار الحملة.

فقد أثارت عودته الى أوروبا تفكير الدول الاستعمارية ومن ثم بدأت ترقب باهتمام بالغ أمر الحملة وبدأت المنافسة الجدية تشتد بين ستانلى من ناحية والرحالة الفرنسى دى برازا الذى كان يعمل لحساب فرنسا بالقرب من نفس المنطقة من ناحية أخري.

د ـ التنافس بين ستانلى ودى برازا:

شرع ستانلى فى تثبيت الوجود البلجيكى فى الكونغو وكان أول المحطات التى أنشأها فى فيفى فى أغسطس ١٨٧٩. ولكن لم تنقض أربعة أشهر على ذلك حتى سارع المستكشف الفرنسى دى برازا فى ٢٧ ديسمبر ١٨٧٩ بالابحار من ليفربول على ظهر قارب انجليزى ليصل الى ليبرفيل (عاصمة الجابون حاليا) فى مارس ١٨٨٠، ليعمل لحساب فرنسا، ولعب دى برازا فى هذه المنطقة دورا هاما فقام بانشاء مدينة فرانسفيل واندفع حتى وصل الى الكونغو عند بحيرة ستانلى (وهى فى نهر الكونغو وسميت باسم ستانلي)وأعلن

فى يناير ١٨٧٩ أنه قد اهتدى ـ نتيجة استكشافاته الى طريق لاختراق وسط افريقيا . وقام بعقد مؤتمرات فى الجمعية الجغرافية فى باريس فى شهرى ابريل ويوليو ١٩٧٩.

ومما يجدر ذكره ان دى برازا قام ببعثة من تلقاء نفسه وبخلاف المهمة التى اسندت اليه من جانب ديليسبس رئيس اللجنة الوطنية الفرنسية التابعة « للجمعية الافريقية الدولية» وتكتم هو أمر هذه البعثة وقام خلالها بتوقيع معاهدة شهيرة فى تاريخ المنطقة سميت باسم معاهدة ماكوكو(اسم شيخ القبيلة) مع أهل المنطقة الافارقة يقبلون الحماية الفرنسية. وبعد أن تم التصديق على المعاهدة من جانب البرلمان الفرنسى فى ١٨ نوفمبر ١٨٨٢ تم ارسال بعثة كوردبير لتثبيت نفوذ فرنسا فى المنطقة التى تقع الى الشمال من الضفة اليمنى لنهر الكونغو وهكذا أمكن لبراز أن يحقق لفرنسا استعمار جانب من حوض الكونغو شكّل فيما بعد ما سمى (الكونغو الفرنسى) لا يزال يتميز بطابعه الثقافى والحضارى ويتميز عن الكونغو البلجيكى الذى أنشأه ليوبولد الثانى بجهود ستانلى وكان ذلك باكورة تقسيم الكونغو الى دولتين ثم تطور إسم الأولى بعد ذلك الى (زائير)، والثانية الى الكونغو برازافيل ثم تطور إسم الثانية حاليا الى « الكونغو الشعبية».

ثالثا: مؤتمر برلين (١٨٨٤ـ١٨٨٥)

كان اندفاع البلجيك فى حوض الكونغو والفرنسيين فى أعقابهم قد حرك الدعاوى البرتغالية من ناحية وعمل على تقريب وجهات النظر بين البرتغاليين والبريطانيين من ناحية أخرى فقد جمعهم خصم مشترك هو الفرنسيون الأمر الذى أسفر عن توقيع المعاهدة البريطانية ـ البرتغالية لعام ١٨٨٤. فقد كان العرش البرتغالى يسعى خلال القرن السادس عشر نحو إقامة نوع من التعاون

الوثيق بينه وبين المنطقة الجنوبية من مصب نهر الكونغو وايجاد علاقة قوية مع حكام البلاد الافارقة مبنية على التحالف لنشر الديانة المسيحية والثقافة الاوروبية. ولايجاد الصلة المنشودة مع المملكة الأثيوبية المسيحية التى وصلتهم اخبارها ويحكمها القديس يوحنا (prester John) وادعى البرتغاليون سيادتهم على الكونغو بكامله استنادا الى أ المستكشف البرتغالى دييجو كام كان أول من استكشف الكونغو منذ نحو ٤٠٠ سنة وساندتهم بريطاانيا فى أول الامر بإعتبار البرتغال دولة صغرى تقع تحت السيطرة البريطانية.

وانبرت المانيا لمعارضة المعاهدة لأنها لم تكن لتوافق على أن يخضع ساحل له مثل هذه الاهمية لسيطرة الاستعمار البرتغالي. وأسفر هذا الوضع فى نهاية الامر على ماسمى بالوفاق الالمانى - الفرنسى وتم عقد المؤتمر الدولى فى برلين حيث تلاقت وجهات النظر الفرنسية - الالمانية لمناهضة المعاهدة البرتغالية - البريطانية. وفى ١٥توفمبر ١٨٨٤ انعقد هذا المؤتمر الهام بدعوة وجهها بسمرك من برلين واستمر انعقاده حتى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ أى نحو مائة يوم وضم ممثلى كل من : المانيا، والنمسا - المجر - وبلجيكا والدانمارك وأسبانيا والولايات المتحدة، وفرنسا ، وبريطانيا وهولندا وايطاليا والنرويج والبرتغال وروسيا والسويد وتركيا، ومما يجدر ذكره أنه قبل انعقاد المؤتمر بنحو سبعة شهور أى فى ٢٢ ابريل ١٨٨٤ بادرت الولايات المتحدة باعلان اعتبار علم « الجمعية الدولية لكونغو بمثابة علم دولة مستقلة وصديقه. أما المانيا، فقد جعلت أمر استعدادها للاعتراف بحدود أراضى الجمعية أمرا واضحا لايحتاج الى دليل

وقائع المؤتمر:

انعقدت الجلسات فى قصر المستشارية وفى نفس القاعة التى كان قد عقد فيها مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨،ولما اجتمع أعضاء المؤتمر بعد ظهر يوم ١٥

نوفمبر ١٨٨٤ نهض بسمرك لإفتتاح المؤتمر رسمياً وكان خطابه مقتضبا أعلن فيه ان المؤتمر قد انعقد لايجاد الحلول لثلاثة مسائل رئيسية بالتحديد:

١ ـ حرية الملاحة وحرية التجارة فى نهر الكونغو.

٢ ـ حرية الملاحة فى نهر النيجر

٣ ـ الإجراءات الواجب استيفاؤها ليكون ضم الاراضى فى أفريقيا صحيحا فى المستقبل.

ولقد اختتم المؤتمر أعماله يوم ٢٦ فبراير ١٨٨٥ حيث تم الوقيع على الوثيقة النهائية من جانب تسعة عشر مفوضا يمثلون ١٤ دولة وتتألف الوثيقة من ستة فصول ، الفصل الاول تحت عنوان «اعلان بحرية التجارة فى حوض الكونغو ومخارجه والبلاد المحيطة به » الفصل الثانى تحت عنوان «اعلان خاص بتجارة الرقيق» ، والفصل الثالث تحت عنوان "حياد الاراضى التى يضمها الحوض التجارى لنهر الكونغو"، أما الفصل الرابع فتحت عنوان " وثيقية الملاحة فى الكونغو" والفصل الخامس تحت عنوان "وثيقة الملاحة فى النيجر".

وكان الفصل السادس ذا عنوان مطول « اعلان حول الشروط الاساسية الواجب استيفاؤها حتى يعتبر إحتلال السواحل الإفريقية لاول مرة احتلالها فعليا »وهذا الفصل هام فى تاريخ تقسيم القارة الافريقية حيث إنه أشعل شرارة « التخاطف» لانه فى حقيقة الامر وضع الاسس والضوابط الجديدة للاعتراف باحتلال أية دولة معينة لرقعة معينة من الساحل الافريقي، ذلك على الرغم من أن هذا الفصل لم يضم سوى مادتين اثنتين هما المادة ٣٤، والمادة ٣٥ومع ذلك فقد كان لهما تأثير بالغ على سرعة التخاطف والاستيلاء على أرض

القارة. فقد تضمنت المادة ٣٤ إشتراط قيام أية دولة تكون لها ممتلكات على الساحل وتريد الإستيلاء على قطعة أخرى على الساحل خارج نطاق ممتلكاتها حينذاك أن تقرن إحتلالها هذا باخطار الدول الموقعة على الوثيقه العامه للمؤتمر بذلك حتى نسب لهذه الدول ابداء رأيها فيما يتعلق بما قد يكون لاى منها من حقوق فى تلك الاراضى محل الاحتلال ونفس الشئ ينطبق على أية دولة لا تكون لها أصلا أية ممتلكات على الساحل لكنها ترغب فى احتلال جزء منه.

وجاءت المادة ٣٥ مكملة للمادة السابقة حيث نصت على أن الدول الموقعة على الوثيقة العامة للمؤتمر تؤيد ضرورة الالتزام بوجود سلطة كافية (Autorite Suffisante) بالنسبة للاراضى التى تمتلكها هذه الدول على الساحل الافريقي، وذلك لكى تحترم هذه الحقوق المكتسبة وضمانا لحرية التجارة والعبور اذا اقتضى الامر طبقا للشروط المنصوص عليها.

ومن الجدير بالذكر أنه أبرمت خلال فترة انعقاد المؤتمر اتفاقيات ثنائية بين ممثلى « الجمعية الدولية للكونغو » التى صارت تلقائيا تسمى » دولة الكونغو الحرة» وبين الدول الاوروبية المشاركة فى المؤتمر تنص على اعتراف تلك الاخيرة باستقلال الدولة الوليدة ورسم حدودها معها.

رابعا: المطامع البلجيكية فى أعالى النيل:

قد يبدو مستغرباً أن تكون للملك ليو بولد الثانى مطامع فى حوض النيل يمثل ما تمكن من السيطرة على منابع نهر الكونغو غير أن حملات الاستكشاف الاولى التى وجهها الملك ليوبولد نحو الشمال الشرقى من دولة الكونغو الحرة تتصل اتصالا وثيقا بسياسته صوب البحر الاحمر، أى الاتجاه من المحيط الاطلس الى البحر الاحمر ولتحقيق هذا الهدف قام الملك باجراء محادثات سرية

مع ايطاليا للتنازل - عن طريق التأجير - عن ممتلكاتها خوصا فى منطقة كسلا وسنار بالقدر الذى يمسح للملك بربط الكونغو بالممتلكات الايطالية، ورغم تأييد الدبلوماسية الالمانية للملك فى خطته هذه فان جهوده لم تسفر عن شئ ملموس. اذ رفضت ايطاليا تلك المشاريع.

١) المعاهدة البريطانية الكنغولية ١٢ مايو ١٨٩٤

بعد أن تخلص الملك البلجيكى من قوة عناصر العرب وسط الكونغو وشرقيه والذين كانوا يقفون عقبة أمام توسعه باتجاه منابع النيل تركزت اهتماماته على كيفية الوصول الى هذه المنابع بهدف تصريف منتجات الكونغو عن طريق وادى النيل لكن ذلك كان يقتضيه ضرورة الحصول على موافقة القوتين الاعظم فى المنطقة اللتين كانتا أسبق منه فى مضمار التنافس للاستيلاء على المناطق الواقعة فى أعالى النيل وهما انجلترا وفرنسا. ففى الفترة من ١٨٨٦ ـ ١٨٩٣ كانت توسعات الملك ليوبولد هى القوة المحركة الرئيسية لعملية التخاطف الاستعمارى عموما على الطرف الشمالى من منطقة وسط أفريقيا أى فى الحوض الغربى لاعالى النيل، وسرعان ما طغت هذه المشكلة على الفكر الاستعمارى الفرنسي.

بيد أن تطلعات الملك ليوبولد التوسعية وتفوقه مرحليا فى عملية التخاطف الاستعمارى فى وسط القارة بمساندة المستشار الالمانى دفعه لتثبيت مكاسبه بمحاولة تقنين وضعه وذلك عن طريق ابرام اتفاقية التأجير المشهورة فى ١٢مايو١٨٩٤ التى أجرت بريطانيا بمقتضاها أجزاء من أعالى النيل للملك ليوبولد، وذلك بهدف جعل نفوذه فى هذه المناطق بمثابة منطقه عازلة أمام تغلغل النفوذ الفرنسي. ولقد كان ذلك يتفق مع مصالح بريطانيا التى كانت قد قامت باجلاء الحكم المصرى عن السودان حتى يتم لها الاستيلاء على مناطق

من أوغندا. ولكن الملك لم يكن ينوى فى حقيقة الامر التخلى عن هذه الاراضى ولقد أثار توقيع هذه المعاهدة ردود فعل كثيرة وخاصة فى فرنسا، واتفقت فيها الاوساط الرسمية والشعبية على توجيه تهديد مؤثر لانجلترا فى مياه النيل لإجبار بريطانيا على إعادة طرح المسألة المصرية للمناقشة.

وبموجب معاهدة التأجير هذه تكون بريطانيا قد أعطت الملك ليوبولد لمدى حياته منطقة لادو (التى تقع غرب النيل وبحر الغزال شرقى خط طول ٢٠درجة ، وتبدأ جنوبا من بحيرة البرت حتى فاشودة شمالا، ومن ناحية أخرى أعطت المعاهدة للملك ليولولد وخلفائه من بعده المنطقة الواقعة بين خطى طول ٢٥، ٣٥ درجة وتحد شمالا بخط عرض ١٠ درجة (أى متجاوزة بحر الغزال بقليل) ولما عرضت المعاهدة على البرلمان البريطانى فى ٢١مايو١٨٩٤ للتصديق عليها كانت أخبارها قد تسربت الى باريس وعارض الفرنسيون المعاهدة معارضة شديدة . وكان الفرنسيون قد بيتوا النية على ارسال حملة مونتيل- أحد المستكشفين الفرنسيين فى مايو ١٨٩٣ للوصول الى فاشودة التى تسيطر على مجرى النيل الاعلى وعلى ملتقى رافديه وهما بحر الغزال والسوياط بهدف ازعاج سلطات الاحتلال البريطانية وتهديدها بقطع المياه عن مصر فى المقام الاول، بالاضافة الى محاولة سبق البلجيكيين فى الوصول الى النيل الاعلي. فلما تم توقيع المعاهدة تقرر استئناف فكرة ارسال مونتيل على الفور.

ب) المعاهدة الفرنسية الكونغولية ١٤ اغسطس ١٨٩٤

رضخ الملك ليوبلد للتهديدات الفرنسية، وشعر بأن انجلترا لم تعد بنفس التحمس فى مساندته لتحقيق مآربه فى حوض الكونغو لذلك دارت مفاوضات بين فرنسا «ودولة الكونغو الحرة»، وانتهت بتعهد دولة الكونغو الحرة بألا تحتل

أية أراضى شمال لادو، كما اتفقت الدولتان على تقسيم نهو مبوموأحد فروع الكونغو إلى قسمين متعادلين تكون الضفة اليمنى منه لفرنسا، وتكون الضفة اليسرى من نصيب دولة الكونغو الحرة الى غير ذلك من الشروط التى ترضى توسع فرنسا على أن أهم ما جاءت به هذه المعاهدة الفرنسية ـ الكونغولية هوما ورد بالمادة الرابعة منها وتنص على ما يلى : «تتعهد دولة الكونغو الحرة بألا تحتل فى المستقبل ولا ان تمارس أى عمل سياسى من أى نوع الى الغرب أو الى الشمال من خط سيجرى تحديده بهذه الكيفية: من بداية تقاطع خط الطول ٣٠ درجة شرقى جرينتش مع خط تقسيم مياه النيل والكونغو الى المنطقة التى يلتقى فيها الخط مع خط عرض ٣٠٥ ثم متابعة خط الموازاة حتى نهر النيل.

ومما يجدر ذكره أن فرنسا توصلت مع دولة الكونغو الحرة الى اتفاق تم توقيعه فى باريس فى ٥فبراير١٨٩٥ يمنح لفرنسا حق الارتفاق على أرض الكونغو اذا حصل تنازل عن هذه الاراضى فى يوم من الايام وتبعا لذلك صدرت تعليمات الحكومه الفرنسيه بوقف حملة موتيل وهكذا توقف مؤقتاً مشروع إحتلال فاشودة من جانب فرنسا وهكذا ايضا تخلى الملك ليوبولد مؤقتاً عن فكرة إحتلال منطقة بحر الغزال ليفتح الباب على مصراعيه أمام الفرنسيين للتوغل فى أعالى النيل، وتكون فرنسا هى الاخرى قد تركت لدولة الكونغو الحرة بمقتضى معاهدة ١٤ أغسطس ١٨٩٤ الاستمرار فى استئجار منطقة لادو معترفة بحقها فى توسيع حدودها على حساب الاراضى المصرية، الامرالذى أنكرته على بريطانيا فى وقت ليس ببعيد، فقد كانت فرنسا تقول دوما أن هذه الاراضى ملك للسلطان التركى ومن ثم فهى أراضى مصرية.

وكان رد الفعل البريطانى ازاء هذه المعاهدة عدم ابداء أى اعتراض عليها اذ وجدت بريطانيا. أنه ليس برسعها ارغام ملك البلجيك على احتلال المنطقة

وجدت بريطانيا . أنه ليس برسعها ارغام ملك البلجيك على احتلال المنطقة المؤجرة له من بريطانيا وأن التمسك بهذا التأجير يرجع له وحده فى مواجهة بريطانيا . والواقع أن خطط الملك ليبولد فى التوغل نحو السودان قد منيت بالفشل. وصار التنافس الآن بعد أزمة بين الدول الكبرى التى استطاعت كبح جماحه الى تجلت فى فاشودة، وخرج مارشان قائد البعثة الفرنسية من فاشودة فى مارس ١٨٩٩ عائدا الى بلاده عن طريق اثيوبيا وتكون قد انتهت مرحلة الصراع البريطانى الفرنسي الذى استمر أكثر من مائة عام وانسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا الصراع الطويل باعلان تسوية ٢١مارس ١٨٩٩.

أما الموقف البلجيكى أثناء أزمة فاشودة فكان يتلخص فى أن بريطانيا كانت قد تنازلت للبلجيك بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤- مع الاحتفاظ بحقوق مصر فى أعالى النيل - ولمدة محددة عن القسم الاكبر من بحر الغزال، وعن قطعة صغيرة من الارض على ضفة النيل الغربية فى قلب الاراضى المصرية تسمى حاجز لادو (Lado Enciave) ولم يقم البلجيكيون بأى احتلال فعلى فى هذه المنطقة، ولكنهم بادروا الى احتلال لادو حوالى عام ١٨٩٨ عقب واقعة فاشودة فأذن لهم الانجليز بالبقاء بشرط ألايعتدوا على بحر الغزالى ، وكانت منطقة لادو هذه تمتد على مساحة ١٥٠٠٠ ميل مربع وكان عدد سكانها نحو ٢٥٠٠٠٠ نسة.

ولما كان البلجيك قد تجاوزا فى زحفهم الحدود التى رسمها لهم مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥ فان بريطانيا جعلت منهم بمثابة حارس مؤقت على باب بحر الغزالي، ثم وقفت لهم بالمرصاد بعد أن استتب لها الامر بعد استرداد السودان وخاصة بعد اتفاق التسوية النهائى مع فرنسا المبرم فى ٢١مارس ١٨٩٩ والذى يحدد مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا . فى وسط أفريقيا .

خامسا: عملية التقيسم فى غرب افريقيا:

أ) الفرنسيون فى غرب افريقيا:

على الرغم من أنه كان لفرنسيين نشاط ملحوظ فى غرب افريقيا منذ القرن السادس عشر وقاموا بتحدى الاحتكار البرتغالى للتجارة فى هذا الجزء من أفريقيا، كما أنهم شاركوا فى تجارة الرقيق، الا أنهم لم يبدأوا جديا فى بناء امبراطوريتهم فى غرب افريقيا الا بعد عام ١٨٧٠ وعلى أية حال فقد كان تعيين لويس فيدهيرب (Faidherde) حاكما على السنغال عام ١٨٥٤ يشكل بداية لتوسعهم فى غرب أفريقيا. وكان فيدهيرب يعتقد آن نهر السنغال هو مفتاح الدخول الى قلب افريقيا فقام باحتلال السنغال لتنمية موارده الاقتصادية وخاصة الفول السودانى لتصديره الى الخارج. وكان غريمه فى تلك المنطقة الحاج عمر الفوتى الذى كان يسعى لبناء امبراطورية غرب المنطقة السودانية، وقد واصل ابنه معارضة الفرنسيين من بعده.

بيدا أن الوضع الاستعمارى الفرنسى فى غرب أفريقيا قد تحسن نتيجة لحصولهم على عدة معاهدات أبرموها مع حكام ساحل العاج وغينيا (الفرنسية) والداهومي، وبحلول عام ١٨٧٠ كان غالبية الحكام الافارقة على المنطقة الساحلية قد قبلوا الحماية الفرنسية على بلادهم. ولقد اتسع نطاق التوسع الاستعمارى الفرنسى لبناء امبراطورية فرنسية فى ظل الجمهورية الثالثة حين تولد اليقين عند القادة. السياسيين ورجال الاعمال على حد سواء أن بناء هذه الامبراطورية سوف بوفر امكانات هائلة للأستثمار ويعمل على ايجاد متصرف للمنتجات الفرنسية ونظرا لان الكرامة الفرنسية قد اصابها جرح غائر منذ الحرب الروسية الفرنسية عام ١٨٧٠، فقد ظهرت كتابات تقول « إن فرنسا سوف تصبح قوة افريقية عظمى وإلا فانها بعد قرن من الزمان سوف تصبح

دولة أوروبية من الدرجة الثانية » وشعر الفرنسيون أن على فرنسا أن تعمل على نشر الحضارة بين الاجناس الأخرى الاقل تفوقاً.

التوغل الفرنسي في غرب افريقيا:

لقد بلغت الاراضي التى أطلق عليها « غرب أفريقيا الفرنسية » تسعة أضعاف مساحة فرنسا وهذه الاراضي تم الاستيلاء عليها في الفترة الواقعة بين ١٨٧٥ - ١٩٠٤ ، وقد لقى هذا الاستيلاء - انطلاقا من السنغال وغينيا الفرنسية وساحل العاج والداهومي - بعض المقاومة من جانب القادة الافارقة وأشهرهم أجمد ساموري حتى أن ساموري ظل في صراع مع فرنسا امتد من ١٨٨١ - ١٨٨٩ ، وكذلك تصدت قبائل الطوارق المسلمة من سكان المنطقة الصحراوية في حرب مقدسة ضد الفرنسيين على مدى عشر سنوات الى أن استسلموا أخيرا عام ١٩٠٤. على أن الفرنسيين كانوا يهدفون الى الاستفادة من مبدأين رئيسيين من مبادئ وثيقة برلين ١٨٨٥ وهما مبدأ الظهير الارضى للساحل (Hinterland) كما ورد في المادة ٣٤ من الوثيقة، ومن الاحتلال الفعلى (Egtectibe Occupation) كما ورد في المادة ٣٥ من نفس الوثيقة. لذلك فان الفرنسيين لكى يؤكدوا واوجودهم في مواجهة أية منافسة من الدول الاوروبية الاخرى قاموا بارسال بعثات للداخل لدراسة عمق القارة واستطاعت هذه البعثات الحصول على معاهدات من الحكام الافارقة كانت بمثابة السند لدعاوى فرنسا في هذه الجهات ، ولكنهم غالبا ما كانوا يدخلون أراضى تخص دولاً اخرى، ففي عام ١٨٩٢ على سبيل المثال دخل الضابط الفرنسي ميزون جوض نهر النيجر الادني، وكانت هذه المنطقة تحت سيطرة شركة النيجر البريطانية الملكية، ونشأ عن ذلك توتر شديد بين وزارتى الخارجية الفرنسية والانجليزية لم تخف حدته الابانسحال ميزون من المنطقة .

أما التوغل الفرنسى الذى استند على مبدأ الظهير الارضى فكانت فرنسا تهدف من ورائه الى ربيط ممتلكاتها فى الساحل الواحدة بالاخرى . فقد قام الضابط بنجر باستكشاف حوض النيجر الأعلى فى الفترة ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩ وعمل هذا الاستكشاف على ربط السنغال مع ساح العاج (كوت ديفوار) وفى عام ١٨٩٣ صار بنجر حاكما على ساحل العاج ، ثم قام أحد الضباط الفرنسيين هورست باقامة صلة بين السنغال والياهومى (بنين حاليا). على أن الاستكشافات التى قام بها مونتيل بتوغله من السنغال الى بحيرة تشاد ، ومن هناك عبر الصحراء الى طرابلس عام ١٨٩٠ مدت نطاق النفوذ الفرنسى حتى غربى المنطقة السودانية. وقد تلت هذه الاستكشافات عمليات الاستيلاء المتوالية حتى أوائل القرن العشرين الى أن أصبحت مساحة الاراضى التى استولت عليها فرنسا فى غرب أفريقيا ١,٨١٤,٢٠٠ ميلا مربعا يسكنها نحو ١٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة.

عمليات رسم الحدود:

لم يكن التنافس للحصول على مستعمرات فى غرب أفريقيا قاصرا على دولة أو دولتين ، فقد كانت للبرتغال وأسبانيا دعاوى ترجع الى القرن السادس عشر، فلما أصابها الوهن كان الامر أكثر يسرا بالنسبة للفرنسيين لرسم حدود مستعمراتهم لصالح فرنسا فهذه ليبيريا (المستقلة) التى اقامها « دعاة الخير» من الامريكيين عام١٨٢١ تخضع لفرنسا، أما التوجولاند ـ تلك المستعمرة الالمانية التى حصل عليها الالمان عام ١٨٨٤ والتى لها حدود مع الداهومى من ناحية الشرق، فقد تم رسم الحدود بينهما بموجب معاهدة المانية ـ فرنسية عام ١٨٩٧.

بيد أن العقبة الكأداء ظهرت عند رسم حدود المستعمرات الفرنسية مع

مناطق النفوذ البريطانية. وكانت فرنسا تنتهج خطة تحجيم النفوذ البريطانى بحيث يقتصر على هدة جيوب فقط على الساحل الغربى لافريقيا، ونجحت فرنسا فى ذلك فى بعض مناطق ولم يحالفها التوفيق فى مناطق أخرى ـ نجحت فى جامبيا حيث لم يترك الفرنسيون للبريطانيين سوى مستعمرة صغرة لا تتعدى مساحتها ٤٠٠٠ ميلا مربعا . أما سيراليون التى استخدمها البريطانيون لاعادة توطين العبيد المحررين فانها صارت مستعمرة بريطانية منفصلة عام ١٧٩٩ وبالنسبة لحدود غينيا الفرنسية (غينيا الحالية) فقد تم رسمها بحيث لم يترك الفرنسيون لبريطانيا سوى مستعمرة صغيرة جدا يبلغ عدد سكانها نحو ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة.

أما الحدود بين ساحل الذهب (غانا الحالية) وبين ساحل العاج فقد تم الاتفاق بشأنها عام ١٨٨٩. وهذه الحدود تم رسمها بطريقة تحكمية ـ رسمها بعض الدبلوماسيين الذين لم يكونوا على أى قدر من الدراية عن أفريقيا حتى أن هذه العملية وصفت بأنها عبارة عن « شخبطة دبلوماسية» (Diplomaic Doodling) .

على أن رسم حدود نيجريا هو الذى أثار أزمة دبلوماسية عارمة بين انجلترا وفرنسا حتى أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر ويرجع ذلك الى أنه كان يجرى النظر الى نيجيريا ـ كما كان الحال بالنسبة لاوغندا فى شرق القارة ـ على أنها الكنز المنشود، لثروتها وكثرة سكانها ، وكان البريطانيون قد وطدوا أقدامهم فى حوض النيجر الأدنى حيث كانت تعمل « شركة النيجر الملكية » منذ عام ١٨٨٦ والتى حظيت باعتراف مؤتمر برلين ، وكانت هناك معاهدات أبرمها وكلاء الشركة مع سلطان سوكوتو لبسط نفوذ البريطانيين لمسافة كبيرة عبر نهر النيجر وفى النهاية فان الحدود الشمالية لينجيريا قد رسمت بصفة مؤقته

عام ١٨٩٠ ، فقد تم الاتفاق على رسم خط حدودى يبدأ عند بحيرة تشاد يتجه غربا باستقامة حتى قرية ساى على الضفة الغربية من نهر النيجر.

يبدو أنه كان لفرنسا حلم سعيد آخر يتصل بغرب أفريقيا، لكنه يتصل كذلك بمطامعها فى افريقيا الاستوائية. فقد بدأ التجار الفرنسيون وضع أقدامهم فى الجابون منذ القرن السابع عشر. ولم يكن لهذه المنطقة أهمية تذكر حتى عام ١٨٣٠ حين تم انشاء مدينة ليبرفيل ليسكنها العبيد المحررون، فأصبحت نقطة وثوب فرنسية جديدة باتجاه خط الاستواء وقد رأينا أن الضابط الفرنسى دى برازا هو مؤسس ما يسمى « افريقيا الاستوائية الفرنسية» وقد توقفت سفينتة عند الجابون عام ١٨٧٤ ، وتمكن دى برازا من استكشاف أن هناك رافدين للكونغو ولكنه لم يفطن الى أهمية ذلك الابعد عودة ستانلى من رحلته الثانية لافريقيا عام ١٨٧٧ التى سار فيها مع النهر حتى بلغ مصبه وتمكن دى برازا ـ كما فعل فيدهيرب فى السنغال من مد النفوذ الفرنسى الى الظهر الارضى بابرام معاهدات واقامة نقاط عسكرية بيد ان من جاءوا بعد دى براز مدوا نفوذ فرنسا شمالا حتى بحيرة تشاد واصطدم الفرنسيون بالقائد الاسلامى رابح الذى كان يحكم مملكة برنو القديمة وبهزيمة رابح عام ١٩٠١ أمكن للفرنسيين ربط ممتلكاتهم فى غرب افريقيا بممتلكاتهم الجديدة فى افريقيا الاستوائية.

سادسا: عملية التقسيم فى شرق افريقيا:

اتخذ التنافس فى شرق أفريقيا اسلوبا مختلفا، إذ كان على الاوروبيين ان يأخذوا فى حسابهم وجود دولة عربية قائمة هى سلطنة زنجبار، ولقد اخذت بريطانيا من السلطنة ستارا لاقامة حكم بريطانى فى المنطقة الممتدة من الساحل صوب الداخل حتى بحيرة تنجانيقا ومنه حتى هضبة البحيرات عند منابع النيل، وكانت تلك خطة ذكية من بريطانيا لم تكلفها أية نفقات اضافية، اذا

عمدت الى ضم أراضى كلمنجارو تحت دعوى عدم خرق مبدأ المحافظة على سلامة أراضى السلطنة، وصار امتداد نفوذ السلطان برغش بهذا الشكل هو فى حقيقة الامر امتداد للنفوذ البريطانى فى المنطقة.

أ) المانيا:

حقيقة الامر أن المصالح الالمانية فى شرق أفريقيا ترجع إلى عام ١٨٤٤ حينما بدأت علاقاتها التجارية مع تلك المنطقة لاول مرة والمدهش أن حجم التجارة الالمانية فى عام ١٨٧٥ مع هذه المنطقة كان يقدر بنحو ٣,٥٠٠,٠٠ مارك الماني، وهم رقم يعادل عدة أضعاف حجم تجارة بريطانيا معها.

على أن كارل بيترز يعتبر بحق مؤسس ماسمُى «شرق أفريقيا الألمانيه ـ فقد كان من أبرز غلاة الحركة الاستعمارية الالمانية فقد ظهر فى نوفمبر ١٨٨٤ فى زنجبار، ورغم أن بسمرك حذره من أن حكومنه سوف لا تساند جهوده الا أنه سارع بالتوغل داخل أفريقيا من الساحل الشرقى وقام بابرام عدد من المعاهدات مع مشايخ القبائل. وسرعان ما عاد كارل بيترز بعد عشرة أيام فقط وقد حصل على حقوق بمقتضى معاهدات على أرض تبلغ مساحتها ٦٠,٠٠٠ ميل مربع. وكان اسلوبه فى الحصول على ذلك تقديم بعض الهدايا رخيصة الثمن ثم يقوم بقراءة شروط المعاهدة باللغة ألالمانية والعمل على إغراء شيخ القبيلة بالتوقيع بالتنازل عن حقوقه لألمانيا ثم يقام حفل ينتهى برفع العلم الالمانى مع اطلاق عدة أعيرة نارية، ولم ينس كارل بيترز أن يذكر فى نهاية هذه الاتفاقيات ان مشايخ القبائل ـ سلاطين أو ملوك ـ مستقلون يتمتعون بكامل السيادة ولا تربطهم اية صلة بسلطان زنجبار.

ب) انجلترا:

ازدهرت تجارة القرنفل والسكر على ساحل شرق افريقيا على يد سلطان زنجبار، الامرالذى عمل تنشيط الطلب على الايدى العاملة من عبيد المنطقة الذين كانوا يقومون بحمل بضائع التجار العرب، وكان هؤلاءالتجار قد توغلوا فى الداخل حتى وصلوا الى منطقة البحيرات العظمى قرب منابع النيل وكانت هذه التجارة تشمل جلب العاج من قلب القارة لبيعه للاوربيين، وامتزج العرب بقبائل البانتو الافريقية واتخذوا من بينهم حلفاء لهم لحماية طرق التجارة هذه.

وقام المستكشفون الاوروبيون ورجال الارساليات بجهد جبار بالتوغل فى قلب القارة منذ منتصف القرن التاسع عشر، ومن أشهر المستكشفين المستكشف الانجليزى سبيك وزميله ريتشارد بيرتون وجرانت الذين انطلقوا من زنجبار الى منطقة البحيرات فى الفترة الممتدة من ١٨٥٨ـ١٨٦٤ بهدف استكشاف من أين ينبع نهر النيل.

ولكن وقع التنافس لتقسيم شرق أفريقيا لم يبلغ ذروته الاحين وضعت المانيا أقدامها فى تلك المنطقة، تماما كما كان الوضع حينما وضع ليوبولد الثانى قدمه فى وسط القارة غير أن منطقة النفوذ البريطانى فى شرق أفريقيا فيما يسمى الان باسم كينيا كان نتيجة كان نتيجة جهود المستكشفين والروابط التجارية مع الهند من ناحية وكذا روابط التحالف القديمة بين انجلترا والبرتغال من ناحية أخرى حيث كانت البرتغال تسيطر على غالبية الشواطئ الشرقية الافريقية.

أما أوغندا فهى أرض مرتفعة كذلك، وكذلك تتمتع بمناخ معتدل كما أن تربتها شديدة الخصوبة وتعتبر أوغندا مفتاح النيل ويسكنها شعب الباجندا الذى كان يعتبر اكثر الشعوب تقدما فى المنطقة واستطاعت هده القبائل ايجاد نظام

اجتماعى متطور حتى قبل قدوم الاوربين اليها غير أنه مما لفت النظر الى أوغندا تتابع المستكشفين الانجليزا أمثال بيرتون وسبيك وجرانت وبيكر، وسرعان ما تهافت على أوغندا الالمان حيثما تمكن كارل بيترز من ابرام معاهدة مع ملك أوغندا تضع بلاده تحت الحماية الالمانية، غير أن شركة شرق أفريقيا البريطانية انتزعتها من يد الالمان وآلت الى البريطانيا طبقا للاتفاقية الالمانية ـ البريطانية لعام ١٨٩٠.

غير أن نوعاً آخر من الصراع كان يدور على أرض أوغندا بين الكاثوليك والبروتستانت والمجموعات الاسلامية، وكان ملك أوغندا (الكاباكا) أومتيسه يرحب بكل من البعثات التبشيرية المسيحية ـ الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء غير أن ابنه موانجا قلب هذه السياسة رأسا على عقب وعمد الى مهاجمة المسيحيين ومساندة المجموعات الاسلامية ولكن قدوم الضابط فردريك لوجارد أحد وكلاء شركة شرق أفريقيا البريطانية حسم هذه الحرب الاهلية الدينية فى أوغندا لصالح البروتستانت وبعد صراع طويل وقع موانجا على معاهدة تجعل أوغندا رهن السيطرة الكاملة للشركة.

أما بالنسبة لتنجانيقا (تنزانيا الحالية) فانها كانت قد دخلت ضمن منطقة الاستعمار الالمانية طبقا لاتفاق ١٨٩٠ وكانت المناطق الساحلية ترتبط بروابط وثيقة مع العرب منذ القرن الثامن عشر وكان البرتغاليون يباشرون نشاطهم فى تلك المنطقة من الساحل قبل ذلك فى القرن السادس عشر على أن جهود كارل بيترز أسفرت عن ابرام معاهدة فى الثمانينيات وحصل المستوطنون الالمان على بعض الأراضى وفى ١٨٩٠ تحددت حدود شرق أفريقيا الألمانية ثم وضعت تنجانيقا بعد الحرب العالمية الاولى تحت الانتداب البريطاني.

جـ) ايطاليا:

كانت ايطاليا من أضعف الدول العظمى فى مستهل القرن التاسع عشر، وبالتالى كانت أقلها نصيبا فى حيازة المستعمرات فى افريقيا، وتشبه ايطاليا حالة المانيا فى أنها أتت متأخرة الى حلبة العملية الاستعمارية، ولكنها تختلف عنها فى أنها لم تكن لديها قوه عسكرية يخشى بأسها، لذلك كان اليسير على كل من بريطانيا وفرنسا أن تعامل الممتلكات الايطالية فى افريقيا بمثابة مخلب قط أو بالاحرى أداة للمساومة فى عملية المطامع الاستعمارية، وظلت ايطاليا قانعة راضية بما يفيض عن حاجة الدول الكبرى القوية.

ولقد بدأت الحكومة الايطالية تحركها الاستعمارى بشراء منطقة خليج عصب بالقرب من خليج عدن عام ١٨٨٢، وكان الظن أن ايطاليا سوف تجد مدخلا للبحر المتوسط من خلال سيطرتها على البحر الاحمر، وكان فى مخيلة دعاة الإستعمار فيها السعى لإقامة إمبراطورية استعمارية تضم كلا من اثيوبيا ومنابع النيل وطرابلس. ثم خطت ايطاليا خطوة ثانية نحو تحقيق حلمها السعيد عام ١٨٨٤ باستيلائها على مصوع على الساحل الغربى للبحر ألاحمر ثم قامت بضم شتات مستعمراتها الصغرى على البحر الأحمر عام ١٨٩٠ لتكون منها ماسُمى «مستعمرة البحر الاحمر» ثم رنت ايطاليا ببصرها نحو أراضى الصومال وكانت تحت سيادة سلطان زنجبار، وعمدت ايطاليا الى ابرام معاهدة تجارية معه بمباركة بريطانيا، وما لبثت أن أعلنت حمايتها على واجهة طولها ٢٠٠ ميل جد من منطقة شرق أفريقيا البريطانيه إلى نهاية الطرف الشرقى لأفريقيا غير ان فرنسا أعلنت فى نفس الوقت تقريبا عن سيطرتها على ميناء جيبوتي، وكذلك عزز البريطانيون تواجدهم فى الصومال البريطاني.

وكانت ايطاليا ترمق اثيوبيا بإعتبارها واحدة من أهم أراضى أفريقيا، فكانت

من ناحية مملكة مسيحية فوق مرتفع هام يمثل المنطقة الشمالية الشرقية من القارة بها إمكانات زراعية ومعدنية ضخمة وكان الامبراطور تيودورقد كوّن جيشا قويا لاثيوبيا، وكان يمقت البريطانيين الذين قاموا بغزو بلاده عام ١٨٦٧ وهزيمة تيود ور الذى انتحر بعد ذلك. أما فى الثمانينيات فقد تمكن الامبراطور مينيليك من مد نطاق حكمه على بعض الشعوب المجاورة. على أن التغلغل الايطالى فى أثيوبيا بدأ فعلا فى عام ١٨٨٩ وتم ابرام معاهدة أوتشيالى (Ucciali) التى تضمنت منح اثيوبيا قرضاً كما منحتها مدخلاً على البحر الاحمر عند ميناء مصوع ولكن طبقا لتفسير نص المعاهدة المكتوب باللغة الايطالية تكون اثيوبيا تحت الحماية الايطالية ، ولما كان القلق ينتاب بريطانيا من جراء النشاط المتزايد لفرنسا فى إثيوبيا فقد باركت هذه المعاهدة بيد أن الملك منيليك تنصل من هذه المعاهدة فى عام ١٨٩٣، فكان الرد الايطالى غزو إثيوبيا عام ١٨٩٦ ولكن الاثيوبيين تمكنوا من إلحاق هزيمة ساحقة بالايطالين فى موقعة عدوة فى نفس العام وبذلك طويت صفحة من صفحات الإستعمار الايطالى الحزين فى اثيوبيا.

وعملت كل من بريطانيا وفرنسا على ملء هذا الفراغ فى اثيوبيا بمباركة الامبراطور مينيليك الذى أصبح الان يشعر بحاجته الى حمايتها وسرعان ما إعترف مينيليك بوجود منطقة مصالح بريطانية فى النيل الازرق أما فرنسا فقد اقتصرت مراميها على الحصول على عقد امتياز يتيح لهامد خط حديدى من جيبوتى فى الصومال الفرنسى الى أديس أبابا وهذه الترتيبات لم تأخذ شكلها الرسمى الافى عام ١٩٠٦ بموجب معاهدة تؤكد هذا الامتياز على أن نفس المعاهدة مدت نفوذ الايطاليين بحيث يتسنى السماح لهم ببناء خط حديدى يربط اريتريا بالصومال.

د) البرتغال:

كانت البرتغال أول دولة أوروبية تنشئ اتصالات وثيقة مع القارة الافريقية حيث عرف المستكشفون البرتغليون طريقهم على ساحل الغربى من افريقيا من أجل استكشاف الطريق البحرى الموصل للهند، وكانت لهم تجربة معروفة فى الكونغو لنشر المسيحية لدى الحكام الأفارقة وتكوين تحالفات معهم بهدف الوصول الى جعل أفريقيا قارة تعتنق المسيحية غير أن ما يعنينا الآن هو موقع هذه الدولة الأوروبية صغيرة الحجم رائدة الاستكشافات والإستعمار فى أفريقيا من عملية التخاطف حين بدأت هذه العملية في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر. الواقع إنه حينما حلت عملية التقاسم وبلغت أوجها كانت البرتغال قد أصابها الوهن وتجاهلتها الدول الكبرى واستخفت بدعاواها التاريخية وفى حين كانت موزمبيق تدخل ضمن عملية التنافس الذى تم على مناطق المحيط الهندى فقد ظلت أنجولا (المستعمرة البرتغالية فى غرب القارة) لا تحظى بأى اهتمام من جانب هذه الدول حتى حول الثمانينيات من القرن الماضى

والواقع إنه حين انقشع خطر الامبراطورية الاستعمارية الهولندية عن البرتغال فى وقت مبكر فى ١٦٥٠ تزايد على البرتغال الخطر من جانب كل من بريطانيا وفرنسا، فأثناء الحروب النابليونية كانت البرتغال ترتعد خوفاً من أن تحتل فرنسا موزمبيق، على أننا نستطيع القول بأن مركز البرتغال فى أفريقيا اهتزنتيجة إنعقاد مؤتمر برلين، فقد أنكر المؤتمرون على البرتغال حقوقها فى مصب الكونغو، ولم يتركوا لها الا جيب كابيندا فى منطقة شمالى أنجولا ثم أعقب المؤتمر عقد عدة معاهدات لرسم الحدود بين دولة الكونغو الحر وبين أنجولا ، وعملت البرتغال مرة أخرى باستخفاف واضح أثناء رسم الحدود ثم إذا بالبرتغال تطالب بإقليم كاتنجا والذى أصبح يشكل جانبا من جنوبى دول الكونغو الحرة يلامس انجولا، ولكن ضعف قوة البرتغال وقلة حيلتها فى آثبات

وضع يدها الفعلى على تلك المنطقة تسبب فى اخفاقها فى هذا الطلب، ولم يحل عام ١٨٩١ الا وكانت الحدود قد استقرت على نحو لا ترضى به البرتغال.

ثم تقدم البرتغال على خطوة أكثر جرأة أثارت استعجاب الدول الكبرى وهو مطالبتها فى عام ١٨٨٦ بالاراضى التى تقع بين مستعمراتها فى أنجولا ومستعمرتها الأخرى فى موزمبيق وربما تصورت البرتغال حينذاك أن المانيا أو فرنسا سوف تساعدها فى ذلك ، وربما كانت شديدة التفاؤل من جانبها لتطبيق نظرية الظهير (Hinterland) التى جاءت بها الوثيقة العامة لمؤتمر برلين حسب نص المادة ٣٤، ولكن الدافع على وجه اليقين لهذا المطلب هو خوف البرتغال من الأطماع التوسعية لبريطانيا باتجاه الشمال انطلاقا من مستعمرة الكاب مرورا بهذه الاراضى فى وسط القارة الجنوبى تحقيقا لحلم بريطانيا الاستعماررى بربط الكاب بالقاهرة على أنه قد أعقب ذلك سلسة من المعاهدات بين البرتغال وكل من فرنسا وألمانيا فى الفترة من ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ لرسم الحدود بينها، وتضمنت كافة هذه المعاهدات نصاً يعُطى البرتغال حق مباشرة « حقوق السيادة ونشر الحضارة فى الاراضى التى تفصل بين الممتلكات البرتغالية فى انجولا وموزمبيق» ولكن بريطانيا كانت قد سارعت فى عام ١٨٨٥ باعلان حمايتها على بتسوانا لان (بتسوانا الحالية) وكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى من جانب بريطانيا للتوسع فى المنطقة التى أصبحت تسمى روديسيا وبذلك تكون بريطانيا قد قامت بتحدى المطالب البرتغالية على أساس أن البرتغال لم يكن لها احتلال فعلى (Effective Occupation) فى تلك المنطقة . حسب نص المادة (٣٥) من وثيقة برلين.

ولم يقتصر التحدى البريطانى للبرتغال على الجانب الرسمى فقد نشطت بعثات التبشير والمشروعات التجارية البريطانية لتحدى البرتغاليين كذلك. وفى

عام ١٨٨٨ تمكن وكلاء سيسل رودس داهية الاستعمار البريطانى - من عقد معاهدة مع ملك مجموعة قبائل الميتابيلى تضع بلاده تحت الحماية البريطانية وتمنح شركة جنوب افريقيا البريطانية التى أنشأها رودس حقوق الامتياز لتصدير المواد المعدينة التى تزخر بها تلك المنطقة وفى عام ١٨٩٠ أذعنت البرتغال للأنذار الذى وجهته لها بريطانيا بالانسحاب من المنطقة ولم يحل عام ١٨٩١ الا وكانت الحدود قد رسمت بصورة نهائية بين المستعمرات البرتغالية فى غرب القارة وشرقها وبين روديسيا فى الوسط.

٤ ـ نظم الحكم الاستعمارية في افريقيا(*)

بعد انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥ قامت الدول الأوربية بتقسيم القارة الافريقية الى مستعمرات تابعة لها، وصارت السياسات الاستعمارية ونظم الحكم الغربية هى السائدة فى معظم أجزاء القارة الافريقية، وسوف نحاول عرض لأهم النظم التى سادت فى القارة.

اولا: نظام الحكم فى المستعمرات البرتغالية:

طبقت البرتغال فى مستعراتها الافريقية التى اقتصرت على أنجولا فى الغرب وموزمبيق فى الشرق وغينيا بيساو وفى غرب القارة نظم الحكم المباشرة لأن البرتغال كانت تهدف من وراء هذه المستعمرات تحقيق أهداف محددة تقوم على استغلال واحتكار موارد هذه المستعمرات لصالح البرتغال.

لقد قامت سياسة البرتغال على الإحتكار وسوء استغلال الافارقة لصلاحهم، وارتكز الحكم الاستعمارى البرتغالى على إنشاء وزارة للمستعمرات تتبعها كل المستعمرات الثلاث فى افريقيا، ويعاون وزير المستعمرات مجلس استشارى أعلى للمستعمرات ويعقد مؤتمر عام لحكام المستعمرات فى لشبونه وذلك كل ثلاث سنوات.

ويعتبر الحاكم العام للمستعمرة هو صاحب السلطة الحقيقة الادارية، ويجمع فى يديه كافة السلطات المدنية والعسكرية، كما يقوم بتعيين الموظفين ورجال الحاميات وقادة القلاع والثغور البرتغالية، والحاكم العام مسئول عن تطبيق نظم التعليم والعمل على تحسين أحوال المستعمرة، كما إنه يشرف على الامن

(*) أ. د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم

والشئون المالية والإدارية، وحسب النظام البرتغالى فإن الحاكم العام للمستعمرة يعين لمدة ثلاث سنوات، والى جانب الحاكم العام يوجد المجلس الاستشارى الذى يتكون من ضباط الجيش وبعض المستوطنين فضلاً عن عدد من الموظفين مثل قاضى القاضاه وأعضاء الجهاز الإداري.

وكانت سياسة البرتغال إرسال المجرمين الى مستعمراتها فضلاً عن عدد من الإقطاعيين ورجال الارساليات الذين سعوا للبحث عن الثروات وامتلاك الاقطاعيات واستغلال الأفارقة لصالحهم، وقد تزاوج أفراد هذه الجماعات من سكان المستعمرات ونتج عن هذا طبقة أخرى من المولدين أطلق عليهم الخلاسيين.

ومن الملاحظ أن البرتغال كانت تختار حكام مستعمراتها من البرازيليين لأنها كانت تعلم أن مصالح هذه المستعمرات مرتبط بالبرازيل، وقد برز من هؤلاء البرازيليين الجنرال (سافوردى سا) وهو من كبار الإقطاعيين البرازيليين.

ونظراً لسياسة البرتغال القاسية مع الافارقة فقد إرتفعت أصوات تطالب بالاصلاح واضطرت وزارة المستعمرات الى الاستجابة لهذه المطالب وشكلت لجنة لدراسة الأوضاع فى المستعمرات وكان (أنطونيو أنيز) رئيسا لهذه اللجنة التى طالبت فى تقريرها برفع مستوى المعيشة فى المستعمرات.

ورغم كل هذا فقد واصل الحكام البرتغاليون سياسة فرض السخرة والعمل الإجبارى حتى قيام الحرب العالمية الأولي، واحتاجت البرتغال الى الأيدى العاملة الافريقية وأوقفت شحن الرقيق الى العالم الجديد، وعندما وصل سالازار إلى عرش البرتغال وضع دستوراً جديدا للمستعمرات البرتغالية فى عام ١٩٣٣، وقد أرتكز هذا الدستور على أسس ثلاثة:

أولها :- الفضيلة والاخلاق المثلى بين الشعوب.

ثانيا:- الاحساس بضخامة المناطق التى تسيطر عليها البرتغال.

ثالثا:- العمل على إستخراج كافة موارد المستعمرات.

وظلت البرتغال تمارس الوحشية، بل ومنعت رجال الأمم المتحدة من زيارة الأقاليم البرتغالية. لكنها أضُطرت أمام المقاومة الوطنية والرأى العام العالمى الى إلغاء نظام العمل الإجباري، وخففت العقوبات التى كان يتعرض لها الأفارقة، وأمام موجات التحرر الوطنى أضطرت أخيراً الى الموافقة على استقلال مستعمراتها فى القارة لافريقية حيث حصلت غينينا بيساو على الاستقلال فى العاشر من سبتمبر ١٩٧٤، ثم موزمبيق فى الخامس والعشرين من يونيه ١٩٧٥ وجزر الرأس الأخضر فى الخامس من يولية من نفس العام وساوتومى وبرنسيب فى الثانى عشر من يولية وأخيراً أنجولا فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٧٥، وتلاشت بذلك أطول وأقدم وأخر الإمبراطوريات الاستعمارية الاوربية فى أفريقيا.

ثانيا: نظام الحكم فى المستعمرات الاسبانية:-

بالرغم من أن اسبانيا كانت من أوائل الدول التى إندفعت الى المجال الإستعمارى بل وكانت الدولة الثانية بعد البرتغال إلا أن نصيبها فى المستعمرات الافريقية كان ضئيلاً، وقد إقتصرت مستعمراتها على افنى المغربية والصحراء الأسبانية وجزر كنارى الى جانب غينيا الاستوائية الأسبانية والريف الاسبانى فى المغرب.

وكانت منطقة الريف الأسبانى فى المغرب ضمن المستعمرات الأسبانية بعد معاهدة مع فرنسا لتقسيم المغرب فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٢، وكان الأسبان يوافقون

على أثنين من المرشحين يختار سلطان المغرب أحدهما ليكون خليفة له فى تطوان، ويخضع هذا الخليفة لإشراف الإدارة الأسبانية، وتم فصل المنطقتين الفرنسية والأسبانية من حيث المسائل المالية والضرائب، وصارت أسبانيا الممثل لهذه الأقاليم فى الخارج، وأما منطقتى سبتة ومليلة فقد تبعت حكومة مدريد مباشرة استنادا الى وجود أسبانيا فى هاتين المنطقتين حسب معاهدة الحماية مع فرنسا.

وقسمت أسبانيا هذه المنطقة الخليفية الى خمسة مناطق إدارية هى منطقة تطوان ومنطقة العرائش ومنطقة الناضور ومنطقة شفشاون ومنطقة الحسيمة، وعين لكل منطقة مراقب يتبع نيابة الأمور الوطينة ويشرف على شئون الأمن ومراقبة تصرفات حكام المدن وأتباعهم من الموظفين فى الأحياء.

وشجعت أسبانيا هجرة الأسبانيين الى المنطقة الخاضعة لها فى المغرب- لكنها لم تُحاول إدماج المغاربة معهم مثلما فعلت فرنسا فى المنطقة التابعة لها. ولم تمارس أسبانيا سياسة التفرقة العنصرية مثلما فعلت البرتغال فى مستعمراتها. وحاولت أسبانيا تطبيق سياسة المهادنة حتى أنها صارت قائمة على شدة القبضة الأسبانية فى المغرب وإن كانت ملفوفة فى ثوب من حرير يسمى التعاون.

ومع استمرار الحركة الوطنية فى المغرب والريف الأسبانى- اضطرت أسبانيا الى إنهاء الحماية على المنطقة الخليفية فى أبريل ١٩٥٦ وانتهت الحماية الأسبانية، واتفقت المغرب فى أكتوبر ١٩٥٦ مع الدول التى تتولى إدارة منطقة طنجة الدولية على الغاء هذا النظام ووضعها تحت سيادة مراكش على أن تمارس هذه السيادة فى أول يناير ١٩٥٧.

ثالثا:نظام الحكم البلجيكي في افريقيا:ـ

بعد انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥ حصلت بلجيكا على حوض الكونغو الكبير وظلت بلجيكا تُسيطر على هذا الحوض حتى عام ١٩٢٠ عندما توسعت المستعمرة لتضم إقليمى رواندا وأورندى اللذين كانا يتبعان الإستعمار الألمانى وخضعت تلك المستعمرات لنظام حكم يعتمد أساساً على إستنزاف موارد الكونغو لصالح بلجيكا وضمان خضوع البلاد للحكم الجديد.

ومن هذا المنطق تم وضع نظام إدارى يحقق هذا الغرض حيث وضعت السلطة فى يد حاكم عام، وقسمت بلجيكا الكونغو الى أربعة عشر أقليما يشرف على كل إقليم مندوب يمثل سلطة الدولة فى إقليمة وهو مسئول أمام الحاكم العام.

أما السلطة التشريعية فقد عهد بها الملك ليوبولد الى مجلس مقره بروكسل ويضم الرئيس و بعض المستشارين ولكن الحاكم العام له سلطة إصدار القوانين العاجلة بشرط عرضها على الملك، ولم تحاول بلجيكا إعطاء الفرصة للأفارقة للتدريب على أساليب الحكم، وصارت الوظائف الهامة فى أيدى الأوربيين، ولكن عندما صار الكونغو مستعمرة بلجيكية حكومية فى عام ١٩٠٨ حددت بلجيكا سياستها على أساس رفاهية سكان المستعمرة ورفع مستوى الوطنيين.

و حاولت بلجيكا منح الكونغوليين حقوق المواطنة البلجيكية، وصدر قانون البطاقات الشخصية فى عام ١٩٤٩ لكنه كان معقداً ويتطلب شروطا قاسية ـ وفى مايو ١٩٥٢ صدر قانون تسجيل الكونغوليين لكنه كان أيضا قاسى الشروط ولم يحقق أية نتيجة.

وعندما ما بدأت الحركة الوطنية فى الكونغو حاولت بلجيكا إصدار تشريعات فى عام ١٩٥٧ بإنشاء مجلس المقاطعات ومجالس المديريات والمجلس الاستشارى للكونغو، لكن عدد الافارقة كان ضئيلا. ولذا قامت الأحزاب السياسية تطالب بالاستقلال، واضطر الملك (بود وان) ملك لجيكا الى اصدار بيان بمنح الكونغو الإستقلال وتقرر استقلال الكونغو فى ٣٠ يونية ١٩٦٠، وأجريت إنتخابات تولى بعدها باتريس لومومبا رئاسة الحكومةم لكن الغدر لعب دوره وعزل لومومبا فى سبتمبر من نفس العام ونقل الى كاتنجا حتى قتل فى يناير ١٩٦١.

رابعا: نظام الحكم الإيطالى فى افريقيا:

دخلت ايطاليا ميدان الإستعمار متأخرة، ولم تجد أمامها إلا الفتات بعد أن حصلت الدول الكبرى على معظم أجزاء القارة، ولم تجد أمامها سوى ليبيا وإقليم الصومال الإيطالى ومنطقة إريتريا، وفى عام ١٩٣٥ دخلت اثيوبيا واحتلت العاصمة فى مايو ١٩٣٦ واستمرت بها حتى تحررت وعاد الإمبراطور هيلاسلاس الى عرشه فى عام ١٩٤١، وبعد الحرب العالمية الثانية حرمت ايطاليا من كل مستعمراتها فى القارة.

ولم تحدد ايطاليا سياسة إستعمارية معينة بل كان كل همها الحصول على موارد هذه المناطق لصالح الشعب الإيطالي، ولم يحاول الايطاليون تطوير نظام الحكم أو تدريب الافارقة علي الحكم، وربما يرجع ذلك الى حداثة عهدها بالاستعمار فضلا عن مواجهتها ألوانا كثيرة من المقاومة الوطنية.

وقد اعتمدت ايطاليا على الشركات فى إدارة مناطقها الاستعمارية ولم يحاول الايطاليون الإختلاط مع الوطنيين، بل عاشوا فئة منعزلة مستقلة عن المجتمع،

ولذا لم تتطور هذه المستعمرات الإيطالية، وقد حاولت ايطاليا وضع نظام يخضع البلاد لسلطانها حيث اعتبرت ايطاليا ليبيا جزءا من المملكة الايطالية، وعزلت ليبيا عن العالم العربى والإسلامي، ووزعت الأراضى الخصبة على الإيطاليين، وصادرت الحدائق ونزعت ملكية الأراضى الخصبة.

و بعد الحرب العالمية الثانية قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٤٩م أن تكون ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة فى موعد لا يتجاوز أول يناير ١٩٥٢. أما إثيوبيا فقد أستعادت سيادتها عندما عاد الامبراطور هيلاسلاس الى أديس أبابا فى عام ١٩٤١ وبقى الصومال الايطالى بعد هزيمة ايطاليا تحت الإدارة البريطانية حتى عام ١٩٤٩ وقررت الجمعية العامة فى نفس العام أن يصبح الصومال دولة مستقلة ذات سيادة على أن يسرى هذا الاستقلال بعد عشر سنوات، واستقلت الصومال فعلا فى نوفمبر ١٩٦٠ بعد اتحاد الصومال الإيطالى والبريطانى فى دولة واحدة أطلق عليها جمهورية الصومال.

خامسا: نظام الحكم الألمانى فى أفريقيا:

قبل انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥ لم يكن لالمانيا مستعمرات فى أفريقيا ولكنها كوّنت إمبراطورية فى خلال عامين حيث استولت على ناميبيا (مستعمرة جنوب غرب أفريقيا الألمانية) وفى سبتمر ١٨٨٤ استولت على توجو فى غرب القارة وأخيرا استولت على تنجانيقا فى مايو ١٨٨٥.

بدأ الاستعمار الألمانى فى أفريقيا على أيدى الشركات التجارية التى كان كل همها الحصول على أكبر قدر من الربح بالإضافة الى أن هذه الشركات واجهت مقاومة عنيفة فأضطرت الى التنازل عن مناطق نفوذها الى الحكومة الالمانية.

وكان يحكم كل مستعمرة حاكم عام، وقسمت المستعمرة الى أقاليم يرأس

كل منها مدير يتلقى التوجيهات من الحاكم العام، والى جانب الحاكم العام يوجد مجلس استشارى وأوجدت السلطات الألمانية نظام المجالس البلدية فى بعض المستعمرات، وفى بعضها الأخر مثل رواندا وبورندى طبقت نظام الحكم غير المباشر عن طريق ترك السلطة المحلية فى أيدى رؤساء القبائل الذين يدينون بالولاء للألمان.

واعتمد نظام الحكم الألمانى على قانون المستعمرات الذى صدر فى عام ١٨٨٦، وعدلت بعض مواده فى عام ١٨٨٨ حيث حدد هذا القانون سلطات هيئات الحكم المختلفة وظت مستعمرات المانيا فى أفريقيا تتبع وزارة الخارجية حتى عام ١٩٠٧ وبعدها انشئت وزارة خاصة بالمستعمرات لكنها لم تعمر طويلاً بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى وخروج المانيا صفر اليدين من مستعمراتها فى القارة، وتحولت مستعمراتها الى الدول المنتصرة حيث قسمت توجو بين فرنسا وانجلترا، وقسمت الكامرون أيضاً بين الدولتين، ووضعت تنجانيقا تحت الإنتداب البريطانى بينما تولت بلجيكا الإشراف على إقليمى رواندا وأورندي.

وكانت المركزية الشديدة هى طابع الحكم الألماني، ولم يشترك الوطنيون فى الادارة إلا الذين عملوا فى رئاسة المحاكم الوطنية للفصل فى القضايا الصغيرة.

سادسا: نظام الحكم فى المستعمرات الفرنسية:.

نجحت فرنسا فى أن تفوز بنصيب الأسد من القارة الأفريقية، ففى أوائل القرن التاسع عشر مدت نفوذها الى الجزائر فى عام ١٨٣٠، ثم توسعت واحتلت تونس فى عام ١٨٨١ ومراكش عام ١٩١٢، وامتدت قبل ذلك أنظار الفرنسيين التى موريتانيا والسنغال ومالى والنيجر وداهومى (بنين) وساحل العاج (كوت دى فوار) وفولتا العليا (بوركينا فاسو).

وتوسع الفرنسيون أيضا ومدوا نفوذهم الى ماسُمى بأفريقيا الفرنسية الاستوائية وضمنن تشاد ووسط أفريقيا والكونغو الفرنسى والجابون، أما فى شرق القارة فقد سيطروا فقد على منطقة الصومال الفرنسى (جيبوتي) فضلا عن جزيرة مدغشقر.

وكانت سياسة الإستيعاب إحدى المحاور الرئيسية فى فلسفة الحكم الفرنسى ومؤداها فرض الثقافة الفرنسية ونظم الحكم السائدة فى فرنسا على الآفارقة حتى يستوعبوها فيصبح كيانهم النفسى والثقافى متفرنسا تماماً كالفرنسيين، وتتم هذه العملية عن طريق تثقيف وتربية وتعليم طويلة الأمد تسعى الى قطع صلة الافريقى بتاريخ قومه وحضارتة الافريقية، ثم يبدأ تدريجيا فى استيعاب الثقافة الفرنسية بكل تقاليدها ومظاهرها الحضارية.

وواضح من هذه الفلسفة أنه لا توجد تفرقة على أساس اللون أو العنصر بل على أساس الاستيعاب أو عدمه حيث ميز الفرنسيون بين الأفارقة الذين خضعوا لقانون الأحوال الشخصية الفرنسية فى الزواج والطلاق والميراث و بين الذين لم يخضعوا لمثل هذه القوانين.

و كان هدف فرنسا هو فرنسة جماعية لكل الأفارقة، لكن فشلت هذه السياسة ولم تحقق الغرض المطلوب، وبدأ الكتاب الفرنسيون ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر يوجهون النقد لهذه السياسة، وتبنى (جوليوس هارماند) نظرية المشاركة التى تهدف الى تكوين مجموعة من الأفارقة قادرة على استيعاب الثقافة الفرنسية وهى تحمل أسم (النخبة) وتقوم هذه النخبة بالاتصال الوثيق بالمجتمع الأفريقى وتكون بمثابة رباط بين الثقافة الفرنسية والشعوب الأفريقية. وقد فشلت هذه النظرية فى خلق زعامات أو قيادات

تستوعب الثقافة الفرنسية أو أن تقود جموع الشعب على أساس عاداته وتقاليدة الافريقية.

أما عن التنظيم الإدارى فكانت كل مستعمرة تخضع لحاكم فرنسى يتلقى الأوامر مباشرة من وزير المستعمرات ف بياريس ولكن ثبت أن النظام المركزى ليس عملياً فى إدارة المناطق وبدأالتفكير فى تجميع المستعمرات فى وحدات فيدرالية،وهنا ظهرت أفريقيا الفرنسية الغربية،وافريقيا الفرنسية الاستوائية

ونظراً لفشل السياسات الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية فقد بدأ التفكير فى عقد مؤتمر لحل مشاكل الأفارقة، وانعقد مؤتمر برازافيل فى عام ١٩٤٤ والذى لم يحضره أفريقى واحد، ولم يصدر توصيات محددة لكنة أتخذ بعض القرارات الخاصة بإصلاح التعليم وعلاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية واحترام حرية العمل، وتطوير القوانين التى تسعى للنهوض بالصناعات الأفريقية.

واستعانت الجمعية التأسيسية لوضع دستور ١٩٤٦ بقرارات هذا المؤتمر، ونص الدستور على تكوين الإتحاد الفرنسى من الجمهورية الفرنسية (فرنسا الاوربية ومديريات الجزائر ومديريات ماوراء البحار) وأقاليم ما وراء البحار (مستعمرات أفريقيا) والدولة الشريكة (مراكش وتونس ودول الهند الصينية) والاقاليم الشريكة (مناطق الوصاية الفرنسية فى الكامرون وتوجو).

ونص الدستور على إعتبار جميع الأفراد مواطنين فرنسيين، كما نص على تمثيل الأقاليم الأفريقية فى الجمعية الوطنية الفرنسية.

ومع انتشار القومية الإفريقية وهزيمة فرنسا فى الهند الصينية عام ١٩٥٤

واضطرارها الى التسليم بإستقلال المغرب وتونس بعد ذلك، إنها ر الشكل الجديد وترتب على ذلك تقديم دستور جديد فى عام ١٩٥٨ بعد سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة وتولى ديجول السلطة وقد تقرر فى هذا الدستور:

١ ـ أن تشكل فرنسا مع الدول الأفريقية التى تقبل الدستور رابطة الجماعة الفرنسية وهو إتحاد فيدرالى بين جماعات مستقلة.

٢ ـ للجماعة مجلس تنفيذى من روساء الجماعة لدراسة القضايا الكبري.

٣ ـ نص الدستور على تشكيل مجلس شيوخ من مندوبيين عن برلمانات الدول الأعضاء.

وقام ديجول بجولة فى المستعمرات لشرح أهداف دستوره، وأعلن عن تصويت الراغبين فى الجماعة بالإيجاب ومن يرغب فى الحرية فعلية إبداء ذلك وفعلاً رفضت غينينا البقاء فى الجماعة، فأعلن ديجول منحها الاستقلال فورا فى عام ١٩٥٨.

لم يعمر هذا النظام طويلاً حيث سرت موجة التحرر وإستقلت معظم الدول الأفريقية التابعة لفرنسا فى عام ١٩٦٠ (عام إستقلال أفريقيا)، و لم يبق سوى الجزائر التى حصلت على استقلالها فى عام ١٩٦٢ وجيبوتى التى نالت الإستقلال ١٩٧٧ وينتهى بذلك أخر موقع فرنسى فى أفريقيا.

سابعا: نظام الحكم فى المستعمرات البريطانية:

تنوعت مستعمرات انجلترا فى القارة الأفريقية حيث استولت على مصر فى شمال القارة وفى غرب القارة احتلت جامبيا، وساحل الذهب، وسيراليون

ونيجيريا وفى جنوب القارة استولت على جنوب أفريقيا و بتسوانا لاند وسوازى لاند وباسوتو لاند وروديسيا الشمالية والجنوبية ونياسا لاند، وفى شرق القاره إستولت على زنجبار وكينيا وأوغنده والصومال والسودان ونظراً لهذا التباعد فى المستعمرات ، فقد تنوعت نظم الحكم البريطانية وكان من أشهرها نظام الإدارة غير المباشرة فضلا عن نظام المحمية ونظام مستعمرة التاج وكلها اساليب استعارية حاولت بريطانية التمويه على الافارقة ليسهل لها التحكم والسيطرة على تلك المناطق الشاسعة.

وفى مستعمرة التاج أقام البريطانيون نوعًا من الحكم المباشر، وصار الحاكم يسيطر على البوليس والإدارة أما أشهر هذه النظم فهو نظام الإدارة غير المباشرة التى طبقها اللورد لوجارد بنجاح فى شمال نيجيريا وحدد لهاعدة نقاط تساعد بريطانيا على الإحتفاظ بالحق النهائى فى التشريع وعدم السماح للحكام الوطنيين بتشكيل قوات مسلحة، وقيام بريطانيا بفرض الضرائب ، والتصديق على تعيين خليفة الحاكم المحلى .

وقد ساعد هذا النظام على تقليل النفقات وتوفير الموارد المالية التى يتطلبها إنشاء جهاز إدارى لحكم هذه المستعمرات حكماً مباشراً.

وكان المظهر العام للسياسة البريطانية هو إصدار دساتير متتالية وإقامة مجالس تنفيذية وتشريعية، وقد مرت المستعمرات التى خضعت للحكم البريطانى بخمس مراحل قبل أن تنال الحكم الذاتي: ــ

١ ــ مرحلة الديكتاتورية المطلقة أى تركز السلطات التشريعية والتنفيذية فى يد الحاكم ومستشارية.

٢ ــ مرحلة الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

٣ ـ مرحلة تطوير المجلس التشريعى بحيث يزيد فيه عدد الأفارقة.

٤ ـ مرحلة تطوير المجلس التشريعى كله للأفارقة، ويصبح رئيس الأغلبية رئيسيا للوزراء.

٥ ـ تستقل البلاد فى ظل نظام الكومنولث.

لقد كان هذا النظام البريطانى أفضل النظم التى طُبقت فى القارة الأفريقية لانه لم يحاول القضاء على النظم الوطنية، بل حاول تطويرها بما يتمشى مع السياسة البريطانية، كما أن عدم تدخل البريطانيين فى تقاليد هذه الشعوب ونظمها وثقافتها قد ساعدعلى الحفاظ على هذا التراث الوطنى الذى ألفه الناس وتعودوا عليه فترة من الزمان ـ لكن مهما أختلفت المعايير وتعددت السياسات، وتنوعت نظم الحكم الإستعمارية فإنها فى النهاية أنماط وضعت وهياكل تشكلت وأساليب انتهجت من أجل السيطرة وبسط النفوذ على أبناء القارة الافريقية.

٥ـ الاوضاع العامة للأفارقة *

اذا ما أردنا تناول الاوضاع العامة للأفارقة خلال عصر الاستعمار الاوروبى الحديث، فإننا نستطيع أن نتحدث عن هذا الموضوع عبر مرحلتين اثنتين، المرحلة الاولى منها تتناول أوضاع الأفارقة خلال المرحلة الميركانتيلية، أى مرحلة الاستعمار التجارى الذى اقتصر على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الطريق البحرى بين الغرب الأوروبى والشرق الآسيوى، فضلا عن عدد محدود من المستعمرات البرتغالية والإسبانية والبريطانية والفرنسية والهولندية ثم المرحلة الثانية منها التى تتناول أوضاع الافارقة خلال المرحلة الإمبريالية، والتى صاحبت الثورة الصناعية فى غرب أوربا، والتى بدأت مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأدت إلى عدم اكتفاء الدول الاستعمارية بإحتلال سواحل القارة الافريقية، كما حدث في المرحلة الميركانتيلية، بل بدأت تتوغل فى قلب القارة، حتى استولت عليها بكاملها، مقسمة إياها إلى مستعمرات لها على نحو ما سبق ذكره.

وبينما تمتاز المرحلة الميركانتيلية بأنها استهدفت أساسا استعباد الإنسان الافريقي، وذلك فى إطار تجارة الرقيق بغرض إجباره على الرحيل من القارة والعمل لدى السادة الأوروبيين فى أوروبا أو العالم الجديد، فإن المرحلة الإمبريالية استهدفت الموارد الطبيعية من زيت نخيل ومطاط وقطن، فضلا عن الماس والذهب والنحاس وغيرها، ومع هذا فقد يجوز القول بأن الانسان الافريقى عانى فى المرحلتين معاناة رهيبة، وكان الفارق بين حالته فى مرحلة وأخرى طفيفا. فإذا كانت المرحلة الأولى قد شهدت مآسى تجارة الرقيق، فإن المرحلة الثانية قد شهدت مآسى الممارسات العنصرية. هذا من ناحية.

أ. د. السيد علي أحمد فليفل

ومن ناحية أخرى فقد اختلف مصير كل جهة من القارة عن مصير الأخري، ذلك أن الشمال والشرق وجد الأفارقة فيهما عونا من الدولة العثمانية، التى تحالفت مع القوى المحلية مثل خير الدين بارباروسا فى الشمال وأحمد بن إبراهيم القرين فى الشرق للتصدى للقوى الاستعمارية الأوروبية. أما الغرب والجنوب فلم يجدا عونا خارجيا قط، ومن ثم كان الغرب عرضة لتجارة الرقيق وقنصه، وكان الجنوب عرضة للممارسات العنصرية. وهذا ما سنعرض له حالا.

لـ اوضاع الافارقة فى العصر الميركانتيلي:

منذ وصول البرتغاليين إلى غرب أفريقيا بدأوا فى قنص الرقيق الافريقى ونقله إلى بلادهم وبصفة خاصة على طول الساحل وفى مملكة الكونغو وأنجولا.

ومن سوء حظ الأفارقة أن الدول الأوربية بدأت تغبط البرتغال لما تحققه من مكاسب سواء من تجارة الشرق الآسيوى أو من تجارة الرقيق الإفريقى ـ ولذا تتابعت هذه الدول تحاول أن تحصل على نصيب من تلك التجارة، وأن تشارك البرتغال فى بعض مكاسبها، ولذلك اندفعت الى غرب أفريقيا سفن كل من هولندا وفرنسا وبريطانيا وأسبانيا، وبل والدول الاسكندنافية لتحول تجارة الرقيق من عملية اقتصادية بحتة، تتمثل فى علاقة مباشرة بين تاجر أوروبى يقدم بعض السلع الحديثة للتجار والزعماء الأفارقة، ويتقاضى فى مقابلها التاجر الأوروبى من الزعيم الافريقى الأعداد الملائمة لها من الرقيق، وسن الفيل ، وريش النعام والذهب وغيرها لتصبح هناك عملية قنص للرقيق يقوم به الرجل الأبيض مستخدما الأسلحة النارية، وذلك من خلال توغله في القرى الافريقية، يحاصرها ويأسر فتيانها الأقوياء وفتياتها لإجبارهم على التوجه إلى الحصون والمراكز التجارية على السواحل حتى يتسنى نقلهم إلى أوروبا أو إلى العالم الجديد ليصبحوا رقيقا لدى السادة البيض إلى آخر يوم فى حياتهم.

وتختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذى نقله الأوربيون من أفريقيا إلى أوروبا والأمريكتين طوال الفترة الممتدة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر وحتى إلغاء تجارة الرقيق فى المستعمرات الافريقية فى أواخر القرن التاسع عشر، بل وحتى مطلع القرن العشرين. وإذا كان بعض المؤرخين الأوروبيين يحاولون التقليل من أعداد الرقيق وحجم التجارة الأوروبية فيهم بأنها لا تزيد عن سبعة ملايين نسمة، فإن بعض الباحثين الأفارقة ومنهم الرئيس الغانى الأسبق الدكتور/ كوامى نكروما قدر هذه الأعداد بمائة مليون نسمة.

ولا شك أن حساب حجم تجارة الرقيق الأوروبية عبر الأطلنطى لابد أن يختلف حسب مستهدفات المقدرين لها وميولهم وأهوائهم، إلا أن التقدير الموضوعى لأعداد الأفارقة المنقولين عبر الأطلنطى ينبغى أن يخضع لعدد من الضوابط منها:

١ ـ الفترة الزمنية التى استغرقتها تجارة الرققيق وهى فترة طويلة بلاشك .

٢ ـ سعة السفن التى كانت تنقل الرقيق ومدى تطورها .

٣ ـ الدول التى أسهمت فى هذه التجارة، وعدد السفن المشاركة فيها والحوافز المتوفرة لها .

٤ ـ نظام العمل للأساطيل من حيث احتكار الدول لتجارة الرقيق مثلما كان الحال بالنسبة للبرتغال، أوسماحها بمنح امتيازات للأفراد للعمل فى تجارة الرقيق كما حدث مع «جوميس» الذى أعطته امتيازا بهذا الشأن ، وعمل بعض الدول بنظام الأسهم والشركات الاتحادية مثل شركة الهند الشرقية البريطانية أو نظيرتها الهولندية.

٥ ـ الأهداف المرحلية لكل دولة ، ومدى إسهامها فى هذه التجارة، وأهداف

هذا الاسهام. فدول شمال أوروبا كانت تنقل الرقيق لتبيعه لغيرها ، بينما كانت بريطانيا وفرنسا وأسبانيا تنقله للمستوطنين البيض فى مستعمراتها الامريكية.

فإذا أخذنا ذلك كله فى الاعتبار برزت لنا بضعة تقديرات أخرى لحجم تجارة الرقيق الأطلنطية تتفاوت بين رقم أدنى هو خمسة عشر مليونا من الإفريقيين ، ورقم أعلى هو قرابة السبعين مليونا من الأنفس.

والواقع أننا ينبغى أن نميز بين الأعداد المنقولة من الأفارقة، والأعداد التى يجرى قنصها أصلا. إذ يقدر بعض المؤرخين بأن كل إفريقى يصل إلى الأمريكتين يقابله أربعة أشخاص ماتوا فى مرحلة مختلفة، فواحد مات عند القنص، وواحد مات أثناء محاولته الهروب خلال الطريق بين قريته والحصن الأوروبى على الساحل ، وواحد مات فى هذا الحصن بينما كان ينتظر قدوم السفن الأوروبية التى تنقله إلى الأمريكتين، وواحد أخير مات خلال الرحلة عبر الأطلنطى. ويرى بعض المؤرخين أنه ليس شرطا أن يكون القناصون قد فقدوا أربعة أشخاص فى كل رحلة مقابل كل واحد من الرقيق يصل إلى هدفهم فى الأمريكتين، وأن المحتمل أن يكون المفقودون يشكلون نسبة ٢:١ بالنسبة للذين يصلون إلى ساحل أمريكا. وعلى ذلك فإن أدق التقديرات تتراوح بين الأربعين والستين مليونا وصلوا إلى الساحل الأمريكى وأن نحوا من ستين مليونا قد فقدوا داخل القارة أو فى عمق المحيط الأطلنطي.

ولم تكن تلك هى خسارة أفريقيا الوحيدة نتيجة تجارة الرقيق، وإنما خسر الأفارقة خسائر شتى منها:

١ ـ من الناحية السياسية ترتب على تجارة الرقيق تدمير ممالك أفريقية بكاملها مثل مملكة "المانيكونغو" فى الغرب فى حوض نهر زائير ومملكة لواندا فى أنجولا ومملكة "المونومو تابا " فى موزمبيق فى الشرق .

٢ ـ من الناحية الاقتصادية خسر الأفارقة الشباب الذين يمثلون قوة العمل والإنتاج الرئيسية التى كانت توفر للمجتمع ما يحتاج إليه من دفاع فضلا عن الإنتاج الزراعى والحيوانى .

٣ ـ ومن الناحية الاجتماعية فإن المجتمعات الافريقية أصبحت تعانى من حالة من الفوضى نتيجة الصراعات بين القبائل التى تبغى أسر أعدائها لبيعهم رقيقا، فساءت حالة الأمن .

كذلك فان غياب الشباب أدى إلى شيخوخة المجتمعات ، وإصابتها بحالة من الاكتئاب نتيجة الحزن على فراق الإبن أو الزوج أو الأب ، فصارت تحيا يوما بيوم دون اعتداد كبير بالمستقبل.

وإلى تجارة الرقيق يرجع السبب فى الخلخلة السكانية الموجودة فى ساحل غرب أفريقيا وهو ما أدى إلى وجود فراغ سكانى فيها حتى اليوم، لاسيما فى أنجولا وموزمبيق وحوض نهر زائير.

ب ـ أوضاع الافارقة فى العصر الامبريالي:

وإذا ما انتقلت إلى جنوب القارة حيث نجح الاستعماران الهولندي والبريطانى فى السيطرة على البلاد الواقعة حول رأس الرجاء الصالح والتوسع منها إلى كل من ناتال والترنسفال وأورانج، لكى تجاور بذلك الاستعمار البرتغالى فى موزمبيق، والموجود منذ مطلع العصر الميركانتيلي.

وقد كتب على الأفارقة أن يعانوا فى الجنوب معاناة رهيبة أمام ضغط كل من البريطانيين والبوير، وهو الضغط الذى أدى إلي تحطيم كل الممالك الافريقية، مثل مملكة الاكسوزا ومملكة الزولو، ومملكة الميتابيلي، ومملكة الباسوتو ،

ومملكة البتشوانا وغيرها. ولم يقتصر الأمر على الهيمنة الاستعمارية على مقدرات هذه الممالك،، بل امتد إلى المعاملة غير الكريمة واللاغير الإنسانية التى تطورت إلى ممارسة عنصرية بفيضة.

وتمتاز منطقة جنوب أفريقيا بأمرين أولهما أنها شهدت ثورة صناعية بيضاء شارك بها المستوطنون البيض ـ مع النصف الثانى من القرن العشرين ـ فى الثورة الصناعية التى سادت أوروبا فى نفس الفترة، وبالتالى تطورت العلاقات بين البيض جميعا من ناحية والسود جميعا من ناحية، كعلاقات بين عنصر متحضر حاكم وشعوب سوداء متخلفة زراعية ورعوية وقبلية الطابع، وثانيهما حالة الانقسام الرهيب بين الوحدات السياسية البيضاء: الترنسفال وأورانج البويريتين ورأس الرجاء الصالح وناتال البريطانيتين، وكذلك بين القبائل والممالك الافريقية آنفة الذكر، وصراع الجميع فيما بينهم سواء كانوا بيضا، مثلما حدث فى حرب البوير الأولى ١٨٨١ والثانية ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢، أوكانوا سودا، مثل المواجهات المريرة بين الزولو والاكسوزا أو بين الماشونا والميتابيللي. وهكذا .

ولقد أكد كثير من المؤرخين أنه كانت هناك فروق جوهرية فى طريقة معاملة كل من الانجليز والبوير للأفارقة. والواقع أن الدراسة الوثائقية المتفحصة لا تجد فارقا بين طريقتى الفريقين فى معاملة الأفارقة فى واقع الحياة، سواء فى مزارع البوير أو فى مناجم الانجليز. وفى المناجم والمراكز الصناعية كان الأفارقة يبذلون جهودا جبارة لكى يستفيد بعرقهم المستثمرون الأوربيون ويكونون ثروات ضخمة فى أسرع وقت. كذلك فقد عانت القبائل الخاضعة للحكم البريطانى من ويلات العمل الإجباري.

ومن ناحية أخرى يفخر المدعو القس مرنسكيMerensky عضو جمعية برلين التبشيرية بتحطيم البوير لقوة الأفارقة فى الترنسفال وطردهم شمالا

وجنوبا، وتشتيتهم فى الكهوف والصحاري. ويذكر بول كروجر فى مذكراته بفخر غير خاف أنه نجح فى إحراق بضعة الاف من الأفارقة فى أحد الكهوف الذى اختبأوا به تحت وطأة الأسلحة النارية المصوبة إليهم.

وفى مواجهة الأغلبية الإفريقية اتحد البيض بعنصريهم الرئيسيين البوير والبريطانيين وبدولهم الأربع ترنسفال وأورانج والرأس وناتال. وعلى الرغم من خلافاتهم السياسية وتناقضاتهم الاقتصاددية، فإنهم قد اجتمعوا على ضرورة التعايش معا، والاتحاد ضد الأفارقة.

كذلك فقد تعقدت الحياة الاجتماعية فى جنوب افريقيا بتهجير جماعات مختلفة اليها مثل أبناء ماليزيا ورقيق غرب أفريقيا وجنس الملونين فى الكيب cape Colured people ونمو أجناس مخلطة فيها، مع امتداد الاستيطان الأبيض فى قلب المنطقة وتدميره لكياناتها الافريقية، فى نفس الوقت الذى ينمو فيه ويشتد الإحساس باللون لدى البيض، كنتيجة أولية لمشكلة دفاعهم عن وجودهم الاستيطاني. وكانت مشكلة الدفاع هذه ذات شقين:

الشق الأول منها شق خارجي يتمثل فى إضعاف الملكيات الافريقية والقبائل المحيطة بالوجود الاستيطانى بحيث لا تمتلك ناصية القوة جميعا بما يهدد هذا الوجود، الى أن يحين الوقت لا بتلاع أرضها وإنهاء تنظيماتها الملكية أو القبلية، أو ابقائها مجرد صورة شوهاء، بغية امتصاص حماس الأفارقة، واستغلالها كمونل موحد للتعامل مع الشعوب من خلالها ، وفى هذا ما فيه من استمرار سيطرة البيض بشكل غير مباشر.

والشق الثاني منهما شق داخلى يتمثل فى الرغبة الجارفة لدى البيض فى كبح جماح الأفارقة داخل الوحدات السياسية البيضاء وهم فيها أغلبية كبيرة.

ومن هنا جاء التطور التدريجي في التقنين للعنصرية، بداية من قوانين المرور، وانتهاء بقوانين العزل ، والحرمان من الحقوق السياسية.

ويمكن القول أن التفرقة العنصرية وجدت أرضا خصبة في جنوب أفريقيا بسبب ما آلت إليه الأوضاع على صعيد ملكية الأرض. فقد صار ذلك عاملا خطيرا وأساسيا في تعميق الفوارق بين الأجناس ، بحيث ترتبت عليه نتائج خطيرة على طريق إقرار الفكرة العنصرية وتقنينها في الجنوب الإفريقي.

وقد حافظ البيض على نمط معين من ملكية الأرض يقوم على امتلاك المزارع الأبيض لمساحة شاسعة من الزرض، تصل في المتوسط إلى نحو خمسة الآف إيكر، وقد تصل أحيانا إلى السيطرة على نهير صغير من منبعه إلى مصبه.. وقد درج البيض ، وبخاصة البوير، على استخدام جزء صغير من هذه المساحة كمزرعة للحبوب والفواكه للاستهلاك المحلي، أما بقية المزرعة فتصير مرعى لإعداد كبيرة من رؤوس الماشية، بغض النظر عن كفاءتها في إنتاج الألبان واللحوم والصوف والجلود . وجرت عادة البوير على أن يخصصوا لكل ابن من أبنائهم يبلغ الحلم أعدادا من رؤوس الماشية والجياد، يبدأ بها حياته في منطقة جديدة يتوسع فيها البيض على حساب الأفارقة، ولما كانت أسرة البوير أسرة كبيرة ممتدة، تضم الأجداد والأبناء والأحفاد، ولما كانت الرغبة لدى أفرادها جارفة في الاستحواذ على مزرعة كبيرة فقد سيطر البيض منذ فترة مبكرة من تاريخ المنطقة على مساحات رهيبة من الأرض رغم قلة أعدادهم، بينما صار الأفارقة أصحاب الأرض الأصليون مضطرين إلى التقوقع في معازل صغيرة حشرهم فيها البيض، فصار حشدهم عاجزاً عن توفير الطعام للأفواه المفتوحة، أو المرعى للماشية، وساءت أحوالهم بالتالي، وانخفض متوسط أعمارهم وقبلوا أخيرا أن يعملوا في أرضهم التي استحوذ عليها البيض كأجراء لقاء أجر زهيد.

وترجع فكرة المعـــزل فى الأصل إلى بعض المبـشــرين من أمــثــال الأب الانجليزى جون فيليب إذ نادى بحماية الأفارقة من البوير، وعزل هؤلاء عن أولئك وتهيئة فرصة نمو الأفارقة نموا طبيعيا دون ضغوط البوير. ولم تكن هذه الفكرة إنسانية مجردة، بل تضمنت قدراً من التخطيط الاقتصادى الخبيث يقوم علي أن الفصل العنصرى سيحرم البوير من استغلال الأفارقة في أرضهم. وبهذا تتاح للمستوطنين البريطانيين الجدد في خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، فرصة متكافئة لتوطيد أقدامهم الاستيطانية دون أن يتفوق عليهم البوير، وقد أدى الأخذ بفكرة العزل هذه الى ظهور المعازل الكبيرة Reseres ثم ظهور سياسةالبانتوستانات Bantustans ثم سياسة الأوطان الإفريقية Home-lands والجمهوريات المستقلة الصغيرة الحالية، كنوع من فصم عرى تعاون التجمعات الإفريقية الكبيرة وتفتيتها ليسهل التعامل معها. وعلى الرغم من نجاح البيض فى فرض النمط الذى أرادوه فيما يتعلق بملكية الأرض فقد عرفت جنوب إفريقيا ما يسمى بمشكلة نقص الأرض أو الحاجة إليها Land Hunger ولم يكن معنى هذا أن أرض الجنوب قد ضاقت بأهلها، بل إن البيض كانوا فى جوع شديد إلى ما يمكن أن نسميه الموت تخمة بالأرض، ليس لحاجة حقيقة إليها بل لحرمان السود منها وتوفير فرصة ملكية أرض شاسعة للأبناء.

وقد أبدع دعاة العنصرية البوير نظام التدريب الذى قضى ـ ادعاء بالإنسانية ـ بجمع أبناء الأفارقة المشردين نتيجة الحروب مع البعض، والتى قتل فيها ذووهم، ثم يعهد لكل مزارع بعدد منهم لتدريبهم على أعمال الزراعة والخدمة، وبمعنى آخر لتسخيرهم فى أرضه حتى سن الحادية والعشرين.

ثم أضاف البوير إلى هذه الأنماط الاستغلالية أنماطا أخرى مثل العمل الإجبارى فى أوقات ومواسم الحصاد، وتخصيص خمس أسر إفريقية للعمل فى

أرض كل مزارع بصفة مستمرة، وتكريس عمل السجناء الأفارقة لخدمة المزارعين البيض بالتناوب.

وإذا كان هذا ما كان حادثا فى مجال الزراعة لدى البوير، فإن مثيلا له بل وأشد منه قد تكرر فى مجال التعدين، حيث اكتشف الماس فى مدينة كيمبولى عام ١٨٦٧ والتى ضمتها مستعمرة الرأس إليها، واكتشفت مناجم الذهب فى الراند Rand بجوهانسبرج الحالية فى جمهورية جنوب أفريقيا . وقد توفر المال اللازم لاستثمار هذه المناجم عن طريق ممولين بريطانيين، بينما توفرت العمالة الماهرة بتهجير عمال أوروبيين، أما العمالة غير الماهرة فتوفرت عن طريق تعاقدات جائرة بين أصحاب المناجم البيض والعمال الأفارقة من كافة أنحاء الجنوب بوساطة شركات متخصصة فى هذا الصدد. وفى المناجم ـ كما فى المزارع ـ أجبر الأفارقة على العمل بغض النظر عن قوانين العمل المعترف بها، أو ضمانات الأمن الصناعى فى أعماق الأرض السحيقة، وحرمت جموعهم من أبسط حقوقها الاجتماعية برفض السماح لأسرهم بالإقامة معهم، فيظل أحدهم يعمل لثلاث سنوات متصلة على أمل أن يعود لأسرته ببعض المال..

وهكذا اجتمعت عشرات الآلاف من العمال الأفارقة فى المناجم لتصبح عرضة لقوانين فرضها البيض ونفذوها بدقة. وقد كان العمل الافريقى الرخيص أحد المزايا النسبية للمستثمرين البيض فى جنوب القارة..

ويمكن بنظرة سريعة إلى سيطرة البيض المطلقة على الحياة الاقتصادية لاسيما فى مجالى ملكية الأرض الزراعية وملكية المناجم، أن نؤكد أن سيطرة البيض هذه كانت أحد الاسباب الرئيسية إن لم تكن أهمها على الإطلاق، والتى حدت بهم إلى العمل على تكريس هذا الوضع بالتقنين للتفرقة العنصرية. ولكن هذا التقنين جاء فى مرحلة تالية بعد مرحلة تلمس التبريرات للممارسات البيضاء، والبحث عن وازع أخلاقى يغطى البيض به تصرفاتهم اللاأخلاقية.

ب ـ الأسس الأيديولوجية للتفرقة العنصرية:

أتبع البيض سيطرتهم على مقدرات الأفارقة ببحثهم عن مبررات أخلاقية يغرسونها فى نفوس أبنائهم ويقنعون بها أنفسهم، عملا على استمرار هذه السيطرة ولقد توفرت المبررات للبيض مع كل تجربة تاريخية مروا بها ، ومع تراكم العداء الموروث من حرب وراء حرب بين الطرفين ، وبفضل الضراوة التى خاض بها الأفارقة حروبهم الدفاعية، وغدا البيض يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة فى الجنوب ففضلا عن أنهم بيض أوروبيون مسيحيون متحضرون فإن خصومهم فى مواجهتهم كانوا سودا أفارقة وثنيين متخلفين.. ولقد عملت فئات البيض المختلفة على التمسك بعناصر تميزهم وتفوقهم على الأفارقة، وشأن كل أقلية مالوا إلى التآلف والتماسك، مهما اختلفت فئاتهم فى مواجهة الأغلبية الإفريقية. ولما كانت عناصر تميز وتفوق البيض من مسيحية وحضارة يمكن اختراقها وإسقاطها بتحول الأفارقة إلى المسيحية، وتلقيهم العلم وتقلبهم على مدارج الحضارة، فإن عنصر التمايز الأساسى للأوروبيين كان لون البشرة، على اعتبار أنه لا يمكن اختراقه أو إسقاطه، ثم صار من أهم مقررات العلاقات بين الطرفين فالأبيض رجل متحضر ، والأسود رجل متبربر.

كذلك فلما كان الافريكانرز وهم البوير الهولنديون مدعومين بأصول ألمانية وفرنسية وبإحساس قوى بالتمايز كمستوطنين ولدوا فى القارة ويعتبرون البريطانيين دخلاء عليها كانوا فى الغالب من البروتستنت الكالفنيين. وقد جاءت هجرتهم إلى الجنوب إبان فترة الحروب الدينية فى أوروبا، وقبل عصر الثورة الصناعية، فتمكنت أفكار التعصب الدينى من نفوسهم خلال عزلتهم وحروبهم الافريقية فى الجنوب ووجد هؤلاء فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ما يدعم حملهم السلاح بإعتباره أمرا يرضى "رب الجنود" وما يوجب على العبد

السمع والطاعة أمرا واجب التنفيذ وصارت أمثال هذه الاشارات مبررا لإخضاع الأفارقة فى المزارع والمناجم.

ومن الطريف أن البيض البوير الذين اعتبروا أنفسهم أبناء الله ، بعد أن تمكنوا من الهجرة من مستعمرة الرأس فى ١٨٣٦ هربا من الحكم البريطاني، عقدو المقارنة بين خروجهم هذا وخروج بنى إسرائيل من مصر . ومثلما أن اليهود خرجوا بقيادة موسى عليه السلام هربا من فرعون، فإنهم خرجوا من مستعمرة الرأس بقيادة بيتر ريتيف إلى ناتال والترنسفال هربا من بريطانيا، وهكذا صارت بريطانيا فى نظرهم فرعون ، وصارت بلاد المهجر أرض ميعاد وصاروا هم أنفسهم شعبا مختارا، ومثل اليهود اعتبروا أنفسهم أهلا لرسالة الرب دون غيرهم وصار كل شخص غير كالفينى حتى ولو كان مسيحيا، غير مرغوب فى معيشته معهم.

وبينما صارت كتب المطالعة فى دولتى أورانج والترنسفال تعلم التلاميذ باستفاضة أن للرجل الأبيض الكالفينى رسالة ومهمة مقدسة باعتباره ابن الله فى هذه الأرض الإفريقية، وأنهم قد ابتعثوا فيها لحمل هدايته والمحافظة علي نقائهم، فإن القادة العسكريين لهاتين الدولتين كانوا لا يتورعون مطلقا عن تدمير القرى الافريقية، ونقل قبائل باكملها، من أجل أن تتوفر لأبناء الله أرض تشبع نهمهم، ثم يقومون بعد ذلك بتجميع العمال الأفارقة، حيث يتم إرغامهم على العمل ، وهكذا صارت المبادئ البروتستنتية، ولاسيما الكالفينية منها محددا آخر من محددات العلاقات بين الطرفين الافريقى والأوروبي التى سادت فى الحضارة الأوروبية، وأنتجت الدروينية، والآرية، والنازية، والأنجلوسكسونية، بل والصهيونية بشقيها المسيحى واليهودي، إلى غير ذلك من الفصائل العنصرية الأروبية.

وغذت التجربة التاريخية الفكر العنصرى فى الجنوب بأقوال غدت من ثوابته، كالقول بقدم البيض فى المنطقة، وإرجاع وجودهم الى عصر يسبق عصر الوعى الافريقى بأهمية الأرض ذاتها أوإلى عدم وجود أفارقة فى شبه جزيرة الرأس حين وطأتها أقدام ريبيك ورفاقه، نظرا لوجود الأفارقة فى الشمال. وفى الأسانيد التاريخية للوجود الأبيض فى الجنوب القول بتنازل الملوك والزعماء الأفارقة عن أرضهم للبوير فى أعقاب هجرتهم من مستعمرة كالرأس ، وتوجيههم الضربات المتوالية إلى الأفارقة، ومن ذلك تنازل الملك ديجان عن أرض الزولو. وتنازل ملك السوازى عن شمال الترنسفال. ولقد تمسك البوير بهذه الأسانيد التاريخية رغم وهنها ورغم تناقضها الواضح مع التسلسل التاريخى للأحداث، ومع حق الشعوب الإفريقية فى البقاء على أرضها.

وانطلاقا من هذه الأسس وانعكاسا للأخذ بها، لم يعد يجوز تشجيع الأفارقة على اعتناق المسيحية، لما فى ذلك من تحطيم لأحد الأسس الفكرية للعنصرية. كذلك لم يعد يجوز لديهم مساواة الأبيض بالأسود لا فى الدولة ولا فى الكنيسة، ولا أن يكلف حرس أفريقى أسود بالرقابة على المجرمين البيض، وهكذا وصارت العدالة لدى البويرأمرا مختلفا عنها لدى بقية الشعوب والأمم فى ضوء محددات فكرهم العنصري. فبينما كانت تسيطر عليهم سياسات العنف والقوة وتصبغهم طبيعة عنصرية وعسكرية واضحة كانوا ينزلون بكل أفريقى يعثر معه على سلاح أى سلاح عقوبة رادعة.

كذلك فبينما حرم الأفارقة من حقوقهم السياسية، كانت هذه الحقوق تمنح للبيض منهم الذين يقاتلون السود فى الحروب الوطنية.

ولما كان البيض فى جنوب أفريقيا قد تمكنوا من امتلاك ناصية القوة العسكرية ، وسيطروا على الأرض، وحولوا الأفارقة إلى عمالة فيها ، فقد عملوا

على تكريس هذا الوضع وديمومـتـه ولم يكن ذلك كله ممكنا إلا بفـرض نظم سيـاسيـة تقـوم على ضبط اجتمـاعى مـتنوع الأساليب يكبح بعنف كل طمـوح إفريقي، ويردى إلى الدمار كل تنظيم سياسي، ويعمل على منع الافريقى من أن يرنو بناظريه إلى أبيض متحديا، ناهيك عن قيامه فعلا باتخاذ أية خطوات فعلية فى هذا الصـدد، وهذا مـا حـدث فى كل من جـمـهـوريتي التـرنسـفـال وأورانج ١٨٥٢ ـ ١٩٠٢، وحـدث أيضـا فى مـسـتـعـمـرة رأس الرجـاء الصـالح وفى مستعمرة ناتال.

وقد جاء إصرار البيض على تحقيق السيادة السياسية المطلقة على حساب الممالك الافريقية القائمة. ومنذ بدأ استيطانهم للجنوب فى ١٦٥٢ وعلى مدى قرون ثلاثة قدم الأفارقة مملكة فمملكة وقبيلة فقبيلة فلذات أكبادهم دفاعا عن أرضهم . وقد شهد القرن الأول من عمر الاستيطان الأبيض إخضاع البوشمن والهـوتنتـوت وشـهـد القرن الثـانى إخـضـاع مملكة الاكسـوزا وقـبـائل الجـايكا والجـاليكا والتـمـبـو، شـرق مـسـتـعـمـرة الرأس، وشـهـد القـرن الثـالث إنطلاقـة الاسـتيطان الأبيض على حسـاب ممالك البـاسـوتو والزولو والسـوازى والمتـابيلى والماشـونا والشونا، وآلت هذه الممالك إلى وضعيتها الأولى قبل أن تقوم فيها قـائمة الملكية، وعـادت سيرتهـا الأولى من حيث القـبليـة ونعـراتها والتـفـتت الذى يعقبها، والفوضى السياسية التى تعمها.

إذا كـان النمط الاسـتـعـمـارى الأوروبى فى جنوب أفـريقـيـا ينتـمى إلى ذات الأنماط التى شهدتها أمريكا الشـمـالية، وتشـهـدها الآن فلسطين المحتلة. فلم يرحل المستعمر الأبيض فى مرحلة تصفية الاستعمار، وظل ينشب أظفاره فى الجسد الافريقى فى الجنوب. على أنه لا ينبغى أن يظن أن المستوطنين البيض قد استولوا على المنطقة وسخروا أهلها بسهولة، ذلك أن سيطرتهم الحالية قد

استغرقت قرونا، واقتضى الأمر مساهمة كل من هولندا وبريطانيا فى تدعيم هذا الاستيطان، وفرض المستوطنون حروبا مريرة ضد الأفارقة.

وكالنازية والصهيونية استندت العنصرية الافريكانرية فى الجنوب على سيطرة مطلقة على الأرض والثروة، وعززت هذه السيطرة باستخدام القوة العسكرية، وبررتها بنظرية الشعب المختار، ونظرية النقاء العنصري وفى ظل هذه التبريرات استشرى استخدام كل السبل من قانونية واجتماعية وسياسية لتكريس الأوضاع الجائرة فى المجالات الاقتصادية المختلفة.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن القارة الافريقية خلال عصر المنافسات التجارية الميركانتلية بين الدول الأوروبية شهدت أسوأ ظاهرتين عرفتهما طوال تاريخها المديد ونعنى بهما ظاهرة تجارة الرقيق البرتغالية، وظاهرة التفرقة العنصرية البويرية. وليس معني وصفنا للظاهرة الأولى بأنها برتغالية، وللظاهرة الثانية بأنها بويرية، أن بقية الدول الاستعمارية الأوربية بريئة من الظاهرتين ، بل الحقيقة الساطعة أنها جميعا شاركت فيهما مشاركة فعالة وإن يكن بنسب متفاوته. فحتى الدول الاسكندنافية شاركت فى تجارة الرقيق وحتى بريطانيا ـ زعيمة حركة تحرير الرقيق شاركت فى إقرار التفرقة العنصرية ووطدت حكمها.

والواقع أن أفريقيا عانت على مدى القرون من الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر من الاستعمار الميركانتيلى معاناة رهيبة.. سواء على مستوى فقد الافريقى لحياته أو لأدميته أو لإحساسه بكرامته . وكانت تلك سنة الحضارة الاأربية فى افريقيا.

وأخيراً نلاحظ أن إفريقيا فى العصر الميركانتيلى لم تحتل من الداخل، وإنما استخدمت أوربا الغربية عددا من الحصون والقلاع الساحلية للسيطرة على

طرق التجارة الدولية. كما أن افريقيا كانت مجرد معبر للسفن الأوربية بين كل من الشرق الآسيوى الأقصى وأوربا والأمريكتين، وبذلك كانت أسوأ حالا من بقية الخاسرين فى آسيا وأمريكا اللاتنية. أما احتلال إفريقيا من الداخل، بمعرفة دول غرب أوربا، فقد كان مرتبطاً بعصر استعمارى آخر هو العصر الإإبريالي، وهذا موضوع حديث آخر.

ثانيا ـ حركات المقاومة والتحرير الافريقية *

ا ـ حركات المقاومة الافريقية للاستعمار فى افريقيا الشمالية ونيل الاستقلال*

مدت الدول الإستعمارية نفوذها الاستعمارى الى شمال أفريقية فاستولت فرنسا على الجزائر فى ١٨٣٠ وعلى تونس فى ١٨٨١، وعلى المغرب فى ١٩١٢ وقد اقتسمت النفوذ فيها مع أسبانيا التى كان نصيبها الجزء الشمالى الذى عُرف بالمنطقة الخليفية والتى أطلقت عليها أسبانيا اسم الريف الأسباني، بينما مدت إيطاليا نفوذها الى ليبيا فى عام ١٩١١ .

وقد لقيت هذه الدول الإستعمارية مقاومة عنيفة وهى تعمل لمد نفوذها على هذه البلاد ـ وسنعطى أمثلة لحركات المقاومة الوطنية فى هذه الدول ضد المستعمر.

١ ـ مقاومة الامير عبد القادر الجزائرى للإستعمار الفرنسى للجزائر:(١)

الأمير عبد القادر الجزائرى من أعلام المقاومة فى بلاد شمال أفريقيا، فبعد أن أحتل الفرنسيون مدينة الجزائر وأضطر الداى فى ٥ يوليو الى قبول شروط الفرنسيين التى فرضوها عليه وتسليم المدينة له، إجتمع العلماء وشيوخ الطرق الصوفيةوطلبوا من (الشريف محيي الدين) شيخ الطريقة القادرية قبول البيعه، ورأى الشريف أن ولده عبد القادر الشاب أقدر على حمل هذا العبء وقبل الأمير عبد القادر البيعة، وإتخذ من مدينة (المعسكر) مقراً له، وكان عمر الآمير حين بايعته القبائل فى غرب الجزائر أميراً عليها فى عام ١٨٣٢ ـ ٢٤عاما.

---

* أ.د. شوقى عطا الله الجمل

وقد نظم الأمير شئون إمارته واستولى على تلمسان وفرض حصاراً على الفرنسيين فى (وهران) و(مستغانم) وأضطر القائد الفرنسى الجنرال دى ميشيل (Des Michels) أن يفاوض الأمير، وتم توقيع صلح بين الطرفين فى ٢٨ فبراير ١٨٣٤، وتقرر فى هذا الصلح وقف الخصومه، وإحترام الفرنسيين للدين الإسلامي، وحرية التجارة، وتعيين وكيل لكل طرف لدى الطرف الآخر لتنفيذ الإتفاق.

وآعتبر الأمير عبد القادر هذا الإتفاق بمثابة هدنة مؤقته، كما كان فرصة لكى يجمع الأمير تحت لوائه القبائل التى لم تدخل فى طاعته، ونجح فى بسط نفوذه على غرب الجزائر نفسها، ولما أحست فرنسا بخطورة هذا التحرك ـ بدأت تتعاطف مع القبائل وتعزيها للانضمام إلى جانبها، وعقدت (معاهدة التينة) مع الزعماء المحليين فى ١٦ يونيه ١٨٣٥.

وإعتبر الأمير عبد القادر هذا الإتفاق خارقاً لمعاهدته مع الفرنسيين وتأزمت الأمور وخرجت قوة فرنسية بقيادة الجنرال تريزول (Trizel) إلتقت بقوات الأمير وهُزم الفرنسيون هزيمة نكراء، وأضطرت فرنسا الى إعادة (كلوزيل) مع قوة ضخمة للقضاء على الأمير عبد القادر ـ لكن القوات الجزائرية صمدت أمام هذا الغزو الفرنسي ـ وأضطرت فرنسا الى إرسال الجنرال بيجو (Bugeaud) الى وهران لمقاومة الجزائريين، واستطاع بيجو فك الحصار عن تلمسان، وإنتصر على قوات الأمير عبد القادر فى معركة (نهر سكاك) فى يوليو ١٨٣٦، وأضطت فرنسا فى النهاية أمام عنف المقاومة الى عقد إتفاق جديد مع الأمير عرُف بإتفاق تافنا(Tafna) فى ٢٠ مايو ١٨٣٧ وقد نص علي:

أ ـ اعتراف الأمير بسلطة فرنسا على الساحل، وأرض وهران ومتيجة ومستغانم.

ب ـ إعتراف فرنسا بسلطة الأمير عبد القادر فى تافنا، وتلمسان وتيطري.

جـ ـ للأمير حرية شراء الأسلحة من فرنسا، وللمسلمين حرية إقامة شعائرهم الدينية.

د ـ تعيين وكلاء من قبل كل من الطرفين لدى الطرف الآخر.

وإستطاع الأمير عبد القادر حسب هذه الإتفاق أن يُسيطر على ثلثى الجزائر، وأتاح له الإتفاق فرصة لتنظيم شئونه وتكوين جيشه وإعداده بشكل منتظم .

وسعى الأمير عبد القادر الى تكوين حكومة ـ تختلف عن حكومات الجزائر، التركية السابقة، وإعتمد على نفوذ الطرق الصوفية وكان يُشركهم معه فى قراراته بفتاوى شرعية، وكسب جانب رجال الدين فى الغرب ، وبنى دولته على السماواة وعدم التمييز بين الناس ، واصلح القضاءو أوجد مجالس الاستئناف، وكان حريصاً على تطبيق العدالة ووحد الضرائب وعمهها على الجميع بدون استثناء ، وكانت الضرائب تُجبى عيناً أو نقداً.

ونظم الأمير الجيش الذى وصل عدد جنوده الى حوالى خمسة عشر ألفاً، وكوّن أركان الحرب، وكتيبة الأسرار، وأدخل على الجيش عدة تعديلات، وبنى الحصون وأنشأ داراٍ للسلاح وداراً لسك العملة. وبإختصار حاول الأمير إقامة دولة عصرية إستعداداً للقاء الفرنسيين الذين كانو يتحينون الفرصة للقضاء عليها.

وبالفعل ما أن سويت مشكلات الفرنسيين فى شرق الجزائر باستيلائهم على مدينة (قسنطينه) حتى بدأت فرنسا تفكر فى شروط معاهدة تافنا من

جـديد، وحـدث خـلاف فـي تفـسـيـر بنود المعـاهدة، وقـرر الأمـيـر إرسـال وفدلباريس لحسـم النزاع، لكن حكومة فرنسا أفادت أن المفاوضات فى هذا الشأن من إختصاص حاكم الجزائر، فعاد الوفد الى الجزائر، وكان واضحاً أن القوة هى السبيل الوحيد لفرض ما يريده آلامير، وليلزم الفرنسيين بالإلتزام بشروط المعاهدة.

ولما قام الجنرال الفرنسى (فالي) بجولة إستطلاعية فى سهل المتيجه ـ إعتبرها الأمير خرقاً للمعاهدة، وعزلت فرنسا الجنرال فالى وعينت (بيجو) مكانه، وكان هذا يعنى بداية مرحلة جديدة فى علاقات فرنسا مع ألامير، وبالفعل وضع بيجو نظاماً حربياً جديداً ضد الأمير عبد القادر واعتمد خطة مؤداها شغل الأمير فى معارك متعددة حتى تستنزف قواه البشرية والمادية والإعتماد على سرعة الحركة والتنفيذ.

وحول بيجو الجيش الفرنسى الى طوابير صغيرة وسريعة الحركة، وتخلص مما كان يعوق حركة الجندى من معدات وملابس ثقيلة، وإستطاع فى عام ١٨٤١ أن يستولى على مدينة (المعسكر) عاصمة الامير عبد القادر وخربها الى جانب القرى المجاورة. وفى العام التالى استولى على تلمسان ومستغانم، وعلى أهم المراكز التى كانت خاضعة للأمير فى إقليم وهران، وضيق الخناق على الأمير الذى أضطر إلى الانتقال للصحراء، ولما إشتد حصار الفرنسيين له فر إلى المغرب حيث كان المولى عبد الرحمن يناصره، ولكن هذا لم يمنع الجيش الفرنسى من التوغل فى المغرب، ونشبت معركة (إسلي) فى عام ١٨٤٤ وانتصرت فيها فرنسا، وأضطر المغرب الى توقيع اتفاق مع الفرنسيين فى ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ عُرف باسم (إتفاق طنجه)، وقد نص على عدم تقديم مساعدة من جانب المغرب للأمير عبد القادر .

وبهذا الإتفاق فقد الأمير الدعم المغربي وصار وحيداً في معركته ضد جيش منتظم على أحدث السبل وبقوات أحكمت السيطرة على سواحل الجزائر ومنعت أي دعم يصل للأمير، وتساقطت قيادات الأمير الواحدة تلو الأخرى، ولكنه لم يستسلم وظل يقاوم، وقد إتبع بيجو في حربه ضد الأمير عبد القادر وأتباعه طريقة الإرهاب وإحراق الحقول وإختطاف الأغنام ، ولم يتورع عن إحراق القرى والملاجئ الجبلية التي لجأ إليها السكان فقضى على من فيها جملة.

وقد عبّر بيجو عن خصائص هذه الحرب في مجلس النواب الفرنسي بقوله «يلزمنا أن نقوم بحملة إكتساح كبرى تشبه حملات القوط».

وأخيراً وبعد أن ضاقت به السبل ولم يجد الأمير عبد القادر من نصير يقف بجانبه قرر الإستسلام بعد أن أدى دوراً بطولياً مشرفاً استحق أن يسجله التاريخ بكل إعزاز في تلك الفترة المبكرة من الإستعمار الأوربي لشمال أفريقيا.

وتم إستسلام الأمير في ديسمبر عام ١٨٤٧ بعدهذا الجهاد المرير الذي إستمر قرابة خمسة عشر عاماً وسجن الأمير في حصن فرنسي، وسمح له بالسفر الى دمشق في عام ١٨٥٢ حيث توفى هناك عام ١٨٨٣.

وبإستسلام الأمير تطوى صفحة من جهاد الشعب الجزائرها الى حين ثم تبدأ فترة أخرى تواصل الكفاح ضد المستعمر الفرنسي.

وقد بدأت هذه الصفحة الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية حين إستئنف الجزائريون الكفاح ومن ورائهم الدول العربية خاصة مصر. واستمر الكفاح حتى سقط من الجزائريين ما يقرب من مليون شهيد فـأطلق على الجزائر بلد المليون شهيد. وأخيراً أضطرت فرنسا في مارس ١٩٦١ الى عقد (معاهدة أيفيان) مع المجاهدين الجزائريين وبموجبها إعترفت فرنسا بإستقلال الجزائر.

٢ ـ مقاومة الامير عبد الكريم الخطابى للمستعمرين الاسبان فى المغرب (مراكش)[1]

تصارعت على المغرب العربى (مراكش) ـ بحكم موقعة الإستراتيجى عدة دول هى فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا وإيطاليا، والمانيا ـ وإستطاعت فرنسا أن تعتقد إتفاقات مع باقى هذه الدول حتى تستطيع أن تُحقق أطماعها فى المغرب ، ومن أهم هذه الاتفاقات الاتفاق الودى مع إنجلترا فى عام ١٩٠٤.

وقد تعهدت فرنسا ـ إذا مدت نفوذها الى المغرب ـ أن تُراعى مصالح أسبانيا فيها ـ وفى مارس عام ١٩١٢ نجحت فرنسا فى أن تلزم السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب على أن يوقع إعلان الحماية.

وجرت مفاوضات بين أسبانيا وفرنسا فى نفس العام (١٩١٢) إنتهت بتحديد المنطقة التى وُضعت تحت النفوذ الأسبانى والتى أطُلق عليها اسم (المنطقة الخليفية) ـ وأطلق عليها الاسبان إسم (الريف الأسباني).

ولقد اقترنت المقاومة الوطنية فى هذا إلاقليم الذى كان من نصيب أسبانيا ـ بإسم الزعيم المغربى محمد عبد الكريم الخطابى الذى سجل صفحات رائعة من الكفاح ضد المستعمريين.

ولد الأمير عبد الكريم الخطابى (الوالد) فى منطقة الريف، وكانت قبيلة ورياغل التى تقطن إقليم الريف من أشهر القبائل هناك ، ولما أعلن الأسبان الحماية عام ١٩١٢ على المنطقة وقف الأمير وأعلن رفضه لهذه الحماية.

وكان الأسبان يحتلون من زمن مدن (مليله) ، و(سبته) فإتخذوا منها قواعد للتوسع صوب المناطق التى حدُدت لهم حسب الإتفاق الفرنسى ـ الأسباني.

---

(١) انظر الخريطة المرفقة

وقد حاول الأسبان فى البداية إستمالة الزعماء المحليين ـ فقد حاولوا الإتفاق مع (أحمد بن محمد الريسولي) الذى كان يسُيطر على منطقة (جبالا) فى شمال المغرب ، ولماتصدى للأسبان حاولوا تطويقه فى منطقة جبالا ـ لكن لما ظهر خطر الأمير عبد الكريم الخطابى ـ أضُطر الأسبان التفاوض مع الريسولى وإستمالته لجانبهم ليتفرغوا لمواجهة عدوهم الجديد.

وقد حاول الأمير محمد عبد الكريم الخطابى الإتفاق مع الريسولى ليقفا معاً فى وجه العدو المشترك ـ لكن الريسولى فضل التعاون مع الأسبان وظل كذلك حتى تمكنت قوات الخطابى من دخول (جبالا) وطرد الأسبان منها ووقع الريسولى أسيراً فى عام ١٩٢٥ ومات فى السجن بعد أشهر قليلة من أسره.

أما محمد عبد الكريم الخطابى الذى لقب ببطل الريف فقد تزعم حركة المقاومة المسلحة ضد المستعمرين الأسبان ولم يعترف بمعاهدة الحماية التى فرضها الفرنسيون على سلطان المغرب ولا بالاتفاق الفرنسى الأسبانى على تقسيم البلاد بينهما.

وقد حاول القائد الاسبانى الجنرال سيفستر أن يُجبر الأمير محمد عبد الكريم على الخضوع للأسبان هو وقبائل ورياغل التى يتزعمها دون جدوى، فهاجم القائد الأسبانى بقوات ضخمة فى مايو ١٩٢٠ المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه القبائل بشمال المغرب.

ولم يلق الا سبان مقاومة تذكر من قبائل ورياغل حتى وصلوا إلى أطراف (أنوال) فى مايو عام ١٩٢١ ـ فارسل إليهم الأمير الخطابى يحذرهم من محاولة إحتلال الإقليم ، ولم يكترث القائد الأسبانى لهذا التحذير .

وفى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٢١ حدثت موقعة أنوال الحاسمة فقد

نجح الريفيون المدافعون عن المنطقة فى رد الجيش المهاجم وأوقعوا به الهزيمة وأضطربت صفوفه ـ ونجح الريفيون الذى كانوا يعرفون طبيعة المنطقة الجبلية ووعورة مسالكها فى أن يكبدوا الجيش المهاجم خسائر فادحة وقتل القائد الاسبانى فى المعركة، وواصل رجال الريف مهاجمة القوات الأسبانية المنسحبة وحرروا العديد من المناطق التى كان الأسبان قد استولوا عليها ووصلوا الى اسوار (مليلة) وكلفت أسبانيا الجنرال الاسبانى (بيرنجر) بانقاذ الموقف.

وقد بلغت خسائر الأسبان فى معركة انوال ١٤,٧٧٢ رجلاً ٥٩,٥٠٤ بندقية ، ٣٩٢ مدفعاً رشاشاً، ١٢٩ مدفع ميدان، وبلغ الأسرى ٧٥٠ أسيراً.

وقد شكلت أسبانيا لجنة للتحقيق فى أسباب الكارثه. أما الخطابى ـ فقد عمدالى تدعيم سلطته على المناطق المحرره ورفض لقب (سلطان) وفضل أن يُلقب بأمير الريف، ورفض إنشاء بلاط له ، وظل يعيش فى منازل ريفيه، وأعلن قيام (الجمهوريةالريفية) فى المناطق المحررة، وقرر تأليف (جمعية وطنية) تضع ميثاقاً قومياً ـ وقد قررت الجمعية الوطينة:

أ ـ عدم إلاعتراف بأية معاهدة تمس حقوق المغرب أن تكون لها علاقة بمعاهدة ١٩١٢ مع فرسنا.

ب ـ جلاء الأسبان عن منطقة الريف ماعدا (سبته) و(مليله) التى كانوا يحتلونها قبل المعاهدة الأسبانية الفرنسية فى عام ١٩١٢.

جـ ـ الإعتراف بالاستقلال الكامل للدولة الريفية.

د ـ تأليف حكومة جمهورية دستورية.

هـ ـ تكون (أجادير) عاصمة للجمهورية الريفية ـ وتقرر إختيار علم خاص للجمهورية.

و ـ إنشاء علاقات ودية مع جميع الدول دون تحيز.

ز ـ تدفع أسبانيا للريفيين تعويضاً فى مقابل الخسائر التى لحقت بهم من جراء الغزو الأسبانى.

وقد شعرت أسبانيا بقوة الأمير الخطابى ـ فحاولة فى عام ١٩٢٢ أن تتفاوض معه لعقد صلح بين الطرفين لكن الأمير إشترط للإستمرار فى التفاوض أن تعترف أسبانيا بإستقلال الريف.

وفى صيف عام ١٩٢٤ ـ قرر الأمير الخطابى أن يستأنف الهجوم على الأسبان حتى يُجبرهم على التخلى عن المناطق التى إحتلوها ـ وأوقع عدة هزائم بالأسبان، وشجعت هذه الإنتصارات القبائل التى كانت متردده فى الإنضمام للخطابى ـ على أن تُعلن ولاءها له.

وحتى هذا الوقت كانت فرنسا غير راغبة فى أن تقدم للأسبان أى عون ـ لكن المقيم العام الفرنسى فى المغرب الجنرال ليوتى (Lautey) لم يكن يقر حكومته على سياستها فقد أزعجتة الإنتصارات التى حققها الخطابى وأبرق لحكومته قائلاً «إن دولة إسلامية قوية قوامها قومية الشمال الأفريقية أخذت تنشئ نفسها شمال المغرب الفرنسي، وإن عبد الكريم الخطابى لا يخفى عزمه على مهاجمة المنطقة الفرنسية».

وقد أثارت أقوال ليوتى بأن الثورة القائمة فى شمال المغرب على حدود منطقة النفوذ الفرنسى ـ ليست ثورة قبائل ـ لكنها مقدمة لظهور دولة مغربية موحدة ـ المسئولين الفرنسيين ـ خاصة بعد أن هاجم الريفيون بعض المراكز الفرنسية تأييداً لموقف إحدى القبائل المغربية التى كانت موالية للخطابى فتقرر إجتماع الجنرال ليوتى والجنرال بيتان الفرنسيين مع [illegible]

دى ريفيرا) للإتفاق على ما يمكن أن تقوم به الدولتان فرنسا وأسبانيا سوياً ـ وقد إتفق الطرفان فى يونيو ١٩٢٥ فى مدريد علي:

أ ـ لا تعقد أى من الدولتين صلحاً منفرداً مع قبائل الريف.

ب ـ قبول الريفيين للإحتلال الأسبانى السلمى ـ ويتبادل الطرفان الأسري.

جـ ـ تحقق الحكومتان لقبائل الريف نوعاً من الإستقلال الذاتى تحت سلطة رئيس تختاره هذه القبائل.

د ـ تستمر الأعمال العسكرية ضد الثوار الريفيين الى أن يُعلنوا قبول هذه الشروط.

هـ ـ إذا لم يقبل الريفيون هذه الشروط يتحمل الأمير محمد عبد الكريم الخطابى مسئولية إستمرار النزاع.

وقد أرسل الأمير عبد الكريم الخطابى الى الأسبان فى العاصمة التى اتخذوها لهم فى الشمال المغربى فى (تطوان) يصر على ضرورة إعترافهم بإستقلال الريف كشرط أساسى للدخول فى مفاوضات الصلح ـ لكن الأسبان رفضوا ذلك معتمدين على تأييد فرنسا لهم فى كفاحهم ضد الأمير.

وقد نجحت قوات الريف فى تحقيق بعض الإنتصارات على القوات الأسبانية بل ونجحت فى تحقيق إنتصارات هامة على القوات الفرنسية على الحدودين بين المنطقتين الأسبانية والفرنسية.

ونجحت أسبانيا بمعاونة البحرية الفرنسية فى إنزال إمدادات جديدة لقواتها قرب خليج الحسيمة، وإستطاعه هذه القوات بعد معارك ضارية الزحف علي(أجدير) عاصمة الجمهورية الريفية والإستيلاء عليها.

وأضطر الامير لطلب عقد هدنة لإنهاء النزاع بينه وبين الأسبان والفرنسيين عن طريق المفاوضة وعقد لذلك مؤتمر فى ابريل ١٩٢٦ فى (وجده) على الحدود الجزائرية المغربية ـ لكن الفرنسيين والأسبان فرضوا على الأمير شروطاً للصلح إعتبرها إذلالاً للثورة الريفية وتجاهلاً لما حققه من إنتصارات.

فاستؤنفت الحرب بين الطرفين فى مايو ١٩٢٦ ، وكان الأمير قد إتخذ حصن (جست) مقراً لقيادته بعد سقوط أجادير فوجهت الدولتان المتحالفات ثلاث حملات إتجهت صوب حصن (جست) من ثلاث جهات مختلفة. ونجحت الرشاوى والوعود التى قدمتها الدولتان لبعض زعماء القبائل فى صرفهم عن مساندة الأمير فى هذا الموقف العصيب، وسقط الحصن فى ٢٢ مايو ١٩٢٦.

ولجأ الأمير الخطابى الى الخطوط الفرنسية، وسلم نفسه للفرنسيين، ونفى لجزيرة ريئون الفرنسية.

وهكذا إنتهت الحرب الريفية، وأصبحت المنطقة الأسبانية من المغرب تخضع لأول مرة فى تاريخها لحكم أجنبى فعلى هو الحكم الأسباني.

٣ ـ مقاومة عمر المختار للمستعمرين الإيطاليين:[١]

ولد عمر المختار فى عام ١٨٦٢ ـ وهو من قبيلة المنفه، وقد توفى والده عندما كان يقوم بأداء فريضة الحج فى سنة ١٢٢٤ هـ ـ ١٨٧٧م، وأوصى به والده فى لحظة إحتضاره الشيخ الغريانى من أعيان بنغازى ـ فبعد عودتهم من الحج أرسله الشيخ الغريانى إلى واحة جغبوب حيث كان السنوسيون قد أتخذوها مركزاً لدعوتهم الإسلامية الإصلاحية اليقيموا بها ـ فإلتحق بالمدرسة القرآنية بالمركز السنوسي ثم إنتقل الى واحة الكفرة بصحبة السيد المهدى السنوسى

(١) أنظر الخريطة

(١٨٥١ ـ ١٩٠٢) الذى خلف أباه السيد محمد بن على السنوسى الكبير المؤسس الأساسى للسنوسية ـ فى الدعوة.

لكن عندما توفى شيخ زاوية القصور من زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر بشمال ليبيا ـ إختاره المهدى شيخاً لهذه الزاوية ثم إختاره المهدى السنوسى ليتولى قيادة بعض القبائل التى وقفت فى وجه الفرنسيين فى واداى ثم عاد بعد ذلك الى زاويتة الأصلية (القصور).

ومنذ بدأ الايطاليون يوطدون أقدامهم فى ليبيا فى عام ١٩١١ بدأجهاده ضد الوجودالإيطالى هنا بعناد وإصرار حتى فى الفترة التى إتفق فهيا السمنوسيون والايطاليون على عقد هدنة بين الطرفين (١٩١٧ ـ ١٩٢٢).

وبإستيلاء الفاشيين على الحكم فى إيطاليا فى اكتوبر ١٩٢٢ ـ وإعلانهم نقض إتفاقات الصلح المعقودة مع السنوسيين وشنهم حرباً برية وجوية وبحرية على المناضلين الليبيين ـ أضُطر الأمير السنوسى للإنسحاب لمصر تاركاً امر قيادة حركة الكفاح فى برقة للسيد عمر المختار فأصبح رئيسا لجميع (الأدوار).

وسقطت مدن طرابلس الواحدة بعد الأخرى فى يد الإيطاليين ، وأضطر عدد كبير من المجاهدين الليبيين للخروج من بلادهم الى تونس ومصر للدفاع عن قضية بلادهم فى الخارج بينما بقيت حركة المقاومة الداخلية مستمرة فى الداخل يتزعمها السيد عمر المختار.

وقد نظم عمر المختار حركة المقاومة ففرض على القبائل عدداً من المقاتلين، وقدراً من المال لدعم حركة الجهاد، وقد حرص الإيطاليون ـ بالإتفاق مع الإنجليز على قفل باب الإمدادات والنجدات التى كانت تأتى للمجاهدين من مصر، فمدت

الأسلاك الشائكة بطول الحدود بين ليبيا ومصر بطول ٢٧٠ كيلو متراً ، وأقيمت حصون لمراقبة هذه الحدود ، وجرت مفاوضات بين الوزارة المصرية التى كان يرأسها (إسماعيل صدقى باشا) وبين الإيطاليين - إنتهت بالإتفاق فى ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥ على ترك واحة الجغبوب للإيطاليين مقابل تنازل إيطاليا على بئر فى جهة السلوم لمصروبموجمب هذا إلاتفاق أصبحت إيطاليا تبسط نفوذها على مراكز السنوسيين فى الجنبوب وكان هذا بالطبع مخيباً لأمال السنوسيين وقد قوبل هذا بإنتقاد الاذع من كثير من الكتاب العرب والمصريين.

وشهدت الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٢٩ محاولات مستميته من الإيطاليين لاخضاع ليبيا نهائياً لحكمه واستخدموا وسائل العنف وقامت طائراتهم بضرب الأهالى من الجو بقصد إرهابهم وحملهم على إعلان خضوعهم لإيطاليا دون جدوي.

وفى عام ١٩٢٩ عُقدت هدنة بين الطرفين رغبة فى الوصول الى صلح، وأصدر (بادوليو) الذى كان والياً عاما على طرابلس - منشوراً فى ٩ فبراير ١٩٢٩ يعد فى أفراد المقاومة الليبية بالعفو إذا ألقوا سلاحهم - وهدد بالبطش بكل من يرفض إلاستسلام.

وفى ١٩٢٧ وصل جرازيانى (Graziani) الى بنغازى - بعد تعيينه حاكماً لبرقه، وكان من أكثر القواد الإيطالين عُنفاً وقسوة ووحشية - فرسم سياسة صارمة لوضع حد للثورة الوطنية وللقضاء على المقاومة للإستعمار الإيطالى - فصادر جميع الأسلحة التى كانت مع أفراد الشعب، وأنشأ (المحكمة الطائرة) التى كانت تنتقل بكامل هيئتها جواً الى مختلف أرجاء برقة لمحاكمة من يُتهم بالاشتراك فى أى عمل ضد السلطات الإيطالية - على مشهد من الأهالى وإصدار أحكامها بالإعدام التى كانت تنفذ فى الحال.

كـذاك أقفل الزوايا السنوسية كما إتجه الى جمـع الأهـالى وحشـرهـم فـى معتقـلات جمـاعية أو طـردهم من أراضيهـم أو مراعيهـم الى المناطق القاحلة ، وتـرك لرجـاله الحـبل على الغـارب فى البطـش والفـتك دون رادع، وشكل جرازيانى مـجمـوعات صـحـراوية سـريعـة الحـركـة لمطاردة الأعراب والقـضـاء على مصادر رزقهم.

وركز جرازيانى جهده على تضييق الخناق على عمر المختار والبقية الباقية من المخلصين الذين بقوامعه رغم نضـوب مصـادر تموينهم، د أخـذت منطقة الجبل تفرغ من سكانها فأصبحت صحراء قاحلة خالية من الحياة بعد أن نزح السـكان فـى أفـواج مـتـتـاليـة جـارين قطعـان أغنامـهم وإبلهم وحـاملين مـعـهم أمتعتهم وخيامهم.

وقد أصر جرازيانى على تعقب عمر المختار وأتباعه حتى لا يترك له لحظة واحدة يسترد فيها أنفاسه ـ فأصبح البطل المكافح عجوزاً طريداً بينما طائرات العدو تحلق فى أجواء الجبل وتكشف مجاهله فيحاول هو وأتباعه الإختفاء من كهف الى كهف ومن غابة الى أخري.

وفى فجر يوم ١١ سبتمبر تمكنت الطائرات الإيطالية من رصد مجموعة من الخيالة تقرب من الخمسين فارساً متجهة صوب مرسى سوسه ـ فأخطر سرية للصـوارى التى انتلقت على الفور فى مطاردة المجـموعـة ، وحـاولت مـجـمـوعـة المجـاهدين الهـرب نحـو غـابة شنشن وسط خمـائل بعض الأشـجـار القـزميـة المتشابكة ـ لكن حالة جياد المقاومة التى ظلت فترة طويلة مرهقة بدون راحة ولم تنل علف كاف ـ حالت دون إفلاتهم ـ فأدركتهم الصواري، وأصيب جواد عمر المختار إصابة قاتلة.

وأقُتيد عمر المختار تحت الحراسة صوب مرسى سوسه، وفى يوم ١٢ سبتمبر نقل الى بنغازى على متن طائرة، ووصل نبأ أسره الى بادوليو الذى كان فى ذلك الوقت فى إيطاليا، ولم يتردد عن المطالبةبقطع رأس هذا البطل العجوز الذى كان يبلغ من العمر ٧٣ عاماً ـ فأرسل برقية الى الوكيل الدائم لوزارة المستعمرات يقول فيها «إذا ثبت أن المقبوض عليه هو عمر المختار بعينه أرى من الأنسب إجراء محاكمته، واصدار الحكم عليه الذى سيقضى بدون شك بإعدامه».

أما جرزيانى الذى كان موجوداً فى روما ويتأهب للسفر الى باريس ـ فقد أسرع للعودة الى بنغازي

وقد جرت محاكمة صورية للسيد عمر المختار ـ فقد كان الحكم قد صدر ضده بالإعدام قبل المحاكمة.

ففى برقية ثانية من بادوليو الزى كان قد طار الى روما ـ الى جرازيانى ذكر «تحدثت الى وزارة المستعمرات أعدوا العدة لإجراء محاكمته جنائياً على الفور، ولا يمكن أن تنتهى المحاكمة إلا بصدور حكم الإعدام، حسب الأعراف المحلية ـ رتبوا تنفيذ الإعدام داخل أكبر ميادين إعتقال الأهالى المحليين».

وقد جرت عمليةشنق عمر المختار فى يوم ١٦ سبتمبر على مشهد من ٢٠,٠٠٠ شخص من المتيلن والأعيان أستدعوا خصصياً لهذه المناسبة وذكر جرازيانى «إن هذه العملية أحدثت إنفعالاً شديداً فى جميع الحاضرين».

ويذكر (جورموروشا) الذى نشر مجموعة البرقيات بين المسئولين الإيطالين فى ليبيا ووزارة المستعمرات فى هذه الفترة «إن هذه العملية الصاخبة والمثيرة كانت تتويجاً يتناسب مع سياسة إتسمت بالإضطهاد والقمع الوحشي، إن

فرنسا تلك الدولة الإستعمارية كانت اكثر تبصراً وحكمة فقد عرفت كيف تتحاشى إصدار حكم بالاعدام على قائدين مشهورين - هما عبد الكريم الخطابي، وعبد القادر الجزائرى ، اما ايطاليا الفاشية - فليس من شيمها أن تتخلى عن الثأر رغم الفوائد التى كانت تجنيها لو هى عفت عنه أو عاقبته بطريقة أخرى بدلاً من تحويل زعيم عجوز ناهز السبعين الى شهيدلقضية إستقلال العرب والعقيدة الإسلامية كا أصبح بالفعل».

بعد عرضنا لحركات المقاومة الافريقية للاستعمار في دول شمال افريقيا يمكننا الآن ان نتحدث عن استقلال هذه الدول وقيام حكومات وطنية فيها.

ثالثاً- إستقلال دول شمال افريقيا وقيام حكومات وطنية فيها

وقعت دول شمال أفريقيا تحت السيطرة الإستعمارية الأوربية - وكان لفرنسا نصيب الأسد فقد مدت نفوذها الى الجزائر فى عام ١٨٣٠، وتونس ١٨٨١ والمغرب الأقصى فى عام ١٩١٢، وقد تركت الجزء الشمالى (الريف) لأسبانيا، أما إيطاليا فقد مدت نفوذها فى عام ١٩١١ الى ليبيا.

وقد ظهرت فى هذه البلاد شخصيات بطولية حاولت كما شرحنا من قبل مقاومة المستعمرين الغزاة - لكن تغلبت الأسلحة الحديثة على المحاولات البطولية وظلت هذه الدول ترزح تحت نير الإستعمار الأوربى حتى ظفرت أخيراً باستقلالها وقامت بها حكومات وطنية.

وسنتتبع بإيجاز الحركات الوطنية التى قامت بهذهالبلاد حتى نالت إستقلالها.

ا- الحركة الوطنية الجزائرية

إستفادت الحركة الوطنية الجزائرية من الحرب العالمية الأولى لأسباب:

١ ـ فقد اشترك عدد كبير من الجزائرين فى صفوف الحلفاء ، وأتاح لهم ذلك فرصة إداراك الأوضاع فى البلاد الأخري، وإختلافها عن الأوضاع فى بلادهم.

٢ ـ أحيت مبادئ الرئيس الأمريكى ولسون، وغيرها من وعود الحلفاء أثناء الحرب الأمل لدى الجزائريين فى الحصول على إستقلالهم.

٣ ـ توقع الجزائريون أن تكافئهم فرنسا على جهودهم معها أثناء الحرب بمنحهم حقوقهم الطبيعية لكن فرنسا حنثث بعد الحرب بوعودها.

وقد تشكلت فى الجزائر عدة جماعات لقيادة الحركة الوطينة من أبرزها:

١ ـ كتلة المنتخبين الجزائريين:

أسسها الأمير (خالد محيي الدين) من بعض أعضاء المجالس البلدية المنتخبين، وقد طالبت بأن تكون للجزائر شخصيتها الخاصة فى المجال الثقافى الإجتماعي، وأن توقف هجرة المستوطنين، ويساوى بين الوطنيين والمستوطنين فى الحقوق المدنية والسياسية.

٢ ـ انصار الإندماج:

كان على راسهم فرحات عباس، وابن جلون والأخضرى، وكانوا يُنادون بالإندماج الكامل بين المواطنين والمستوطنيين ـ وذلك لتحقيق المساواة بين الإثنين.

٣ ـ جماعة العلماء الجزائرين:

بدأت بداية دينية بهدف المحافظة على العقيدة الإسلامية، وقد تركز نشاطها فى إنشاء المساجد، والمدارس لتدريس اللغة العربية.

٤ ـ جبهة نجمة شمال افريقيا:

أسسها (معالى أحمد بن الحاج) ودعت الجبهة الى الإستقلال الكامل للجزائر، ولما حلت السلطات الفرنسية الجبهة ـ شكل معالى أحمد بن الحاج ـ حزب الشعب الجزائرى ليتابع الكفاح.

٥ ـ الحركة الوطنية لجزائرية اثناء الحرب العالمية الثانية:

طالب (فرحات عباس) وبعض الزعماء الجزائريين بإتاحة الفرصة للجزائريين للإشتراك فى حين فرنسا الحرة كما تقدموا للجنرال (كاترو) الذى عينه الجنرال ديجول حاكماً عاماً على الجزائر بمطالب الجزائرين التى تتلخص فى إشراك المواطنيين فى حكم بلدهم، وجعل التعليم الإبتدائى إجبارياً، وتنظيم إتحاد لدول شمال أفريقيا الثلاثة ـ الجزائر، وتونس، ومراكش ـ لكن رفض الحاكم العام الفرنسى هذه المطالب .

٦ ـ ثورة قسنطنية (١٩٤٥):

قامت الثورة فى مختلف مدن إقليم قسنطنية وأدى تدخل المستوطنين وقوات الجيش الى مذتجة قتل فيها أكثرمن ٨,٠٠٠ قتيل، وقد نجحت القوات الفرنسية فى قمع الثورة وحكم على عدد من الموطنين بالإعدام.

٧ ـ القانون الاساسى (١٩٤٧):

صدر فى عهد الجمهورية الرابعة لإرضاء العناصر الوطنية، فقد نص على المساواة بين المواطنيين والمستوطنين، وإستخدام اللغة العربية فى المدارس الى جانب الفرنسية، كما نص على تشكيل مجلس لمناقشة الميزانية وإصدار اللوائح المحلية ويكون نصف أعضاء المجلس من الجزائريين.

٨ ـ ثورة (١٩٥٤):

بدأت على شكل سري، وقد تحدد يوم أول نوفمبر ١٩٥٤ لبدء الثورة.

وتشكلت (جبهة التحرير الوطني) وحددت أهدافها فى العمل لتحقيق إستقلال الجزائر، وتدويل القضية الجزائرية، وربط الحركة الوطنية فى الجزائر بحركة النضال فى مختلف اقطار المغرب.

وفى ٢٠ أغسطس ١٩٥٦ عقُد فى (وادى الصمام) مؤتمر لرسم سياسة المستقبل، وإتخذ المؤتمر قرارات هامة ـ منها إنشاء مجلس وطنى لإعطاء جبهة التحرير ـ صفة نيابية ووضع نظام خاص لجيش التحرير وتقرر إصدار مجلة (المجاهد الحر) وبحث المؤتمر وضع المستوطنين بعد الإستقلال.

وفى عام ١٩٥٨ أعُلن تشكيل حكومة مؤقتة للجزائر أختير لرئاستها (فرحات عباس).

وقد وجهت الثورة ضربات قوية للفرنسيين خاصة فى منطقة القبائل شمال قسنطينة ومنطقة جبال الأدراس.

وقد حاولت فرنسا القيام ببعض الإصلاحات الإجتماعية، وإتاحة الفرصة للجزائريين لتولى المناصب العليا، وذلك فى محاولة لإنهاء الثورة دون جدوي.،

وفى عام ١٩٥٦ تقرر عقد مؤتمر فى تونس يحضره مندوبون عن أقطار المغرب العربى وممثلون عن جبهة التحرير الجزائرية لكن الحكومة الفرنسية ساهمت فى إفشال المؤتر بالهجوم على الطائرة التى كانت تنقل الوفد الجزائرى برئاسة بن بللا وأعتقلت أعضاء الوفد.

وفى نهاية أكتوبر ١٩٥٦ اشتركت فرنسا فى العدوان الثلاثى على مصر إنتقاماً من مساعدتها مادياً وأدبياً للجزائريين بالإضافة الى إعلان مصر تأميم قناه السويس.

٩ ـ قيام الجمهورية الخامسة فى فرنسا واثر ذلك على مشكلة الجزائر:

بعد أن تولى ديجول رئاسة الجمهورية ـ أعلن دستور ١٩٥٨ الذى تقرر بموجبة منح المستعمرات الفرنسية الإستقلال على أن تكون ما عرف (بالجماعة الفرنسية)،

وترتبط بفرنسا بعلاقات إقتصادية وغيرها ـ لكن الجزائر لم توضع داخل نطاق هذا المشروع وقد أصدر ديجول فى سبتمبر ١٩٥٩ تصريحاً بأن من حق الجزائريين تقرير مصيرهم وأن يختاروا شكل العلاقة التى تربطهم بفرنسا.

١٠ ـ اتفاقات إيفيان وإعلان قيام الجمهورية الجزائرية:

طلبت الحكومة الفرنسية من جبهة التحرير الجزائرية فى عام ١٩٦٠ إرسال مندوبيين عنها للتباحث ـ وسافر وفد الجبهة الى (ملان) قرب باريس.

وقد أجرى الرئيس الفرنسى ديجول إستفتاءً فى فرنسا بخصوص سياسة المفاوضة مع الثوار الجزائريين للوصل لحل للمشكلة الجزائرية ـ فأيد ٧٠٪ من الفرنسيين سياسة المفاوضة، وقد قام بعض العسكرين الفرنسيين وبعض المستوطنين بحركة تمرد للإستيلاء على السلطة فى الجزائر لكن الحكومة الفرنسية قمعت الحركة.

وقد رأس وفد المفاوضات الفرنسى ـ وزير الدولة لشئون الجزائر، ورأس الوفد الجزائرى ـ كريم بلقاسم وقد برزت مشكلات أثناء المفاوضات أهمها:

أ ـ ضمانات الإستفتاء على تقرير المصير.

ب ـ وضع المستوطنين فى الجزائر بعد الإستقلال.

جـ ـ مشكلة الصحراء الكبرى خاصة بعد إكتشاف النفط فيها، وقد انتهت المفاوضات باتفاقات أبرمت فى ١٩ مارس ١٩٦٢ وفى يوم الخامس من يوليو ١٩٦٢ أعلن قيام الجمهورية الجزائريه

وقد نادى عدد من الزعماء فى دول المغرب العربى بالعمل لتحقيق فكرة (المغرب الكبير) وقد أسفرت الجهود المبذولة عن قيام (الإتحاد المغربي).

٢ ـ الحركة الوطنية فى تونس وقيام الجمهورية التونسية

تأثرت الحركة الوطنية فى تونس بالحركة النشطة التى ظهرت فى المشرق العربى والتى تزعمها جمال الدين الأفغانى والتى أطلق عليها تعبير (العروة الوثقي)، والتى كانت تهدف لتحرير العالم الإسلامى وتوحيده، كما تأثرت بالحركات الوطنية فى الدولة العثمانية بإعتبارها دولة الخلافة.

وفى وجدت هذه الحركات تجاوباً كبيراً بين الأوساط التونسية خاصة علماء (جامع الزيتونه).

كما كانت لزيارة الإمام (محمد عبده) لتونس فى الفترة من ٦ نوفمبر ١٨٨٤م الى ٤ يناير ١٨٨٥ أثرها، وقد أسس محمد عبده أثناء هذه الزيارة فرعاً لجمعية العروة الوثقي.

وفى البداية إتجهت الحركة الوطينة التونسية الى إيجاد جيل مثقف، وقد لعب معهد ابن خلدون، وجامع الزيتونه دوراً هاماً فى هذا المجال.

وقد مرت الحركة الوطنية التونسية فى مراحل منها:

١ ـ تاسيس حزب تونس الفتاه على يد (على باشن جانبه)

أسس الحزب فى سنه ١٩٠٨ على يد (على باش جانبه)، وجاء تأسيسة إثر قرار السلطات الفرنسية فى ١٩٠٧ منح اليهود المستوطنين فى تونس الجنسية الفرنسية

وقد أنشأ الحزب جريدة (التونسي) بالفرنسية ثم صدرت لها طبعة عربية وقد تدعم مركز حزب تونس الفتاة بإنضمام الشيخ عبد العزيز الثعالبى إليه.

وقد وقعت حادثتان عجلتا بالإصطدام مع الفرنسيين ـ هما حادثة (مقبرة الجلاز) الواقعة جنوب العاصمة التونسية، وإتجاه السلطات الفرنسية فى عام ١٩١١ للإستيلاء على جزء منها وتخصيصه للأوربيين وجاء إضراب عمال الترام التونسيين فى ٩ فبراير ١٩١٢ للمطالبة بالمساواة فى الأجور وغيرها مع زملائهم إلا يطاليين والفرنسيين ليزيد من حدةالصراع.

واضطرت السلطات الفرنسية للخضوع لمطالب العمال التونسيين لكن هذه السلطات عمدت فى مارس ١٩٦٢ الى نفى زعماء تونس الفتاه خارج تونس على أساس أنهم يحرضون العمال على الإضراب.

٢ ـ طرح القضية التونسية على مؤتمر الصلح فى باريس بعد الحرب العالمية الاولي:

طار وفد تونسى على رأسة (عبد العزيز الثعالبي) الى باريس لطرح مطالب الشعب التونسى وفى مقدمتها المطالبة بدستور لتونس، ، وقد إدعى الفرنسيون أن الوفد التونسى غير مفوض للحديث بإسم الشعب.

وقد ألف الثعالبى كتاباً أسماه (تونس الشهيدة) شرح فيه الأوضاع فى تونس فى ظل الإستعمار.

وحاول المقيم العام الفونسى لوسيان سان (Losyan San) تهدئة التونسيين فأجرى بعض الإصلاحات، ورفع الاحكام العرفية عن البلاد.

وفى ابريل ١٩٢٢ زار الرئيس الفرنسى ميلران (MeLeran) تونس ـ ووعد بتنفيذ مطالب التونسيين لكن لم يحدث أى تغيير يذكر فى السياسة الفرنسية

٣ ـ تأسيس الحزب الدستورى فى تونس:

شكل بعض الشباب المثقف التونسى منهم (أحمد الصافي) و (صالح فرحات) و(عبد الرحمن اللزام) و(البشير العتابي) حزباً أطلقوا عليه إسم الحزب الدستوري.

وحددوا أهداف الحزب في:

١ ـ إنشاء مجلس تشريعى يشترك فيه التونسيون مع الفرنسيين.

٢ ـ إقامة حكرمة مسئولة أمام هذاالمجلس.

٣ ـ الفصل بين السلطات التشريعية، والقضائية، والتنفيذية.

٤ ـ المساواة بين التونسيين والفرنسيين فى مختلف المجالات.

٥ ـ حرية الصحافة والإجتماعات.

وعلى الرغم من أن هذه المطالب كانت قاصرة عن المطالب التى أوضحها الشيخ الثعالبى فى كتابه ـ لكن لم يرفض التعاون مع الحزب.

وسافر الثعالبى الى باريس للمطالبة بقيام حياة دستورية فى تونس، وعرض باقى مطالب الشعب التونسى على الحكومة الفرنسية.

لكن بناء على طلب المقيم العام الفرنسى فى تونس فلاندان (Lewes Va-landan) إعتقلت الحكومة الفرنسية الثعالبى وأتباعة ولم يفرج عن الثعالبي، وأتباعة إلا بعد بضعة شهور فعاد الى تونس حيث تولى الثعالبى رئاسة الحزب، وعين أحمد الصافى أميناً له.

وقد سافر الباى (محمد الناصر) لعرض المطالب الوطنية للشعب التونسى كما عبر عنها الحزب الدستورى. لكن فرنسا عمدت الى التفرقه بين الباى والوطنيين والوقيعة بينهم.

وفى ٢٥ يونية ١٩٢٤ ـ أنشأت فرنسا (المجلس الكبير) الذى يتألف من قسمين ـ قسم فرنسى يمثل المستوطنيين، وآخر تونسى ـ لكن رفض الحزب الدستورى هذا الإجراء وأصر على مطالبه السابقة.

وقد حاولت فرنسا محو الشخصية التونسية المميزة بتسهيل الحصول على الجنسية الفرنسية ـ لكن واجه الحزب بحذم هذه المحاوله وتصدى لقانون التجنيس.

٤ ـ إنقسام الحزب الدستورى وتأسيس الحزب الدستورى الجديد:

نجحت محاولات المقيم العام الفرنسى لو سيان سان فى أن تجذب بعض أعضاء الحزب الدستورى ـ مما أدى لحدوث إختلافات جوهرية بين أعضاء الحزب الدستورى ـ فإنقسم الحزب الى قسمين :

احدهما : بزعامة الحبيب بورقيبه.

وثانيهما: بزعامة الشاذلى خير الله.

وعقد مؤتمر فى ١٢، ١٣ مايو ١٩٣٣ (مؤتمر الجبل) وقد صدر عن المؤتمر (ميثاق وطني) حدد أهداف الحزب في:

١ ـ تشكيل برلمان تونسى منتخب.

٢ ـ تشكيل حكومة مسئولة أمام البرلمان.

٣ ـ الفصل بين السلطات.

٤ ـ إمتداد إختصاص القضاء التونسى لجميع المقيمين فى تونس.

وقد واجة المقيم العام الفرنسى منسورون (Man soron) نشاط الحزب الدستورى وادت الخلافات بين أفراد الحزب الدستورى الى تقديم بورقيبه فى ٩ سبتمبر ١٩٣٣ إستقالته من اللجنة التنفيذية.

وفى ٢ مارس ١٩٣٤ اجتمع فى (قصر هلال) مؤتمر إتخذ عدة قرارات منها:

ا ـ عدم صلاحية اللجنة التنفيذية القائمة للحزب فى إدارة شئونة.

ب ـ إعادة تنظيم الحزب الدستورى على أسس جديدة.

جـ ـ إنتخاب هيئة إدارية جديدة للحزب، فقد انتخب الدكتور محمود الماطري، رئيسا للحزب والحسبيب بورقيبه أميناً عاماً،

والطاهر صقر ـ إميناً مساعداً.

ومحمد بورقيبه ـ أميناً للصندوق.

والبحرى فيته ـ مساعداً لأمين الصندوق.

وأصبح الحزب الجديد يعرف (بالحزب الدستورى الجديد)، ويبدو لناأن الخلاف بين الجيل القديم والجيل الجديد فى الحزب كان أمراً لا مفر منه لإختلاف وجهات النظر بينهما ـ رغم أن الحزب الجديد لم يختلف عن القديم لا فى المبادئ ولا فى الغابات فإن هدف الحزب الجديد كان يحقق الإصلاحات السدستورية ـ لكن تميز الحزب بقوة الحركة والحيوية.

ونشير الى أن الصحافة التونسية ساندت منذ البداية الحركة الوطنية فقد ظهرت:

أ ـ جريدة الحاضرة ـ التى بدأت نشاطها فى ٣ أغسطس ١٨٨٨، وكانت تصدر بالعربية وكان يدعمها البشير صفر ـ وقد ساهمت الجريده فى نشر الوعى القومي.

ب ـ جريدة الزهرة ـ صدرت فى ديسمبر ١٨٨٩ وقد ساندها عبد الرحمن الصنادلى وساهمت الجريدة فى نشر برنامج إصلاحى ضخم..

جـ ـ جريدة سبيل الرشاد ـ صدرت فى يولية سنه ١٩٠٢ وتولى إدارتها الشيخ عبد العزيز الثعالبى .

وقد حاربت الإدارة الفرنسية الصحف الوطنية و فرضت عليها سطوتها.

الحزب الدستورى الجديد فى تونسى يقود الحركة الوطنية حتى الإستقلال

١ ـ نشاط الحزب فى الفترة (١٩٣٤ ـ ١٩٣٨)

تشكل الحزب الدستورى الجديد بعد مؤتمر قصر هلال الذى عُقد فى ٢ مارس ١٩٣٤م، وفي أول يوينة ١٩٣٤م ـ أصدر بورقيبه صحيفة (العمل) لتعبر عن أراء الحزب وأهدافة وسياسته وقام بورقيبة بجولات فى الأقاليم التونسية، كما عقد عدة إجتماعات للإتصال بالجماهير وشرح أهداف الحزب وخطة العمل التى رسمها لتحقيق الأهداف الوطنية.

وقد ادركت السلطات الفرنسية فى تونس خطر هذا الحزب الجديد الذى يضم مجموعة من الشبان المثقفين على المصالح الفرنسية فى تونس، ، فأصدر المقيم العام الفرنسى فى تونس فى بيرطون (Per ton) فى ٢ سبتمبر ١٩٣٤ أمراً بالقبض علي قادة الحزب ونفيهم الى (برج القصيرة).

وكان ممن اعتقل الحبيب بورقيبه، ومحمود الماطرى ومحمد بورقيبه، ويوسف الرويس والصادق حميده.

وأدى إعتقالهم الى إشتداد الاضطرابات والمظاهرات الشعبية للمطالبة بالإفراج عن القادة الوطنيين، وقابلت السلطات الفرنسية ذلك بإستخدام العنف والقوة لمنع المتظاهرين ـ لكن أدت وسائل العنف والقمع الى زيادة ثورة الجماهير وإستعدادها للتضحية، وكان الحبيب بورقيبه يرسل سراً الرسائل الى قادة الديوان السياسى يوجههم لما يجب القيام به ـ كما أرسل فى أول ابريل ١٩٣٥ رسالة الى المقيم العام الفرنسى يحتج فيها على السياسة الى تتبعها فرنسا تجاه الوطنيين.

وأضطرت الحكرمة الفرنسية إزاء إزدياد الحركة الوطنية لتغيير المقيم المعام فعين أرمان جون (Arman Guyen) فى مارس ١٩٣٦ مقيماً عاماً .

وحاول المقيم العام الجديد تهدئة الأوضاع فأفرج عن الزعماء المعتقلين وألغى القوانين التعسفية التى أصدرها سلفه، وحاول التفاهم مع المعتدلين من الزعماء الوطنيين حول المطالب الوطنية ـ وسمح بإعادة صدور صحيفة العمل بعد أن كانت قد توقفت عن الصدور ، وقد أعاد بورقيبه بعد الإفراج عنه إصدار هذه الصحيفة كما أصدر باللغة الفرنسية صحيفة اكسيدى التونسيه (Action Tunisian)

وفى ١٠ يوينة ١٩٣٦ عقد الحزب دورة إستثنائية لمجلسه القومى إتخذ فيها عدة قرارات منها:

١ ـ الأخذ بسياسة المراحل فى محاولة لتحقيق الأهداف الوطنية. وهى

سياسة تقوم على إنه إذا لم يمكن تحقيق كل الأهداف الوطنية مرة واحدة ـ فلا مانع من تحقيقها على مراحل (خذ وطالب).

٢ ـ وقف موجة الاستيطان الأجنبى التى أدت الى الإستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضى خاصة فى الجنوب حول صفاقس

٣ ـ المطلبة بإلغاء ما أطلق عليه (الثلث الإستعماري) وهى العلاوة التى كانت تمنح للمستوطنين الفرنسيين فى تونس.

٤ ـ فى مجال التعليم العام تقييم التعليم الإجباري، وتطوير برامج التعليم فى (جامعة الزيتونة).

٥ ـ إلغاء القوانين الإستثنائية، وإلغاء المجلس الكبير، وإستبداله ببرلمان تونسى وحكومة وطنية مسئولة .

٦ ـ مقاومة الظواهر الإجتماعية السئية التى أخذت تنتشر فى البلاد وفى مقدمتها ظاهرة الربا.

ولتحقيق هذه الأهداف ـ سافر الحبيب بورقيبه الى فرنسا فى عام ١٩٣٦م على رأس وفد (لمفاوضة) الحكومة الفرنسية فى المطالب الوطنية، وفى باريس تقابل بورقيبة مع عدد من السياسيين البارزين بالإضافة الى شخصيات سياسية وفكرية أخرى مثل شارل اندريه جوليان (Charles Andre Ju-lian) المكلف بتنسيق الشئون المتعلقه بالمسلمين فى الحكومة الفرنسية، وكذلك التقى مع المسيو بيرفيانو(Pierre Vienot) كاتب الدوله للشئون الخارجية الفرنسية ودعاه لزيارة تونس.

وقد تمت الزيارة فى ١٤ يوليو ١٩٣٦ ـ ووضع مشروعاً لإصلاح الأوضاع

فى تونس رحب به الحزب مع بعض التحفظات، لكن تراجعت الحكرمة الفرنسية عن تنفيذه أمام ثورة المستوطنين، ولجأت فرنسا أمام ضغط المستوطنين وتهديداتهم من جديد الى سياسة القمع والعنف.

وقد أضطر الحزب الدستورى الجديد الى عقد المؤتمرات والإجتماعات لتوضيح مطالب التونسيين العادلة ـ وقد لجأت السلطات التونسيه من جانبها الى محاوله الوقيعة بين أقطاب الحزب مما أدى لنشوب خلاف بين الحبيب بورقيبه الأمين العام للحزب والدكتور محمود الماطرى رئيس الحزب.

وأضطر الحزب لدعوة الديوان السياسى للحزب لعقد جلسة خاصة فى يناير ١٩٣٧م، أعُيد فيها تشكيل الديوان السياسي، كما تقرر فيها إقامة جهاز سرى للحزب يباشر نشاطه فى حال القبض على زعماء الحزب.

وفى فبراير ١٩٣٧ أوفد الحزب الحبيب بورقيبه الى باريس على رأس وفد فى محاولة جديدة للتفاوض مع الحكومة الفرنسية ـ دون جدوى مما أدى لعودة الإضطربات.

وقد شهد عام ١٩٣٨ فى تونس عدة إضطرابات عمالية وغيرها كما فشلت حركة العمل السرى التى تزعمها (الباهى الأدغم)، و.(الدكتور الحبيب ثامر) لبد أن فشلت سياسية الحوار والتفاوض فى تحقيق الأهداف الوطنية.

٢ ـ نشاط الحزب الدستورى فى تونسى اثناء الحرب العالميمة الثانية ١٩٣٦ ـ١٩٤٥:

فى بداية الحرب ـ إتهمت السلطات الفرنسية الحزب الدستورى بالإتصال مع السلطات الغاشية إلا يطالية ـ وقد نفى الحبيب بورقيبه بشده هذا الإتهام ـ

وقـد نشط الحـزب أثناء الحـرب فى المناداة بأن تونس للتـونسـيين، وظل الحـزب يعمل فى العلن وفى السر تحت زعامـة الحبيب ثامر من أجل تحقيق الأهداف التى حددها الحزب.

وقـد كـانت تونس من أهـم القـواعـد داخل نظام الدفـاع الفـرنسى عن مستعمرات فرنسا فى شمال أفريقا.

وعندما وقـعت الهدنه بين الألمان والفرنسيين ـ تقدم الدكتور الجيب ثامر مع وفـد من الحـزب ـ بطلب الى باى تونس يطالبـون فـيـه بإعـلان الغـاء الحـمـاية الفرنسية على تونس.

وقد حاولت دول المحور من جانبها إغراء الزعماء الوطنيين لإعلان إنضمامهم لجانب الانيا وحلفائها ـ دون جدوى فقد أعلن الحزب الحياد التام.

وفى ٤ أغسطس ١٩٤٢ أصبح(محـمـد المنصف) باياً لتونس، وقد أعلن منذ توليه مـسـاندته للحـركـة الوطنيـة، وطالب بالذات بالغـاء مـرسـوم سنه ١٨٩٢ الخـاص بانتـزاع أراضى الأوقـاف لمصلحـة المسـتـوطنين ـ وقـد طالب البـاى بعـد إستيلاء ألمانيا على فرنسا ـ بالإفراج عن المعتقلين من الزعماء التونسيين المنفيين فى فـرنسـا. وفى عـام ١٩٤٢ ـ بعـد توليـه بفـتـرة قـصـيـرة ـ إخـتـار البـاى وزارة وطنيه لإدارة شئون البلاد برئاسة (صالح فرحات) دون إستشارة الإقامة العامة الفرنسية.

وقد أفرج عن بورقيبه وأتباعة وعادوا الى تونس ـ لكن أصدر الجنرال جيرو (Giroud) الحاكم العام لأفريقيا الفرنسية قراراً بعزل الباى ونفيه.

وبعد نفى الباى ظل الحزب الدستورى يواجه المستعمرين، وعلى الرغم من

إتهام الفرنسيين ـ فيما بعد ـ للحبيب بورقيبه وأصدقائه بإنحيازهم للمحور أثناء وجودهم بايطاليا بعد أفراج قوات المحور عنهم وقبل مجيئهم الى تونس ـ فقد نفى بورقيبه ذلك نفياً قاطعاً ـ وأشار الى المنشورات التى صدرت عن الحزب لتأييد قوات الحلفاء.

وفى ٢١ مارس سنه ١٩٤٤ تقدم الحبيب بورقيبه للجنرال ماست (Mast) الذى حل محل جوان نيابة عن الحزب بمطالب التونسسين.

٣ ـ سفر بورقيبه للقاهرة ونشاطة فيها فى الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩:

فى سنه ١٩٤٥ قرر الحزب الدستورى الجديد إيفاد الحبيب بورقيبه الى المشرق العربى للتعريف بالقضية التونسية، وفى ٢٦ مارس سنه ١٩٤٥ بدأ بورقيبه رحلته ألى القاهرة وقد توسط له السيد عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية لدى لسلطات المصرية للسماح له بالإقامة فى القاهرة بعد اقراره بعدم التدخل فى السياسة.

وقد وجد الحبيب بورقيبه أن كفاح حزبه لم يكن له صدى فى المشرق العربى الذى كان كما يقول يطلق على بلاد المغرب العربى اسم (أفريقيا الشمالية الفرنسية).

وقد عمل بورقيبه جهداً للتعريف بالقضية التونسية لدى الرأى العام العربى والمصرى خاصة وذلك عن طريق الإتصال بالصحفيين ورجال السياسة فى مصر فإتصال بصالح حرب باشا زعيم الشبان المسلمين، والشيخ حسن البنا، كما إتصل بمحمود أبوالفتح مدير جريدة المصري، وحبيب جاماتى الصحفى، وفواد أباظه الصحفي، وقد ساعد محمود أبو الفتح فى إستئجار دار مناسبة أسسها له من جيبه الخاص.

وفى القاهرة إتصل بورقيبة (بجبهة الدفاع عن شمال أفريقيا) التى كانت قد تأسست بفضل جهود الشيخ محمد الخضر حسين ، وهو من شيوخ الأزهر السابقين وهو تونسى الأصل.

وقد أسس بورقيبة مكتباً للحزب فى القاهرة، وفى عام ١٩٤٦ أنشأ هو وبعض أبناء المغرب العربى (مكتب المغرب العربى بالقاهرة)، وكانت رئاسة المكتب للأمير عبد الكريم الخطابي، وكان يمثل تونس فى المكتب الدكتور حبيب ثامر الذى أصبح أمينا للصندوق والحبيب بورقيبه الأمين العام.

وفى ٢ ديسمبر ١٩٤٦سافر بورقيبه الى الولايات المتحدة ألامريكية لحضور الإجتماع الثانى لمنظمة ألامم المتحدة بصفته الشخصية وظل فى الولايات المتحدة الأمريكية قرابة شهرين إستطاع خلالهما بفضل إتصالاته السياسية أن يعرف العالم بالقضية التونسية.

وقد استطاع بورقيبه بجهوده فى القاهرة أن يجعل مجلس جامعة الدول العربية يتخذ فى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٦ قراراً يتبنى قضايا المغرب العربي.

وفى عام ١٩٤٧ عُقد مؤتمر فى القاهرة كان لبورقيبه فيه نشاط واضح ، وقد خرج المؤتمر بميثاق سمى رميثاق القاهرة) ـ طالب فيه المؤتمر بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب العربى كلها، وطالب الأحزاب الوطنية بالعمل سوياً لتحقيق إلاستقلال، كما طالب بتضامن. الحركات الوطنية فى أقطار الغرب المعربى ــ ويعتبر هذا المؤتمر من أهم إنجازات بورقيبه فى أثناء وجوده بالقاهرة.

وبعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية للقاهرة قام بورقيبه بجولة فى

الدول العربية للتعريف بالقضية التونسية ـ وإن كان إهتمام الدول العربية فى هذا الوقت كان مركزاً على القضية الفلسطينية التى كانت قد وصلت الى درجة ٤٣٣٤٣٣كبيرة من التأزم. وقد عاد بورقيبه الى وطنه فى ٨ سبتمبر ١٩٤٩.

٤ ـ نشاط الحزب الدستورى منذ قيام الحرب العالمية الثانية حتى الإستقلال:

واجه الحبيب بورقيبه بعد عودته لتونس من مصر فى الثامن من سبتمبر ١٩٤٩م جبهة معارضة قوية داخل الحزب بقيادة (صالح ين يوسف)، وقد حاول بورقيبة القيام بجولات فى أرجاء البلاد لتوضيح وجهة نظره ـ لكن السلطات الفرنسية كانت له بالمرصاد، وكان بورقيبة أثناء وجوده بالقاهرة قد أجرى إتصالات سرية مع سفارة فرنسا بالقاهرة للتمهيد لإجراء مفاوضات مع الفرنسيين لتحقيق الأهداف الوطنية .

وفى أوائل ابرايل سنه ١٩٥٠ سافر بورقيبه الى فرنسا للإتصال بالهيئات الرسمية والشخصيات السياسية والصافية، وقد عرض مطالب الشعب التونسى فى سبع نقاطٌ عرفت (بالنقاط السبع) حدد فيها المطالب الوطنية المتمثلة فى تشكيل حكرمة تونيسة، وإلغاء الاشراف الفرنسى على ميزانية الدولة، وإنتخاب مجلس وطنى تونسى يقوم باعداد دستور للبلاد . وقد وجد بورقيبة مؤازرة مر باى تونس بينما وجد مقاومة من المستوطنين الفرنسيين.

وقد طلبت الحكومة الفرنسية من المقيم العام الفرنسى فى تونس جان مونس (Jan Mons) وضع مشروع للإصلاحات التى يمكن القيام بها لإصلاح الأوضاع فى تونس . وكان لسفر بورقيبه لفرنسا أثره فى تعاطف الرأى العام الفرنسى مع المطالب الوطنية التونسية.

وبعد عودته الى تونس عقد بورقيبه عدة إجتماعات أعلن فيها رأيه المتمثل فى

أن ا(المفاوضة) مع السلطات الفرنسية هى الطريق لحل للقضية الوطنية وبأن (سياسة المراحل) يمكن أن تحقق على المدى الطويل الأمال الوطنية.

وفى ١٧ أغسطس ١٩٥٠ قام (محمد شفيق) بتأليف وزارة فى تونس تتولى عملية التفاوض، وقد ضمت هذه الوزاره سته زعماء تونسيين هم (صالح بن يوسف) و (محمد بدره) و (محمد صالح)، و(محمد المساطري)، و(محمد بن سالم)، و (محمد سعد الله). وقد حاول المستوطنون كما حاول أعضاء الحزب الدستورى القديم وضع العراقيل فى وجه الوزارة.

وقد تعثرت هذه المفاوضات، وفى ديسمبر ١٩٥١ عاد وفد المفاوضات التونسى من فرنسا دون أن يحقق الهدف من السفر.

وقد قررت الحكومة التونسية فى ١٤ يناير سنه ١٩٥٢ بعد فشل المفاوضات عرض القضيه التونسيه على مجلس الأمن.

وكان رد السلطات الفرنسية إنها قبضت فى ١٨ يناير ١٩٥٢ على بورقيبه وبعض زملائه وحددت إقامتهم وتكاتفت الدول الإستعماريه لإحباط محاولة إدراج القضيه فى جدول أعمال مجلس الأمن.

وقد إشتدت حركة المقاومه السريه التونسيه بينما نظم المستعمرون الفرنسيون عصابات سرية أطلق علهيا اسم (عصابات اليد الحمراء) للفتك بالمواطنين والزعامات الوطنية.

وقد طالب المقيم العالم الفرنسى من وزاره (محمد شفيق) تقديم استقالتها، ولما رفض رئيس الوزراء التونس تقديم إستقالته ألقى القبض على الوزراء فى ٢٩ مارس ١٩٥٢ وقد شكل المواطنون مكتباً سياسياً سرياً برئاسه (فرحات حشاد) كما شكلت فرق ثوريه داخل المدن التونسيه.

وفى ٥ ديسمبر ١٩٥٢ أغتيل فرحات حشاد على يد عصابات اليد الحمراء. كما تم نقل الحبيب بورقيبه ومن معه من المعتقلين من منفاهم فى طبرقه الى رماده فى الصحراء لتعذيبهم وقطع الإتصال بينهم وبين زملائهم فى حركة التحرير.

وقد حاصرت القوات الفرنسية قصر باى تونس بالدبابات وأرغم على إصدار قرار بإقالة وزارة شفيق وتكليف (صلاح البوكوش) بتأليف وزارة جديدة .وقد لقى البكوش صعوبة فى إيجاد من يرغب فى التعاون معه.

هذا وقد نجحت الدول العربية فى أكتوبر عام ١٩٥٢م فى أن تصدر الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً بإدراج القضية التونسية فى جدول أعمالها.

٥ ـ مرحلة التفاوض والإعتراف باستقلال تونس:

فى ٣١ يوليو سنته ١٩٥٤ نقلت السلطات الفرنسية بورقيبه من منفاه الى قصر لافرنى بالقرب من باريس تمهيداً للتفاوض ـ وتقابل بورقيبه مع منديس فرانس (Mendes France) رئيس الوزارة الفرنسية وتم الاتفاق على :

أ ـ استقلال تونس إستقلالاً داخلياً.

ب ـ تشكيل حكومة تفاوضية تونسية برئاسة الطاهر بن عمار رئيس الفلاحة التونسية.

وفى يوم ٤ سبتمبر سنه ١٩٥٤ بدأت المفاوضات بين فد المفاوضات التونسى برئاسة (الطاهر بن عمار) وبين السطات الفرنسية.

وقد حدثت خلافات حول مفهوم الاستقلال الذاتى لتونس، وكذلك بخصوص الضمانات للمتوطنين.

كما حدثت خلافات بين قيادات الحزب الدستورى الجديد، فقد كان بورقيبه يرى وقف العمليات العسكرية أثناء المفاوضات بينما كان صالح بن يوسف يرى ضرورة إستمرار الكفاح حتى يتحقق الاستقلال

وفى ٣ يونيه ١٩٥٥ وقع الاتفاق بين المفاوض التونسى والفرنسى وتقرر :

١ـ إعتراف فرنسا بالإستقلال الداخلى لتونس.

٢ـ إلغاء منصب الكاتب العام الفرنسي.

٣ـ إلغاء مناصب المراقبين الفرنسيين.

٤ـ إستبدال المقيم العام الفرنسى ـ بمندوب سامى فرنسي.

٥ـ وضع الأمن العام والسلطة القضائية ضمن إختصاصات الحكومة التونسية.

٦ـ تتبع العلاقات الخارجية لتونس ـ السلطات الفرنسية.

٧ـ تحتفظ السلطات الفرنسية بالدفاع عن تونس.

ولما كان عدد من أعضاء الحزب على رأسهم صالح بن يوسف لم يقروا هذا الإتفاق بينما أقره بورقيبه بإعتباره مرحلة فى طريق تحقيق الأهداف الوطنية ـ فقد دعا بورقيبة الى عقد موتمر للحزب الدستورى فى مدينه صفاقس فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٥ لبحث الخلاف القائم بين أطراف الحزب.

وقد اتخذ الموتمر قرارات منها:

١ـ الموافقة على ما جاد فى اتفاق ٣ يونية ١٩٥٥ باعتبارها مرحلة فى سبيل الاستقلال .

٢- يضع المؤتمر كل ثقته فى رئيس الحزب والديوان السياسى .

وبعد أن تولى جى مواليه (Guymollet) رئاسة الحكومة فى فرنسا فى ٢٧ يناير ١٩٥٦- وجد الحزب الدسورى التنوسى فرصة لتطوير اتفاقية ١٩٥٥ وسافر وفد تونس لفرنسا لهذا الغرض.

وفى فبراير ١٩٥٦ جرت مفاوضات بين وفد تونسى برئاسة الباهى الأدغم رئيس الحكومة التونسية ووفد يمثل الحكومة الفرنسية وانتهى ألامر بتوقيع بروتوكول فى ٢٠ مارس سنه ١٩٥٦ إعترفت فيه فرنسا باستقلال تونس وإنهاء العمل بمعاهدة الحماية

٦- بورقيبه يشكل الوزارة التونسية واعلان قيام الجمهورية التونسية :

فى مارس ١٩٥٦ أجريت الانتخابات لجمعية تأسيسه تتولى وضع الدستور التونسي، ونجحت القائمة التى أعدها بورقيبه من رجال الحزب الدستورى وكلف بورقيبه بتشكيل الوزارة بعد فوزه بالاغلبية

وفى الخامس والعشرين من يوليو ١٩٥٧ وأعلنت الجمهورية فى تونس.

٣ - الحركة الوطنية فى المغرب الاقصى (مراكش)
وإعلان المغرب مملكة (دستوريه)

تكون فى مراكش عدة هيئات قادت الحركة الوطينة نذكر منها :

١- كتلة العمل المراكشي:

شكل هذه الكتلة عدد من شباب فاس والرباط وقد قادت عدة مظاهرات

وأصدرت عام ١٩٣٢ مجلة باسم (الكتلة المراكشية للعمل) وقد حرصت الكتلة على توثيق صلتها بالمنطقة الشمالية (لمنطقة الحليفية) فأنشأت الكتلة فروعاً لها فى الشمال.

وقد أيدت الكتلة وجود السلطان محمد الفاسى فى مساندة الحركة الوطنية، وفى نوفمبر ١٩٣٤ نشرت الكتلة برنامجاً للإصلاحات الداخلية المطلوبة فقد طالبوا:

أ- بفتح أبواب الوظائف أمام المثقفين المراكشيين.

ب - فصل السلطة القضائية عن السلطه التنفيذية

جـ - تأسيس مجالس بلدية.

د - إتاحة الفرصة للعمال المراكشيين لتكوين نقابات.

هـ - تعميم المدارس الإبتدائية والاهتمام بالتعليم الاساسي.

وفى عام ١٩٣٦ أجرى الكتلة انتخابات اسفرت عن انتخاب علال الفاسى رئيسا، محمد الوزانى امينًا عاما، واحمد مكوار امينا للصندوق وبعد انسحاب محمد الوازنى اختير(احمد بلافريج) امينا عاماً .

٢- حزب الشعب والحزب الوطني:

انسحب محمد الوزانى من عضوية الكتلة وأسس حزباً مستقلا باسم حزب الشعب واصدرت السلطات الفرنسية فى ١٨ مارس ١٩٣٧ قرار اً بحل حزب الكتلة فقام الفاسى بتشكيل الحزب تحت اسم جديد هو الحزب الوطني، وقد اعلن الحزب اهدافه وفى مقدمتها :

أ ـ التمسك بالإسلام ، على ان تستمد كافة التنظيمات من الشريعة الإسلامية .

ب ـ مكافحة التبشير في بلاد البربر .

جـ ـ تمسك الحزب بالنظام الملكى .

وقد كانت للحزب جريدتان احداهما (الأطلس) تصدر بالعربية، والأخرى (العمل الشعبي) بالفرنسية. وقد اصدرت السلطات الفرنسية فى اكتوبر ١٩٣٧ امراً بحل الحزب وأعتقل قادته ونفوا وفى مقدمتهم الفاسى الذى نفى الى الجابون حيث استمر معتقلاً لمدة ٩ سنوات (١٩٣٧ ـ ١٩٤٦).

وكان للأحداث فى أسبانيا إنعكاساتها على المنطقة الشمالية من المغرب فقد حاول فرانكو اثناء الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ـ التقرب للمغاربة عن طريق الوعود المعسولة.

٣ـ حزب الاستقلال:

ظهر نشاط هذا الحزب بالذات أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ـ وقد انعكست الحرب ونتائجها على المغرب ـ فقد كان للألمان نشاط فى المغرب وبعد سقوط فرنسا فى ايديهم ترك الامر فى الشمال الافريقى لحكومة فيشي.

وحينما رتب الحلفاد للغزو فى ٨ نوفمبر ١٩٤٢ كان من المقرر أن تهتم القوات الامريكية بالنزول على سواحل مراكش المواجهة للمحيط الاطلسي.

وفى يناير ١٩٤٣ عُقد مؤتمر الدار البيضاء بين تشرشل وروزفلت ـ وتقابل السلطان المغربى مع الرئيس الأمريكى دون وساطه المقيم العام الفرنسى مما

إعتبرته فرنسا تجاهلا لهيبة المقيم العام، وفى يناير ١٩٤٤ اعلن الوطنيون المغاربة تشكيل حزب الاستقلال وكان عدد من مؤسسيه من اعضاء الحزب الوطنى السابق وقد أعلن الحزب اهدافه فيمايلى :

أ ـ استقلال المغرب وإسقاط الحماية.

ب ـ توثيق الروابط بين الدول العربية والإسلامية ودول العالم أجمع.

د ـ تطبيق نظام الملكية الدستورية وإستبدال لقب السلطان بالملك. .

هـ منح الخدمات الديمقراطية لجمع افراد الشعب

٤ـ تأييد محمد الخامس للحركة الوطنية:

أظهر محمد الخامس تأييده للحركة الوطنية، ولحزب الاستقلال منذ قيام هذا الحزب، وكان خطاب محمد الخامس عند زيارته لطنجة فى ابريل ١٩٤٧ وإعلانه مساندته للحركة الوطنية بداية صراع طويل بين المقيم الفرنسى والسلطان. وفى عام ١٩٥٠ زار السلطان باريس وقدم مذكرة بالمطالب الوطنية للحكومة الفرنيسة ـ مما دفع المقيم العام (جوان) للعمل على خلع السلطان.

واستغل المقيم العام الفرنسى أحداث الإضطرابات التى قامت فى عام ١٩٥١ بالمغرب وأثار الخلافات بين البربر وباقى المغاربة.

وفى عام ١٩٥٢ قام العمال المغاربة بمظاهره احتجاجاً على إغتيال الزعيم التونسى (فرحات حشاد) فى ٧ ديسمبر ١٩٥٢ ـ وشجعت حركة التمرد فى الجنوب التى قادها (الجلاوي) المقيم الفرنسى على السير فى خطة خلع السلطان.

وفى ٢٠ اغسطس وافقت حكومة فرنسا على أن يطلب المقيم الفرنسى من السلطان التنازل عن العرش او يعلن خلعه.

وقد أعلن المقيم العام خلع السلطان وحُمل بطائرة الى كورسيكا ثم نقُل الى منفاه فى جزيرة مدغشقر - وعُين محمد بن عرفه وهو عم السلطان المخلوع مكانه.

وأدى خلع السلطان محمد الخامس لنشاط الحركة الوطنية فتعددت حركات إغتيال الأجانب كما قرر المواطنون مقاطعة البضائع الفرنسية، وفى ١٤ يوليو ١٩٥٥ القيت قنبلة على عد من الاوربيين فى الدار البيضاء. وقد حدث تغيير فى إنتماء قبائل البربر فقد اعلنوا إنضمامهم للحركة الوطنية.

وفى ٢٠ اغسطس ١٩٥٥ قرر المواطنون الزحف على القرى والمدن الصغيرة داخل الأطلس الأوسط ومهاجمة المستوطنين.

وأضُطر رئيس الوزارة الفرنسية لدعوة زعماء حزب الاستقلال الى مقره الصيفى فى (اكس لبان) للتفاوض معهم، وإتفق فى المفاوضات على إبعاد محمد ابن عرفه وتأليف مجلس وصاية كحل مؤقت.

وكانت فرنسا متورطة فى حربها مع الجزائر - وأضطرت الحكومة الفرنسية للتفاوض مع السلطان محمد الخامس الذى أُعيد لباريس حيث توافدت وفود المراكشيين لإستقباله.

وفى ٦ نوفمبر ١٩٥٥ صدر تصريح مشترك تقرر فيه :

أ - منح مجلس الوصاية السطة الكاملة لإدارة شئون الإمبراطورية الشريفية.

ب ـ تأليف مجلس وزراء مغربي.

جـ ـ إستئناف المفاوضات مع فرنسا لتحديد وضع مراكش كدولة مستقلة.

د ـ اقامة ملكية ستورية .

وعاد الملك محمد الخامس الى مراكش ـ وفى ٢ مارس ١٩٥٦ أعلنت الحكومة الفرنسية ان نظام الحماية فى مراكش أصبح غير مناسب وتبع ذلك إعلان المغرب مملكة دستورية.

وفى عام ١٩٦٢ وضع الدستور الأول للمكلة المغربية وفيه حُصرت راثة العرش فى الأبن الاكبر للملك.

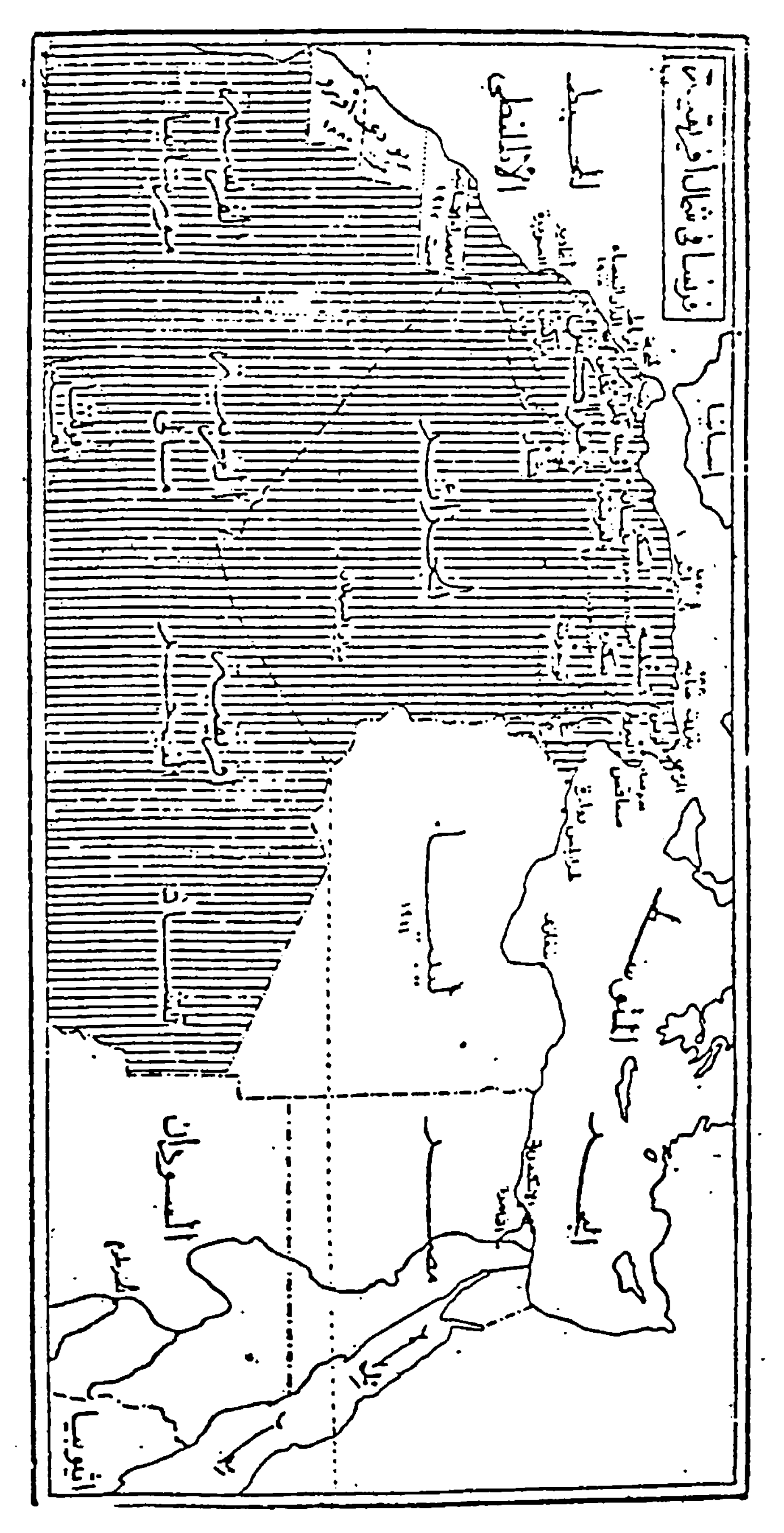
ب ـ حركات المقاوته وتصفية الاستعمار فى افريقيا الغربية (*)

شاءت الاقدار أن يقع غرب القارة الافريقية فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية تحت قبضة الدول الاستعمارية باستثناء دولة ليبريا التى أنشئت اساسا فى القرن الثامن عشر كمستعمرة للرقيق المحرر من الولايات المتحدة الامريكية ، وقد فقدت المنطقة استقلالها على مرحلتين بدأت إحداهما منذ عام ١٩٨٠ وحتى مطلع القرن العشرين والثانية منذ هذا التاريخ وحتى الحرب العالمية الاولي.

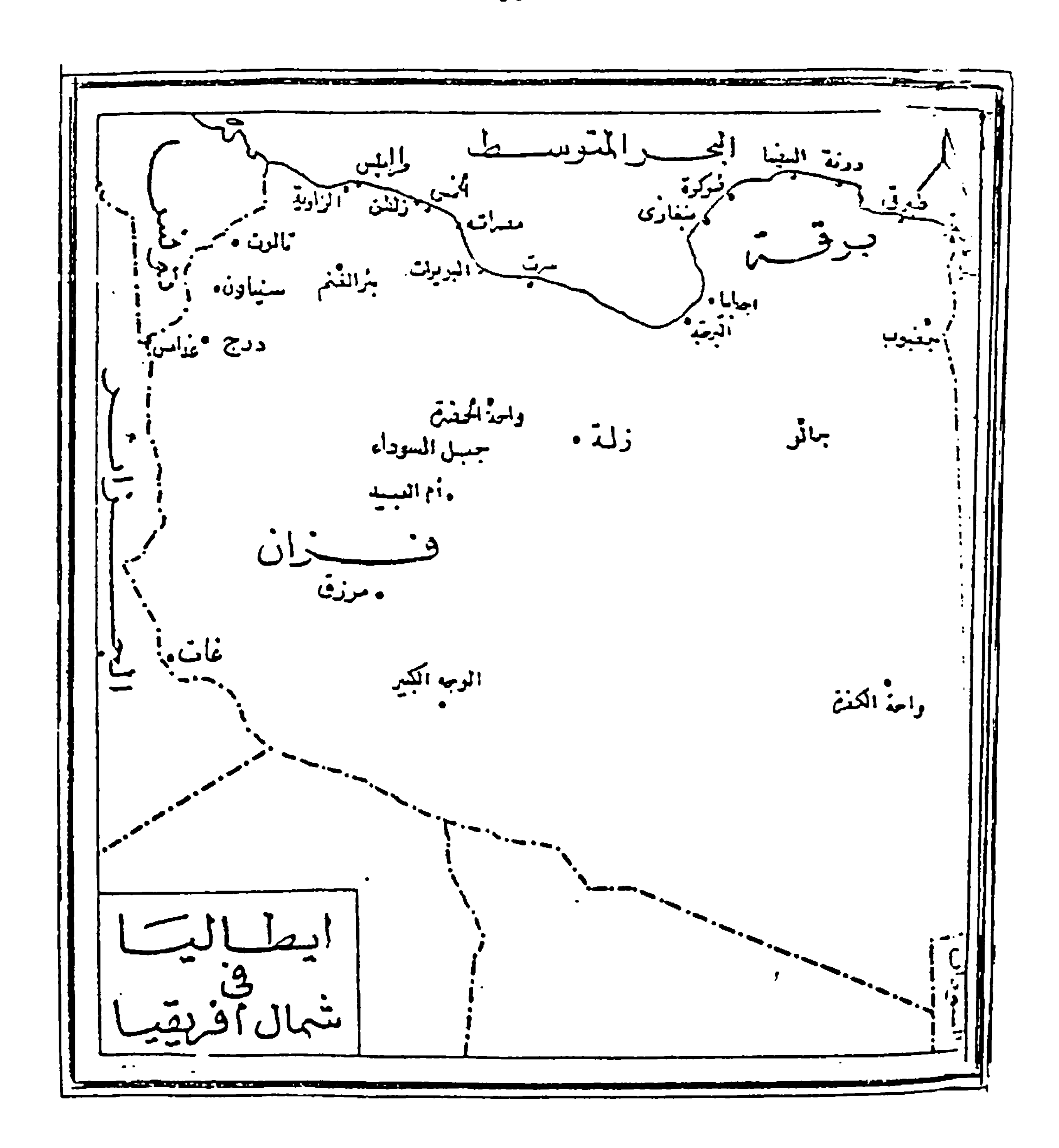
وشهدت كل مرحلة نشاطاً أوربيا مختلفا كان له مردود من جانب الأفارقة، وفى المرحلة الاولى استخدم الاوربيون اسلوب الدبلوماسية تارة، والغزو العسكرى أخري، وكانت الفترة بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ قمة الصراع الاوربى والحملات ضد الدول الأفريقية بعد أن أقر المؤتمر فى مادتة الرابعة

---

* أ . د . عبد الله عبد الرازق ابراهيم



الشكل رقم ٧


البحر المتوسط
درنة البيضا
طبرق
طرابلس
الخمس
زلتن
الزاوية
مصراته
سرت
توكرة
بنغازي
برقة
اجدابيا
البريقة
جغبوب
نالوت
سيناون
بئر الغنم
البويرات
درج
غدامس
واحة الجفرة
زلة
جالو
جبل السوداء
أم العبيد
فزان
مرزق
غات
واحة الكفرة
ايطاليا
في
شمال افريقيا

الشكل رقم ٨

والثلاثين ضرورة الاحتلال الفعلى قبل إخطار الدول الأخرى بالسيادة على أية منطقة فى القارة.

وكانت الحملات الفرنسية فى السودان الغربى وساحل العاج وداهومى (بنين حاليا) فى الفترة من ١٨٨٠ وحتى ١٨٩٨. وايضاً الحملات البريطانية ضد الإشانتى (غانا الحالية) ومنطقة دلتا النيجر(نيجيريا) فى الفترة من ١٨٩٥ وحتى عام ١٩٠٣ م. ما هى الأمثلة حية لهذا التكالب الأوربى على غرب القارة.

وخلال هذه المرحلة ركز الأفارقه على الدفاع عن سيادتهم وأسلوب حياتهم التقليدي، وكانت امامهم ثلاث اختيارات ـ هى إما المواجهة أو التحالف او الرضوخ والإعتراف بالسيادة الاوربية، وكانت المواجهة ترتكز على الحروب المكشوفة أو الحصار وحرق الأراضى أو استخدام أسلوب الدبلوماسية، وسوف نركز على رد الفعل الافريقى تجاه كل من فرنسا وبريطانيا باعتبارهما اكثر الدول إهتماماً الغرب القارة.

اولا: المقاومة الوطنية ضد الوجود الفرنسى فى غرب القارة من عام ١٨٨٠ الي عام ١٩٠٠

من الواضح تمامًا ان الفرنسيين ابتداءً من عام ١٨٨٠قد انتهجوا سياسة توسعية على كل المنطقة من السنغال حتى النيجر وتشاد، وربط المناطق على ساحل غينيا وفى كل من ساحل العاج وداهومي.

وقد تولى تنفيذ هذه السياسة عدد من الضباط من منطقة السنغال وقد اعتمد الفرنسيون على الغزو العسكرى أكثر من عقد المعاصرات الحماية مثلما فعل البريطانيون. ومن الطبيعى ان يواجه الافارقة هذه السياسة التوسعية بالمواجهة العسكرية التى تجلت فى أكثر من مكان من غرب القارة ولعل هذا يرجع لسببين أساسيين :

اولهما : أن الفرنسيين لجأوا الى الغزو العسكرى تماماً وكان رد الفعل الأفريقى هو المواجهة الفورية.

وثانيهما: ان الغزو الفرنسى كان فى معظمه متجهاً نحو المناطق والممالك الإسلامية فى غرب القارة والتى اعتبرت فرض الحكم الأبيض يعنى الرضوخ للكفار وهو مالا يقبلة أى مسلم فى هذه المناطق. وفى السنغال بدأ الغزو منذ عام ١٩٥٤ ونجحت فرنسا فى إقامة قواعد لها فى والو (Walo) ودينار (Dinar) ثم فرض الحماية على دويلات السنغال الأعلى بعد مصادمات عنيفة، ورغم ان الفرنسيين طردوا الاديور (Dior) حاكم كابور الا انه فى عام ١٨٧١ بعد هزيمتهم من بروسيا تخلى حاكم السنغال عن ضم كايور واعترف بديور حاكما عليها وبدأت مرحلة من العلاقات الودية بينهما.

فى عام ١٨٧٩ حصل الحاكم الفرنسى بييردى ايل (Biere de lsle) على تصريح من الحاكم العام لبناء طريق يربط داكار مع سانت لويس، ولكن عندما علم لات ديور فى عام ١٨٨١ بأن خطاً حديدياً هو المقصود، اعلن على الفور المعارضة لأن الخط سينهى استقلال كابور، واصدر الاوامر الى كل الرؤساء لمعاقبة اى مواطن من بلاده يسهل للفرنسيين الحصول على العمال.

وفى نفس الوقت ارسل لات ديور خطابات الى أمير ترارزا وعبد البكرخان فى فوتاتور والبرى Alboury NDioye فى فوتاجالون وطالبهم بالتحالف سويا لتنسيق نضالهم لطرد الفرنسيين من أجل اجدادهم.

وفى ديسمبر ١٨٨٢ غزا الكولونيل وندلينج Windling كايور على رأس فرقة استكشافية واقترب من بلاد الجولوف، وقام وندلنج بتأييد سامبافال

ابن عم لات ديور، لكن فى اكتوبر ١٨٨٦ قتل سامبافال فى تيفون Tivon وقسم الفرنسيون كايور الى ستة مناطق ووضع على رأس كل منها احد الاسرى من المطالبين بالعرش فى كابور، وصدر قرار بعزل لات ديور الذى ظل يحارب الفرنسيين حتى مصرعه فى ٢٧ اكتوبر ١٨٨٦ وبموته انتهى استقلال كايور واستولى الفرنسيون على بقية المنطقة.

مقاومة امبراطورية التوكولور:

لقد صمم أحمدو والذى خلف والده الحاج/ عمر الفوتى التكرورى على تاكيد بقاء دولته والحفاظ على استقلالها وسيادتها تلك الدولة التى حافظ عليها الحاج عمر حتى استشهاده فى عام ١٨٦٤ فى منطقة ماسينا.

وعندما احس الحاج/ عمر بالخطر الذى يهدد امبراطوريتة من الفرنسيين من الغرب عين إبنه احمد ونائبًا عنه فى (سيجو) لكن بعد وفاة الحاج عمر بدأ الصراع بين ابنائة وحاول الشيخ احمد والإبقاء على روح الجهاد وكان عليه مواجهة ثلاث قوى هى أخواته الذين عارضوا سلطاته، والمالنكى والفولانى الذين عارضوا التكولور ضد الفرنسيين.

وفى مواجهة كل هذه العقبات وافق على التفاوض مع الفرنسيين، ودخل فى مفاوضات مع الكابتن ميج Mege الذى سمح للتجار الفرنسيين بالعمل فى امبراطوريتة .

واستمرت علاقات الود قائمة حيث إنه فى اوائل عام ١٩٧١ أرسل حاكم السنغال الى وزير البحرية والمستعمرات يفيد وجود العلاقات الودية مع الأفارقة.

ورغم كل هذا فإن علاقات الود لم تستمر، وبدأ الفرنسيون فى غزو المنطقة عام ١٨٨١، واحتلوا (باماكو) على النيجر بدون معارضة، وفى عام ١٨٨٤ قاد احمدو جيشا فى اتجاه باماكو، وحاصر نيورو عاصمة كادتا بهدف عزل اخيه موتاجا. وبسبب الاضطرابات الداخلية اضطر الى توقيع معاهدة جورى Gio-ri مع الفرنسين ووافق على وضع الامبراطورية تحت الحماية الاسمية لفرنسا ورغم سقوط الامبراطورية سياسياً الا انها ظلت تمارس حياتها الدينية وحافظت على تراث الإسلام وحضارتة أمام موجات الغزو والتوسع الاوربي.

وفى منطقة سانجامبيا واجه الفرنسيون الشيخ/ محمد الامين الذى ظل يقاوم منذ ١٨٨٥ حتى ١٨٨٧ ونجح فى محاصرة القوات الفرنسية فى مدينة جوري، ودخل فى صراع مع الفرنسيين حتى كانت المعركة الاخيرة فى توباكاتا Tobacata والتى دافع فيها الامين بكل ما أوتى من قوة، واستبسل فى الدفاع عن حصونه ومواقعه، واخيرا انسحب الى مدينة تمبكت التى هاجمها الفرنسيون وهرب الامين لكنة جرح فى فخذه بعد الهجوم العسكرى عليه فى التاسع من ديسمبر ١٨٨٧ وأسر لكنه مات فى الطريق التى تمبكت فى ١٢ ديسمبر وقطعت راسه، لكن موت هذا الزعيم لم تكن نهاية المطاف بل ظلت روح الجهاد و روح المقاومة الوطنية تستلهم من هذه الشخصيات مثلها العليا.

وفى غنييا ظهر الزعيم ساموري تورى الذى دخل فى صراع مع الفرنسيين وواصل الجهاد ضدهم ورفض كل عروض الحماية ونظم جيشه وانتصر على الجماعات المحلية، وظل يقاوم حتى استولى الفرنسيون على سيكاسو، واضطر الى التوجه نحو الغرب وكان يحرق كل مدنية او قرية يجلو عنها لكنه ارتكب خطأ كبيراً عندما قرر التحرك عبر الغابات الاستوائية حيث واجة خطر المجاعة الكبري، وكان هذا الخطر سببا فى ضياع دولته، وقد طلب منه الفرنسويون

تسليم اسلحتة واستسلامه الا انه رفض وقرر الصمود حتى النهاية والاستشهاد فى سبيل كلمة الحق، وواصل الفرنسيون الحرب حتى تم القبض عليه فى التاسع والعشرين مع سبتمبر ١٨٩٨ وتم نقله الى الجابون حيث مات هناك فى ٢ يوليه عام ١٩٠٠ .

وفى داهومي :

فضل بيهانزن Behanzin ملك داهومى مثل ساموري استراتيجية المواجهة للدفاع عن استقلال دولته وبدأت المواجهة الاولى خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر عندما أعلن الفرنسيون الحماية على بورتونوفو Porto Novo وهى ولاية تابعة لابومي.

وعندما احتل الفرنسيون كوتونو فى عام ١٨٩٠ قام بيهانزن بتعبئة قواته، وهجم على الحامية الفرنسية كما ارسل قوة الى بورتونوفو لتدمير أشجار زيت النخيل وذلك حتى يجبر الفرنسيين على السعى نحو السلام.

وفى الثالث من اكتوبر تقدم دوجيرى Dujuiry باقتراحات للسلام مقابل الاعتراف بكوتونو Cotono منطقة تابعة للفرنسيين وحق الفرنسيين فى فرض رسوم ووضع قوات هناك مقابل دفع إعانة سنوية لبيهانزن تقدر بحوالى ٢٠,٠٠٠ فرنك، وقد تم توقيع معاهدة فى الثالث من اكتوبر ١٨٩٠ وساعدت هذه المعاهدة بيهانزن على تقوية جيشه وتزويده بالاسلحة الحديثة خاصة من الشركات الألمانية التى تعمل فى لومي، لكن الفرنسيين كانوا يصرون على غزو داهومى وفعلاً تم تعيين الكولونيل دودز Dodds لهذه المهمة ووصل فى مايو ١٨٩٢ كوتونو وبورت نوفو، وجمع الفى رجل، وتحرك الى نهرويم Wim. وفى الرابع من اكتوبر بدأ الزحف نحو داهومى وحاولت السلطات المحلية توحيد

صفوفها لمواجهة هذا الغزو ولكن فشلت كل المحاولات التقليدية ومنيت القوات الداهومية بخسائر فادحة حيث فقدت اكثر من الفى قتيل وثلاثة الآف جريح بينما فقد الفرنسيون عشرة ضباط ودمر الفرنسيون المحاصيل الزراعية مما أحدث مشكلة غذائية أجبرت القوات الى العودة الى قراها لتجنب المجاعة، وأدى ذلك الى تفوق الجيش الفرنسى وهذا ما اجبر بيها نزن الى السعى نحو السلام ولكن طلب منه تسليم اسلحته ودفع تعويضات كبيرة، وبدلاً من الاستسلم كما توقع الفرنسيون بدأ يعيد بناء جيشه،... وأستطاع تجميع الفى رجل وشن غارات عديدة فى المنطقة التى استولى عليها. ولكن الفرنسيين هاجموا مملكته وعزلوه وقام دودر بشن هجوم على شمال داهومي، وتم تعيين جوشيلى ملكا جديدا على داهومى وذلك فى ١٥ يناير ١٨٩٤ وبعد ذلك بدأ الفرنسيون مرحلة جديدة من التوسع شمالا الى بورجو Borgu .

ثانيا : المقاومة الوطنية ضد الوجود البريطانى

إذا كان الفرنسيون قد لجأو إلى وسائل العنف والحرب منذ احتلالهم أفريقيا الفرنسية الغربية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر فإن البريطانيين إستخدموا اسلوب الدبلوماسية والحلول السلمية ووقعوا عدة معاهدات للحماية مع الدول الافريقية مثلما حدث مع الأجزاء الشمالية من سيراليون، وشمال ساحل الذهب وبعض أجزاء من بلاد اليوروبا والاشانتى ودلتا النيجر وقد ولكن هذا لم يمنع البريطانيين من استخدام القوة إذا لزم الأمر وبالطبع كان رد الفعل الافريقى لايقل عنه فى أفريقيا الفرنسية الغربية .

وقد شهد تاريخ هذه المنطقة ألوانا من المواجهة والتحالف والإستسلام فى بعض الأحيان،

وسوف نحاول القاء الضوء على بعض انواع من المقاومة الوطنية.

المقاومة فى بلاد الاشانتي:

تمثل مقاومة الأشانتى للتوسع الأوربى البريطانى فى ساحل الذهب نوعاً من التحدى والصمود لهذا التوسع، وقد بدأ هذا الاحتكاك فى أواخر القرن الثامن عشر، ووصل الى ذروته فى عام ١٩٢٤ حيث إلتقى جيش الاشانتى الذى يضم أكثر من عشرة الاف جندى مع القوات البريطانية بقيادة ماكارثى (Macarthy)، وقد طوق الأشانتى الأعداء فى معركة ضارية ومنيت القوات البريطانية بخسائر فادحة ولقى القائد البريطانى حتفة فى هذه المعارك.

ومع استمرار القتال أضطر البريطانيون الى التفاوض مع الأشانتى وتم توقيع اتفاقية جديدة.

ودخل الاشانتى فى سلسلة من الحروب ضد البريطانيين الذين انتقموا فى معركة دودوا (Dodowa)، وفى عام ١٨٦٣ انخفضت حدة الحرب، ولكن فى عام ١٨٧٢ شن الاشانتى هجوماً ثلاثياً أدى إلى إحتلال كل الدويلات الجنوبية من ساحل الذهب، وقام الجنرال جارنت ولسلى (Gornt Walsely) بواحدة من اشهر الحملات ودخل كوماسى فى فبراير ١٨٧٤ بعد مواجهة عنيفة من الاشانتى الذين انهزموا أمام القوات البريطانية .

وترتبت على هذه الهزيمة نتائج خطيرة لعل من أهمها تجزئة الامبراطورية واعتراف الاشانتى فى معاهدة فومنيا (Fomena) باستقلال كل الدويلات التى كانت تابعة لهم جنوب نهربرا (Pra).

وقامت بريطانيا نتيجة الصراع الألمانى الفرنسى على مناطق غرب القارة

بمحاولة وضع الأشانتى تحت الحماية البريطانية ولكن رفض ملك الاشانتى حتى استقبال مقيم بريطانى فى كوماسي، وانتهز الإنجليز الفرصة واتخذوا من هذا الإنذار ذريعة وقاموا بشن هجوم واسع النطاق ضد الأشانتى تحت قيادة السير فرانسيس سكوت Scott ودخلت الحملة كوماسى فى يناير ١٨٩٦ بدون إطلاق الرصاص وقبل الملك الحماية البريطانية، ورغم ذلك فقد تم القبض عليه مع والدته وأعمامه ونقلوا الى سيراليون ومن هناك الى جدر سيشل فى عام ١٩٠٠ لتنتهى واحدة من أقوى ردود الفعل ضد التوسع الاوربى فى غرب افريقيا.

وفى **جنوب نيجريا** حاول البريطانيون إستخدام اسلوب إخضاع هذه الممالك ولكن حكام مملكة بنين وبعض حكام الدويلات فى دلتا النيجر اختاروا المواجهة وقام الاهالى بقتل القائم بعمل القنصل العام البريطانى وخمسة من الإنجليز أثناء توجههم الى بنين رغم وجود معاهدة حماية فى عام ١٨٩٢.

وفى مناطق كثيرة من الدلتا فى النيجر واجه البريطانيون مقاومة عنيفه حيث أصر الحاكم نانا (Nana) حاكم احدى دويلات النهر على التحكم فى التجارة على نهر بنين مما أجبر البريطانين على إرسال جيش للإستيلاء على عاصمته ولكن فشلت المحاولة الاولى فى ابريل ١٨٩٤ ونجحت الثانية فى سبتمبر من نفس العام وهرب نانا الى لاجرس حيث استسلم للحاكم البريطانى الذى حاكمه فى الحال ونقلة الى كلابار ومنها الى ساحل الذهب.

أما فى **شمال نيجيرا** حيث دولة الفولانى فى سكوتو والتى أسسها الشيخ/ عثمان بن فودى فى مطلع القرن التاسع عشر وصارت أقوى امبراطورية فى غرب أفريقيا، ولكنها واجهت بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ صراعاً أوربيا لضمها الى بقية أجزاء نيجيريا.

وكان من الطبيعى أن يرفض الخلفاء فى الإمبراطورية ذلك التوسع الأوربى وقد عهدت بريطانيا الى اللورد لوجارد (Lugard) بهذه المهمة الشاقة بعد أن صار مسئولا عن قوة حدود غرب افريقيا.

وعندما بدأ لوجارد سياسة الضم لتلك الدولة الإسلامية انتهج سياسة مقاومة الرق للتقدم نحو الإمارت الاسلامية فى الجنوب وبالفعل جهز حملة بقيادة الكابتن مورلاند (Morland) وتقدم نحو إمارة بولا، وبفضل الاسلحة الحديثة نجح لوجارد فى دخول مقر الأمير الذى هرب الى مدينة جورن، وأرسل خطاباً إلى الخليفة فى سوكدنو بطلب الدعم لكن الخليفة لم يحرك ساكناً ولم يرسل قوة لانقاذ هذه الامير، الذى تعقبته القوات البريطانية حتى قبضت عليه وأعدمته فى عام ١٩٠١.

وتوالى تقدم البريطانيين حيث استولوا على إمارتى بوش وجومبى اللتين رفضتا إعلان الولاء للبريطانيين ـ لكن الصراع الداخلى بين الامارات جعل من الصعب تنسيق المواقف والإتحاد ضد هذا الغزو الاوربى فضلاً عن أن الخليفة فى سوكوتو وقف مكتوف الأيدى أمام هذا الغزو مما سهل للبريطانيين ولوجارد بشكل خاص التقدم نحو إمارة زاريا وتقدم الكابتن بورتر (Porter) الذى دخل الإمارة ورفض السلطة البريطانية عليها وعين مقيماً لها.

وبعد ان سقطت الإمارات الجنوبية بدأ لوجارد سياسة دبلوماسية لإخضاع الخليفة فى سوكوتو الذى رفض تعيين مقيم للبريطانيين فى عاصمته وتعقدت الامور وصار من الواضح أنه لابد من إخضاع هذه الدولة وضمها الى التاج البريطانى خصوصاً بعد شدة الصراع الاوربى على تلك الأجزاء.

وفشلت كل المحاولت الدبلوماسية لأن الخليفة رفض التعاون تماماً مع من اسماهم الكفار وهذا ماجعل لوجارد يختلق خطاباً يبرر به أسباب غزو هذه الدولة ويحمل الخليفة مسئولية إجبار البريطانيين على الحرب.

بعد ان إستكمل لوجارد الإستعدادات قرر فى ابريل ١٩٠٢ الهجوم على إمارة كانو أقوى أمارات دولة سوكوتو، وتقدمت قوات الكولونيل مورلاند الى المدينة التى قاومت هذا الغزو فترة طويلة ولم يستطع البريطانيون إقتحام المدينة إلا بعد استخدام مدافع المكسيم وإشعال النيران فى أسوارها وظل الجيش الإسلامى يقاوم حتى استشهد القائد شانو محمد مع حفنة مع الزعماء المسلمين .

وبعد سقوط كانو تقدمت القوات البريطانية نحو العاصمة سوكوتو واجتمع الخليفة مع مستشارية للتشاور فى الأمر واتخاذ القرار المصيرى بشأن هذه الإمبراطورية واقترح البعض الهجرة لكن الرؤساء عارضوا ذلك وأمام هذه الاصرار أضطر الخليفة/ محمد الطاهر الاول مواصلة القتال حتى النهاية وحدث الإلتحام ودارت المعارك التى كانت اخرها معركة بورمى الأولى والثانية التى انتهت بعجز الوسائل الدفاعية امام الزحف البريطانى وقتل أكثر من ١٦٠٠ مسلم فى هذا الهجوم وقبل أن تغرب شمس يوم ٢٧ يوليه ١٩٠٣ وعلى اشلاء حيث الضحايا المجاهدين وبين الدخان والدمار فى مدينة بورمى جاءت النهاية المحترمة لدولة الخلافة الاسلامية ودخلت الدولة تحت السيطرة البريطانية بعد انضمام جنوب نيجريا مع شمالها فى دولة واحدة.

ولعل سر هزيمة القوات الأفريقية إنما يعود الى عدم التنسيق وإستخدام الاوربيين لأحدث الأسلحة وإستمرار حملات الجهاد الإسلامى ضد الوثنيين طوال القرن التاسع عشر وهو ما فتت جهود المسلمين بتلك الصراعات الداخلية.

وفى **سيراليون** التى نشأت اساسا كمستعمرة للرقيق المحرر من المستعمرات البريطانيه ظهرت حركة الزعيم بى بورية الذى قاد شعب التمن

والماندى ضد ضريبة الكوخ التى فرضها الإنجليز فى سيراليون لتدعيم الحكم البريطانى وتوسيع سلطات البوليس وتعيين موظفى الأحياء وتطبيق قانون المحمية الصادار فى عام ١٨٩٦ وكان فرض هذه الضريبة على الأكواخ بما يعادل خمسة شلنات فى السنة للمسكن المكون من حجرتين وعشرة شلنات للمنازل الكبيرة ـ سبباً فى قيام الثورة بقيادة بى بورية، وهاجم الثوار المراكز التجارية وتقلدا الموظفين البريطانيين وكل الذين شكوا فى مساعدتهم للبريطانيين وأضطرت بريطانيا الى إرسال تعزيزات للدفاع عن فريتون التى هددها الثوار واستطاعت هذه القوات ان تضع نهاية لهذا الثورة لكن المعنى الحقيقى يكمن فى ان الأفارقة لم يستسلموا بسهولة لهذا التوسع الأوربى فى غرب القارة.

هذه أمثلة للنضال والكفاح الأفريقى ضد التواجد الاوربى خاصة البريطانى والفرنسى فى غرب أفريقيا. وقد أدى هذا الكفاح إلي نيل الدول الافريقية لاستقلالها.

٢ـ تصفية الاستعمار فى غرب افريقيا ونيل الإستقلال

ساعدت عوامل كثيرة على ازدياد النشاط الوطنى فى دول غرب افريقيا بعد الحرب العالمية الأولى لأن فترة ما بين الحربين كانت من أقصى الفترات فى الحقبة لاستعمارته نظرا لشدة القبضة والتحكم فى المستعمرات وكان التجنيد الإجبارى لكثير من الافارقة سببا فى اثارة الغضب والحنق الوطنى وقد اثبتت الحرب للأفريقى ان الرجل الابيض لم يعد بعد الرجل المثالي، وانه يمكن مقاومته. وبعد الحرب ازداد شعور الافرقة بضرورة الحصول على امتيازات، ومشاركة اكثر فى ادارة شئونهم فضلا عن تطبيق مبادئ الديمقراطية، وحق تقرير المصير الذى نادى به الرئيس الأمريكى ويلسون .

لكن أهم هذه العوامل هو تلك الاحوال الإقتصادية التى ظهرت فى فترة ما بين الحربين، واول شيئ يلاحظ فى هذا الخصوص فى السياسات القومية فى غرب افريقيا فى فترة ما بين الحربين هو الطريقة التى اثرت بها الازمات التجارية والتغيرات فى الإقتصاد الاستعمارى وكانت للحرب العالمية الأولى أثارها على إنتشار موجه السخط والإحتجاج فى المدن الكبري، وقيام الصحافة بالدعوة الى تشكيل المؤتمر الوطنى لغرب أفريقيا البريطانية، والغاء نظام مستعمرة الانتاج حتى يتمكن الافارقة من إلادلاء برأيهم فى تيسير اقتصادهم والمشاركة فى الهياكل التشريعية وإلادارية

واخر هذه الأمور ظهور حركة القومية الإفريقية خاصة انشاة دى بوا (Dubois) وماركوس جاروفى (Garvey) فى العشرينيات، وكانت الموتمرات التى نُظمت فى مارس ١٩١٩ فى لندن وبروكسيل وباريس ١٩٢١ ولندن ولسيونه ١٩٢٢ ونيويورك ١٩٢٧ المشرف وكل هذا قد ساعد على تقوية الوعى بالسود فى كل انحاء العالم والسعى نحو المساواة بالاجانب فى التعليم الجامعي، والتساوى فى المرتبات والتمثيل المشرف فى المجالس التشريعية والتنفيذية والغاء التفرقة العنصرية.

وسوف نلقى الضوء على تصفية الوجود الاستعمارى فى أفريقيا الغربية خاصة الاستعمارين البريطانى والفرنسى بعد الحرب العالمية الثانية التى شهدت ظهور الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى باعتبارهما أقوى قطبين ظهرا بعد الحرب، وتأثير حكومة العمال التى تولت السلطة فى بريطانيا بعد انتخابات يولية ١٩٤٥ وغياب المجتمعات البيضاء فى غربُ افريقيا وثورة الغضب والسخط التى انتشرت بين الوطنين.

اولاً: تصفية الوجود الاستعماري فى افريقيا البريطانية

نظـراً لان بريطانيـا من خـلال مستـعمـراتها الاربع فـى غر القـارة قد لعبت دوراً كبيـرا فى تاريخ هذه الدول ونظراً لأن الحركـة الوطنيـة بهـا قـد سـاهمت بنصيب كبير فى تحقيق الإستقلال فإن عرض هذه الجـهـود يوضح بما لايدع مجـالاً للشك دور هذه القيادت الوطينة فى بناء نسيج الإسـتقـلال الوطنى فى نيـجـيـريا فى أول اكـتـوبر ١٩٦٠ وسـاحل الذهـب التى اسـتـقلت فى مـارس ١٩٥٧ وسيراليون التى حققت الإستقـلال فى ابريل ١٩٦١ واخيراً جامبيا فى اول فبراير ١٩٦٥

أ- ساحل الذهب :

قـاد النضـال الوطنى فى سـاحل الذهب طبقـة المثقفين عندمـا تشكل حـزب الشعب بزعامة كوامى نكروما فى الفترة من ١٩٤٥ وحتى ١٩٤٩، حيث انه فى عـام ١٩٤٧ تشكل حـزب سـاحل الذهب المتحد للإحـتجـاج على دسـتور ١٩٤٦ الذى نص الأول مرة على أغلبية غير رسـمـيـة فى المجلس التـشـريعى، والسـعى نحـو الحكم الذاتى فى أقـرب وقت ممكن، وقـد تزعم الحـرب السـيـد جـرانت (Grant) تاجـر العـاج وكـان نائب الرئيس السـيـد بليي (Blay) ودانكـواه (Danquah) وهمـا من المحامين المشـهـورين وفى عام ١٩٤٨ ظـهـرت حـركة شبابية وطنية سـاهمت فى تشكيل حزب الشعب الوطنى وذلك فى يونية ١٩٤٩ وهو الحزب الذى قاد النضال الوطنى حتى الاستقلال فى مارس ١٩٥٧.

ففى ٨ يناير أعلن كوامى تكروما العمل الايجابى وهـو حـملة عصيان مدنى تبـدأ بموجـة من الغـضب وتنتـهى بالإضـراب والمقـاطعـة وعـدم التـعـاون مع البـريطانيين ونجح هذا العـمل الايجـابى فى شل حـركـة المصـالح البـريطانيـة، وتوقفت الحياة الإقتصادية، وانعزلت وسـائل النقل والمواصلات فى غانا.

وبعد إعلان العمل الايجابى إندفعت الجماهير الى الشارع تطالب بالحكم الذاتى، وادى هذا الى المزيد من العنف والشغب والاضطرابات فى اجزاء كثيرة من الدولة وحاولت الحكومة إحكام قبضتها باعلان حالة الطوارئ فى يناير ١٩٥٠ وحاصر الانجليز زعماد حزب الشعب ونكروما بالذات ووجهت اليهم تهم عديدة وحكم على نكروما بالسجن لمدة ثلاث سنوات . ووضع معظم القواد فى السجن ولكن مع انتصار حزب الشعب فى الانتخابات العامة فى فبراير ١٩٥١ وحتى تحقيق الاستقلال نجد ان هذا قد تحقق من خلال عملية مستمرة من المفاوضات السياسية والدستورية وأمام الضغط الشعبى أضطرت بريطانيا الى منح غانا الإستقلال فى مارس ١٩٥٧ .

ب ـ نيجيريا ـ

قاد النضال الوطنى فى نيجيريا رجال الطبقة المثقفة رغم وجود بعض رجال الاعمال والعناصر الراد يكالية، وكان رجال الصفوة المثقفة قد تلقوا تعليمهم فى الخارج وعادوا ليتدلدا مناصب المحامين والمدرسين والأطباء والصحفيين وكان بعضهم يحظى بثروة مالية أمثال نامدى ازيكوى الذى قاد النضال فى الاربعينيات وكانت إستثمارات ضخمة فى صحافة زيك (Zik) المحدودة

ورغم انه كان يتحدث عن العنف فى الأربعينيات لطرد البريطانيين من نيجريا إلا أنه لم يكن ثورياً بل وعندما تزعم اعوانة حملات العنف ضد الحكومة البريطانية انتقد ما أسماه بالحماس الشبابى .

وأيضاً عارض الزعيم أوبافيمى اولوو أسلوب العنف لإجبار الحكومة البريطانية على منح التنازلات الدستورية.

وفى الفـتـرة مـا بين ١٩٤٦ و ١٩٥١ كـسب المؤتمر الوطنى لنيـجـريا والكامـيـرون تأييـد الاتحـادات التـجـارية خـاصـة الجـزء الذى يقـوده ندوكـاز (Notukaeze)

ويمكـن أن نقـسم الحـمـلات من اجل اسـتـقـلال نيـجـيـريا الى مـرحلتين متميزتين: احـداهمـا من عام ١٩٤٥ وحـتـى عام ١٩٥١ عندما تشكلت الحكومة شبة النيابية والثانيـة من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٦٢ عندما تشكلت الحكومة المسئولة فى نيجيريا .

كان النضال فى المرحلة الأولى كلامياً من خلال الصحف وتقديم الإلتماسات والتهديد بالكلمات العنيفة فى المحافل السياسية وذلك للضغط على الحكومة البريطانية فضلاً عن بعض أعمال العنف والمظاهرات فى مدن بورت هاركورت و اونتشا وكالإبار وابا وأيضاً أحداث اينجور التى راح ضحيتها تسعة وعشرون شخصاً وجرح اكثر من إحدى وخمسين شخصاً آخرين وذلك اثناد اضطربت نوفمبر ١٩٤٩.

وبعد هذه الأحداث تشكلت لجنة الجبهة المتحدة-United front Committee، ولجنة الطوارئ الوطنيـة National Emergency Committee ونتيجة لهذه الأحداث أصدرت الحكومة دستور ١٩٥١ الذى نص على إنشاء مجالس نيـابيـة فى كل من الأقـاليم الثـلاثة ومـجلس تشـريبي مـركزى يضم ممثلين عن المجالس الإقليميـة وأدى هذه الى ظهور حـزبين هـمـا مـؤتمر شـعوب الشـمـال (N.P.C) للإقليم الشمـالى وحـزب جمـاعـة العمل (A.G) للغرب، بالاضـافة الى الحزب الوطنى لنيجيريا والكامرون (N.C.N.C) الذى كانت له الشعبية فى الشرق، وكان هذا الإنقسام فى الحركة الوطنية وسيطرة النزعة الإقليمية فى كل من الاحـزاب الثـلاث قـد دفع الزعـيم ازيكوى الى الإنسـحـاب من الحـيـاة السـياسية لعدة سنوات .

وتمشياً مع التطور الدستورى أصدرت بريطانيا دستوراً جديداً فى عام ١٩٥٦ عُرف باسم دستور مكفرسون (Moferson) لكنه كان غير كاف لاشباع رغبة الزعماء الوطنيين فى الحصول على المزيد من الامتيازات الدستورية وطالبت الأحزاب بالإستقلال التام فى عام ١٩٥٦ لكن حدث اختلاف حول هذا الموعد واضطرت بريطانيا الى العودة لعقد مؤتمر دستورى فى لندن فى يولية ١٩٥٣ لإعارة صياغة دستور ١٩٥١ ولأجل توسيع سلطات الحكم الذاتى وتحقيق سلطات المركز الرئيس على الاقاليم.

ونظراً لإختلاف الأراء حول موعد الحكم الذاتى اعلن وزير المستعمرات انه لايستطيع منح هذا الحكم لكل أقاليم نيجريا فى عام ١٩٥٦ ووعدت الحكومة البريطانية بمنح الحكم الذاتى لاى إقليم حسب ظروفه ه ومتى رغب فى ذلك فى عام ١٩٥٦ وقد علقّ ازيكى على هذا العرض بقوله إن هذه أول مرة فى تاريخ الإستعمار البريطانى يعرض فيها الحكم الذاتى لشعب مستعمر على طبق من ذهب.

وتوالت المؤتمرات الدستورية فى عام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ اسفرت عن إصدار دستور جديد هو دستور ليتلتون (Lyttelton) الذى طبق فى عام ١٩٥٤ ونص على قيام نظام فيدرالى وصار لكل إقليم رئيس وزراء يمكن ان يرأس المجلس التنفيذى الوطنى عند غياب الحاكم، ولكن لم ينص على وظيفة رئيس الوزراء الفيدرالى .

وفى عام ١٩٥٧ حصل الإقليم الشرقى على حكم ذاتى داخلى كما تم الإتفاق على تعيين رئيس للوزراء على المستوى الفيدرالى وانعقد المؤتمر الدستورى فى لندن عام ١٩٥٨ وفيه تم الإتفاق على حكم ذاتى اقليمى فى عام ١٩٥٩ وفى اكتوبر ١٩٦٠. صارت نيجيرا دولة مستقلة تماماً.

إن تجربة نيجيريا تمثل نموذجاً للصراع بين القادة الأفارقة والثمن الذى دفعه النيجيريون للإستقلال هو أن الاقليم الشمالى يسيطر على البرلمان الفيدرالى بينما احتفظت الأقاليم الثلاثه الأخرى باستقلال ذاتى وهذا ما شجع جماعة الغالبية فى كل إقليم والهوسا فى الشمال واليوروبا فى الغرب والاجبو فى الشرق ـ على السيطرة على الأقليات المحلية وقد أدى هذه الى سياسة ثنائية أفسدت نظام الحكم ف يالدولة وقام ضباط الإجبو من الشباب بقلب نظام الحكم فى عام ١٩٦٦ وانفصال إقليم بيافرا عن جسد الدولة، واعتبرا هذا الانقلاب على انه قبلى وثار الشماليون ضد الإجيو وفشلت المفاوضات وأعلن الاجبو إنفصال بيافرا وحارب الإتحاد الفيدرالى ضد الإنفصال حتى انتهى تماما، وأُعيد تقسيم الدولة الى اثنى عشرة ولاية لتحقيق مصالح الأقليات وعادت بيافرا فى يناير ١٩٧٠ بعد ثلاثين شهراً من المقاومة ضد السلطة المركزية .

وفى ظل الحكم العسكرى حتى عام ١٩٧٩ تحول النظام السياسى فى نيجيريا نتيجة زيادة عدد الولايأت او الثروات الضخمة من البترول وبدلاً من ثلاثة أقاليم قوية تكافح من أجل الحكم الذاتى تنافست ثلاثة ولايات صغرى على النفوذ مع الحكومة المركزية وهذا ما حبها نيجريا بدلاً من دولة واحدة عبارة عن وحدات غير مركزية وظهرت هذه ألامور فى الجمهورية الثانية (١٩٧٩ ـ ١٩٨٣) حيث فقدت الأحزاب إحتكارها الاقليمى وانتشر الفساد والفوضى القبلية، وفى عام ١٩٨٣ استولى الجيش على السلطة من جديد لكى يحمى الدولة من الأنهيار الحتمي، وبعد عشر سنوات تعهد باعادة الحكم المدنى لكنه عارض انتخاب رئيس من الجنوب وبالتالى أحيا المشاعر الإقليمية وترك الدولة غير واثقة من طبيق الديمقراطية فى هذه الفترة.

جـ- سيراليون :

قادت الأقلية المتعلمة فى سيراليون النضال من أجل الحرية وحتى أواخر الاربعينيات قادت جماعات الكريول Creoles المتعلمة فى المستعمرة حركة النضال، ومنهم الدكتور / بانكول برايت Bankole Bright والسيد ديورنج Durng المحامى والسيد والاسى جونسون الصحفى والطبيب ريفيل Refell وقد شكل هؤلاء الحزب الوطنى لسيراليون والذى قدم برنامجاً معتدلا يهدف الى تصفية الاستعمار تماماً.

ومنذ اواخر الأربعينيانت انتقل النضال فى الحركة الوطنية الى جماعةُ اخرى ومعظمهم من مدرسة بو (Bo) الحكومية فى المحمية، وكان من بينهم رجال أمثال الدكتور ميلتون مارجيا (Milton Mangai) واخوه البرت مارجيا المحامى والسيد سيكارستيفن (Siaka Stevens) وهم جميعا من قبيلة الماندى الذين كونوا جمعية تنظيم سيراليون فى عام ١٩٤٦ وصدر دستور جديد فى عام ١٩٤٧ ولكن رفضت الصفوة المتعلمة فى المحمية الاصلاحات ١٩٤٦ ودستور ١٩٤٧ ورفض الحكومة البريطانية أية التماسات. كل هذا ادى الى إندلاع اضطرابات فى مناطق الماندى الجنوبية فى الفترة من ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥١.

وفى عام ١٩٥٠ شكل الكريول جبهة مشتركة من كل الزعماء فى المحمية وبدأ تشكيل حزب سياسى جديد هو حزب شعب سيراليون Sierra Le(S. L. P. P)one Peoples Party وقد كسب هذا الحزب الانتخابات حسب دستور ١٩٥١ وتشكلت أول حكومة نيابية فى سيراليون، وكان الطريق نحو الاستقالال هادئاً حيث تم ذلك من خلال عدة تعديلات دستورية.

وصدر دستور جديد فى عام ١٩٥٣ أعطى للوزراء الأفارقه المسئولة عن بعض الأعمال التنفيذية المحدودة وصار الدكتور مارجيا يحمل اسم الوزير الرئيس وفى عام ١٩٥٦ حدث تعديل جديد وصار الدكتور مارجيا رئيسا للوزراء وفى عام ١٩٥٨ تم تعيين وزير أفريقى كوزير للمالية لأول مرة رغمانه لم يكن مسئولاً بشكل مباشر عن السياسة المالية حتى عام ١٩٥٩م، وبعد زيارة وزير المستعمرات لفريتون فى يونية ١٩٥٩ وافق زعماء سيراليون مع الوزير على إجراء محادثات دستورية فى اوائل عام ١٩٦٠ لبحث الإستقلال.

وانعقد مؤتمر لندن فى الفرة من ٢٠ ابريل حتى ٤ مايو ١٩٦٠ وتم الإتفاق بين كل الوفود ـ عدا سيكا ستيفن (Siaka Stevens) الذى أصر على ضرورة اجراد انتخابات قبل الإستقلال مثلما حدث فى ساحل الذهب ونيجيريا على أن تصبح سيراليون دولة مستقلة فى ٢٧ ابريل ١٩٦١ .

وفى بداية الموتمر الدستورى العام جمع الدكتور مارجيا الأحزاب المتنافسة مثل الحزب التقدمى المتحد (U. P. P) وحزب الشعب الوطنى (P. N. P) فى تحالف واحد أطلق عليه الجبهة الوطنية المتحدة، وبعد المؤتمر شكل الدكتور مارجيا حكومة وطنية من اعضاء هذه الجهه ورغم كل هذا فان جبهة معارضة من عمال فريتون وبعض المدن الأخرى حملت اسم حزب كل الشعب (All peoples Congress) وبدأت تعد لحملة عسكرية ضد الاستقلال قبل الانتخابات العامة، وفى اواخر فبراير ١٩٦١ حدث تصادم عنيف بين هذه المعارضة ـ والجبهة الوطنية المتحدة وألقى القبض على خمسة عشر عضواً من المعارضة كما تم القبض على الزعيم سيكا وبعض المعارضين قبل إعلان الاستقلال بشهرين، وفى ٢٧ ابريل ١٩٦١ أوفت بريطانيا بعهدها ومنحت سيراليون الإستقلال

د- جامبيا.

سيطرت مجموعة من المثقفين فى باثورست وكومبو على الحركة الوطنية فى جامبيا ومنهم جون فاى (Gohn faye) زعيم اول حزب سياسى جامبى وهو الحزب الديمقراطى فضلاً عن حزب المؤتمر الإسلامى بزعامة جاربا جاهامبا (Garba Jahumpa) والحزب المتحد بزعامة نجاى المحامى المشهور (N.Jie).

وفى عام ١٩٦٠ انتقلت الزعامة إلى أيدى الصفوة من المتعلمين فى المحمية، وصار دافيد جاوارا (Davidjawara) الذى صار زعيم حزب الشعب التقدمى (Progressive Peoples party) هو الشخصية البارزة فى المجال السياسي.

وكانت بريطانيا قد سمحت فى عام ١٩٤٦ لكل من باثورست وكومبو باختيار ممثل واحد فى المجلس التشريعى أعضاء كما أدخل الدستور الجديد غالبية غير رسمية من بين أعضاء مجلس تشريعى من ثلاثة عشر عضواً وثلاثة اعضاء معينين غير رسمين فى المجلس التنفيذي، وفى عام ١٩٥١ زاد عدد الاعضاء غير الرسمين فى المجلس التنفيذى الى أربعة اعضاء وكانت هذه الإصلاحات سبباً فى ظهور الاحزاب السياسية السابق ذكرها والتى ساعدت على تغير الأحوال فى جامبيا .

وفى عام ١٩٥٤ صدر دوستور جديد سمح بزيادة ممثلى المستعمرة الى سبعة أعضاء ينتخب منهم أربعة بشكل مباشر وثلاثة بطريقة غير مباشرة وكما أن المحمية بها سبعة أعضاء يختارون من المثقفين من خلال جهاز انتخابي، ورغم كل هذا فقد إنتقد الزعماء هذا الدستور خاصة إنه يساوى بين عدد

المقاعد لسكان المحمية والمستعمرة رغم أن المحمية تضم خمسة اصناف سكان المستعمرة .

وفى أواخر عام ١٩٥٨ طالب زعماء كل الأحزاب فى مؤتمر بريكاما (Brikama) بضرورة إصلاح دستور ١٩٥٤ وبناءً عليه دعا الحاكم الجديد الى عقد مؤتمر لكل الجماعات السياسية فى باثورست والمحمية لمناقشة الموقف ووافق المؤتمر على مقترحات بعيدة الأثر مثل انشاء وزارة تحت إشراف وزير رئيس ومجلس تشريعى ينتُخب حسب مبادْ الاقترا ع العام البالعين فى كل الدولة.

وفى عام ١٩٦٠ صدر الدستور الجديد الذى وسع من عضوية المجلس التشريعى وتشكلت حكومة من الحاكم وأربعة أعضاء بحكم وظائفهم وعدد أخر لايزيد عن سته أعضاء ونتيجة لإضراب عمال اتحاد جامبيا فى مارس ١٩٦١ قامت الحكومة بعقد إجتماعات فى لندن وبارثورست لمناقشة مستقبل الدولة.

وفى مايو ١٩٦٢ أجريت الإنتخابات وحصل حزب الشعب التقدمى على سبعة عشر مقعداً من إجمالى خمسة وعشرين فى المحمية، وصار دافيد جاورا رئيسا للوراء وكان عليه التفاوض لتصفية الاستعمار ولكنه وجد الأوضا ع الاقتصادية متردية وبالتالى لم يتعجل الإستقلال لندن وفى ولية ١٩٦٤ انعقد مؤتمر فى لندن وافق على أن تحصل جامبيا على إستقلالها داخل الكومنولث فى ١٨ فبراير ١٩٦٥.

ثانيا: تصفية الوجود الإستعمارى فى افريقيا الغربية الفرنسية.

إختلفت طبيعة التحول من الحقبة الاستعمارية الى الاستقلال فى كل من غرب افريقيا البريطانية عنها فى الفرنسية. فبينما كان زعماء غرب افريقيا

البريطانية يطالبون بقدر معقول من الحكم الذاتى فى نهاية الحرب العالمية الثانية نجد أن الهدف الأساسى لزعماء غرب أفريقيا الفرنسية هو مجرد إستخلاص وعود الإصلاح من فرنسا حسبما وعدت به فى مؤتمر برازافيل ١٩٤٤ مثل إلغاء قانون الاندنجنا، وتحسين الوضع السيئ للمواطنين، ومشاركة أكبر فى العملية السياسية فى الإمبراطورية الفرنسية وتحسين الاحوال الاجتماعية والإقتصادية للشعب، وكان الزعماء الافارقه يحبذون الإصلاح عن الاستقلال ويرغبون البقاء داخل الجماعة أو الأتحاد الفرنسى .

ولقد كان الهدف فى السنوات العشر بعد الحرب وبعد انتخابات عام ١٩٤٦ عدم النقاش فى الإستقلال ولكن فى طبيعة العلاقة الدستورية بين المناطق الأفريقية وفرنسا وباستثناء حركات الاستقلال فى كل من المغرب والجزائر والحروب فى الهند الصينية فإن قبضة فرنسا على غرب أفريقيا ظلت قوية .

ففى عام ١٩٤٨ نجد أن سنجور نفسه تخلى عن زميله الأمين جوى (Gueye) وشكل حزباً جديدا باسم الكتلة السنغالية الديمقراطية Bloc Democratique Senegalais (S.D.S)

وكان هدف سنجور موجهاً ضد الصفوة الأفريقية الحضرية فى المراكز الأربع وضد الرؤساء المحليين واعتمد أساساً على المرابطن فى حملته ضد الرؤساء والمرابطون عموماً طبقة صفوة ذات تأييد شعبى قوى اذا ماقورنوا بالرؤساء .

وكان غرب أفريقيا الفرنسية قد إنقسم الى ثمانية مناطق إدارية وكانت تحكم منذ عام ١٩٠٠ على أساس إنها إتحاد فيدرالى مركزى حيث كانت كل الخدمات الكبرى تحت رقابة الحاكم العام وحده صاحب الحق فى اصدار القرارات، وكان هو صاحب التحكم فى الميزانية وكان وحده صاحب السلطة فى زيادة القروض

وفـرض رسـوم أو ضـرائب جـديدة على الصـادرات وهو الذى يعـيـد تـوزيع المسئوليات فى المستعمرات.

وبناء على طلب المستعمرات فى المز يد من الإصلاحات بدأ منديس فرانس (Mendes - France) فى عام ١٩٥٤ فى إقتراح بعض الإصلاحات، واولها كان دستور جديد لتوجو حيث سمح لها بتشكيل مجلس حكومي، ولكن كل اصلاحت منديس فرانس لم تظهر الى حيز الوجود الا فى عام ١٩٥٦ وقد تجسدت هذه الإصلاحات فى ملامح قانون جديد عرف باسم (Loi Cadre) القاندن الإطارى الذى عُرض بعض انتخابات ١٩٥٦ على الجمعية الوطنية وصار هوفى بوانيه وزيراً مفوضا فى حكومة شكلها جى موليه بعد الإنتخابات.

وكان القانون الإطارى قد طبق فى انتخابات مارس ١٩٥٧ فى المجالس الاقليمية والذى أعطى قدراً من المسئولية لحكومة المناطق التابعة لأفريقيا السوداء، وكان القصد منه اعطاء جرعة مسكنة للأفارقة فى عالم يتحقق فيه الاستقلال بسرعة بين الشعوب المستعمرة، وكان جاستون ديفير Deferre الوزير السمئول عما وراء البحار وادخال القانون الاطارى قد اعلن فى حديث امام الجمعية الوطنية فى ٢١ مارس ١٩٥٦م بأن البريطانيين قد غيروا النظم السياسية الإدارية فى مستعمراتهم وهذا قد زاد من قلق شعوب أفريقيا الفرنسية الغعبية والإستوائية.

والحقيقة إن فرنسا مسئولة عن كل هذا بعد إساءة سمعتها فى الهند الصينية وإجبارها على منح الإستقلال لتونس والمغرب والموافقه على منح مبدأ الحكم الذاتى لواحدة من وحداتها فى غرب أفريقيا وهى توجو.

ومع ذلك فإن القانون الإطارى كان مصمماً للحفاظ على شعوب المناطق فيما وراء البحار وفرنسا الام وعند تطبيق هذا القانون فإن زعماء أفريقيا السوداء لم

يحتجوا على فكرة هذا الإتحاد، لكن فقط كيفية التنفيذ ولم تدخل كلمة الإستقلال فى المفردات السياسية العامة الا فى يونيه ١٩٥٨ عندما خاطب سيكوتورى المؤتمر الرابع للحزب الديمقراطى لغينيا (P.D.G) فى كوناكري. وقد أعلن أن غينينا لن تتخلى عن إستقلالها حتى ولو ربطت مصيرها مع فرنسا وهكذا دخل الإستقلال فى المناقشات السياسية العامة بشكل واضح.

١٣ مايو والاستقلال:

كان تولى ديجول السلطة في١٣ مايو وإجراء استفتاء عام ١٩٥٨ بداية الإنفصال التدريجى لعدد من الجمهوريات، وفى خلال عامين إنقسم هذا المجتمع الفرنسى الأفريقي. ولقد كان ديجول من رجال برازافيل ولمدة عقد من الزمان كان هو ورجاله يدركون رد الفعل تجاه هذه الإمبراطيرة الاستعمارية وبالتالى فإنه وعد بدستور جديد يعيد النظر فى علاقات فرنسا بمستعمراتها ووافقت الدول السمتعمَرة فى غرب أفريقيا على البقاء داخل الجماعة الفرنسية عدا غينينا التى رفضت البقاد داخل الجماعة وأعلن ٨٠٪ من الناخبين رغبتهم فى الاستقلال فى الثانى من اكتوبر ١٩٥٨ وكان هذا بداية الإنهيار والدمار للمجتمع الفرنسي، وباعلان اختفاء افريقيا الغربية الفرنسية كوحدة سياسية فان دستورد ويجول قد ايد بلقنة افريقيا الفرنسية وحاولت السنغال والسودان الفرنسى معارضة هذه التلقنه بانشاء اتحاد مالى الذى ضم اساسا فولتا العليا وداهومي، لكنهم تركوه تحت ضغط ساحل العاج وطالب هذا الإتحاد باستقلاله فى سبتمبر ١٩٥٩ وكان عل فرنسا الموافقة على ذلك فى العشرين من يونيه ١٩٦٠ وتبقى ذلك الدول الاخرى التى حققت استقلالها خلال اغسطس (داهومى فى اول اغسطس والنيجر فى الثالث منه وفولتا العاليا فى اليوم الخامس وكوت ديفوار فى اليوم السابع) وبقيت موريتانيا التى حققت استقلالها فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠.

جـ- حركات المقاومة الافريقية في شرقي افريقيا حتي الاستقلال*

تعددت الدول الاستعمارية التى تكالبت على شرقى افريقيا. فقد استعمرت إيطاليا كلا من الصومال الجنوبى وأريتريا ، بينما استعمرت فرنسا جيبوتي، واستعمرت بريطانيا الصومال الشمالي. هذا عن منطقة القرن الافريقي. أما منطقة شرق افريقيا فقد استعمرت بريطانيا كلا من أوغندا وكينيا، كما خلفت الاستعمار الألماني في تنجانيقا منذ الحرب العالمية الأولي بعد طرد القوات الألمانية منها كما استعمرت زنجبار كذلك. أما موزمبيق فقد وقعت منذ فترة مبكرة ضحية الاستعمار البرتغالي.

ولا يسعنا بطبيعة الحال أن نتناول كل هذه البلاد وما وقع فيها من حركات مقاومة. ويحق لنا بالتالى أن نشير إلى نماذج من هذه المقاومة. ولكن بصفة عامة يمكن القول بأن الشعوب الافريقية رغم ما عانت من المستعمر، لم تكف عن مقاومته . فقدتعرضت قوات المستعمرين، عند قيامها باحتلال تلك البلدان لمقاومة عنيفة، لكنها لم تكن متكافئة فبينما كان المستعمرون يقاتلون بأعتى الأسلحة النارية فتكا كان الأفارقة يقاتلون بأكثر الأسلحة بساطة وأقلها تأثيرا، من سهام وحراب خشبية هزيلة. وقدم الأفارقة في سبيل المقاومة نماذج فذة من التضحية بالروح والنفس والنفيس .

وقد قاومت مملكة المونوبوتابا في موزمبيق البرتغاليين عند حلولهم بها، كما قاومت سلطنة زنجبار ما وسعتها المقاومة، وقاومت شعوب تنجانيقا الألمان عبر سلسلة متعاقبة من الهبات القبلية، ومنها جهود المقاومة التى قادها بوشيري، وقاومت الصوماليون كلا من الانجليز والإيطاليين والأحباش، كما قاوم الكينيون والأوغنديون البريطانيين. ومن نماذج هذه المقاومة ما يلي:

---

* أ.د. السيد علي أحمد فليفل

١ ـ حركة المقاومة فى الصومال:

قاوم السيد محمد عبد الله حسن قوى استعمارية متعددة، وذلك بسبب تكالب أكثر من دولة استعمارية على بلاده. فقد كان عليه أن يتعامل مع أكثر من دولة استعمارية فى بلاد الصومال. وقد بدأ حياته كطالب علم، ثم سافر إلى الحجاز ومصر حيث حج وجاور لتلقى العلم. كما أن السيد محمد صار من أتباع السيد محمد صالح شيخ الطريقة الصالحية الأحمدية، وعاهده على مجاهدة المستعمرين.

وعلى هذا فإن السيد محمد عبد الله حسن عاد إلى بلاده مزودا بالعلم والروح الإسلامية الدافعة للنضال والجهاد، وذلك مع أواخر أعوام القرن التاسع عشر حيث انضم إلى بنى جلدته للتصدى للقوات الحبشية فى أوجادين، كما قام بالهجوم على القوات البريطانية فى الشمال. ونجح فى الأعوام من ١٨٩٩ وحتى ١٩٠٤ فى هزيمة عدة كتائب بريطانية وحبشية ، وأدى ذلك إلى حالة من الرعب فى صفوف هذه القوات، ففكرت فى التفاوض معه.

وفى عام ١٩٠٥ تم التوصل إلى اتفاق إيطالى بريطانى حبشي مع السيد محمد عبد الله حسن، صارت له بمقتضاه حقوق التجارة وإدارة شئون دولته تحت رعاية إيطالية. كما صار له ميناء على المحيط الهندى هو ميناء إيلليج . ولكن البريطانيين انتهزوا حالة السلم هذه و وبدأوا فى الضغط عليه عن طريق تحريض أعدائه من الصوماليين على القتال، وتسليحهم على هيئة ميلشيات، فضلا عن الحصول من أتباعهم من العملاء على فتاوى بإدانة السيد محمد. ودفع هذا الوضع السيد محمد إلى اعتبار الاتفاق نوعا من الحيلة والخديعة. ومن ثم نجح فى تجاوز الأزمة، وفرض الأمر الواقع عن طريق سلسلة من التحركات العنصرية الناجحة لأنصاره، والتصدى لمحاولات التقدم الإيطالى من

الجنوب الصومالى صوب منطقة أوجادين. كما نجح فى دعم المنطقة الأخيرة وتسليم أهلها لمواجهة القوات الحبشية المتحالفة مع البريطانيه، وذلك حوالى عام ١٩٠٨.

وفى نفس الوقت نجح فى توجيه أنصاره صوب زراعة الأرض والاستقرار فيها، وعدم الاكتفاء برعى الماشية، وترك أراضيهم كلما تقدم المستعمرون بقواتهم. وفى عام ١٩١٢ هزم قوة بريطانية جديدة كان يقودها أحد الجنرالات وهو كورفيلد.

وعندما تولى الحكم فى إثيوبيا الإمبراطور المسلم ليج إياسو (إلياس) فى عام ١٩١٣ تفاهم معه على مواجهة القوى الاستعمارية ، لكن القوى الأوربية والحبشية نجحت فى عزل الإمبراطور فى عام ١٩١٧، وقامت بتهدئة أوضاع كافة الجبهات حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في عام ١٩١٩، وقامت بضرب مواقع السيد محمد فى إيلليج على ساحل المحيط، وكذلك فى منطقة تالح بالصومال البريطانى بالشمال، حيث تراجع إلى منطقة أوجادين، وتفرقت أنصاره ، إلى أن وافته المنية مطلع عام ١٩٢١، إثر إصابته بالملاريا.

بعد الحرب العالمية الأولى عمل الصوماليون على الحفاظ على هويتهم فى مواجهة عمليات الطمس التى مارسها المستعمرون لهويتهم، وتجسد عملهم فى هذا الصدد فى جهود الشيخ على صوفي، فى دعم العمل التعليمي، لاسيما الدينى والعربى فى كافة أنحاء الصومال. كما تجسد أيضا فى جهود الزعيم الأوجادينى مختل ظاهر الذى بدأ فى حمل السلاح ضد المستعمرين فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. كما تصدى للحملة الإيطالية على أوجادين فى عام ١٩٣٦، وتصدى من بعدهم للانجليز بعد أن دخلوا المنطقة فى عام ١٩٤٢.

وانضم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لرابطة الشباب الصومالى -Soma li Youth League التى سرعان ما صارت الحزب الذى قاد الحركة الوطنية الصومالية، والداعية إلى وحدة الصومال. إذ قادت العمل الوطنى الصومالى طوال فترة الوصاية التى فرضتها الأمم المتحدة على البلاد بين عامى ١٩٥٠و ١٩٦٠، حتى إذا كان ناية الوصاية اتحد شمالى وجنوب الصومال مكونين الجمهورية الصومالية فى عام ١٩٥٠ ، ١٩٦٠.

٢ ـ حركة المقاومة فى كينيا:

حينما حل البريطانيون بكينيا تعاقبت الهبات القبلية التى قام بها أبناء القبائل ضد المستعمرين، واشتهرت منها ثورات الماو ماو بصفة خاصة. كما كانت قبيلة الكيكويوذات شهرة واسعة فى هذا الصدد. وقد ساعد على هذه الشهرة ما كان للوجود البريطانى من ارتباط بالاستيطان فى مرتفعات كينيا الشهيرة.

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأت قبيلة الكيكويو ـ وهى أكبر قبائل البلاد تشعر بضغط الاستيطان الأبيض، وتطالب بحق زراعة الأراضى الشاسعة التى يحتجزها المستوطنون البيض. و كان أن بدأت قياداتها فى إثارة قضية الاستيطان الأبيض كقضية عامة تواجه الافريقيين. وعلى هذا اجتمعت مجموعة من القيادات الافريقية، وشكلت اتحاد كينيا الافريقى Kenya African Union ، وذلك فى منتصف الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وقد عين الأتحاد جومو موكنياتا ممثلا له فى لندن.

ومع عودة كينياتا إلى كينيا ظهرت حركة فعلية لمحاربة الوجود الاستعماري، وهى الحركة التى حملت اسم ماو ماوMau Mau، والتى اعتمدت بالأساس

على شباب قبيلة الكيكويو، واتهم كينياتا بتورطه فى شئونها، وبإثارة روح العنف ومقاومة المستوطنين البيض، وأودع السجن فى عام ١٩٥٣ ، كما بدأت السلطات الاستعمارية عمليات قمع واسعة النطاق، وأسفر عن وقوع مئات القتلى من الوطنيين الافارقه.

وعلى الرغم من أن إجراءات المستعمر أسفرت عن تقليص حركات الكفاح المسلح، بسب ضخامة خسائرها البشرية فى الطرف الافريقي، إلا أن كينياتا وقادة المقاومة سرعان ما انتقلوا إلى العمل السياسى والصحفي. ومع مطلع الستينيات كان قد تبلور شكل ديمقراطى للعمل الوطني، كان عماده حزب كانو ـ الاتحاد الوطنى الفريقى لكينيا Kenya African National Union الذى خاض الانتخابات ١٩٦١ وحصل على الأغلبية. لكن قيادات كانو رفضت تشكيل الوزارة قبل إطلاق سراح جوموكينياتا، وإن شكلت علي سبيل الترقب والانتظار حكومة وفاق وطنى بقيادة رونالد نجالا.

وبإطلاق سراح جوموكينياتا فى أغسطس من نفس العام تولى رئاسة حزب كانو، وخاض معه الانتخابات العامة في مايو ١٩٦٣، ليصبح رئيسا للوزراء فى الشهر التالي، وليقود البلاد بعد ذلك إلى الاستقلال وإعلان الجمهورية فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٣، وليصبح أول رئيس لها.

٣ ـ حركة المقاومة فى تنجانيقا:

فور اقتسام بريطانيا وألمانيا ممتلكات سلطان زنجبار فيما بينهما، نالت بريطانيا زنجبار بينما استأجرت ألمانيا من السلطان ميناء دار السلام وبانجاني، ثم بقية الساحل وما وراءه من بلدان فى عام ١٨٩٠. وعندما شرعت الإدارة الألمانية فى تثبيت وجودها فى البلاد هبت حركة مقاومة بقيادة بوشيرى

ابن سالم الحارثى ومكاوا زعيم شعب الهيهي. وقد تحالفت القوى الاستعمارية جميعها ـ من انجليز وفرنسيين وبرتغاليين إلى معاونة الألمان فى حصار الثوار، وبرشوة البعض من معاونى بوشيرى تم القبض عليه و إعدامه. ومع هذا لم تستطع السيطرة على البلاد إلا بإجراءات عنف لا نظير لها، لتحطيم الكوادر العسكرية للقبائل، وللسيطرة على المزارع والمناجم ، واستخدام السخرة فى تنمية مزارع المستوطنين.

وفى مطلع القرن العشرين حدثت ثورة الماجى ماجى بقيادة عبد الله ما بندا التى كانت ردا فعليا على هيمنة المستوطنين على البلاد. ولم يتمكن الألمان من إخماد الثورة إلا بعد أن قدم الأفارقة عشرات الألوف من الشهداء قربانا لمقاومة المستعمرين.كما قدموامزيدا من الضحايا لمقاومة الاحتلال البريطانى للبلاد على حساب الألمان خلال الحرب العاليمة الأولي.

وعندما انتدبت بريطانيا على تنجانيقا حظرت على الأفارقة زراعة البن وبعض المحاصيل النقدية الأخرى، ومارست سياسة إنشاء المزارع الكبيرة، مع تكوين معازل للقبائل الافريقية يحظر عليها مغادرتها إلا بمقتضى تصريح عمل، كما اتبعت سياسات عنصرية وقمعية. وفيما بين الحربين بدأت الحركة النقابية والعمالية الافريقية الزراعية والصناعية على مستوى شرق افريقيا ككل وهى الحركة التى ساعدت على إسقاط مشروع اتحاد شرق أفريقيا البريطاني. كما لعبت طرق المواصلات الحديثة سيما السكك الحديدية دورا هاما فى تحقيق الترابط بين الأفارقة، مما مهد لنجاح إضرابات عمالية عامة فى أكثر من مدينة، حتى وصفت تنجانيقا بأنها المركز الرئيسى للإضرابات فى افريقيا وفيما بين الحربين أصبحت تنجانيقا تحت وصاية الأمم المتحدة، وكان لبريطانيا أن تستمر فى وصايتها عليها. وقد أخذت القيادات المثقفة تعمل على تأسيس حركة موحدة

لمواجهة الاستعمار البريطاني، وأسفرت جهودها عن قيام حزب تانو (الإتحاد الافريقى الوطنى لتنجانيقا) TANU بزعامة جوليوس نيريري. وطوال الخمسينات عملت السلطة الاستعمارية علي منع الحزب من العمل السياسي، وعقاب أعضائه وتغريمهم ، والقبض عليهم.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد صار حزب كانو معبراِ عن النضال الوطنى الافريقى لشعب تنجانيقا. ولما حدثت أول انتخابات فى عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ عمدت بريطانيا إلى إثارة الانقسام بين العناصر السكانية بتكريس مجالس لكل من الأوربيين والأسيويين و الافريقيين ، لتساوى بين الجميع رغم تفاوت أعداد السكان من كل فريق، ولتجعل الأفارقة يقفون على قدم المساواة مع الاقلية البيضاء.

وقاد حزب تانو حركة دعوية لتعديل القانون بحيث يضمن الأفارقة حق الحكم كأغلبية مطلقة. وأجريت انتخابات ١٩٦٠ على هذا الأساس، واكتسحها حزب تانو، وصار نيريرى رئيسا للوزراء، فبدأ التفاوض مع البريطانيين، حتي يحصل لتنجانيقا على الاستقلال فى ديسمبر ١٩٦١.

أما عن زنجبار فقد تأسس فيها فى عام ١٩٥٥ الحزب الوطنى الزنزبارى الذى كان يمثل الطائفة العربية من كبار الملاك والتجار، وبعد عامين تأسس الحزب الافريقى الشيرازي، الذي كان يمثل الغالبية الافريقية. وفى عام ١٩٥٩ تأسس اتحاد عمال زنزبار،. ولعب البريطانيون دورا سيئا فى إثارة الصراع بين الفريقين، ووظفوا الانتخابات العامة فى بلورتها.

وكان من المتوقع أن يظهر شبح تنجانيقا فى الموقف فى زنجبار وأجرت

بريطانيا انتخابات دموية، أوصلت محمد شامتى حمادى زعيم الحزب الوطنى لرئاسة الوزراء ، لكن السلطة قامت بإعادة الانتخابات فى يونيو ١٩٦٣، فاكتسحها الحزب الافريقى الشيرازي، ومع ذلك ظل النظام البريطانى متعنتا إزاءه، إلي أن عقد مؤتمر دستورى جديد فى سبتمبر ١٩٦٣، اتفق فيه على الاستقلال فى موعد العاشر من ديسمبر ١٩٦٣، وبالفعل قام نظام حكم ملكى دستورى على رأسه السلطان السيد جامشيد بن عبد الله والحزب الوطني.

ولكن فى ١٢ يناير ١٩٦٤ وقع انقلاب عسكرى قاده عبيد كرومي زعيم الحزب الأفروشيرازي، الذى صار رئيسا للجمهورية، وسرعان ما دخل فى اتحاد مع تنجانيقا، وصار نائبا لرئيس جمهورية تنزانيا الاتحادية.

٤ ـ حركة المقاومة فى اوغندا:

اختلفت توجهات حركة المقاومة الافريقية للاستعمار البريطانى فى أوغندا عن نظيرتها فى كل من الصومال وكينيا وتنجانيقا. فإذا كانت الحركة فى الصومال تتسم بالتمسك بالقيم الوطنية الصومالية بحكم وحدة اللغة والدين فى البلاد ، فإنها فى كينيا اتسمت بالتوجه القومى الافريقي، والوحدة الافريقية فى مواجهة الوجود الاستيطاني، بينما أخذت أبعادا حضارية فى تنجانيقا، بحكم طبيعة قائد المواجهة نيريرى كرجل دين. وكمفكر داع للافريقانية، وكساع لضم زنجبار العربية إلى البلاد.

أما فى أوغندا فد اعتمدت حركة المقاومة على أساس طبقى فى المقام الأول إذ اعتمدت المقاومة على الالتفاف حول طبقة ملاك الأرض ـ الباتاكا Bataka الذين كانوا يمثلون روح مجتمع الباجندا فى مملكة بوجندا القديمة.

وإذا ما أردنا أن نفسر ذلك ، فإن علينا الرجوع إلى سياسه بريطانيا

الاستعمارية فى أوغندا ومحاولة تلمس أهم مقوماتها . فقد كانت بريطانيا ترغب فى تأسيس اتحاد شرق افريقيا، ليضم مستعمراتها فى المنطقة ، لا سيما كينيا وتنجانيقا وأوغندا وزنجبار . وكان هدفها من ذلك هو فتح المجال أمام التوسع الاستيطانى الأبيض لينتقل من المناطق الساحلية إلى قلب أوغندا عسى أن يؤدى هذا إلى جذب المستثمرين والاستثمارات، ويحول أوغندا إلى محمية مفيدة تحقق مزيدا من الأرباح. وكانت راغبة فى تحقيق طفرة فى زراعات القطن والشاى والبن ـ على أساس نظام المزارع الكبيرة ـ تحت إشراف رجال الاستيطان الأوربي. ولم تجد بريطانيا أفضل من طرح فكرة اتحاد شرق افريقيا عسى أن يؤدى هذا إلى إخفاء الهدف الرئيسى آنف الذكر.

وكان من أهداف بريطانيا من الدعوة إلى اتحاد شرق أفريقيا أيضا أنه سيمكنها من إدارة المنطقة كلها فى إطار واحد، وسيساعدها فى توفير النفقات الطائلة لوجود مستعمرات أربع، لكل منها استقلالها المالى والإداري والعسكري.

ولم يكن أبناء أوغندا لتغيب عنهم مستهدفات المستعمرين. ومن ثم تمسكت قيادات باتاكا في ظل حكم ملك بوجندا ـ الكاباكا. ثم يممت هذه القيادات ـ سيما من المسلمين منهم ـ صوب مصر والسودان، وانضمت إلى حركة وحدة وادى النيل فى ظل التاج المصرى . واستمرت حالة التفاعل هذه وسيلة البوجندا فى مقاومة الاستعمار البريطانى وفكرة اتحاد شرق افريقيا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذت الحركة تعمل على تعميق التماسك بين البوجنديين وغيرهم من شعوب أوغندا، وتدعم تفاهم الجميع لمقاومة المستعمر، وتمهد لتوحيد جهودهم لرفض وصول طلائع المستعمرين وقد شغلت فترة الأربعينيات من القرن العشرين جهود حزب باتاكا فى التصدى لمصادرات الأراضى فى مدن وقرى البلاد، حتى بات الحزب عماد المقاومة الأوغندية للاستعمار البريطاني.

ونشطت الحركة الأدبية والصحفية فى دفع المتعلمين إلى الاضطلاع بدور هام فى المقاومة، كما عمت المظاهرات ضد الاجراءات البريطانية أنحاء البلاد.

وقدرد الاستعمار البريطانى علي حركة المقاومة بإجراءات قمعية رهيبة ، بدأت بالتصدى للمتظاهرين، وانتهت باعتقال قيادات الحزب، بل واغتيال العديد منهم، يأتى على رأسهم سيما كو لامولامبا زعيم حزب باتاكا نفسه.

وقد صعد الحزب من سبل مقاومته للمستعمرين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إذ أرسل عددا من قياداته إلى كل من الخرطوم والقاهرة ونيويورك، حيث طالبوا بوحدة وادى النيل، وطالبوا بجلاء المستعمر عن البلدان الثلاث: أوغندا والسودان ومصر ، حتى يمكن قيام الوحدة بينها، على أساس من الاستقلال التام لكل منها فى ظل التاج المصري.

وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تسمح بتحقيق هذا الهدف إلا أن المناداة به وتكتل الجماهير الأوغندية حوله أعطبت هدف بريطانيا فى إقامة اتحاد شرق افريقيا تحت هيمنتها.

ومع قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقبولها بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره، بدأت حركة باتاكا فى الانصراف عن فكرة وحدة وادى النيل، وراحت تركز علي العمل الداخلي. ومرة أخرى لم تتهاون بريطانيا مع حزب باتاكا، فقامت مجددا بقمع قياداته، بل وأقبلت على نفى الكاباكا. على أن هذا الاجراء البريطانى لم يفت فى عضد الأوغنديين، بل إنه استدعى تأييدا إفريقيا للموقف الأوغندي، ولعودة الكاباكا، ولعبت مصر دورا هاما فى هذا الصدد من خلال حملات إعلامية مكثفة على الاستعمار فى كل مكان، وفى افريقيا بوجه خاص، ثم فى أوغندا بشكل أخص.

وفى عام ١٩٥٥ تأسست عدة أحزاب على أسس قبلية وعرقية، وهو ما دفع الوطنيين إلى تأسيس حزب المؤتمر الوطنى الأوغندى للعمل على تحقيق وحدة الوطنيين، وأدت وحدة الصف إلى إجبار البريطانيين على إعادة الكاباكا فى نفس العام ، كما بدأت نقابات العمال فى الضغط على المستعمرين عن طريق الإضراب والتظاهر، كا أوفد الحزب وفدا فى العام التالى للمطالبة بالاستقلال. واضطرت بريطانيا إلى زيادة عدد الافريقيين فى المجلس التشريعي.

وفى عام ١٩٥٧ نظم حزب المؤتمر الأوغندى مؤتمرا جامعا فى استاد ناكيووبو بمناسبة وصول الحاكم العام البريطانى الجديد فريدريك كروفورد. وعندما أجريت انتخابات ١٩٥٨ أثبت الأوغنديون وعيهم ورفضهم لسياسة التفرقة التى ينتهجها الحكم البريطانى ، بفرض الوقيعة بين البوجندا والبونيورو والتورو والأنكولا وغيرهامن الجماعات العرقية. وفى يناير ١٩٥٩ عقد المؤتمر العام لحزب المؤتمر الوطنى الأوغندي، وصار ميلتون أوبوتي زعيما له. فقاد موبوتى حركة المطالبة بالاستقلال، وعبر انتخابات ابريل ١٩٦٢ أصبح رئيسا للوزراء، وفى ٩ أكتوبر ١٩٦٢ أعلنت أوغندا دولة مستقلة.

د. حركات المقاومة ضد الدول الاستعمارية في أفريقيا الوسطى *

تحدد دول أفريقيا الوسطى بأنها المساحة من الأرض التى تحتلها ما كان يعرف بالكونفو البلجيكي، والكونغو الفرنسى والكاميرون الألماني. وكذلك رواندا وبورندى باعتبارهما من دول أفريقيا الوسطي.

وللحديث عن الدول الاستعمارية التى استعمرت دول أفريقيا الوسطى فإننا نجد بريطانيا على رأس القائمة عندما وضعت يدها على جزء من الكاميرون بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ التى حرمت من جميع ما لديها من المستعمرات، وعهدت بإدارتها إلى بعض الدول المنتصرة تحت إشراف عصبة الأمم وهو ما يسمى بنظام (الانتداب) فأعطيت أفريقيا الشرقية الألمانية إلى بريطانيا، وحملت اسم تنجانيقا بعد أن سلخت عنها أقاليمها الغربية وهى رواندا وأوراندي، وأعطيت لبلجيكا واعتبرت جزءاً من الكونغو البلجيكي، وأعطيت الكمرون إلى كل من فرنسا وانجلترا فاقتسمتاها، وجعل جزؤها الشمالى تابعا لحكومة نيجيريا بينما جعل القسم الفرنسى تابعا لحكومة إفريقيا الاستوائية الفرنسية.

وإلى جانب إنجلترا وألمانيا كانت هناك فرنسا التى سيطرت على الكونغو الفرنسى (كونجوبرازافيل) وجمهورية أفريقيا الوسطى، أما بلجيكا فقد استولت كما سبق أن أوضحنا على الكونغو البلجيكى ورواندا وبورندى.

وبالنسبة للكونجو البلجيكى فقد شدت أنظار ليوبولد رحلة الرحالة ستانلى ما بين عامى (١٨٧٤ ـ ١٨٧٧) وكان قد وصل إلى بوما عند مصب نهر الكونغو

* أ. د. نوال عبد العزيز راضي

باحثا عن لفنجستون. وكان مرسلا من قبل جريدة (نيويورك هيرالد). وكان ستانلى قد حاول لفت نظر لندن إلى أهمية اكتشافه لكن لندن قابلت جهوده ونداءاته بفتور كامل.

لذا تم إبرام عقد بينه وبين ستانلى فى مقابلة تاريخية تمت فى باريس سنة ١٨٧٨ طالب فيه بفتح هذه البقعة من العالم أمام الحضارة والتقدم الأوربى للنهوض بها أولا، وللإفادة من خيراتها ثانيا ثم نشر المسيحية بين أبنائها ثالثا. وتعهد بتمويل الرحلات الاستكشافية والعسكرية من ماله الخاص، على أن تستمر هذه الخصوصية فى علاقته بتلك المناطق فيما بعد، بمعنى أن تكون ملكا خاصا به وبأسرته.

وافق المؤتمرون على مطالب ليوبولد. فكانت هذه الموافقة بمثابة الضوء الأخضر لتحقيق أطماعه، فأسس مع ستانلى هيئة أطلق عليها (جمعية دراسات أعالى الكونغو). وفى سنة ١٨٧٥ تحولت هذه الهيئة إلى جمعية حملت اسم (الجمعية الدولية للكونغو) وفى عام ١٨٨٠ جرد ليوبولد الجمعية من الصفة الدولية وأصبحت مشروعا بلجيكيا بحتا.

كان هذا الحادث هو الهزة الحقيقية التى سرت بسرعة إلى دول أوربا الكبري، فصارت كل واحدة منها تسابق الأخرى فى الحصول على أراضى إفريقية. وفقدت معظم الدول الأفريقية استقلالها بعد أن كانت حتى عام ١٨٨٠ مستقلة ما عدا الجزائر.

من ناحية أخرى أثارت استكشافات ستانلى فى حوض الكونغو أطماع فرنسا فى تلك الجهات من جديد لأنه كانت هناك محاولات سبقت عودة برازا إلى الضفة اليمنى لنهر الكونغو .

وأدت هذه المحاولات إلى إقامة مدينة (ليرڤيل) فى سنة ١٤٨٩ لكن لما هزمت فرنسا فى حربها أمام الألمان سنة ١٨٧٠ تركت هذه المستعمرة لكنها عادت فى سنة ١٨٧٥ فأرسلت الكابتن برازا. وكذلك فى عام ١٨٧٦ لكنه عاد ١٨٧٨ عندما سمع بمجهودات ستانلى فى كشف حوض الكونغو.

أخذت فرنسا تنشط فى أوائل سنه ١٨٨٠ حين أرسلت برازا من جديد لعقد المعاهدات مع الزعماء والتودد للأهالى وإقامة المحطات التجارية والحاميات كما كان يفعل ستانلى وعمل كل منهما فى ناحية من النهر، ستانلى على الضفة الجنوبية (اليسرى) لنهر الكونغو. وبرازا على الضفة الشمالية وهى المنطقة الممتدة من نهر جابون حتى بحيرة تشاد.

وفى فبراير ١٨٨٥ بعد أن انتهى مؤتمر برلين، أعلنت دولة بلجيكا قيام دولة الكونغو الحرة، كما أعلنت فرنسا قيام الكونغو الفرنسي، واعترفت كل من الدولتين بالأخري. كما اعترفت بهما ألمانيا والبرتغال فى فبراير ١٨٨٥ثم أخذت فرنسا بعد ذلك تمد فى حدودها الشمالية بعقد المعاهدات المختلفة مع الزعماء حتى وصلت إلى بحيرة تشاد. وكونت فرنسا إفريقيا الاستوائية الفرنسية التى كانت تضم مستعمرات الكونغو برازافيل، والجابون، وإفريقيا الوسطى وتشاد، أما بالنسبة لبورندى فقد كانت جزءا من منطقة (رواندا ـ وبوروندي) القديمة التى كانت جزءاً من إفريقيا الشرقيه الألمانية ١٨٨٥ ـ ١٩١٦

وكان أول أوربى نزل بالبلاد هو (جون هاننج سبيك) الذى وصل إلى بحيرة تنجانيقا مع ريتشارد بورتون سنه سنه ١٨٥٨ إذ اتجه سبيك شمالا عابرا أرض بوروندى ليبحث عن النيل العلوي، وفى سنة ١٨٧١ وصل ستانلى وليفنجستون إلى بوجومبورا واستكشف نهر (روزيزى ثم جاء المنصرون (الآباء البيض) فى سنة ١٨٧٩ وجاءت أول إرسالية كاثوليكية إلى البلاد فى ١٨٩٨

على أنه سبق هذا تقاطر المستكشفين وأغلبهم من الألمان. وكما نعلم أعطى مؤتمر برلين هذا الجزء من إفريقيا إلى ألمانيا. وبذلك تكون منطقة النفوذ الألمانى فى شرق إفريقيا قد أمتدت لتشمل رواندا وبوروندي.

وقد أعطى البلجيك أرض بوروندى مع رواندا بالانتداب من عصبة الأمم سنة ١٩٢٣. واستمرت بلجيكا تحكم البلاد حكما غير مباشر كما كان الألمان يفعلون. وفى سنة ١٩٤٦ كانت بورندى ورواندا من بين المناطق التى تولت الأمم المتحدة الوصاية عليها. وتولت بلجيكا الإدارة بإشراف لجنة الوصاية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة.

١ ـ حركات المقاومة والتحرير فى دول افريقيا الوسطي:ـ

بالنسبة لرواندا وبورندى (إقليم رواندا ـ أورندي) حرصت الادارة البلجيكية على أن يظل إقليم رواندا ـ أورندى فى حالة من التخلف السياسى الذى يمكن لها من استمرار وصايتها على الادارة فأبقت الإدارة على القواعد القديمة التى وضعها قانون ١٩٢٥ والذى استمر بعد اتفاقية الوصاية الدولية عام ١٩٤٩.

ثم عمدت السلطات البلجيكية إلى تهجير عدد كبير من المواطنين من إقليم رواندا ـ أوراندى بحجة تخفيف حدة كثافة السكان . لكن كان هدفها الحقيقى من وراء ذلك: ـ

١ ـ التخلص من نفوذ العناصر المستنيرة من طبقات الشعب بوضعهم فى الكونغو الذى لارقابة فيه لعصبة الأمم ثم الأمم المتحدة فتفعل بهم ما تشاء.

٢ ـ ايجاد دوافع إلى الهجرة من البلاد للكونغو المجاور، ثم التمهيد السياسى لقبول شعب رواندا ـ أورندى الدخول فى وحدة مع الكونغو والخضوع نهائيا للحكم الاستعمارى البلجيكي.

٣ ـ استخدام هذه الطاقات العاملة فى استغلال ثروات الكونغو والتلويح بإمكان الاستغناء عن الأيدى العاملة المحلية فقامت خلال السنوات من ١٩٣٧ حتى ١٩٤٥ بتهجير حوالى ٨٥,٠٠٠ شخص ، وفى عام ١٩٥٥ حوالي ١,٢٠٠٠ أسرة كاملة، وفى عام ١٩٥٦ بلغ العدد ١,٧٠٠ أسرة مهاجرة.

إلى جانب ذلك حرصت الإدارة البلجيكية فى إقليم رواندا ـ أوراندى من أن تنمى النزعة الانعزالية بين القبائل، وتمسكت دائما بأن الإقليم كان دولتين، وادعت بأنها مضطرة إلى الاستجابة لأمال الوطنيين، وتحافظ على الشخصية السياسية لكل من الاقليميين فخصصت علما لكل جزء، وجعلت جنسيته متميزة عن الأخري، وكانت تهدف من واء ذلك ألا يجتمع طرفا الاقليم، ويكونا قوة تغلب السياسة الاستعمارية التى تتبعها الأدارة.

وأمام توصيات مجلس الوصاية، وإصرار البعثات الزائرة، لجأت الادارة إلى وسيلة أخرى من وسائل العناد الاستعماري، فادعت أن ثمة اتجاهين متعارضين فى البلاد ـ اتجاه المجلس الأعلى للأقليم وأغلبه من التوتسي، ويدعو إلى إتاحة الفرصة لطبقة من السادة حتى يحتلوا الأماكن الملائمة لهم فى البلاد، ويطالب بسلطات سياسية أكثر. واتجاه ثان يمثله الهوتو، وهم يطالبون بتحرير الفلاحين إقتصاديا، والنهوض بالمستوى الاقتصادى للتخلص من سيادة التوتسي. وتقديم الإصلاح الاقتصادى على الإصلاح السياسي.

ولعل وجه العجب فى إقليم رواندا ـ أورندي، هو نظام الحكم الاستعمارى الذى تتبعه الإدارة تحت ظل الوصاية الدولية. فإن السلطة التشريعية هى البرلمان البلجيكي، ويتولى الحاكم العام السلطة التنفيذية، ولايلمس بطبيعة الحال حاجات الاقليم، إنما يعد صورة من صور الاستبداد الذى تصر عليها بلجيكا.

من ناحية ثابتة حرصت الإدارة البلجيكية أشد الحرص على ألا تتيح للشعب أى ممارسة سياسية، فحرمت إنشاء أى منظمة سياسية يشترك فيها الشعب، لأن إنشاء المنظمات فى نظرها كفيل بنشر قدر من الوعى السياسى يفوت على الادارة ما تسعى إليه من بذر عناصر الانعزالية والفردية. ومن ناحية ثالثه خصت الادارة البلجيكية المسلمين بأكبر قدر من الضغوط فعزلتهم عن بقية السكان، ومنعتهم من السفر إلى شرقى الكونغو حيث يوجد العديد من المسلمين فى هذه المنطقة أو الانتقال من رواندا إلى بورندي، ومن بوروندى إلى رواندا رغم أن جميع هذ المناطق تخضع لسيطرة واحدة هى سيطرة بلجيكا. كذلك استولت على أراضيهم بحجة حاجتها إلى بناء مدارس للتعليم. وهذه المدارس التى أقامتها وضعت فى لائحتها الكثير من القيود على المسلمين حتى لا يدخلوها فتتفشى بينهم الأمية ويعميهم الجهل، فلا تكون لديهم فرصة لتولى المناصب القيادية.

ولأن المسلم ممنوع من التعليم ، ممنوع من التوظف، ممنوع من العمل فى أى عمل سوى الزراعة البسيطة التى عاشوا عليها، وقد يحرق زرعه لأتفه الأسباب ويضرب ويسجن بغير سبب لذلك كان المسلمون فى طليعة المجاهدين لمكافحة الاستعمار، فشاركوا أبناء شعبهم فيما قاموا به لمكافحة الرق والعبودية والتنكيل أثناء حكم البلجيك .

ولقد بدأ تطور الوعى السياسى فى كل من بورندى ورواندا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبدأ تكوين الأحزاب السياسية والهيئات القومية. ففى بورندى قام حزب الوحدة والتقدم الوطني، وحزب الاتحاد الوطنى الافريقى لرواندا ــ بورندى ١٩٥٩ . وكان يرتبط ارتباطا وثيقا مع حزب بورندى القومى للوحدة والتقدم Uprone برئاسة رواجاسور. ثم الجبهة المشتركة وهى حلف

سياسى بين عدة أحزاب: الحزب الديموقراطى المسيحي، وحزب الشعب ، والحركة التقدمية لبورندي. أما فى رواندا فإننا نجد (حزب تحرير الهوتو) الذى أنشأه سنة ١٩٥٧ جريجوارا كابيندا، وقد وصف الحزب بأنه حزب جمهورى مضاد للإقطاع. ثم (حزب التجمع الديموقراطي) ١٩٥٧، وهيئة النهوض الاجتماعى بالجماهير (نقصد جماهير الهوتو) إلا أنها تحولت فى سنة ١٩٦٠ إلى حزب سياسى يدافع عن الدعوة للجمهورية، (الاتحاد القومى لرواندا) وأنشئ سنة ١٩٥٩.

أ- الكونجو البلجيكي:

تعرض شعب الكونغو لما لم يتعرض له شعب آخر فى إفريقيا، خلال الثلاث والعشرين سنة من حكم ليوبولد الثاني. فقد قضى هذا الملك الذى كان يدعى دائما تحمسه للنزعة الانسانية والذى كان يعتبر أحد أعمدة الكنيسة على حوالى أحد عشر مليونا من سكان مملكته الافريقية البالغ عددهم وقتذاك عشرون مليون نسمة بحيث لم يبق سوى تسعة ملايين فقط، وبالرغم من أن إنتقال إدارة الكونغو إلى وزارة المستعمرات، إلا أن النظم التى وضعت بعد صدور القانون ١٩٠٨ ركزت الحكم فى أيدى حكومة بروكسل والكنيسة الكاثوليكية، ومشروعات الأعمال الكبرى أدت إلى مزيد من السخرة والجلد والاهانات والالقاء فى السجون والمعتقلات. لقد حول هذا القانون المكاسب من جيب الملك الخاص إلى جيوب فريق من المستغلين أصحاب رءوس الأموال فازدهرت الشركات التى نيط بها استغلال ثروات الكونغو، وتدفقت الأموال بغير حساب، وبقى أهل البلاد على حالهم.

لقد أدت السيطرة الحكومية المتزايدة ، واشتداد وطأة القوانين العنصرية. إلى معارضة صامتة ومتناثرة فى أوساط الكونغوليين. فاستمر التهرب من

الضرائب متفشيا على نطاق واسع فى السنوات التالية مباشرة للحرب العالمية الأولى . فكان آلاف من الفلاحين الكونغوليين يفرون عبر الحدود المفتوحة إلى المناطق المجاورة فى أنجولا والكونغو الفرنسى ويختبئ الآخرون فى الغابات قبل وصول جباة الضرائب الحكومية. إلا أنه مع امتداد جهاز الدولة إلى المناطق النائية، وإقامة شبكة من الرؤساء الموالين، تقلصت إمكانات البقاء خارج النظام الاستعمارى إلى حد بعيد. وقد تجلى ذلك فى زيادة حصيلة الضرائب فيما بين عام ١٩١٧ وعام ١٩٢٤ بنسبة ٤٠٪ ... وفى زيادة عدد الفلاحين الذين أجبروا على زراعة القطن بأكثر من تسعمائة ألف فلاح سنه ٩٣٥. علاوة على ذلك اجتذبت حركات دينية وسياسية أخرى أنصارا أكثر عددا من الفلاحين وهو ما قد يرجع فى جانب منه إلى الحظر الصارم الذى كانت السلطات الاستعمارية قد فرضته على المنظمات السياسية. وكانت أكبر هذه الحركات هى الحركة (الكيربانغية) التى أطلق عليها هذا الإسم نسبة إلى فلاح من الباكونغو يدعى سايمون كيمبانغو. والذى أعلن لتلاميذه أنه مبعوث الله ونبيه وابنه، ثم أعلن بطريقة عامة وغامضة معا أنه سيخلص الافريقيين من نير القهر الاستعماري. وإزاء تصريحاته المناهضة للاستعمار وزيادة شعبيته ألقت الإدارة القبض عليه فى ١٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٢١ وحكمت عليه بالإعدام ،إلا أنها قامت بنفيه إلى كاتانجا حيث مات بعد ثلاثين عاما .

لقد تحولت حركه كيمبانغو على يد أنصاره إلى حركة تناهض الأوربيين بقوة فأتاحت منفذا للاحتجاج الشعبى العفوى ضد الحكم الاستعمارى فقد شاركوا مشاركة فعالة فى النضال ضد الاستعمار فى المدن والقرى على السواء بل بلغت جهودهم الدعائية حد التأثير على إضرابات عمال السكك الحديدية، وعمال مصنع الزيوت فى زائير خلال الفترة من ١٩٢١ إلى ١٩٢٥. كذلك كانت هناك حركة رئيسية أخرى من حركات الكنائس المستقلة وهى حركة (برج المراقبة

الإفريقي) والتى تعرف فى الكونغو باسم أكثر شيوعا هو كيتاوالا والا. وقد اتخذت هذه الحركة موقفا سافر العداء للاستعمار. وفى ظل الشعارات النضالية مثل (إفريقيا للإفريقيين) (والمساواة بين الأجناس) حث قائدها (تومو نييرندا) على اغتيال الأوربيين وحلفائهم الإفريقيين لاسيما رؤساء القبائل الموالين لهم. ورغم القضاء على قائدها إلا أن التأييد الشعبى لم يتراجع. فقد تغلغل أحد فروعها على نطاق واسع بين عمال الزراعة فى اليزابث فيل ، وعمال السكك الحديدية وعمال المناجم العاملين فى شركة (اتحاد المناجم). كما ساعدت الحركة كذلك فى تنظيم حركة المقاطعة فى إليزابث فيل عام ١٩٣١ كما نهضت بدور هام بعد ذلك بخمس سنوات فى الاضطرابات العمالية فى مصنع شركة اتحاد المناجم فى جادوتفيل.

لقد أصبح الهروب من العمل منذ عام ١٩١٤ مشكلة خطيرة إلى حد جعل بورصة العمل فى كاتانجا (مكتب العمل الصناعى الذى كان يتولى تجنيد العمال وتوزيعهم داخل كاتانجا) تنشئ نظام تصاريح المرور، ومكاتب لتسجيل البصمات بغية تعقب الهاربين، وبالرغم من كل النظم القسرية فقد زادت نسبة الهاربين من العمل وزدادت الاضرابات والاحتجاجات نتيجة لارتفاع أثمان السلع الرئيسية وسوء المعاملة والحصص الغذائية الهزيلة

وإذا انتقلنا من حركة الطبقة العاملة نجد أن نمو الجمعيات السياسية والأحزاب الوطنية فى الكونغو البلجيكى كان أبطأ بكثير من نحوها فى جنوب إفريقيا. والواقع أنه حتى أواخر الخمسينات لم تكن قد ظهرت بعد منظمات وطنية صريحة مثل جمعية باكونجو (أباكو) وقد كانت هذه الجمعية تعرف باسم (جمعية باكو الثقافية) ثم ظهرت (جماعة الوعى الافريقي) التى كان لها صحيفة تنطق باسمها، ثم جمعية الحركة الوطنية الكنغولية التى تحولت إلى

حزب سياسى يتزعمه لومومبا، ثم حزب (التضامن الأفريقي) الذى رأسه أنطوان جيزنجا. وفى عام ١٩٤٦ شكلت جماعة من المثقفين ومعظمهم من الكتبة وموظفى السلك الادارى فى الحكومة اتحادا أسموه (الإتحاد الوطنى لأهالى الكونغو البلجيكى ورواندا - أورندي) وانتشرت عضويته فى جميع الأقاليم. وكان هذا الاتحاد يهتم بعدالة الأجور والمطالبة بالمساواة بين الأفارقة الوطنيين والأوربيين البيض، ومشكلة المعاشات والتعويضات، ومعاملة العمال الكونجوليين.

المستعمرات الفرنسية لكونغو برازافيل - افريقيا الوسطى - الكاميرون :

كان للعقلية الفرنسية والمزاج الفرنسى أثرهما فى حكم المستعمرات فإن فرنسا بدأت تثبت أقدامها فى مستعمراتها حينما اندلعت ثوراتها التى أعلنت شعاراتها الثلاث: الحرية والإخاء والمساواة فلما قامت أوربا كلها فى وجه الثورة الفرنسية، حاولت فرنسا أن تجد مجالا لمبادئها تلك فى مجتمع واسع النطاق، مجتمع يضمها هى ومستعمراتها الشاسعة فيما وراء البحار، ولم يكن ذلك ليتم إلا بفرنسة تلك المستعمرات. لقد غفل رواد هذه النظرية الأوائل عن أن تنفيذها يقتضى اقتلاع الشعوب من جذورها الاجتماعية والدينية والتاريخية، وهو مطلب يتعزر على الحكم الأجنبى تنفيذه مهما بذل من حيل وجهود.

ولما وجدت فرنسا أن عملية فرنسة الشعوب الافريقية لم تنجح، عمدت الإدارة الفرنسية إلى فرنسة الصفوة الممتازة وفتحت أمامهم السبيل لشغل بعض المناصب الكبرى فى المستعمرات، وفى فرنسا ذاتها. وكان المأمول أن تكون هذه الطائفة همزة الوصل بين ما يسميه الفرنسيون (الوطن الأم) وبين أقاليم ما وراء البحار. لكن فئة من هؤلاء زاد ارتباطها بفرنسا وضعف اتصالها وتأثيرها بالمستعمرات، أما الآخرون فقد أتاحت لهم ثقافتهم أن يستوعبوا المعانى الجاحدة التى تكمن وراء ما تريدهم فرنسا عليه، وانقلبوا مصلحين يدعون إلى

حرية أوطانهم. فالتفت حولهم جموع الشعب ليشعلوا جذوة الحرية والقومية وليتجاوبوا مع حركات الكفاح التى أخذت تجتاح العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن النظرية العامة للحكم الفرنسى فى المستعمرات قد أبعدت من حسابها قبل دستور ١٩٤٦ المعروف بدستور الاتحاد، فتح أى منفذ أمام مستعمراتها لبلوغ الحكم الذاتى فضلا عن الاستقلال. كما كان الطابع السائد على الحكم الفرنسى قبل هذا الدستور هو الطابع المركزي.

وعندما اندحرت فرنسا فى الحرب العالمية وركعت أمام الألمان حدثت هزة كبرى فى المستعمرات، وأسرع ممثلو «فرنسا الحرة» فى ذلك الحين فعقدوا مؤتمرا فى (برازافيل) عاصمة الكونغو الفرنسى ، وقد وضع هذا المؤتمر أسس السياسة الفرنسية الاستعمارية الجديدة لما بعد الحرب. فطالبوا باللامركزية وبإنشاء جمعيات تشريعية مختلفة وبإلغاء العمل الإجبارى وبتدريب الافريقيين على أعمال الادارة. على أن يتم ذلك فى إطار اتحاد فيدرالى كبير يضم فرنسا ومستعمراتها. وبعد انتهاء الحرب ومجئ الجمهورية الرابعة صدر دستور ١٩٤٦ الذى يتضمن قواعد (الاتحاد الفرنسي). وقد كانت الخطوة الأخيرة التى اتخذتها فرنسا لتجنب أخطار المدالقومى فى المستعمرات هى ما جاء فى دستور ديجول من تكوين الجماعة الفرنسية التى تضم فرنسا والأقاليم المستعمرة فى تنظيم فيدرالى جديد يمنح الاستقلال الداخلى لكل إقليم ويتيح لتلك الأقاليم أن تكون فيما بينها اتحادات فيدرالية (داخل نطاق الجماعة). ويسمح للبرلمانات الإقليمية أن تحدد نوع العلاقة بين الإقليم وبين فرنسا. ولما ظهرت نتائج الاستفتاء على دستور ديجول سنة ١٩٥٨ إختارت الكونجو (برازافيل) وإفريقيا الوسطى الاستقلال داخل المجموعة الفرنسية .

ب ـ الكونغو برازافيل :ـ

تزايدت أعداد البيض فى برازافيل سبعة أضعاف ما كان عليها خلال العشر سنوات التى سبقت صدور دستور ديجول عام ١٩٥٨ علاوة على أن الإدارة الاقتصادية ظلت فى أيدى الفرنسيين ووقفا عليهم.

لقد عمدت فرنسا إلى إدخال نظام التعليم المشترك بين السود والبيض فى برازافيل.، و،مع ذلك نجد أن مدينة برازافيل نفسها منقسمة إلى مدينتين وطنية وأوربية وليس أسوأ من الثانية سوى الأولى فى الإهمال الذى ترسف فيه.

وفى مطلع عام ١٩٥٩ اندلعت نيران ثوره عارمة فى برازافيل سقط فيها الكثير من القتلى والجرحي، فتدخلت فرنسا بجيوشها وحشدت خمسة آلاف رجل كى تؤيد حكومة اصطنعتها رغم إرادة الشعب، وكان على رأس هذه الحكومة راهب سابق هو (فولهرت) مؤسس حزب الاتحاد الديمقراطي. وحينما استبد الضيق بالشعب زج المستعمر بالأحرار فى السجون، وشرد القوميين، واضطهد المعارضين. لقد كانت هذه الحكومة حكومة مؤقتة طبقا للدستور فى الجمهورية الجديدة، وفى ٢٧ من يونيو انتخبت الجمعية الوطنية الأب فولبرت بولو أول رئيس وزارة، ثم انتخبته فى ٢١ من نوفمبر ١٩٥٩ رئيسا للجمهورية. وعندما أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية قانونا دستوريا أقره مجلس شيوخ مجموعة الدول الفرنسية يجيز أن تستقل دول المجموعة دون أن تنسحب منها أعلنت جمهورية الكونغو استقلالها فى ١٥ أغسطس سنه ١٩٦٠.

لقد كان فى الكونغو برازافيل عند حصوله على الحكم الذاتى سنة ١٩٥٧ ثلاثه أحزاب سياسيه رئيسية هي:

١ ـ حزب الحركة الاشتراكية الافريقية وكان يتولى رياسته چاك أوبانجول

٢ ـ حزب الاتحاد الديموقراطى للدفاع عن المصالح الافريقيه وكان يتولى رئاسته الأب فولبرت بولو.

٣ ـ حزب التقدم الكونغولى وكان يتولى رياسته فلكس تشيكايا. وفى أول انتخاب حقق حزب الحركة الاشتراكية أغلبية. ولكن لم تلبث الأوضاع أن انعكست بعد ثمانية عشر شهرا وحصل حزب الاتحاد الديموقراطى على أغلبية (٥١) عضوا فى الجمعية الوطنية وكون الحكومة وحصل حزب الحركة الاشتراكية على العشرة مقاعد الباقية، وانضم أوبانجول إلى الحكومة بعض الوقت.

جـ ـ جمهورية افريقيا الوسطي:ـ

لقد كانت جمهورية إفريقيا الوسطى معبر اللهجرات البشرية التى جابت القارة بين الشرق والغرب، وهذا أكسبها خليطا بشريا. وكان مركز إفريقيا الوسطي وكان فى مجموعة دول إفريقيا الاستوائية الفرنسية يشابه موقف السنغال فى إفريقيا الغربية الفرنسية، فقد انبثقت الدعوة إلى وحدة دول إفريقيا الاستوائية من هذه البلاد، وفى مدينة «بانقي» انطلق صوت الزعيم القومى الراحل بوجندا، يدعو إلى ولايات إفريقية متحدة. لقد شكل بوجندا حزبه الواحد الذى اكتسح انتخابات الجمعية الوطنية فى إفريقيا الوسطي. وبرغم دعوته هذه لم تلق دعوته إلى وحدة افريقيا الاستوائية قبولا. فقام بتكوين حزبه الذى أصبح مثلا لسائر دول إفريقيا الاستوائية ولم تأل فرنسا جهدا يناهض بوجندا فى دعوته، ويعمل كل وسائل للتأثير على دول إفريقيا الاستوائية الأخرى حتى لا تستجيب لدعوته، وكان لها ما أراد فاقتصرت مظاهرها على الوحدة الجمركية وكأنما تحالفت قوى الشر مع الاستعمار، فقضى بوجندا نحبه فى كارثة جوية، ومعه ثلاثة من معاونيه الرئيسيين فى مطلع شهر أبريل ١٩٥٩.

بدأ الصراع الحربى يعود للظهور خاصة بين حزبى الهيئة الديموقراطية الافريقية، والحركة الاشتراكية الافريقية مرة ثانية. لذا بدأت جمهورية أفريقيا الوسطى تستشعر بوادر الانقسام مالم يقدر لها زعيم آخرى يخلف بوجندا ويتميز بقوة شخصيته الطاغية ووطنيته الصادقة، والأمل معقود على ثلاثة رجال هم آبل جومبا، ونجونيو (نائب بوجندا) ونداكو وزير الداخلية. فإن تفاهمهم سوف يؤدى إلى السير بالبلاد فى طريق آمن نحو استكمال الدور الذى بدأه الزعيم بوجندا.

د ـ الكمرون :.

كان الكميرون بشقيه مستعمرة ألمانية منذ ١٨٨٢ حتى بدأت الحرب العالمية الأولي، فغزته قوات من بريطانيا وفرنسا، واقتسمتاه، وقامت كل منهما بإدارة الشق الذى احتلته حيث قام نظام الوصاية الدولية فى ظل الأمم المتحدة فأخضع القسمان لاشرافه، وأدمجت فرنسا الكمرون فى اتحادها القديم، وأقامت حكومة مزيفة أثارت الشعب. لقد خرجت الحركة الوطنية من أجل الوحدة والاستقلال بفضل جهود عمال الكمرون الذى تمكن من إلغاء السخرة سنة ١٩٤٦ والاعتراف بحد أدنى للأجور فى سنة ١٩٥٣ والاعتراف بحق الإجازة للعامل ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٤٧ تأسس «اتحاد شعوب الكمرون» بالكمرون الفرنسي، وسرعان ما أصبح أكثر الأحزاب السياسية تمثيلا فى البلاد وقد بعث الاتحاد بممثله إلى الأمم المتحدة للدفاع عن حقوق البلاد. وعندما لم يجد منها استجابة فعالة، دعا فى ٢٢ أبريل سنه ١٩٥٥ إلى اجتماع اشتركت فيه نقابات العمال المنضمة إلى الاتحاد العام لنقابات العمال الفرنسية الخاضع للحزب الشيوعى الفرنسى والاتحاد الديموقراطى لنساء الكاميرون والشبيبة الديموقراطية للكاميرون. وقد أصدر الاجتماع نداء مشتركا دعا فيه إلى انهاء الوصاية وإقامة دولة الكاميرون ذات السيادة، وإجراء انتخابات عامة

لجمعية تأسيسية قبل أول ديسمبر ١٩٥٥ تشرف عليها الأمم المتحدة. ولقى هذا النداء استجابة شعبية واسعة أثارت من الناحية الأخرى موجة ضخمة من القهر والإرهاب راح ضحيتها الآلاف من أبناء الكمرون . وتضمنت هذه الموجة حظر التنظيمات التى اشتركت فى هذا الاجتماع ومن بينها (اتحاد شعوب الكمرون) وردا على ذلك أعلن (اتحاد شعوب الكمرون) فى ١٢ يوليو ١٩٥٦ الكفاح المسلح لمقاومة الحكم الفرنسى ودعا إلى وحدة كل المجموعات الوطنية بالبلاد فى جبهة وطنية متحدة حول مطالب الحد الأدنى وهى إعادة توحيد الكمرون الفرنسى والبريطانى وإجراء استفتاء شعبى أوانتخابات ديموقراطية لجمعية تأسيسية. وفى نهاية الأمر حددت السلطات الفرنسية تاريخا لاجراء الانتخابات هو ديسمبر ١٩٥٦. لكن لما كانت هذه الانتخابات ستجرى فى ظل حالة الطوارئ، دعا اتحاد شعوب الكمرون إلى مقاطعتها، ولقيت دعوته هذه استجابة ضخمة.

ومنذ ذلك الوقت كان آتحاد شعوب الكاميرون على رأس جيش التحرير الوطنى يشن حملات عسكرية واسعة النطاق تمكن بفضلها من السيطرة على منطقة باميليكى وساناجار وربنيم اللتين يقطنهما ربع سكان البلاد، وتنتجان ٤٠٪ من صادراتها. وكذلك شن زعماء الاتحاد المنفيون حملة دولية من أجل انسحاب القوات الفرنسية والاستقلال وتوحيد شطرى الكاميرون. واستمرت الثورة المسلحة فى منطقة باميليكى بقيادة مومى واضطرت حكومة الكمرون فى أعقاب حصول البلاد على استقلالها إلى إصدار قرار فى فبراير ١٩٥٩ يقضى بإعادة الهيئات السياسية التى سبق أن شملها قرار الحظر الصادر فى ١٣ يوليو ١٩٥٥، ومن بينها (اتحاد شعوب الكمرون).

وفى ١٩٦٠ مات مومى مسموما فانتقلت قيادة الثورة المسلحة إلى أرنست

واندى وأبل كنجي. وقد تمكنت حكومة أهيدجو من تصفية النزاع بمساعدة القوات الفرنسية وأعلنت جمهورية الكمرون فى أول يناير سنة ١٩٦٠.

أما القسم الذى خضع للإدارة البريطانية فقد قامت بريطانيا بتقسيمه إلى شطرين: الشطر الشمالى الذى افتعلت فيه استفتاء مزيفا عام ١٩٥٤ أدخلته بموجبه فى اتحاد نيجيريا، والشطر الجنوبى الذى احتفظت له بنظام الوحدة الفيدرالية فى ارتباط فيدرالى مع نيجيريا أيضا وخاب ما خططت له بريطانيا، فقد أجمع رؤساء حكومات الاتحاد النيجيرى فى اجتماعهم فى لندن عام ١٩٥٧، وأيدهم فى ذلك زعيم حكومة الكمرون الجنوبي، على المطالبة بإعلان استقلال اتحاد نيجيريا الفيدرالى عام ١٩٥٩، لكن وزير المستعمرات قرر عدم إمكان تحقيق الاستقلال فى ذلك التاريخ المبكر ١٩٥٩ لأن إقليم الكاميرون الداخل شقه الشمالى فى الاتحاد النيجيرى يخضع أصلا لنظام الوصاية الدولية، وهى موكولة لبريطانيا فلا يجوز للوكيل التصرف فى وكالته. وأنه يتعين لذلك الرجوع للأمم المتحدة فى شأن الكمرون، وإجراء استفتاء عام للاختيار بين أمور عدة أهمها البقاء تحت الإدارة البريطانية.

لقد طالب أهالى الكمرون الغربى الذى ضمته بريطانيا إلى نيجيريا بالعودة إلى وحدة الشعوب الكمرونية. وعندما منحت بريطانيا هذه المستعمرة استقلالها فى سنة ١٩٦٠ أجرت فى الجزء الشمالى منها استفتاء فى فبراير سنة ١٩٦١ أسفر عن رغبة الأهالى فى الأنضمام إلى مواطنهم فتنازلت عنه انجلترا فكان ذلك من أسباب قوة الحكومة وضعف المعارضة.

٢ ـ تاريخ دول إفريقيا الوسطى بعد الاستقلال :

بالنسبة لرواندا وبورندى نجد أن مجموعات من الهوتو نزلت هذه البلاد

وكانت بأعداد كبيرة ثم جاء بعدهم شعب عرف بشعب التوتسى، يقال إنهم جاءوا من الهضبة الحبشية. وتدريجيا أخضع التوتسى جماعات الهوتو الذين يشكلون غالبية السكان. ثم انتقلت ملكية الأرض من الهوتو إلى الموامى ملك التوتسى. وعلى خلاف ماحدث فى رواندا، فإنه لم يحدث أى عنف بين التوتسى والهوتو، وربما يرجع هذا إلى أن حكم التوتسى فى بوروندى لم يكن عنيفا قاسيا كما كان الحال فى رواندا، ثم أن التبعية الاقتصادية فى النظام البوروندى كانت أقل صلابة، هذا فضلا عن أن كثيرين من التوتسى كانوا قد تزاوجوا مع الهوتو. ومع أن التوتر القبلى كان أقل حدة فى بورندى إلا أن البلجيك شكلوا فى مطلع عام ١٩٦١ حكومة وطنية على عجل من الهوتو على أساس أن الهوتو يشكلون الغالبية العظمى من السكان، إلا أن الموقف كان فى الواقع مرتبكا تبعا للتزاوج والاختلاط بين القبائل وقد عارض ذلك زعماء من الهوتو والتوتسى الذين كونوا حزب أبرونا الذى فاز فى الانتخابات وسيطر على الجمعية الوطنية نتيجة ائتلاف زعماء الهوتو والتوتسي. ولما استقلت بورندى فى يوليو، ١٩٦٢ صارت دولة ملكية دستورية تحت حكم الملك (موامبوتا الرابع). لكن أصيب الائتلاف بصدمة قاسية فى ١٩ أكتوبر سنه ١٩٦٥ عندما حاولت جماعات من الهوتو القيام بانقلاب أصيب فيه رئيس الوزراء. ثم تتابعت الأحداث وقام الانقلابان اللذان أديا إلى إعلان الجمهورية فى البلاد فى نوفمبر ١٩٦٧ وتولى ميشيل موكومبيرو رياسة الجمهورية. معنى هذا أن الحكم قام بعد الاستقلال على أساس حكومة ملكية دستورية على نفس النظام البلجيكى ورئيس الدولة الموامى أو الملك هو الذى يعين رئيس الوزراء. ويشترك الملك والمجلس الوطنى معا فى السلطة التشريعية. ومن الطبيعى أن تتغير بعض بنود الدستور تبعا لقيام الحكم الجمهوري. وتنقسم بورندى إلى ٨ ولايات يرأس كل ولاية محافظ، وانقسمت الولايات إلى ١٨ مركزا. وبعد الاستقلال انضمت بورندى إلى عضوية الأمم المتحدة سنة ١٩٦٢ وهى عضو فى بعض الوكالات المتخصصة. وتعمل

بوروندى على تطوير اقتصادها إلا أن عدم توافر وسائل النقل الكافية كانت من أكبر المعوقات التى تحد من تطور اقتصادها.

أما فى رواندا فقد كان للحديث عن الاستقلال والديموقراطية والمساواة رد فعل فى رواندا أكثر مما كان لها فى أى مكان آخر من إفريقية. ذلك لأن التفكير فى الحرية وفى الديموقراطية كان المعول الذى أحدث شقا كبير ا فى بناء الشعب كما أحدث انقساما قبليا بدا من أول لحظة مثيرا للقلق. فنحن نعرف أن شعب رواندا يتكون من أقلية من التوتسى وأغلبية من الهوتو، وجاء الحديث عن الاستقلال والمساواة بتفكير التوتسى أن الاستقلال يجب أن لا يعنى بحال ما حكما ديموقراطيا تحت رياسة أغلبية من الهوتو لأن معنى هذا فقدانهم مكانتهم الخاصة إلى الأبد، وفى نفس الوقت فكر الهوتو أنه يجب المبادرة بتحطيم سياسة التوتسى قبل أن تتكون حكومة مستقلة لأن معنى هذا استمرار خضوعهم لسلطان التوتسى. لذا نشبت حرب أهلية فى البلاد سنه ١٩٥٩ كانت قصيرة ولكنها كانت عنيفة قاسية، وكانت الأفضلية العددية إلى جانب الهوتو وبرغم معاونة (التوا) الأقزام للتوتسى إلا أن أعدادا كبيرة من التوتسى كانت قد فرت إلى أوغندا وتنجانيقا، وكان عدد القتلى من القبيلتين، كما أحرق المقاتلون أكثر من عشرة الآف مسكن.

لكن حزب التوتسى (أونار) قام بنشاط كبير فى الخارج وخاصة فى الأمم المتحدة حيث لقى ممثلوه تأييدا كبيرا من مجموعة الدول الآسيوية والافريقية وتشكلت حكومة وطنية فى يوليو ١٩٦٠ وحاولت بلجيكا أن تسبق أى تدخل من جانب منظمة الأمم المتحدة فعقدت المجلس النيابى الذى أسفرت عنه الانتخابات التى قاطعها التوتسى. ومع أن الموقف كان ينذر بالاشتعال فإن أحدا فى الأمم المتحدة لم يستطع أن يقترح تعطيل الاستقلال حتى يتم الوصول إلى تسوية.

لقد حصلت رواندا على استقلالها عام ١٩٦٢ وانتخب جرايجوار كابيباندا بالانتخاب المباشر رئيسا للجمهورية.

لقد أثرت الأحداث والنزاعات القبلية على مسيرة الدولتين فعرقلت التنمية وضاعت الأيدى العاملة فى أتون الحروب الأهلية. إن اقتصاد رواندا اقتصاد زراعي،، حيث يعتمد ٨٠٪ من السكان على الأرض للحصول على الضروريات وبسبب الزيادة المستمرة فى عدد السكان أصبح الحصول على الغذاء مشكلة تعانى منها رواندا. فمدد الجفاف طويلة، والمجاعات تفتك بالأهالى لأنهم فى حاجة لرقعة خصبة من الأرض. كذلك الوضع فى بورندى فنسبة السكان عالية واقتصادها يقوم على أساس تملك الماشية. ولكى تحارب الحكومة المجاعات التى كانت تقتل السكان شجعت على زراعة المحاصيل الزراعية وذلك بزراعة أراضى المستنقعات. ومازالت الأحوال فى بوروندى بعيدة عن الاستقرار أيضا إذ اغتيل رئيس وزرائها فى السابع عشر من يناير ١٩٦٥ ، والثورة مازالت تهدد الملكية، ومازالت الحرب بينها وبين رواندا مستمرة مخلفة الدمار والخراب.

وفى الكونغو البلجيكى بدأت الاضطرابات عقب استقلاله فى يوليو ١٩٦٠ فقد قام الجيش بأنقلاب ضد الحكومة الشرعية التى كان يرأسها لومومبا وأعلن تشومبى رئيس وزراء كاتنجا انفصال إقليمه عن جمهورية الكونغو، وتدخلت هيئة الأمم المتحدة فى الأمر، وتمكن الثوار من القبض على رئيس الحكومة وقتله، ومازال الموقف أبعدما يكون عن الاستقرار فى ظل حكم الرئيس موبوتو حتى الآن.

وفى الكونغو الفرنسى ثار الشعب فى أغسطس سنة ١٩٦٣على رئيس الجمهورية فولبيربولو واضطروه إلى الاستقالة، وتولى الجيش السلطة.

وفى ٣١ ديسمبر سنه ١٩٦٥ استولى الكولونيل بوكاسا القائد العام للقوات المسلحة فى جمهورية إفريقيا الوسطى على السلطة، وعزل الرئيس دافيد داكو رئيس الجمهورية. ولن ينس التاريخ ولن تسقط من صفحاته تلك الفترة التى عاشها بوكاسا كرئيس للجمهورية بعد إسلامه وتسميته باسم (صلاح الدين أحمد بوكاسا) ١٩٧٦. ويجمع كل من زار هذه البلاد أن الناس لايزالون يحبونه، ويقولون إن هذه البلاد هى بلاد بوكاسا لأنه أثر فيها تأثيرا بالغا لا يمكن أن يمحى من ذاكرة التاريخ.

وفى الكاميرون (بعد إعلان قيام جمهورية الكاميرون المتحدة)١٩٧٢تشكل الزراعة دعامة هامة فى اقتصادها، ويعمل بها ٨٠٪ من القوى العاملة. ولذلك تنتج الكاميرون كميات كبيرة من المواد الغذائية تغطى نسبة كبيرة من الاحتياجات المحلية. أما فى مجال التعليم فقد حققت الكاميرون منذ الاستقلال أعلى نسبة للالتحاق بالمدارس على مستوى القارة الافريقية. ولكن الامكانات البشرية والمادية المتاحة لم تسمح لها بتوزيع الخدمات التعليمية بشكل متكافئ بين مناطقها المختلفة.

اخيرا وبصورة عامة:

فمن المتفق عليه أن مشاكل إفريقيا عويصة، وتتمثل إجمالا فى فقر مدقع، وجهل مطبق، وأمراض متفشية، هذا على الرغم من خيرات القارة الوفيرة ولا نستطيع أن نصف هذه الحالة إلا بأنها عجز القادرين. لقد تاهت إفريقيا وضلت طريقها، فلم تدخل من باب التقدم بسبب الظروف المحلية والدولية، فصارت كغصن فى مهب الريح.

لقد اكتشف الأفارقة أن الاستقلال ليس نهاية للمشاكل كما توقعوا، فكانت

خيبة أملهم كبيرة، وصدمتهم بواقعهم الأليم مريرة. إنهم لم يرثوا بعد رحيل الأوربيين ثورة صناعية، ولا ثورة اقتصادية، بل ورثوا عملا يبدأ من الصفر فى أوطانهم، وهذا العمل يتطلب خبرة طويلة فى الشئون الإدارية، ومعرفة واسعة فى تخطيط المشروعات، وتحديد الأولويات، وقدرة مالية لتنفيذ كل ذلك.

علاوة على ذلك ظهر فشل الأنظمة السياسية الأوربية بعد الاستقلال، فما يصلح لأوربا لا يصلح لأفريقيا. لكن كان هناك إصرار من جانب رؤساء إفريقيا على التمسك بها باعتبارها الطريق إلى الديموقراطية المزعومة التى لم تشهدها شعوب القارة. وبعد أن خاب أمل الأفارقة فى الحياة النيابية الديموقراطية، وفى البرلمانات السياسية التى صارت سوقا للمساومات المالية والصفقات التجارية للنواب، ومغنما عاما لاختلاس أموال الشعب ..كان لابد للأفريقيين من البحث عن مخرج آخر من المشاكل المتراكمة، فلاح الأمل فى منظمة الوحدة الإفريقية لكن المنظمة فشلت فى خلق مواقف اقتصادية وسياسية أفريقية موحدة إزاء القضايا العالمية وفشلت فى تحقيق تبادل تجارى وثقافى وتعليمى بين أقطار القارة. كذلك فشلت فى حل المنازعات بالطرق السلمية بين أعضائها .

مسألة الحدود:

نعرف جيدا أن الحكم الأجنبى لافريقيا، قد غير خريطة إفريقيا السياسية، فبدلا من الدول العديدة التى كان لها سيادة ويسود بينها التنافس مع تميزها بحدود متغيرة وغير واضحة أحيانا، أصبحت تقوم بضع عشرات من المستعمرات ذات الحدود الثابتة الواضحة، وتجمدت الحدود المفروضة للمستعمرات تحت يد الاستعمار الثقيلة، وفى ظل القانون الدولى لتصبح هى الحدود الدولية للدول الأفريقية المستقلة على حساب حريات شعوب بأكملها وحقوقها فى بعض الأحيان، حتى غدا من المستحيل الآن التفكير فى إجراء أى تعديل فى أى من هذه الحدود .

لقد ترتب على ذلك أن بلدانا كثيرة فى إفريقيا تقطن كل واحد منها شعوب

ذات لغات متعددة، وأديان مختلفة وأجناس متعددة متباينة من حيث الأصل، ومن الطبيعى فى مثل تلك البلدان أن تشعر كل طائفة بكيان قومى مستقل عن بقية الطوائف.

الانقلابات العسكرية :

لجأت الشعوب الأفريقية إلى الانقلابات العسكرية بعد أن يئست من الأنظمة البرلمانية السياسية، وأطاحت هذه الانقلابات العسكرية بالحكومات المدنية كما حدث فى الجزائر وجمهورية إفريقيا الوسطى ونيجيريا وغانا على التوالي... ورغم أن قادة الانقلابات العسكرية نجحوا فى خلق وحدة قومية مؤقتة، كما قاموا بنشاطات كثيرة إستهدفت تجنيد كل الموارد المادية والطاقات البشرية لتطوير أوطانهم إلا أن مشاكل إفريقيا كانت ولا تزال أعقد من تحل بالقرارات الجزئية غير المدروسة. لقد أدركوا أن المشاكل المعروضة عليهم كانت فوق قدرتهم.. علاوة على جهلهم المطلق بحكم الشعوب ومشاكل التنمية، علاوة على عدم توفر حسن النية لديهم.

هـ- حركات المقاومة الافريقية ضد الاستعمار الأوروبى في جنوب أفريقيا:*

منذ وطأت أقدام الهولنديين جنوب أفريقيا عند رأس الرجاء الصالح ١٦٥٢ بدأت الشعوب الافريقية في المنطقة في مقاومتهم. وقد بدأت تلك المقاومة قبائل الهوتنتوت ثم قبائل البوشمن ثم غيرها من القبائل.

وفيما يتعلق بالقبائل الأولى فإنها شنت على الوجود الاستيطاني الهولندى الوليد في جنوب إفريقيا حربين متتاليتين عرفتا باسم حرب الهوتنتوت الأولى وحرب الهوتنتوت الثانية، واللتين وقعتا في عامى ١٦٥٩ و ١٦٧٢ على التوالي. وقد نتجت عن هاتين الحربين تدمير القوة العسكرية للهوتنتوت وإجبارهم على العمل في الارض التى سيطر عليها السادة الهولنديون.

وعندما وصل الاستيطان الهولندى إلى مناطق إقامة البوشمن والاكسوزا بدأت هذه القبائل في مقاومة المستوطنين البوير Boers جيلا بعد جيل، وتتابعت الحروب التى أطلق عليها حروب الكافيرز kaffir 's wars أى أنها كانت مواجهة بين أصحاب العقيدة الدينية من المسيحيين الكالفنيين الهولنديين وبين الأفارقة الوثنين الذين لم يدينوا بديانة سماوية. وقد استمرت هذه الحروب حتى بعد استيلاء البريطانيين على رأس الرجاء الصالح عام ١٨٠٦.

وقد استغرق البوير مائة عام للانتشار الاستيطانى من رأس الرجاء الصالح إلي نهر فش Fish River والى منطقة جراف راينت Graff - Rieniet وسوليندام swollendam لتصل بذلك إلى مناطق قبيلة الاكسوزا مع الربع الأخير من القرن الثامن عشر، ليبدأ أبناء هذه القبيلة حروبا جديدة ضمن سلسلة حروب الكافيرز عبر مائة عامة أخرى حتى الربع الأخير من القرن

* أ . د. السيد علي أحمد فليفل

التاسع عشر، حتى أقدمت هذه القبائل في عام ١٨٥٧ على القيام بما يمكن اعتباره نوعا من الانتحار الجماعي لمنع المستوطنين الانجليز من الهيمنة على بلادهم، بعد ضم بلادهم للحكم البريطاني فيما عرف باسم كافراريا البريطانية kaffraria British. وفي غضون هذا العام حلت بالأفارقة من الاكسوزا كارثة مروعة بعد حرقهم لمزارعهم وذبحهم لماشيتهم إذ انخفضت أعداد أبناء الاكسوزا من أكثر من مائة ألف نسمة إلى أقل من أربعين ألف نسمة.

ولكن تركز كفاح كريلي ضد البريطانيين، وتركز كفاح موشيش ضد البوير في دولة أورانج الحرة. Orange Free State وهما على الرغم من تراجع قواتها لم يتراجعا عن الصمود والنضال. ولكن موشيش كان مضطرا أمام الضغط الاستيطاني لبوير الدولة الحرة إلى قبول الحماية البريطانية ـ باعتبارها أخف الضررين ـ وذلك في عام ١٨٦٨ بعدما بلغ من العمر أرذله وأعياه الكفاح الطويل أمام أسلحة البيض النارية.

وحوالي ذلك الوقت توجهت جماعات المستوطنين البيض من بوير الترنسفال جنوب بلاد قبيلة البتشوانا ـ بتسوانا الحالية ـ وأسفر هذا عن تأسيس المستوطنين عددا من المزارع على حسابهم، فاضطروا إلى استقطاب النفوذ البريطاني للتصدي لهم. ولكن البريطانيين تأخروا في الاستجابة لهم، حتى اندفعوا غاضبين بعد أن علموا بأن البوير يستهدفون الارتباط بالألمان في جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) وقاموا باحتلال بتسوانا لاند في عام ١٨٨٥.

ومع دعوة غير واحد من المبشرين بضرورة توفير الحماية للقبائل الافريقية في أماكن خاصة بهم ظهرت فكرة المعازل Reserves، التي كان باطنها العذاب وظاهرها الرحمة، إذ صارت أماكن ضيقة محدودة الإمكانيات يحشر فيها الأفارقة، ولا تقدم لهم فيها أية خدمات اقتصادية أو صحية أو تعليمية،

ويجبرون على الخروج منها للعمل فى أرض الافارقة أو فى مناجم الماس فى كيمبرلى بمستعمرة الرأس أو مناجم الذهب فى جوها نسبرج بجمهورية الترنسفال. وهكذا كان على الأفارقة مقاومة المستوطنين فى المزارع وفى المناجم على السواء.

وقد اتخذت جمهوريتا البوير موقفا عنصريا رافضا لأية مشاركة إفريقية فى الحياة السياسية، بينما كان قانون مستعمرة الرأس ومستعمرة ناتال البريطانيتين يسمح بهذه المشاركة نظريا وليس عمليا اذ لم يكن هناك ممثلون أفارقة فى البرلمان، ناهيك عن وجود وزراء أو مسئولين تنفيذيين. بل إن الإنجليز إمعانا فى العنصرية شكلوا مجالس خاصة للأقاليم الوطنية حتى لا يشارك الأفارقة فى الحياة السياسية العامة للبيض، ويقتصر دورهم على العمل فى خدمة البيض. ومن ناحية ثانية فقد استغل البيض من إنجلتر والبوير الافارقة أبشع استغلال فيما انشغل طرفا الصراع الأبيض فى حرب البوير ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢، ولكنهم عندما توصلوا لتسوية هذا الصراع بمقتضى معاهدة الصلح فى فرينيجنج Vreeniging شكلوا لجنة الشئون الوطنية Native Affairs Committee لإجبار الأفارقة على العمل لديهم، وعلى الرغم من هذا التردى الرهيب فى أوضاع الافارقة، فانهم عاودوا الثورة، ضد الحكم الاستعمارى ومجابهة المستوطنين بعد عشرين عاما، إذ صعب عليهم أن يصيروا ـ وهم الفرسان الأشاوس ـ عمالا مأجورين لدى السادة البيض فى ذات أرضهم التى استحوذ عليها المستوطنون. وبات الموقف الوطنى خطيرا ويائسا. ذلك أن نفوس الأفارقة كانت أقوى من الاستسلام للاستعمار الاستيطاني، ولكنها كانت عقب كل ثورة أو تمرد تجد نفس التدمير وضياع مزيد من الأرض، وإهدار كل نظمها من ملكية وسلطات قبلية، لصالح تقدم القيم الغربية، بسبب

الجهود الرزوية للمبشرين الذين جعلوا الدين والتعليم وسيلة جديدة من وسائل تهيئة العقل الافريقى للتفريط فى الهوية، والقبول بالمستعمر.

وبينما يحدث هذا فى أقصى الجنوب الافريقي، فان تقدم المهاجرين البوير فى عام ١٨٣٦ أدى إلى تقدم قوات المستوطنين لتخترق مناطق إقامة الأفارقة فى البلاد الواقعة شمال نهرى أورانج والغال، وفى منطقة ناتال الواقعة على المحيط الهندى وقد اختلفت ردود فعل هؤلاء الأفارقة إزاء هذا العدوان الجديد، فبينما تصدت بطون من الزولو للغزاة عند نهر الدم Blood River فى أواخر الثلاثينيات من القرن ا لتاسع عشر، وانتهت المعارك النهاية المنطقية حين أحال البوير أحد الانهار أحمر قانيا بفعل من سقط فيه من قتلى الزولو، فان بطونا أخرى مثل الميتابيلى Matabele هاجروا وراء الزمبيزى هروبا من المستعمرين، حتى لاحقوهم بعد ستين عاما ليحتلوا ما عرف باسم روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) حاليا على حساب أحفاد مهاجرى الزولو القدامي، وملكهم لوبنجويلا الذى أسقطته قوات المستعمر البريطانى سيسل جون رودس C.J. Rhodes فى عام ١٨٨٩.

وفى المنتصف بين كيب تاون وبولاوايو ــ حيث بلاد الباسوتو تصدى شعب ليسوتو للمستعمرين البوير والبريطانيين معا، بعد أن راح هؤلاء يضغطون عليه، ويضمون أرضه الخصيبة عند أعتاب وقمم جبال دراكنزبرج. وقد قاد شعب الباسوتو فى مقاومته للغزاة البوير والبريطانيين زعيم مقتدر هو الملك موشيش Mochesh الذى أنزل بالبريطانيين هزيمة مؤلمة عند فيرفوت Vervote فى ١٨٤٨ هرب بعدها. وقد تحالف هذا الرجل مع عدد من الملوك الآخرين، كان منهم كريلى ملك الاسكوزا. وقد أنزل كلاهما بالأوروبيين خسائر فادحة ولتنظيم توجيههم للمناجم والمزارع قبل وبعد الحرب. وقد أدت هذه الضغوط غير

الإنسانية إلى ثورات متعاقبة من كل الزولو والمتابيلى والماشونا والبتشوانا وغيرهم لاسيما فى أعوام ١٨٧٩ و ١٨٩٦ و ١٩٠٠ ـ ١٩٠٢ و ١٩٠٦ ، وجرى إخماد هذه الثورات بعنف شديد ولكن هذا لا يمنع من أن الثائرين الأفارقة ألحقوا هزائم مريرة بالقوات البريطانية خلالها.

وقد أدى هذا كله، إضافة إلى إقبال الأفارقة على التعليم إلى ظهور شخصية المناضل الأفريقى جون تنجوجا بافو. john Tengo jabavu من قيادات الاكسوزا الذى أسس منظمة امبومبا ياما افريقيا Imbumba Yama Afrika كأول منظمة طالبت بحقوق الأفارقة فى عام ١٨٨٢، ثم أسس جريدة الرأى العام البانتوى Imvo zabantsundu فى مدينة كنج ويليافرتاون والتى حمل فيها بشدة على مظالم الحكم الأبيض، وعلى الاوضاع السيئة للأفارقة.

وقد حظيت دعوة جابا بافو للمطالبة بحقوق الأفارقة السياسية والاقتصادية والمدينة والانسانية بتشجيع عديد من الزعماء الأفارقة، وكذلك من المتعلمين الأفارقة وبعض الليبراليين البيض. كما وجدت دعوة مناصرة الكنائس الافريقية التى بدأت تتحول إلى انتهاج نفس النهج الذى أتبعه زنوج الولايات المتحدة الأمريكية فى الانفصال عن الكنائس البيضاء، وتأسيس حركة الكنيسة الأثيوبية، والدعوة لاتحاد السود جميعا لمجابهة القمع والظلم الذى يمارسة البيض.

ومع نهاية القرن بدأت تظهر ـ بفضل العمل فى المناجم ـ حركة عمالية أفريقية تجاوزت الانتسابات القبلية، ونظرت للأفارقة كإخوة فى مواجهة البيض، وكعمل وفى مواجهة أصحاب الأعمال البيض، كما بدأ العمال مع مطلع القرن العشرين فى الاهتمام بتعليم أبنائهم وإلحاقهم بالمدارس الفنية، ودفع الزعماء

أبناءهم إلى الولايات المتحدة وبريطانيا لتلقى التعليم هناك وبدأ هؤلاء ينظرون إلى قضية الوحدة الأفريقية ويتجاوزون جهود جابافو الصحفية.

كانت قمة نجاح الخط المخالف لجابافو، هى تكوين المؤتمر الوطنى الافريقى لجنوب أفريقيا .فى عام ١٩٠٢، للتنسيق بين الأنشطة والمجالس والجمعيات الافريقية المختلفة فى الإقليم الشرقى لمستعمرة الرأس، وبخاصة فى مسألة الحقوق الانتخابية. وقد استهل المؤتمر الوطنى نشاطه بتقديم تقرير مفصل عن أوضاع الأفارقة إلى وزير المستعمرات تشمبرلين. فذكر أن المؤتمر الوطنى ليس فقط لجنة تضم الناخبين الأفارقة، بل تضم الافارقة، باعتبارهم رعايا بريطانيين مخلصين، يشاركون فى كل مجالات الحياة فى جنوب إفريقيا البريطانية بكل فخر. وطالبوا بالمساواة مع البيض فى الكنيسة والحقوق التعليمية، والمرتبات، والقضاء، والتعيين للوظائف المدنية والإدارية، والعمل دون إكراه، وحق عرض أنفسهم فى سوق العمل دون قيد وتحريم قوانين المرور والإدارية والخمور، والحكم الوطني، وختاما الحقوق السياسية.

وعندما تشكلت لجنة الشئون الوطنية (١٩٠٣ ـ ١٩٠٥) ظهرت الزعامات الافريقية بمظهر متماسك، حين طالبت جميعها، بغض النظر عن قبائلها، وبغض النظر عن ولاءاتها واهتماماتها المحلية، بالمساواة فى الحقوق الانتخابية بين جميع سكان المستعمرة دون اعتبار لمسألة لون البشرة أو اختلاف الجنس.

وكانت هذه اللجنة قد تشكلت فى أعقاب حرب البوير، للوصول إلى اتفاق بين المستعمرات الأربع: الرأس وناتال والأورنج والترنسفال حول المسائل الافريقية.

وقد أعقب تدهور لجنة الشئون الوطنية، تزايد مخاوف الوطنيين فى كل المستعمرات من أن بريطانيا لا تستطيع قيادة الاتحاد المنشود صوب مبادئ

المساواة والعدالة، وكانت مخاوف الوطنيين فى مستعمرة الرأس أكثر من مخاوف الآخرين، فلديهم حق مبدئى يخشون أن يلغي، وإن كان المتمتعون بالحقوق السياسية قلة قليلة لا تزيد عن ٥٪ إطلاقا من عد الناخبين. وقد قدم المؤتمر الوطنى الافريقي، سواء فى مستعمرة الرأس أم فى المستعمرات الأخرى كما قدم جابافو وأنصاره عوائص إلى المندوب السامى وإلى حكام المستعمرات وإلى الملك والبرلمان ورئيس الوزراء ووزير المستعمرات البريطانى يطالبون بالمساواة وعدم تغيير المبادئ البريطانية أمام ضغط الافريكانيين لإحراج الحكومة البريطانية بتهديدها بإقرار التفرقة العنصرية، وحرمان الأفارقة من الحقوق السياسية أو الثورة عليها. وطالب جابافو بالمحافظة على دستور المستعمرة وعدم تعديله بما يلغى ممارسة الأفارقة للحقوق السياسية التى تمتعوا بها طويلا.

وعندما أقر المؤتمر الوطنى الأبيض الذى ضم ممثلى البيض فى المستعمرات الأربع مبدأ العنصرية والحاجز اللونى اجتمع فى بليفونتين، عاصمة مستعمرة نهر الأورنج فى أيام ٢٤ ، ٢٥ و ٢٦ مارس ١٩٠٩ المؤتمر الوطنى لأفارقة الجنوب الأفريقى لمناقشة المواد المتعلقة بالوطنيين والملونين، من مشرع قانون اتحاد جنوب أفريقيا، ووجه المؤتمر اللوم إلى حكومة بريطانيا لتخليها عن التزاماتها الأساسية تجاه الأفارقة والملونين فى جنوب إفريقيا، والمتمثلة فى إقرار المساواة بينهم وبين الأوربيين، وسجل المؤتمر أقصى درجات الاحتجاج على إقرار الحاجز اللونى فى دستور الاتحاد باعتباره خاطئا وغير عادل.

وحاول مجلس الأقاليم الترانسكية أن ينقل إلى البرلمان البريطانى رأيه عن القضية فلم يستطع. ووجه شراينر وهو من فئات البيض، والدكتور عبد الرحمن عن الملونين الآسويين وجون تنجو جابافو عن الأفارقة عريضة إلى البرلمان

البريطانى لاقناعه بعدم الموافقة على مشروع قانون جنوب افريقيا، مالم تلغ منه كل إشارة إلى الحاجز اللونى والتفرقة العنصرية.

لم تكن لكل الاحتجاجات والبيانات والعرائض والمطالبات أية فائدة، حيث وافقت الحكومة البريطانية ومجلس العموم على قانون دستور الاتحاد دون تعديل. ولم تجد محاولة شراينر وقادة الملونين وقادة الأفارقة شيئا، ولم تنجح فى انهاء مؤامرة الصمت التى اشترك فيها جميع الساسة والصحفيين فى بريطانيا . . . واتضح أن مرحلة جديدة فى تاريخ جنوب أفريقيا قد بدأت باتحاد البيض فى المستعمرة فى ظل حكومتهم الأفريكانرية والسيادة البريطانية ضد الأفارقة.

وقد بدأ الأفارقة المرحلة الجديدة بالاتحاد لمواجهة حكم الأقلية وقوانين التعنت والعنصرية، فكان انعقاد المؤتمر الوطنى الافريقى للوطنيين فى جنوب إفريقيا، فى عام ١٩١٢، دون أى اعتبار للخلافات القبلية، لبحث أوضاع الافارقة فى ظل الاتحاد، والمطالبة بإلغاء القوانين العنصرية، والقوانين التعسفية، فى مجالات العمل والحياة المختلفة، وإقرار المساواة بين البيض والسود.

ومنذ قيام اتحاد جنوب افريقيا تعاقبت على البلاد الحكومات الآتية :

١ ـ حكومة حزب جنوب افريقيا ١٩١٠ ـ ١٩٢٤ برئاسة لويس بوتا وجان كرستيان سمتس .

٢ ـ حكومة الميثاق ١٩١٠ ـ ١٩٢٤ Pact Government والتى كانت عبارة عن ائتلاف الحزب الوطنى العنصرى (الافريكانري) مع حزب العمل (الإنجليزي) برئاسة رئيس الوزراء هيرتزوج .

٣ ـ حكومة الحزب المتحد United party والتى كانت عبارة عن اتحاد الحزب الوطنى مع حزب جنوب افريقيا وذلك برئاسة رئيس الوزراء هيرتزوج ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ .

٤ ـ حكومة سمتس ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨

٥ ـ حكومة الحزب الوطني ١٩٤٨ ـ ١٩٩٤والتى تعاقب على رئاستها كل من مالان وستريجدوم وفيرفورد ثم بوتا ودى كليرك.

وقد اختلفت مهمة كل وزارة عن سابقتها حسب تطورات الموقف الداخلي. فبينما كانت مهمة هيرتزوج فرض سياسات تعليمية وثقافية وعنصرية لصالح قيادة الأفريكانرز للاتحاد، وكانت مهمة وزارة سمتس خلال الحرب العالمية الثانية دعم المجهود الحربى البريطانى، وأخيرا كانت حكومات الحزب الوطنى المتعاقبة تعمل على دعم العنصرية وإقرارها ومنع حصول الأفارقة على أيةحقوق لهم، وإقرار سياسات الأبارتيد، وفرض العزل العنصري، وهيمنة البيض على القرار السياسي، وعلى القرار الاقتصادي، وعلى أعلي مستويات التقنية، مع تكريس تخلف الأفارقة فى نفس الوقت.

ومع تزايد حدة الخطوات العنصرية التى اتبعتها حكومة اتحاد جنوب افريقيا المتعاقبة ومنها فرض قانون الأرض Pand Act ١٩١٣، وفرض سياسات التمييز بين العمالة البيضاء والعمالة الإفريقية، نشط المؤتمر الإفريقى فى المقاومة، وتتابعت اجتماعات الزعماء القبليين من ناحية، واجتماعات القيادات العمالية من ناحية، وأخذ البعد العام لحركة فصائل وزعامات القبائل يتبلور يوما بعد يوم، كما ظهرت مقولات تتحدث عن وحدة الأفارقة جميعا فى مواجهة وحدة البيض جميعا، لاسيما بعد أن سيطرت الحكومة على الأرض وراحت تقطعها للبيض، وأخذت تحرم الأفارقة منها ثم تبلورت سياسات المعازل، التى أخذت

تتطور الممارسات العنصرية إزاءها، بحيث أصبحت مواطن أوبانتوستانات ثم دولا states ,Bantustans ,Homelands مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين. وراحت الحكومات العنصرية المتعاقبة تزعم أنها بهذا الشكل حلت مشكلة الأفارقة، بعد أن أصبح كل بانتوستان يمثل قومية لقبيلة افريقية ما وأنها صارت مستقلة، ولايحق للأفارقة بالتالى حمل السلاح. بل عليهم أن يتمتعوا بالاستقلال الذى وهبهم إياه البيض فى ظل وصايتهم عليهم على نحو ما فعلت حكومة الحزب الوطنى منذ وصولها للسلطة في عام ١٩٤٨.

وكان الهدف من كل ذلك هو إظهار الأفارقة بمظهر الانقسام والصراع القبلي، وعدم وجود قومية إفريقية جامعة. وقد كان رد الفعل الإفريقى لهذا هو العمل على دعم الوحدة الإفريقية بين كافة القبائل من ناحية، والارتباط بكافة القوى الدولية من ناحية أخري، بغرض الحصول على اعترافها ودعمها. وقد وجدت الحركة الوطنية الافريقية ضالتها فى كل من الحركة الاشتراكية الدولية والصين والاتحاد السوفيتي، إضافة إلى الحركة القومية العربية وحركة الوحدة الافريقية، ومنظمة الوحدة الافريقية، وحركة عدم الانحياز وحركة التضامن الأفروآسيوى وغيرها.

ولجأت حكومة جنوب أفريقيا البيضاء فى مقابل هذا إلى تجريم الشيوعية وتجريم الاتصال بالقوى المعادية لها، وتجريم أعمال المقاومة، وإلغاء كافة تنظيماتها السياسية والعسكرية، وهو ما أدى إلى انتقال أعمال المقاومة خارج الحدود ودفع بنظام جنوب افريقيا العنصرى إلى تعقب قياديى المؤتمر الوطني الافريقى والقاء القبض عليهم، وقتل بعض رموزهم، فضلا عن اقتراف المزابح ـ الواحدة تلو الأخري.

وفى مطلع الستينات اتخذت الدول المناهضة للعنصرية موقفا صلبا ضد

الدولة، وراحت القوى التقدمية تقدم الدعم المادى والعسكرى للمؤتمر الوطنى الافريقى وغيره من منظمات المقاومة.

ومن أبرز معالم المقاومة الافريقية إضرابات عمال مناجم الذهب فى الراند بجوهانسبرج عدة مرات فى أعوام ١٩١٣ و١٩١٤ و١٩١٩ و١٩٢٠و ١٩٤٦ والتى نظم آخرها نحو مائة ألف عامل، والذى لعب فيه المؤتمر الوطنى الافريقى دورا هاما. والواقع أن حزب المؤتمر الوطنى الافريقى راح يدعم وضعه كحزب المقاومة الرئيسى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى يوما بعد يوم. وقد لعب أول رئيس للمؤتمر القس جون دبى Jhon Duby دورا هاما فى هذا الصدد، وهو يمثل الروح الإفريقية الساعية إلى مناهضة العنصرية، استنادا إلى حركة الكنيسة الأثيوبية. وقد دعا إلى مشاركة الأفارقة فى الحياة السياسية، ونيل الحقوق المتساوية مع البيض، ووحدة الأفارقة على اختلاف قبائلهم واتجاهاتهم الفكرية وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. وشيئا فشيئا نجحت قيادة المؤتمر فى تجاوز الولاءات القبلية وفى دعم الروح العلمية بين الشباب، وابتعاث العديد من الشباب إلى أوروبا والولايات المتحدة، كما بدأت تهتم بالعمل النقابى والعمال. وفى هذه الفترة أيضا أسس كلمنت كادلى Clement Kadlie نقابة لعمال الصناعة والتجارة الأفارقة، كما أسس جابافا من زعماء المؤتمر فى بليمونتين ١٩٣٥ مؤتمر جميع الإفريقيين، ودعا إلى وحدة غير الأوربيين معا لمجابهة الهيمنة البيضاء. كما أنشأ المؤتمر جناحا شبابياً قاده كل من ليمبيدى ومدا بغرض مد مظلة المؤتمر إلى جميع شباب القبائل، بغض النظر عن أية اختلافات بغرض تحرير الافريقيين من السيطرة البيضاء ، وذلك فى عام ١٩٤٤ وسرعان ما بدأ الجناح الشبابى هذا يطالب بإعادة توزيع الأرض فى جنوب إفريقيا على أساس عادل، وبتحقيق الديمقراطية الشعبية الشاملة.

وأخذ المؤتمر الوطنى الإفريقى يدعم اتصالاته بالجماعات غير البيضاء من هنود وملونين، على أمل ان يؤدى ذلك إلى الضغط على النظام العنصري. ومن ذلك ما حدث فى عام ١٩٥١ حين نظم المؤتمر الوطنى الإفريقى برئاسة د. موركا حملة التحدى بالتعاون مع المؤتمر الوطنى الهندي، احتجاجا على قانون قمع الشيوعيين وقانون الرور وقانون تحرير رأس المال، وقانون مناطق الجماعات وقوانين البانتو (العنصرية) وقانون الانتخاب. وتزايدت حملات المؤتمر الوطنى الافريقى للاحتجاج رغم قمع الشرطة العنصرية، ورغم تعديل القانون الجنائى لتغليظ العقوبة على الأفارقة والهنود.

وفي عام ١٩٥٢ مع تولى ألبرت لوتولى زعامة المؤتمر الوطنى الافريقى ازدادت حدة المواجهة، حتى أصدرت السلطات العنصرية قانون الأمن العام الذي يحظر حضور زعامات معينة اجتماعات المؤتمر الوطني، كان منها نيلسون مانديلا وولتر سيسولو، ويجيز إعلان حالة الطوارئ وممارسة أعمال قمعية ضد الوطنيين لأدنى شبهة. وتكررت احتفالات الأفارقة سنويا بذكرى حملة التحدى وشيئا فشيئا بدأت المواجهات تصبح أكثر دموية إلى أن أصدر المؤتمر الوطنى الافريقى ميثاق الحرية Freedam Charter فى عام ١٩٥٥ والذى صار بمثابة برنامج عمل المؤتمر الوطنى الافريقى لمقاومة العنصرية.

وعند هذا الحد تصاعدت القوانين العنصرية فى حدتها، لتبدأ سياسات النفى والاعتقال والقتل فى الشوارع.

وفى هذه الفترة بدأت بعض العناصر القيادية البيضاء فى الانضمام إلى المؤتمر الوطنى الإفريقي، مثل باتريك دنكان الذى كان ابنا لأحد حكام اتحاد جنوب إفريقيا السابقين. وبدأت حركة المقاومة الإفريقية للعنصرية تتجاوز حدود اللون لتصبح حركة عامة فى البلاد، كما ظهرت حركة الوعى الأسود لتؤكد على حق الإنسان الإفريقى فى حياة كريمة. كما بدأت الحركة الوطنية الإفريقية

تحظى بتأييد دولى تمثل فى الدعم العربى والإفريقى والآسيوى ودعم دول عدم الانحياز، فضلا عن دول الكتلة الشرقية.

وفى مطلع السيتنيات اقترفت السلطات العنصرية عددا من المذابح يأتى على رأسها مذبحة شار بنيل صباح ٢١ مارس ١٩٦٠. وبينما كانت الحكومة البيضاء تخطط لإعلان استقلالها عن الإمبراطورية البريطانية فى ٣١ مايو ١٩٦١ كانت الدول المناهضة للعنصرية تخطط لقطع علاقاتها معها.

ومع الحصار الدولى والمقاطعة السياسية والاقتصادية للنظام العنصرى ازدادت حدته، وأخذ يوغل فى إجراءاته القمعية، وألقى فى السجون بعدد كبير من رجال المقاومة، كان من بينهم نيلسون مانديلا مما اضطر حركة المقاومة إلى حمل السلاح آخر الأمر، واضطرت كذلك إلى الانتقال إلى خارج البلاد حيث أخذت مواقع لها فى مستعمرات الجوار، لا سيما فى روديسيا الشمالية والجنوبية وأنجولا وموزمبيق. ومع حصول هذه الدول على استقلالها منذ الستينيات ومنتصف السبعينيات وأول الثمانينيات على التوالى أصبحت أراضيها قواعد انطلاق لمقاتلي المؤتمر الوطنى الافريقى ضد النظام العنصرى، كما جرى التنسيق بينهم وبعد جبهة سوابو فى ناميبيا.

ومع الضغط الخارجى انفجرت انتفاضة إفريقية مستمرة ضد العنصرية، سواء فى المعازل والبانتوستانات أم فى المدن والحضر أم فى القرى والريف، وفى المناجم والمزارع. وقد أدى كل ذلك إلى استنزاف النظام فقبل التفاوض مع سوابو فى ناميبيا لتحصل على استقلالها فى مطلع التسعينيات، وكان ذلك مقدمة للإفراج عن نيلسون مانديلا وغيره من زعماء المؤتمر الوطنى الافريقي، وبدء مفاوضات لإنهاء الهمينة البيضاء على البلاد، ووضع حد للنظام العنصري. وعلى ذلك استلم نيلسون مانديلا السلطة بعد الانتخابات العامة، ليصبح فى ٢١ مايو ١٩٩٤ أولى رئيس إسفريقى لجمهورية جنوب افريقيا.

اهم مراجع التاريخ الحديث والمعاصر للقارة

اولا: مراجع عربية:

١ ـ احمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر (القاهرة ١٩٥٦)

٢ ـ احمد الخطيب : الثورة الجزائرية (بيروت ، ١٩٥٨)

٣ ـ باسم رشدي: طرابلس الغرب فى الماضى والحاضر (طرابلس ١٩٥٣)

٤ ـ بشير السعداوى : فظائع الإستعمار الايطالى الفاشى فى طرابلس وبرقه (١٩٥٠)

٥ ـ تمام همام تمام : المقاومة الوطنية ضد التسوع الفرنسى فى أعالى النيجر (مجلة الراسات الافريقية ، العدد الثامن جامعة القاهرة ١٩٧٩)

٦ ـ جلال يحيى : المغرب الكبير (القاهرة ، ١٩٦٦)

ـ الثورة المهدية وأصول السياسيه البريطانية فى السودان (القاهرة ١٩٥٩)

ـ التنافس الدولى فى شرق افريقية (القاهرة ١٩٥٩)

٧ ـ جمال حمدان : استراتيجية الإستعمار والتحرير (القاهرة ١٩٦٨)

٨ ـ جمال زكريا : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيه (القاهرة ١٩٦٨)

٩ ـ جون جنتر : داخل افريقيه ، الجزء الاول ، القاهرة (د . ت)

١٠ ـ الحبيب تامر : هذه تونس (القاهرة ١٩٤٨)

١١ ـ حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس (١٣٧٣)

١٢ ـ رافت الشيخ : افريقيا فى التاريخ المعاصر (القاهرة ١٩٨٢)

١٣ ـ رشدى صالح : سيرة محمد عبد الكريم الخطابى (القاهرة، ١٣٤٣) ز

١٤ ـ زاهر رياض : إستعمار افريقيا (القاهرة ١٩٦٥)

ـ تاريخ غانه الحديث (القاهرة ١٩٦١)

١٥ ـ سامى حكيم : استقلال ليبيا (١٩٥٦)

١٦ ـ سليم قبطان : الرحله الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الابيض) تعريب محمد مسعود (القاهرة ١٩٢٢)

١٧ ـ سليمان حزين : صفحات من تاريخ الإستعمار (د . ت)

١٨ ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى اقلرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٥)

١٩ ـ تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد (القاهرة ، ١٩٧٢)

٢٠ ـ شوقى الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

ـ المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (١٩٩٧)

٢١ ـ شوقى الجمل، وعبد الله عبد الرازق ابراهيم : تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر (١٩٩٦)

٢٢ ـ صلاح العقاد : ليبيا المعاصرة (١٩٦٤).

ـ صلاح العقاد المغرب الكبير (القاهرة ١٩٦٩)

٢٣ ـ عبد السلام سلطان : لجنة الأمم المتحدة الرابعة والعشرين وتصفية الاستعمار فى القارة الافريقية (ماجستير غير منشورة معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ١٩٨٠)

٢٤ ـ عبد الغنى عبد الله خلف الله : مستقبل افريقيا السياسى (القاهرة ١٩٦٢)

٢٥ ـ عبد المجيد بن خلدون : هذه مراكش (القاهرة ١٩٤٩)

٢٦ ـ عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى أفريقيا (القاهرة ١٩٦٩)

٢٧ ـ عبد الله عبد الرازق : نظم الحكم الاستعماريه فى افريقيا (مجلة الدراسات الافريقيه العدد ١٤ ـ ١٩٨٦)

ـ نظام الحكم البريطانى غير المباشر كما طبقته

بريطانيا فى نيجيريا (معهد البحوث والدراسات الافريقيه جامعة القاهرة ١٩٦٧)

- المسلمون والإستعمار الأوربى لافريقيا (سلسلة عالم المعرفه العدد ١٣٩، يوليه ١٩٨٩)

- موقف مملكة الأشانتى من التوسع البريطانى فى غانا فى القرن التاسع عشر (مجلة الدراسات التاريخيه المجلد ٣٥ ، ١٩٨٨)

- الاسلام والحضارة الإسلاميه فى نيجيريا (القاهرة ١٩٨٤)

- بى بوريه والثورة ضد الوجود البريطانى فى سيراليون (مجلة الدراسات الافريقيه والعدد ١٦ ، ١٩٩٦)

٢٨ - علال الفاسى : الحركات الاستقلاليه فى المغرب العربى (القاهرة ١٩٤٨)

٢٩ - على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (القاهرة ١٩٦٨)

٣٠ - عوض محمد عوض : نهر النيل (١٩٦٢)

٣١ - فوزى درويش : التنافس الدولى حول حوض الكونغو ١٨٨١ - ١٨٩٩ (رسالة دكتوراة غير منشوره ، القاهرة ١٩٨١)

٣٢ - كوامى نكروما : نحو تحرير المستعمرات ترجمة عبد العزيز عتيق (١٩٥٨)

٣٣ - محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٤٨).

- مصر فى أفريقيا الشرقيه (القاهرة ١٩٣٩)

٣٤ - محمد عوض محمد : الإستعمار والمذاهب الاستعماريه (القاهرة ١٩٥٢)

٣٥ - محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان (القاهرة ١٩٦٣)

- السنوسيه دين ودوله (١٩٤٥)

- ميلاد دولة ليبيا الحديثه (١٩٥٧)

٣٦ ـ محمود سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر (طرابلس الغرب ، ١٩٦٨)

٣٧ ـ محمود شلبي: عمر المختار ضحية الإستعمار الوحشى (١٩٥٧)

٣٨ ـ مورهيد، الأن : النيل الأزرق ترجمة ابراهيم عباس ابو الريش (بيروت ١٩٦٩)

٣٩ ـ نسيم مقار : البكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة ١٩٦٠)

ثانيا مراجع اجنبية :

1-Adeleye, R,A. : Power and Diplomacy in Northern Nigeria, London 1971

2- Agostini, G. : Italy and her Empire, translated by:c. cope, Genoa 1937

3-Andre, Julien Charles: Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1952

4- ANSOM , Governer Lamneau to Minister Senegal I, 24 May. 1881

5-ANSOM , Governer Vallon to the Minister Senegal I, 67b, 23 July 1882

6- Anthony Enahoro: Fugitive Olffender, London, 1965

7- Baker, Sir S. W. : Ismailia. 2 Vols. - London 1974

8 -Banning, E. : Africa and Brussels Geographical Conference, London , 1877

9 - Le Partage Politique de Lafrique (1885 - 1888) Bruxelles, 1888

10 - La Question Africain, L ePortugal - L'Etat Independant de eongo Africaine, L' Avenir de LAfrique. Bruelles 1918

11- Bartlett. V. : Struggle for Affica , 1953

12- Bourquin, M. Les visees de L;1918 allemagne sar le eongo Belge, //braxelles

13 - Branschwing, H.: l'Avenemnt de L'Afrique noir du xix dnas Jours, 1936.

14 - Burtin. R. : The Lake Regions of Central Africa. 2 Vols . 1900.

15 - Cambon. Henri : Histoire du Maroc. Paris. 1952.

16 - The Cambridge History of Africa. Vol. - 6. 1870 - 1905. (eds.) Fage and Ronald Oliver. Cambridge. 1986.

17- Coleman. J-S. : Background to Nationalism. U.S.A. 1958.

18 - Cook . W.A.: Africa. Past and Present. Litt lefeild Adams and co,. New jersy. U.S.A. 1965.

19 - Cornevin. R. : Histoire des Peuples de L' Afrique Noire. Paris. 1962.

20- History du Congo - Leopoldville. Paris. 1963.

21- Growder. Michael and j - f Ajayi (eds.) History of West Africa.(1960).

22 - Daye, P. : L' Empire Coloniale Belge. Bruxelles. 1963.

23- Buff, James : Portuguese Africa. London 1959.

24 - Edward, Mostimer : France and the Africance (1944 - 60) London 1969.

25 - Foltz. william : From French west Africa to Mali Federation London. 1965.

26 - Fyns. J. K. in Michael Growder (ed.): West African Resistance.

27 - Gailay. H. A. : AHistory of the Gembia. London. 1964.

28 - Garas. Felix : Bourquiba et Le Naissance d' une Nation . Paris . 1958.

29 - Fyns. j.k. in Michael Growder (ed.): West African Resistance..

30 - General History of Africa. vol. vll (ed.) ADU Boahen. Unesco. Africa 1985.

31 - Africa under Colonial Domination. 1880 - 1935. Politics and Nationalism in West Africa.

32 - Gunther. J. : Inside Africa . London . 1955.

33 - Hobley. L.F. : Opening Africa. London. 1955.

34 - I Kine, Obaro : Groundwork of Nigerian History. . Nigeria 1980.

35 - Ingham. K. : Africans. The History of A Continent. London. 1995

36- Johoston. sir H. H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races. Cambridge. 1915.

37- Jorunal Officiel. Debates of the National Assembly. Ist Session. 21 March. 1956.

38- July. R. : Histoire des Peuples D' Afrique. Vol. 11. 1955.

39- Kadowri. Majid : Modern Libya. Baltimore. 1963.

40- Keltie. j. Scott : The Partition of Africa. London. 1895.

41- Kenya Forstner, Michael Growder (ed.): West African Resistance. London. 1978.

42- Kermans, H. : Monhein. Ch. : Histoire du Congo - Belge. Bruxelles. 1932.

43- Kilson, M. : political Change in West African State. A study of the Modernization Process in Sierra Leonde. Cambridge. 1966.

44- Lanu, Rom : Hassan II King of Morocco. London 1982.

45- Laveleye, E. : L' Afrique Centrale et La Conference Geographique de Bruxelles. Bruxelles. 1878.

46- Leamarch and Rene : Political Awakining in the Belgiam Congo. California. 1964.

47- Livengstone, David : Narrative of an expedition. Zambesi and its tributaries. 1866.

48- Lucas. Charles : The Partition of Africa. 1922.

49- Maurois, A. : Lyautey, Paris, 1935

50- Morrimer, Edward: Fgrance and Africans, (1944 - 1960)

51- Nedruma, Wame: Towards Colonial Freedom

52- Nkrumah, k. : Autobiography.

53- Obasanja, D. : My Command, London , 1981

54- Oloruntimehin, B. o. : The Segu Tukulor Empire, Ibadan, 1976

55- Pierre et Groysset: L' Afrique, les Africans, Paris, 1985

56- Prichard Ewans: The Sanusi of Gyrenica, Oxford , 1944

57- Report of the Conference on the Nigerian Constitution, , London, 1953

58- Ricketts, H. J. : Narrative of the Ashantee War, London, 1813

59- Sanderson, G. N. :European Imperialism and the partition of Africa, London, 1975

60- Sekou Toure : Experience et unit Africaine, Paris 1961

61- Stanley, Henri ,M. : ATravers le Continent Mysterieux, Paris, 1879

62- The Congo and the Founding of its free state. 2 vols., 1885

63- Stenger, J. : Colonialism in Africa, Vol. 1 l. London. 1969

64- Toylar . A. S. P . : Germany' First did for Colonies. (1884 - 1885), London. 1939

65- Valiere to Minister of Marine 15 March, 1872, AOM, Senegal, 1, 56. 6

66- Villard, Henry, S. : Libya, The New Arab kingdom of North Africa . 1956

67- Wallbank, W, : Contemporary Africa, Continent in Transition, New - York, 1965

68- Walter , Schwar: Nigeria, London 1968

69 - Wells , C. : Introducing Africa, New York, 1954

فهرس الموضوعات

الفصل الثانى

الفصل الثالث



دار مجدى محمود للطباعة والنشر

ت / ٨١٤١٩٤

رقم الايداع ٠٥٤٤٧ / ٩٧